# الالتزام

## بين الحقيقة والخيال

د/ محمد علي يوسف











الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٣٠٦٦

الترقيم الدولي: 978-977-6618-83-1



# الفصل الأول
# بين الحقيقة والخيال

## مقدمة

منذ فترة ليست بالطويلة كانت تلك الكلمة تتصدر المشهد.

كانت تتردد كثيرا على ألسنة من ينتسبون لها وأيضا على لسان من لا يختارون سبيلها بل ومن يناهضونها كذلك كانوا يدركون إلى حد كبير مدلولاتها ولوازمها.

كانت رغم عدم دقتها تعد جامعة لكثير مما يراد قوله عند التعبير عن نقطة تحول في مسار حياة المسلم وانتقاله من حال إلى حال أفضل (على الأقل في نظره ونظر من اختاروا نفس الخيار).

**كلمة الالتزام:**

فلان التزم !!

بجد ؟!

ما شاء الله..

عقبالنا... ربنا يهدينا جميعا.

كان هذا هو (السيناريو) المعتاد الذى كنا نسمعه منذ سنوات حينما كان أحد أصدقائنا أو زملائنا يتخذ ذلك القرار المصيري الذي يحول مسار حياته.

**قرار الالتزام.**

قبلها كانت كلمة سُنِّي وكان يطلق على المجموع سُنِّيَّة أو سنيين.

الحق إنها كانت أياما رائقة...

لم يكن الأمر معقدا كما هو الآن.

فقط التزم... هكذا ببساطة.

لا شك أن الأمور الآن لم تعد بالبساطة السابقة حين كان الأمر مفهوما وسهلا.

خلال العقد الأخير تسربت إلى هذا المفهوم كما تسربت لغيره أبعاد أخرى عقدت الأمور وغيبت المعنى الأصلي.

حمى التصنيف والامتحان على المواقف والمزايدات الدائمة وتقديم سوء الظن مع التحزب والاستقطاب الحاد على المعانى الإيمانية الواضحة التى ينبغى لكل مسلم أن يسعى للتمسك بها ابتداء قبل النظر لأي شيء = كل ذلك غيب المدلولات المعتادة لهذه الكلمة وصار البعض يحصرها في طوائف أو يقولبها في أنماط محددة وأشكال بعينها .

من قبل كانت كلمة الالتزام تعبر عن أشياء كثيرة دون كلام تفصيلى معقد وكان لها وقع على القلوب وانطباع فى العقول سواء عند من رزقه الله بها أو عند من لم يسلك (بعد) سبيلها.

عند من رُزق بها كنت تجدها كثيرا تقفز إلى شفتيه تلقائيا ودون تكلف ليعبر بها عن نقطة فاصلة فى حياته يفرق بها بين مرحلتين يسمى الأولى ما قبل الالتزام والأخرى يسميها ما بعده .

كذلك عند من لم يلتزم كنت تجد الكلمة لها انطباع واضح يشير إلى أن صديقه الذى التزم أو صديقتها الذي اتخذت ذلك القرار أو ولده الذي سلك هذا السبيل = قد صارت لديهم ثوابت وأخلاقيات وعادات مختلفة .

صارت هناك أنشطة وسلوكيات لن يشاركه فيها من لم يتخذ القرار بعد أن وُصف بهذا الوصف ورضي لنفسه هذا السمت واختار هذا الاختيار وأصبح ببساطة "ملتزما".

أعترف أن هذا الاصطلاح قد ساء استعماله أحيانا وربما أدى إلى شيء من المفاسد وكانت له بعض عيوب ظهرت بوضوح لدى من استعملوا الكلمة ليرسخوا مشاعر أعدها من أفسد ما قد يخالط قلب متدين.

مشاعر العلو أو الاستعلاء بذلك التدين وجعله وسيلة لمحاكمة الآخرين وتقييمهم.

بالتدريج يتحول تدينه أو فهمه للتدين إلى منصة قضاء وسوط جلاد وينصب نفسه حاملا لذاك السوط أو جالسا على تلك المنصة متهما من دونه فلا يرى ابتداء إلا عيوبهم ومناقصهم ولا يلحظ إلا أدلة إدانتهم وتقصيرهم وجل انشغاله يكون بمدى استحقاقهم للوسم بهذا الاصطلاح من عدمه.

هذا ملتزم وهذا منتكس .

هذا من العوام وهذا مثلنا من الخواص.

هذا أخ وهذا ليس أخًا.

وهكذا كانت تترسخ مفاهيم النقاوة والفوقية والتفريق بين الناس ويحدث تنفير بغير قصد ويزداد التلذذ بشعور الغربة التي كثيرا ما تكون غربة متكلفة يرسخها هذا النفور والعلو وترسخه في دائرة مغلقة كانت ولم تزل من أضر من يحيق بالدعوات.

ومن تلك الدائرة المغلقة ينبت الوهم .

**وهم الالتزام.**

نعم... تلك هي الحقيقة المؤسفة.

يتحول الالتزام تدريجيا لدى الكثيرين إلى مجرد قشرة زائفة وشعور وهمي بما ذكرناه من علو وتفوق دون أن يلتفت إلى عدم وجود ما يبرر كل ذلك ولا معشاره.

ينسى الكثيرون أصل الكلمة ومدلولها ولماذا أصلا أطلقوها على أنفسهم أو أطلقها عليها غيرهم.

ومن هنا تكون الخديعة الكبرى.

**خديعة النفس.**

لكن رغم هذه المفاسد كان وجود هذا الاصطلاح والمفهوم مهما وبعد غيابه أو تراجعه أرى أن تلك الأهمية قد تجلت وبينت رجحانها على المفاسد المذكورة.

تتلخص تلك الأهمية برأيي في كلمة واحدة.

**الهدف.**

على الأقل بالنسبة للشخص نفسه وليس بالنسبة للآخرين

الشخص الذي لم يقبل السقوط في الوهم وأبى أن يخدع نفسه بظاهر اللفظ وظل دوما ذاكرا مذكرا بأصل الأمر ومبتغاه.

**وهذا حقا ما يعنيني.**

ليس يعنيني أن تضع حاجزا أو تبني سورا بين فئام الخلق ويكون كل همك تسميتهم وترتيبهم على جانبي تلك الأسوار

**ما يعنيني هو أنت..**

من الضروري أن يكون لك هدف واضح وصريح يمكنك قياسه نسبيا ويمكنك التعامل مع وجوده وعدمه عندما تقرر أن تحاسب نفسك

مصطلح الالتزام كان يوفر ذلك قبل أن يتحول لدى الكثيرين لمجرد عنوان براق ووهم خادع

**كان يوفر هدفا واضحا للمسلم .**

ينبغي أن أتغير للأفضل.

ينبغي أن أتوب عن هذه الذنوب.

ينبغي أن أفيق من تلك الغفلة.

ينبغي أن أتوقف عن عاداتي السيئة.

ينبغي أن أسعى لإرضاء ربي.

ببساطة... ينبغي أن ألتزم .

سواء استُعمل اللفظ الدارج - أو الذي كان دارجا - وهو لفظ ملتزم أو استعملت الاصطلاحات الأصلية التي لها وجود متكرر في الشرع كألفاظ مستقيم أو تائب أو متسنن أو ناسك أو صالح أو مهتدي ... إلى آخر القائمة المعروفة = فإنه لا يختلف مسلمان على وجوب السعي لتلك القيم العظيمة وتلك الواجبات الشرعية من توبة وهداية واستقامة وتعظيم لشرع الله وأمره ونهيه وموالاة له ولأوليائه وبراءة من أعدائه واتباع لهدى خير خلقه ﷺ.

تلك هي ببساطة مرادفات هذا الاصطلاح الذي هو رغم عدم ظهوره بشكل واضح في نصوص شرعية تعبر عن مدلوله الذي أشرت إليه إلا أنني كنت ولازلت أرى أن استعماله أولى وأدق نظرا لما تحويه الكلمات الأخرى من تزكية إن أراد المرء أن يقيم أو يؤرخ لمراحل حياته .

هل يجرؤ أحدنا على وصف نفسه بالصلاح بهذا الإطلاق؟

هل يستطيع أحد أن يجزم بكونه مستقيما؟

هل يستطيع أحد أن يؤرخ لمراحل حياته بقبل التنسك أو بعد أن صرت صالحا؟

**مباشرة ستقفز إلى السطح أسئلة مهمة:**

وما يدريك؟

وهل اتخذت عند الله عهدا؟

أم هي الأماني وغرك بالله الغرور فزكيت نفسك على من هو أعلم بمن اتقى؟

لهذا كان استعمال لفظ الالتزام أسهل وأخف وأقل تزكية خصوصا أن معناه اللغوي يقترب من المراد تحصيله.

إن الالتزام لغة هو التعهد .

ويقال أيضا عن الاعتناق ومنه التزام النبي ﷺ لما بين باب الكعبة والحجر الأسود ودعائه في هذا الموضع لذلك سُمي هذا المكان من الكعبة ب (المُلتَزَم) نسبة لفعل النبي من اعتناق له ولصق وجهه وصدره الشريفين به أثناء دعائه.

فكأن لفظ الالتزام يلقي بظلال عن معناه المبدئي.

التعهد.

معاهدة المرء لربه على التغير للأفضل.

اعتناق سبيل مختلف في الحياة.

سبيل الاستقامة على مراد الله.

لا يحتم اللفظ أنه قد نجح في ذلك وصار مستقيما صالحا .

لكنه يشير إلى كونه يحاول.

يبذل قصارى جهده .

لأنه قد قرر وتعهد .

وتلك هي البداية.

إنه القرار .

الالتزام ببساطة هو عبارة عن قرار حاسم.

نقطة فصل.

منحنى تحول.

ينتقل الإنسان بعده إلى مرحلة جديدة مختلفة تماما.

**مرحلة التنفيذ والعمل.**

مرحلة يكون الأصل فيها عنده أن يطيع الله ورسوله فيما أمر وينتهى عما نهى.

إذا أردنا أن نعرف الالتزام ببساطة لقلنا أنه قرار التعهد بالاستجابة لأمر الله جل وعلا ثم الانقياد لذلك الأمر حيثما كان وكيفما كان.

وهذا القرار شامل لا استثناءات مسبقة تحده ولا قيد أو شرط يكبله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

الدخول فى السلم كافة هو ببساطة الدخول فى شعائر الإسلام كافة ودون تفريق.

هكذا فسر جمهور المفسرين تلك الآية الجامعة.

لا استثناء في قبول الشرع والرضا بأمر الله.

هكذا يكون الأصل لدى الملتزم في كل صغيرة وكبيرة في حياته.

الاستثناء أن يعصي أو يزل أو يضعف ويقصر.

المعصية لدى الملتزم هي الاستثناء وليست الأصل.

وحين تحدث فهي من منطلق ضعف ونسيان وليس من منطلق اجتراء وانتهاك واستهانة أو جحود.

ثم لا يلبث الملتزم بعد المعصية والتقصير أن يعود مرة أخرى.

لأنه ببساطة.... ملتزم.

لأجل إعادة هذه المفاهيم وتوضيحها نشرع بإذن الله في هذه السلسلة من المقالات التي تعد السطور السابقة على طولها = مقدمة يسيرة لها.

أحاول من خلال فصول هذا الكتاب أن أعيد صياغة هذا المصطلح ومفاهيمه الغائبة.

أن أساهم ولو بجهد المقل في استدعاء مفاهيم قاربت على الاندثار.

الاستقامة.

الصلاح.

التسنن.

التنسك.

الهداية.

التوبة.

أحاول جهدي إقامة استدعاء جديد لتلك المعاني والمفاهيم إلى واقعنا وحياتنا.

أو أختصرها بذلك المصطلح الذي أحاول من خلاله جمع كل ذلك.

مصطلح الالتزام.

الالتزام الحقيقي وليس ذلك الوهم الآخر.

وهم الالتزام.

❊ ❊ ❊

# الجزء الأول
# الماهية

## ١ـ لماذا الالتزام؟

هل فلان أخ؟

هكذا يسأل بفضول.

ثم يكرر: هل هو أخ أخ يعني؟

هكذا كان يسأل إن ذُكر أمامه شخص لا يعرفه

يقصد بسؤالاته تلك أن يتبين إن كان المذكور يشبهه أم لا.

هل هو مثله؟

هل هو كما يصنف نفسه وأشباهه... ملتزم؟

فإن كان ثمة من يعرفه من الحضور ويعرف أنه يشبههم في السمت أو يتبع نفس الفئة = تجد أساريره تتهلل ويقولها بكل انشراح وانبساط وفخر وحسم وجزم: فلان ده على فكرة أخ...

"أخ أخ" يعني مش أي أخ والسلام!

على هذا الأساس كانت تبني علاقات وتتباين معاملات ابتداء من إلقاء السلام وحتى المعاملات الاجتماعية والتجارية والأسرية.

لقد كان نمطا عنصريا بامتياز يبني تقييمه للأشخاص على مدى القرب الظاهر أو البعد من فئته وعلى درجة الشبه الخارجي به وبطائفته.

ومفهوم الأخوة والدعوة محدود جدا لدى هذا النمط الذي يضيق ما وسعه الله ويحجره.

لقد قال ربنا جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

هكذا مطلقة.

المؤمنون إخوة.

هذا هو أصل الأخوة الإيمانية القائمة على رباط العقيدة.

صحيح أن درجات المحبة والولاء قد تتفاوت وصحيح أن المرء يُحَب على قدر طاعته ويوالى بقدر تمسكه وصلاحه وصحيح أن من حقك أن تتخير صحبتك والمقربين منك.

لكن عن الأصل أتحدث.

عن أصل الولاء والمحبة والأخوة الإيمانية التي لم يشترط الله لأصلها امتحانا للناس أو تربصا بهم ولم يكلفنا توقفا فيها حتى نتأكد من درجتها ومقدارها ولا بالحكم عليها قطعيا من خلال الشكل أو الظاهر .

وكم أناس قد لا يبدو ظاهرهم ملفتا أو دالا على مخبرهم وحين تعرفهم وتتقرب إليهم تجدهم من أفاضل الخلق وأكثرهم صلاحا والله حسيبهم.

إن من يستعملون لفظ الالتزام والملتزمين لترسيخ تلك العنصرية السابقة والتي لا تؤدي إلا لمزيد من العزلة والجفاء والتنفير هم في الحقيقة أبعد ما يكونون عن فهم حقيقته ومعناه ولوازمه وهمومه ومسؤولياته.

هو بالنسبة لهم مجرد مغنم ووسيلة للعلو كما سبق.

لماذا إذاً نفرِّق اصطلاحا بين الملتزم وغير الملتزم؟

ألا يُعد ذلك تقسيما وتفريقا الأمة في غنى عنه؟

الحقيقة أن هذه أسئلة لها وجهها فعلا.

بل ينبغي الاعتراف كما سبق وفعلت وبيَّنت أن البعض قد استعمل هذا اللفظ وما كان على شاكلته كوسيلة يرسخون بها مشاعر أعتبرها من أفسد ما قد يخالط قلب متدين .

مشاعر العلو أو الاستعلاء بذلك التدين وجعله وسيلة لمحاكمة الآخرين وتقييمهم .

بالتدريج يتحول تدينه أو فهمه للتدين إلى منصة قضاء وسوط جلاد وينصب نفسه حاملا لذاك السوط أو جالسا على تلك المنصة متهما من دونه فلا يرى ابتداءً إلا عيوبهم ومناقصهم ولا يلحظ إلا أدلة إدانتهم وتقصيرهم وجل انشغاله يكون بمدى استحقاقهم للوسم بهذا الاصطلاح من عدمه.

هذا ملتزم وهذا منتكس .

هذا من العوام وهذا مثلنا من الخواص.

هذا أخ وهذا ليس أخـًا.

وهكذا تترسخ مفاهيم النقاوة والفوقية والتفريق بين الناس ويحدث تنفير بغير قصد ويزداد التلذذ بشعور الغربة التي كثيرا ما تكون غربة متكلفة يرسخها هذا النفور والعلو وترسخه في دائرة مغلقة كانت ولم تزل من أضر من يحيق بالدعوات.

لكن الحقيقة التي ينبغي توضيحها أن التقسيم كان موجودا وسيظل.

ليس لأجل محاكمة الآخرين ولمحاسبتهم .

بل لمحاسبة النفس ابتداءً وتقييم المرحلة والطريق الذي تسلكه.

وهذا هو ما يضبط المسألة بكل بساطة.

الفكرة ليست في تسمية كبرى مباينه لما سمانا به الله ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج:٧٨]

لكنها المرحلية.

هكذا ينبغي أن يُنظر إلى مفهوم الالتزام .

هو مرحلة ومنحنى ومفترق طرق يعبره المسلم في لحظة ما.

أو ينبغي له أن يفعل.

وهذه المرحلية تتضح في كثير من الأدلة في القرآن وفي سنة النبي ﷺ .

تتضح في الألفاظ التي بينت من قبل أنه المرادفات الشرعية للفظ الاصطلاحي الدارج الذي نستعمله .

لفظ الالتزام.

ألفاظ من نوعية الاستقامة الصلاح التسنن التنسك الهداية التوبة.

هذه هي المعاني المفصلة التي تجملها وتلخصها لفظة الالتزام.

خصوصا لفظ الاستقامة.

عن سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا، لا أسأل عنه أحدًا بعدك.

فقال رسول الله ﷺ: «**قل: آمنتُ بالله، ثم استقم** (وفي رواية بلفظ **فاستقم**) ».
رواه مسلم.
تأمل الترتيب.
إن ثم و(الفاء) تفيدان الترتيب بلا نزاع.
هذه هي المرحلية التي تحل إشكال التسمية.
ثمة مرحلة تسمى الاستقامة وهي تأتي بعد الإيمان .
إذاً يفهم من ذلك أن ليس كل مؤمن مستقيمًا.
ليس كل من شهد الشهادتين قد أدى المطلوب منه .
هناك مرحلة تأتي بعد ذلك .

**مرحلة الاستقامة.**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [**سورة فصلت: ٣٠**].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [**الأحقاف: ١٣، ١٤**].

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [**سورة الجن: ١٦**].

والاستقامة كما يعرِّفها ابن رجب رحمه الله: هي سلوك الطريق المستقيم، وهو الدِّين القويم من غير تعويج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها؛ الظاهرة والباطنة، وترك المنهيَّات كلها كذلك"؛ [**جامع العلوم والحكم**].

وتنوعت أقوال السلف وتعددت في مفهوم الاستقامة وجلها تصب في المعنى الذي ذكره ابن رجب رحمه الله.
إنه التمسك بالدين كله والثبات عليه.

يقول ابن القيم - رحمه الله -: « فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدِّين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء»؛

[**تهذيب مدارج السالكين**]

وما الالتزام غير ذلك؟
ما الالتزام غير الصلاح والتقوى أو محاولة تحقيقهما؟

وهل حين قسمت الجن جنسهم إلى صالحين ودون ذلك كانوا يفرِّقون أمتهم أم كانوا يقرون واقعا؟

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ [سورة الجن: ١١].

ها هي واضحة صريحة.

صالحون .

ودون ذلك.

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًاۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٨].

هذا واقع لا ينكره إلا من لا يريد رؤيته.

هناك الصالح والطالح.

والمستقيم والمنحرف.

والمهتدي والضال.

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾

[سورة الأنبياء: ١٠٥]

دائما موجودون ومذكورون.

في عشرات المواضع ورد ذكرهم في القرآن.

الصالحين.

الذين يتولاهم رب العالمين.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٦].

الذين يجتبا المرء ليكون منهم كما فعل الله بيونس عليه السلام ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة القلم : ٥٠].

والذين دعا الأنبياء أن يلحقوا بهم ويدخلوا في زمرتهم.

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [سورة يوسف: ١٠١].

هكذا دعا نبي الله يوسف عليه السلام.

وكذلك فعل سليمان عليه السلام .

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

[سورة النمل: ١٩]

بل الذين ينبغي لكل من يعقل أن يطمع في أن يكون منهم

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

[سورة المائدة: ٨٤]

هذه مواضع قليلة تبين تلك الحقيقة

حقيقة وجود مراحل ومسميات بعد الإيمان تحتاج إلى النظر إليها في نفسك لا لتستعلي وتحاسب غيرك ولكن لترتقي أنت فيها وإليها

أن تدرك ما لهذه المسميات من مقتضيات ومآلات ولوازم وأفكار واهتمامات تختلف عن مثيلاتها لدى من قرر الإعراض عن الترقي في لتلك المراحل والدرجات

تلخص ذلك كله تلك الكلمة التي تبين اتخاذ هذا القرار مبدئيا.

## قرار الالتزام

### ٢. قرار حتمي:

ولماذا عليَّ أن أتخذ القرار.

لماذا عليَّ أن ألتزم؟

أنا مسلم وخلاص فما الداعي لأي صفات إضافية؟

ما الداعي لأن أتغير أو أن أحسن من نفسي؟

ملتزم... مستقيم...صالح... متسنن... تقي... مهتدي..

ما ضرورة كل ذلك؟

لا.. لن أفعل.

لن ألتزم.. لن أستقيم... لن أتسنن أو أتنسك .

ولن أسعى لأن أكون من الصالحين.

أنا كدة كويس أوي ومائة فل وعشرة..

ما سبق يلخص ببساطة لسان حال - وأحيانا مقال - كثيرٍ منا.

(أنا كدة كويس) .

هي قطعية نُصَدِّرها في وجه الناصحين أو الراغبين في تغييرنا للأفضل.

خصوصا حين نرفض ذلك.

إنه نموذج الراضين عن أنفسهم المقتنعين تمام الاقتناع بحياتهم وبعلاقتهم بربهم وبحالهم الذي ليس في الإمكان أحسن مما هو عليه الآن.

ما الداعي إذاً للحديث عن تغيير والتزام واستقامة وصلاح؟

ما حتمية ذلك أصلا؟

من هنا يحدث الرفض.

لكن هل يحق لنا ذلك؟

هل للمرء فعلا أن يرفض الاستقامة والصلاح ويقرر أنه لن يفعل؟

لن يكون متدينا..

الحقيقة المؤسفة أن هذا النموذج هو من أصعب النماذج التي تواجه التغيير للأفضل ومن أبعدها عن الانتفاع بالنصح.

غالبا ما يكون مدخل الشيطان لهذا الصنف من الناس أنه نسبيا وإلى حد ما فعلا... (كويس)!!

أو هكذا يقنع نفسه.

هو غالبا يعيش حياة مستقرة بشكل أو بآخر (حتى لو كانت مستقرة في القاع) وهو أيضا في المجمل لا يقع في كبائر عظيمة ولا فواحش ظاهرة.

إنه يظل في حالة رتيبة يحرص شيطانه ألا تصطدم بشكل حاد وعنيف وملفت بمعصية كبرى تدفعه مباشرة للندم والتوبة.

يتبع شيطانه معه أسلوب الغفلة والتدرج البطيء حتى يظل الشعور المسيطر عليه للنهاية أنه... (كويس).

طبعا ليس شرطا أن يكون فعلا (كويس) بل كثيرا ما يتمكن الشيطان من نفوس مجرمة لا تترك شيئا من الفساد إلا اقترفته ومع ذلك تصر على كونها (كويسة) وممتازة والمهم أن القلب عامر بالإيمان حتى إن كانت كل جارحة تصرخ بخلاف ذلك.

لكن دعنا من هذه الحالة المتأخرة من خداع النفس ولنعد لأخينا (الكويس) والراضي عن نفسه الراكن إلى غفلته.

لدى هذا النوع من الناس تكمن المشكلة في ثلاث نقاط رئيسية ترتبط وتتراتب على بعضها بشكل واضح.

قصور التصور.

ثم تزكية النفس.

وأخيرا رفض التغير أو التباطؤ عنه.

أما الأمر الأول فهو الأصل والأساس.

التصور الذي يتبين في أسئلته الأولية.

لماذا عليه أن يتغير؟

ما الداعي لإضافة وصف على أصل إيمانه؟

هل الاستقامة حتمية وهل السعي للصلاح ضروري؟

إجابات تلك الأسئلة تحدد ذلك التصور وتبين ما يترتب عليه بعد ذلك.

الحقيقة = نعم..

الاستقامة حتمية.

خيار الالتزام أو أي مسمى آخر نصطلح عليه ويعبر عن الصلاح أو التقوى أو الهداية أو التمسك بالشرع أو التدين عموما = خيار ضروري وحتمي ولازم في أصله بغض النظر عن التفاصيل بعد ذلك.

ليس هاهنا ثمة ترف ولا تجوز.

لا يستوي أبدا هذا الخيار مع نقيضه.

لا أتحدث عن إكراه أو جبر لكن عن بيان حقيقة كون الخيار الآخر غير مقبول ولا متاح.

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس:٣٢].

والاستقامة حق.

والصلاح هدف.

والتقوى والهداية وحسن الصلة بالله والقرب منه = دين ينبغي للمرء أن يقصده ويطلبه .

عادة لا أحب المجازفة بمثل هذا القطع لكن في أمر تأسيسي كهذا لا مجال للمجاملات ولا لتخفيف وقع الكلمات أو محاولة تزيينها.

نعم الاستقامة حتمية والصلاح ليس على التخيير.

هذا هو التصور الذي ينبغي أن يترسخ ابتداء .

وهذا ما تتضافر النصوص الشرعية الصريحة لإثباته وترسيخه.

المرحلية التي تحدثنا عنها من قبل ليست على التخيير ولكنها على الوجوب.

الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا = لم يكن لهم أن يختاروا سبيلا مختلفا.

هل تتصور مثلا أن يُجَوِّز الشرع لهم أن يقولوا ربنا الله ثم ينحرفوا؟

ثم يضلوا ويفسدوا في الأرض مثلا؟

لا شك أن عاقلا لن يقول بهذا.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت:٦]

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ [هود:١١٢].

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [الشورى: ١٥].

هكذا قضى الله سبحانه في ألفاظ قطعية واضحة.

فاستقيموا.

فاستقم.

استقم يا محمد.

لكن ليست الاستقامة أمر لك وحدك .

بل أيضا من تاب معك مكلفون بذات التكليف.

الاستقامة.

قيل أن تلك الآية من سورة هود هي التي شيبت النبي ﷺ .

إنه التكليف الحاسم للأمة والقضاء القطعي بالاستقامة كما أمر الله ووصى ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [ الأنعام: ١٥٣].

وبمثل ذلك قضى رسول الله ﷺ في أكثر من حديث.

«قُلْ: آمَنْت بِاَللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ».

«استقيموا ولن تحصوا» .

«لا يستقيم إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيم قلبُه حتى يستقيمَ لسانُه».

في هذه الأحاديث يصرح النبي باللفظ نفسه ويقطع في أكثر من موضع بالأمر به.

إنه إذاً قضاء الله وقضاء رسوله ﷺ .

والله إذا قضى ورسوله فلا خيرة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

هذا هو ما ينبغي ببساطة أن يكون عليه التصور تجاه أمر قضاه الله ورسوله وأمرا بمقتضياته فيما لا يحصى من المواضع.

أوامر بالتقوى وليس أي تقوى بل حق التقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وأوامر شاملة جامعة بالتوبة .

﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وذكر في عشرات المواضع للصلاح والصالحين والدعاء المتكرر أن يدخل المرء فيهم ويلحق بهم ويحشر معهم.

كل ذلك وغيره مما يمكننا الإسهاب فيه أكثر لولا خشية الإطالة = يؤدي لما خلصنا إليه.

الأمر قضاء حتمي ولازم وليس للمرء الإعراض عنه أو حتى التحرج منخ.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء ٦٥].

الالتزام بمعانيه ومرادفاته ومقتضياته التي فصلناها في مقالاتنا السابقة ضمن هذه السلسلة = لابد أن ينظر إليه كل منا على أنه المآل والمصير والهدف القريب الذي نرنو إليه والذي يؤهلنا إلى الهدف النهائي والغاية العظمى.

رضاه والجنة..

نعم... الأمر بهذا الشمول والعموم ودون قرارات استثناء مسبقة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

مقتضى هذه الآية كما بيَّنت من قبل وكما هو قول جمهور المفسرين = أنها أمر للمؤمنين أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه والعمل بجميع أوامره وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك

قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد وطاوس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد في قوله : ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ﴾ يعني الإسلام.

وقال الضحاك عن ابن عباس وأبو العالية والربيع بن أنس ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ﴾ يعني الطاعة.

وقوله: ﴿كَآفَّةٗ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والربيع بن أنس السدي ومقاتل بن حيان وقتادة والضحاك جميعا وقال مجاهد أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر.

تأمل مرة أخرى.

كآفة.

بغير استثناءات مسبقة.

من قرر أنه ليس مخاطبا بكل ذلك وأن تحقيق التقوى وابتغاء الصلاح والحرص على الاستقامة والتي هي مرادفات الالتزام كما اصطلحنا = لا يلزمه وله ألا يفعله أو يحاول فعله فهو للأسف لم يدرك التصور الصحيح لتلك المرحلية التي تتبع الإيمان الأولي.

أو هو لديه مشكلة أخرى وهي كونه معترفا بلزوم كل ذلك لكنه تورط في الإشكال الثاني لدى أخينا إياه.

أخينا (الكويس) .

الإشكال الثاني ببساطة هو تزكيته لنفسه .

أمنه من سوء العاقبة.

ظنه أنه بلغ الغاية والهدف وبالتالي لا داعي للمزيد.

للأسف هذه المشكلة يقع فيها حتى بغض من ينسب نفسه للالتزام والتدين دون أن يشعر.

تلك وربي آفة عظيمة تنزه عنها من هم خير منه ومنا ومن سائر البشر .

أنبياء الله عليهم السلام.

أولئك الذين كان منهم من دعى ربه لتجنيبه عبادة الأصنام كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥].

ومنهم من دعا بالوفاة مسلما كما فعل يوسف عليه السلام ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

ومنهم من تعوذ من الحور بعد الكور والسلب بعد العطاء ودعى ربه بالثبات كنبينا محمد ﷺ الذي كان من دعائه: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**».

ما قال أحدهم يوما ما يشبه تلك العبارة التي يصدرها في وجوه الناصحين أخونا (الكويس).

للأسف الشديد، أصحاب هذه التزكية قد نسوا أو تناسوا تلك الحقيقة وظهر من خلال لسان حالهم ومقالهم أن قد تسربت إليهم دون أن يشعروا خصلة من خصال من قالوا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨].

صحيح أنهم لم يقولوها بتلك الفجاجة والاستعلاء لكنهم أكدوا معناها من خلال نفيهم المستمر لاحتياجهم التحسين ورفضهم الدائم لفكرة التغير للأفضل وقبول النصح.

يصرون ضمنيا على إضفاء العصمة والقداسة على تدينهم وكأنهم اطلعوا على ما في قلوبهم أو كأنهم اتخذوا عند الله عهدا فيه ذلكم الجزم المزعوم أنهم بمنأى عن الفتن وبمعزل عن الضلال إلى يوم الدين.

العجيب أن الصحابة أنفسهم لم يكونوا هكذا مطلقا.

كانوا يخشون على أنفسهم النفاق ولم يأمن أحدهم على نفسه لهذه الدرجة.

بل وحتى الأنبياء كانوا يحرصون على دعاء ربهم بالثبات، واجتناب عبادة الأصنام، كما أسلفت .

فمن أين يأتى أصحابنا هؤلاء بتلك الثقة العجيبة وبكل هذا الأمن والاطمئنان والجزم الراسخ أنهم (كويسين) إلى آبد الآبدين؟!

من هنا ندرك أصل تباطئهم الشديد أو عجزهم عن إصلاح أنفسهم لعدم رؤيتهم لأخطائهم ومواطن الخلل التي لديهم.

وأن تعترف أصلاً بأن لديك مشكلة فتلك هي بداية الحل.

فإن قرر المرء على طول الخط أنه (كويس) وواجه كل تنبيه لخطئه بالرفض ولم يعترف قط أو يشعر أن لديه مشكلة فأنّى له أن يتغير وكيف له أن يصلح؟

وإن اعترف دون أن يصحح تصوره عن الإصلاح ويدرك حتميته ولزومه فمرة أخرى أنّى له أن يتغير وكيف له أن يصلح؟

من رحم تلك الإشكالية يولد التراخي والتثاقل والتباطؤ ويبرز إلى السطح سؤال آخر يحول بينهم وبين المسارعة للاستقامة.

سؤال مفاده: إن كانت حقا الاستقامة حتمية والسعي إلى الصلاح لازما = ففيم العجلة؟

سوف نلتزم ونستقيم وننصلح ونتقي ونتوب لكن ليس اليوم .

ربما غدا .

أو بعد غد.

لا يهم متى.

المهم إننا سوف نفعل.

سوف..

وعن هذا السؤال وتلك ال (سوف) لنا حديث آخر ضمن العوائق التي تحول بين المرء وبين ذلك القرار الحتمي والمصيري.

قرار الاستقامة

## ٣ـ على الأعراف:

بينما يلهو الصبية على شاطيء البحر وتتعالى أصواتهم وهم يتسابقون لتحتضنهم أمواجه ويختلط رذاذه بأعينهم الضاحكة = جلس هو يرمقهم من بعيد!

عيناه طامعتان للحاق بهم ومشاركتهم لهوهم البريء .

لكن كان كلما تشجع واقترب وأخيرا مست قدماه الصغيرتان أطراف الأمواج المتكسرة وابتهج بإقباله على المتعة المنتظرة = تجددت مخاوفه ونزع قدميه بسرعة وعاد أدراجه مبتعدا عن الماء مكتفيا بالمشاهدة والتمني وكأن البحر ينتظر دخوله هو تحديدا ليبتلعه.

ظل الصبي على هذا الحال المتردد حتى انقضى اليوم دون أن يبتل في بدنه شيء إلا أطراف أصابع قدميه.

رحل متحسرا وقد منعه خوفه غير المبرر من الاستمتاع بما استمتع به رفاقه الذين أقدموا ولم يهابوا

إن علاقة «الأعرافيين» بالطاعات تشبه علاقة هذا الصبي بأمواج البحر

يخشون أن يخوضوا غمار الطاعات ويهابون الإيغال في القربات ولو برفق!

يرون الآخرين وقد حسموا أمرهم واتخذوا قرارهم فمنهم من استقام والتزم ومنهم من حاد وانتكس

وهم يعرفون هؤلاء وهؤلاء لكنهم ليسوا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء

هم فقط أعرافيون

ذلك هو اللفظ الذي اخترته لتسمية ذلك الصنف من الناس الذي ذكره الله في السورة التي تحمل اسما شبيها

**الأعراف..**

المكان الذي يفصل بين أهل الجنة وأهل النار

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [**الأعراف:٤٦**].

كانوا دائما بين بين..

يعرفون أهل الحق لكنهم مع معرفتهم لم يختاروا أن يكونوا معهم ويعرفون أيضاً أهل الباطل ويصحبونهم ويسكتون عن باطلهم لكنهم أيضا لم يختاروا الانحياز الكامل إلى صفهم.

هكذا كانوا في حيرة في الدنيا..

وهكذا تستمر الحيرة هنالك خارج الجنة..

حين يعرفون كل صنف بسيماه وعلاماته المميزة

وكما عرفوا أهل الجنة ونادوهم فإنهم كذلك يعرفون المجرمين أصحاب النار.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٧]..

إنهم يخافون هذا المكان الموحش القاسي ويدركون أنهم ليسوا بمعزل عنه بسبب تقصيرهم وبعدهم عن طاعة الله وتذبذبهم بين هؤلاء وأولئك

وإن من الناس من يعيش حياته بنفس التذبذب

نمط من الخلق لا يحدد وجهته أو يحسم أمره أو يفصل في اختياراته فيسلك سبيلا إلى نهايته

نمط يعيش على الأعراف في الدنيا بين الحق والباطل يصاحب الطرفين ويخالط الباطل وأهله فيعرفهم ويعرف أقوالهم كما تبين من الآيات دون نكير يذكر في الدنيا حيث أرجأوا ذاك النكير المفترض للآخرة حين لا ينفعهم

يظنون ألا بأس من مخالطة الباطل وأهله دون استعلان بالحق أو إنكار للمنكر ما داموا فقط لا يشاركونهم باطلهم؟!

والحقيقة المؤسفة التي لا ينتبهون إليها أن كثرة مخالطة المتطاولين على الثوابت والمنتهكين للشرائع والمقدسات = قد تؤدي بشكل تدريجي إلى هبوط معدل التعظيم في النفس وتجعل الشعور بالإنكار القلبي يخبو رويدا رويدا

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

لكن مشكلة القوم تكمن في مسألة أخرى.

تكمن في الاختيار..

في القرار الفصل الذي تحدثنا عنه مرارا ويشكل أول خطوة في طريق الاستقامة.

في الحزم والحسم..

الأعرافيون لا يعرف عنهم فجورا ظاهرا أو معاصي كبرى.

آفتهم أنهم لم يقرروا ولم يتذوقوا.

وإذا ذاقوا لم يغترفوا.

وإذا اعترفوا لم يثبتوا.

لقد تركت الآيات مصيرهم معلقا كما كان قرارهم في الدنيا معلقا.

ولقد كان وقوفهم يوم القيامة طويلا في المنتصف على الأعراف لأنهم في الدنيا كانوا في المنتصف أيضاً..

صحيح وردت بعض الآثار بأنهم سيدخلون الجنة بعد حين.

لكن السؤال هنا... متى؟!

بعد كم عام من الانتظار ؟!

وأي عذاب نفسي هذا الذي يتعرضون إليه وهم ينظرون إلى البشر من حولهم يساقون إلى الجنة وإلى النار وهم باقون منتظرون خائفون ويطمعون.

ورغم كونه عذابا نفسيا لم يرد الخبر فيما نعلم أن عذابا ماديا يصاحبه إلا أنه في النهاية أمر صعب استحقوه بتميعهم وتذبذبهم البارد وحرجهم من سلوك طريق الحق.

فما أشد خوفهم وما أعمق حزنهم حين ينظرون إليها ولم يدخلوها وهم يطمعون.

تماما كما كانوا يرقبون السبيل في الدنيا ولم يلجوه فاستحقوا ذلك المكان الموحش والشعور القاسي الذي لخصته تلك الجملة القرآنية الجامعة.

لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ..

تأمل صفتهم مرة أخرى .

وهم يطمعون.

إنها جملة يظهر منها استشرافهم الجارف للدخول، ورغبتهم العارمة في التنعم بنعيمها.

لكنه يومئذ سيكون -ولمدة لا يعلمه إلا الله- مجرد طمع لا يترجم لفعل كما لم تترجم ادعاءاتهم في الدنيا لعمل حقيقي وانحياز واضح للحق.

وحين ينقضى وقت العمل وقد زهدوا فيه من قبل فإنهم يدفعون الثمن من خلال ذلكم الشعور الموحش والرغبة الشديدة في دخول الجنة.

تلك الرغبة التي لم تكن بذات الوضوح هنا في الدنيا حين لم يقرروا ولم يحسموا خيارهم فاستحقوا مكانهم هنالك..

فوق الأعراف.

## ٤ ـ حَوَلٌ فكري:

مجموعة من معصوبي الأعين طُلب منهم وصف شيء واحد من خلال ما تلمسه أيديهم ودون النظر إليه على كل منهم أن يتوقع ماهيته.

مد الأول يده يتحسس ذلك الشيء الذي يتحرك بجواره حركة سريعة فكان ما لمسته يده يشبه حبلا مرنا فقال بثقة: هذا مخلوق أفعواني رفيع .

أظنه ثعبان أو حية.

مد الرجل الثاني يده ليصفه هو الآخر فارتطمت يده بجسم اسطواني ضخم يشبه الأعمدة غير أن ملمسه لين بعض الشيء وثمة خشونة على سطحه.

قال واصفا ما تراه يده: هذا عمود مغلف بجلد أو ما شابه.

صاح الثالث بينما يمسك بما يشبه أنبوبا لينا مجوفا به تجاعيد عميقة: هذا خرطوم ضخم.

قال الرابع بثقة وهو يتلمس هذا الجسم المصمت ذا الملمس الأملس الناعم هذه قطعة مدببة من العاج.

تطور الأمر إلى شيء من الاحتداد حين قيل لهم أنهم جميعا يصفون الشيء نفسه .

كل منهم يصر على وصفه الذي استشعره من خلال تلمسه والذي يناقض تماما أوصاف الآخرين.

كان الحل بسيطا لو قرر كل منهم أنه فقط أمسك بجزء من الحقيقة.

لو تصور كل منهم أن ما يلمسونه ليس شيئا مما وصفوه وأنه في الوقت نفسه = كل ما وصفوه.

لقد كان ما يصفونه مخلوقا معروفا يسهل تبين حقيقته من خلال جمع كل تلك الأوصاف جنبا إلى جنب وعدم افتراض تعارضها.

مخلوق له أقدام اسطوانية ضخمة وشيء يشبه الخرطوم اللين وذيل رفيع أفعواني الملمس وأنياب من العاج.

فيل.

ليس عيبا أن تعجز الحواس أحيانا عن إدراك الحقيقة كاملة.

ربما يكون لفاقد البصر عذره كما في ذلك المثال الصيني الشهير فذلك هو ما بلغته حواسه وأدركته غريزته القاصرة حين فقدت النظرة الشاملة التي قد تحيط بأبعاد الشيء وتسهل التعرف عليه .

المشكلة في تلك الثقة الزائدة وذلك التسرع الحاسم الذي يصر من لم يحط علما بالشيء أن يقصره عليه.

ليس ذنب الفيل أن الأبصار معطلة وأن النظر مفقود لكن الذنب ذنب من تناسى تلك الحقيقة وتعامل كأنه يدرك كل شيء ويحيط علما بكل شيء وأنه قد وصل إلى عمق الحقيقة لمجرد أنه أمسك بجزء منها فاختزل كل ما تبقى في ذلك الجزء الذي أمسك به.

وتلك هي مشكلة كثير من الناس .

الاختزال المتسرع.

وكما سارع هؤلاء جازمين بوصف الفيل وصفا مختزلا وتصوروا تناقض وصفهم مع الآخرين يفعل كثير من الناس نفس الشيء مع الدين .

بعض الثنائيات الدينية يستقر في أذهان كثير من الناس وجود تناقض أو تعارض بينها ويتصورون استحالة الجمع بين كل ثنائية منهم فيقررون أن ما يتصورونه هو فقط الدين.

ثنائية الظاهر والباطن مثلا.

ثنائية القول والعمل.

ثنائية العبادات من جهة والمعاملات والأخلاق من جهة أخرى.

هذا التصور الوهمي لوجود تناقض أو عدم إمكانية للجمع = يحول بين هؤلاء الواهمين وبين كثير من الخير حين يصرون على تغليب جانب واحد من جوانب الدين وإنكار أو تهوين شأن الجوانب أخرى .

هذا التصور يعد من عوائق الفهم الشمولي للدين أو كما في وسمنا يعد من عوائق الالتزام .

تأمل مثلا ذلك الإصرار على افتعال منافسة بين الأخلاق وبين العبادات.

بين القول والعمل.

بين الدعوة بالحال والدعوة بالمقال.

تشعر أحيانا أن البعض يظن كون الأمر = مسابقة أو مقام تفضيل لأحد تلك الأشياء على الآخر.

وياليت الأمر يقتصر على ذلك التفاضل أو التنافس المتكلف.

للأسف هذا لا يحدث.

الحقيقة أنهم لا يكتفون فقط بالمقارنة أو المنافسة المزعومة بل يقررون ضمنيا تصريحا وتلميحا أن السبق والأولوية والاعتبار والتقدير المطلق إنما هو للحال والأفعال بلا منازع.

دعونا من القول..

وماذا فعل القائلون والناصحون والداعون؟

لقد شبعنا كلاما ووعظا..

أفعال فلان وأخلاق علان = خير من كلام ألف داعية وخطيب...

هكذا يتوالى الازدراء والتسفيه الضمني للدعوة الكلامية في مقام المقارنة مع الدعوة السلوكية وليُعلى من قدر الأفعال على أنقاض الأقوال وكأن ثمة تعارض وتناقض لزوما.

لكن هل ثمة فعل يُقَدَّر ويُحمد من دون قول يستند إليه ويقوم عليه؟!

هذا هو السؤال التأسيسي الذي بإجابته قد نبدأ بحل تلك المعضلة الوهمية

تخيل رجلا كريم الخصال باسم الثغر جوادا منفقا يجوب الدنيا ناشرا قيم العدل والبر معليا شأن الإنسان معتنيا بفقير وناصرا لضعيف وهو إلى جوار ذلك نموذج للنجاح والترقي في مجاله وهو يستعمل ذلك النجاح في دعم كل ما سبق.

هذا بلا شك نموذج يستحق الثناء ويستأهل الاقتداء.

لكن هل يشترط الإطلاق؟

هل يشترط أن يكون هذا الشخص قد بلغ أعلى مراتب التدين بما يفعل من خير؟

ماذا لو كان هندوسيا يسجد لبقرة أو وثنيا يعبد صنما؟

هل سيظل الرأي كما هو؟

هل سيظل القدوة المطلقة والمثل الأعلى؟

أعتقد أن المجيبين بنعم من الخفة بمكان لا تجعل ثمة استحقاق لتفنيد إجابتهم.

فلنركز مع أصحاب لا.

لماذا لا؟

أليس خلوقا؟

أليس نافعا؟

أليس ناجحا؟

بلى.. هو كل ذلك .

لكنك جعلت اعتبارا لقيم أخرى فلم تطلق الاقتداء به في كل شيء.

لم تُغفل الأقوال إذاً.

لم تُستبعد العقائد.

لم يُتغاضى عن الأصول وتفاصيل التشريعات.

إنه التكامل إذاً لا التعارض.

بل لا أخشى أن أقول - جدلا- أنه لو كانت ثمة ضرورة لمفاضلة لا محالة فالأفضلية ستكون للعقيدة والأصول.

إنها الدلالة التأسيسية.

التعريف.

البيان والتبيان الذي به يتمايز الحق من الباطل.

وإلى جوار ذلك يأتي العمل ليصدق ما وقر في القلب .

لكن لحسن الحظ أن الأمر لا يحمل أصلا منافسة وإلا ما انتهينا من تلك الجدلية بسهولة.

لا بأس من التركيز على قيمة العمل وعلى أهمية الأخلاق والسلوكيات ولا مانع من بيان عظم شأن دعوة الحال والأفعال خصوصا في أزمنة غابت فيها تلك القيم أو كادت تغيب.

لا بأس أبدا من الضغط على معانٍ أخلاقية اندثرت في واقع الخلق وتراجعت في بيئة صارت فيها الغلبة للغلظة والكراهية والشحناء.

لكن بشرط....

ألا يكون ذلك التركيز مدعاة للمبالغة والغلو فيما يتم التركيز عليه لضرورة واقعية حادثة ولا أن يكون دافعا لتفريغ الدين من مضمونه العقدي والتعبدي والدعوي .

ألا نصر على منافسة غير موجودة إلا داخل عقل قاصر لا يستطيع استيعاب توازن الشرع وتضافر جوانبه وتكاملها للوصول إلى الصورة المتجانسة بين الأمرين.

بين القول والعمل .

أيضا ستجد ثنائية الظاهر والباطن والمنافسة المتوهمة بينهما بل التعارض في أذهان البعض خصوصا عند الحديث عن مصطلح الالتزام.

البعض يصر على قصر المصطلح على الأمور الظاهرية فيعبر عن الالتزام من منطلق التمسك بالهدى الظاهر خصوصا اللحية والنقاب وحسب؛ بينما تجد اختلالا واضحا فى معايير الالتزام الأخرى خصوصا عند التطرق إلى واقعه السلوكي والمعاملاتي.

على النقيض يلغى البعض تماما قيمة التمسك بالهدى الظاهر ليصير الالتزام لديهم قاصرا على القلوب ولا يظهر على واقع الشخص أبدا.

الواقع الذي ينبغي أن يشمل الظاهر والباطن بلا إفراط ولا تفريط.

وكما أن أصحاب مبدأ « ربك رب قلوب » سيبادرون بقول الرسول «**التقوى هاهنا** » وأشار لصدره.

أو قوله: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم** ».

فسيرد عليهم الآخرون بقوله ﷺ : «**إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله**» النبي ﷺ يقر هنا بأن صلاح الباطن والظاهر مترابطان لا ينبغى فصلهما وأن أحدهما نتيجة للآخر أو ملازم له

سيردون أن الالتزام صبغة كاملة كما فى قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ ﴾ [**البقرة: ١٣٨**] والصبغة لا تصبغ الداخل فقط وإنما تتغلغل لتشمل ظاهر الثوب وباطنه

أما عدم نظر الله للصور والأجسام يوم القيامة فهو من باب عدم أهمية المظهر من حيث الفخامة والجمال لكنه عاد وقال ينظر إلى أعمالكم ولا شك أن الأعمال منها الظاهر والباطن والأدلة على ذلك من القرآن والسنة لا تحصى

الأمر إذاً لا يحمل هذا التعارض الوهمي بل ينبغى أن ينظر للإسلام بشموله وأن يدخل فيه كآفة كما سبق

أما أصحاب (الحَوَل) الفكري الذين يصرون على رؤية زاوية واحدة أو جانب واحد فلهم شأن آخر

طبعا لست أعني بالحول تلك الحالة التي تصيب حدقة العين بشكل وراثي أو كسبي فتجعله ينظر أو يبدو كأنه ينظر لنقطة أخرى بخلاف ما ينبغي أن ينظر إليه فذلك لا يعيب شخص المرء أو ينقصه ولكن عن الحول في الفهم والاستيعاب أتحدث..

إنه نوع من الحول يجعل الشخص ينحرف بفهمه لمعاني الكلام ومناطاته ومآلاته إلى جهات أخرى بعيدة ومختلفة تماما عن المراد الأصلي ويفترض تلك الافتراضات الوهمية والبعيدة كل البعد عن حقيقة الدين

الأحول فكريا إذا وعظته أو ذكّرته بالله وعبادته وتقواه ستجده يسارع فورا إلى اتهامك بالدروشة ورميك بالرغبة في الهروب من أمور الواقع المضطربة والمتقلبة وكأنك بتذكيرك هذا تريد أن تترك الدنيا (تضرب تقلب) دون اعتناء ولا اهتمام ومن لم يعن بأمر المسلمين فليس منهم

وإذا فعلت العكس فتكلمت عن هموم الأمة وضرورة الصدع بكلمة الحق أو علقت على خلل ملاحظ أو رفضت خطئا حادثا تجد نظيره الأحول الآخر يقول لك بورع وخشوع: يا أخي لقد قسيّتم قلوبنا بالحديث عن الواقع وهمومه والأحداث وتسارعها أين أنتم من الدعوة والوعظ والتغيير الذي يبدأ من النفس؟!

وهكذا دواليك..

كلِّمه عن العلم وفضله وستجده يرد: وأين العمل يا أخي.. علم بلا عمل كشجر بلا ثمر...

فلتكلمه إذاً عن العمل والبذل والإيجابية والتغيير والنجاح ثم استعد لرد فعل نظيره الأحول حين يفهم الكلام على أنه احتقار للعلم وأهله والعبادة والعُبَّاد.

وكذلك دوما صاحب الحول الفكري.

لا ينفك عن النظر إلى التناقض الموجود فقط في عقله والتعلق بإلزامات لا يشترط وجودها وارتباطات غير موجودة إلا في خياله.

إن الإصرار على فرضيات وهمية بتعارض أشياء أو استحالة الجمع بين أشياء أو تخيل إلزامات وارتباطات وتلميحات ومآلات للكلام كثيرا ما يكون بسبب ذلك الحول وتلك الشخصية الحولاء التي لا تتكلف ذلك الوهم والتخيل .

هي فقط تصر على النظر من زاوية واحدة فقط.

وكثيرا ما تكون تلك الزاوية قاصرة جدا بل قد تعطي نظرة مناقضة تماما للحقيقة.

هل شاهدت من قبل دجاجة ترقص؟!

الدجاج يرقص في حالة واحدة .

عندما يُذبح..

لكن أولئك الذين لا يعلمون تلك الحقيقة وليست لهم خبرة بذبح الدجاج أو يقفون بعيدا فلا يلحظون تلك الدماء المتناثرة من عنقها الممزق فإنهم سيظنون أن الدجاجة المذبوحة.... ترقص!

ربما يضحكون من ذلك المشهد ويظنونه شيئا طريفا يستجلب البسمة إلى شفاههم متعجبين من تلك الدجاجة الراقصة.

الفارق هنا بين الانطباع الحادث والانطباع الذي كان يفترض أن يحدث ويحل محله هو تلك الصورة المشاهدة أمامهم.

الصورة التي تتحكم فيها إلى حد كبير زاوية النظر واتجاهه والمؤثرات المحيطة به.

« ما نسبة كف الإنسان إلى عرض السماوات والأرض؟

الجواب: لا شيء يُذكر

ولكن إذا أدنيت كفك من عينيك حجب عنك السماوات والأرض ؛ كذلك تشغلنا التوافه عن الحقيقة الكبرى».

بهذا المثال البديهي حاول الأديب الراحل علي الطنطاوي رحمه الله أن يقرب تلك الفكرة من الأذهان .

مجرد كف يد لا تتخطى مساحتها بضعة سنتيمترات مربعة قادرة على حجب نور الشمس وتلألؤ النجوم وزرقة السماء وصفاء القمر ليلة البدر.

فقط إن وضعت في طريق الرؤية وقطعت زاوية النظر أو ضيقتها وقللت من وضوحها.

تلك الزاوية التي من خلالها ينظر كل منا إلى الأشياء التي تحيط به ويتشكل حكمه عليها ويخرج وصفه لها فيرى هذا حقا وذاك باطلا ويحكم على هذا بأنه شريف وذاك بأنه وضيع ويرى هؤلاء ثوارا مقاومين بينما يراهم آخرون مخربين ويصف هذا بالشذوذ الفكري والانحراف العقلي بينما يراه آخرون من زاوية مختلفة مجددا عبقريا.

وهكذا تختلف الأحكام على نفس الأشياء بحسب زاوية النظر إليها والمؤثرات التي تحيط بتلك الزاوية.

وربما تكون قدرة العين على التمييز منقوصة من حيث الكفاءة أو الخبرة وبالتالي يفسد حكمها على الأشياء وتصوراتها للوقائع فتراه يحكم على (الفالصو) بأنه ذهب لمجرد قشرة ذهبية تم طلاؤه بها وهو معذور فعينه تفتقر إلى العلم والخبرة اللازمين للحكم الصحيح على ذلك المعدن أو ربما نظره أضعف من أن يلاحظ الفارق بين المزيف والحقيقي.

المشكلة فيمن لديه هذا القصور في الرؤية أو النقص في معايير التمييز أو الخلل في زاوية الإبصار ورغم ذلك يصر على المنافحة بكل قوة ليثبت أن الحكم الذي وصل إليه من خلال زاوية إبصاره المعلولة هو فقط هو الصواب والحق الكامل الواضح الذي لا لبس فيه وبالتالي لا حاجة لمزيد من الإيضاح والبيان .

ومن هنا تتضح قيمة وصف القرآن المتكرر بأنه الحل الجامع لذلك النقص في الرؤية والخلل في الإدراك.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]
﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾
[الأنعام: ١٠٤]
﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾
[النحل: ٨٩]
﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥].
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤].

إنه النور المبين الذي يظهر حقائق الأمور حين يسطع على سطحها .

وهو التبيان الذي يوضح الفوارق بين الأشياء ويبين تفاصيلها.

وهو البصائر التي بها يميز الإنسان بين الصواب والخطأ والحق والباطل والضار والنافع.

وهو الهدى الذي يدرك به المرء طريقه ويعرف وجهته ويصح حكمه وتتكشف له حقائق الحياة التي كانت غائبة عنه حين كان يصر على النظر إليها من خلال تلك الزاوية الضيقة ويظن أنها غاية الأمر ومنتهاه بينما هي في الحقيقة مجرد زاوية خاطئة نظر من خلالها فأعطته تلك التصورات القاصرة.

تصورات قد تكون غير مقصودة وقد لا تخلو أحيانا من تكلف وافتعال مقصود لأغراض في نفس أصحابه.

وسواء كان الأمر مفتعلا أو نابعا عن سوء فهم فالتعامل مع هذا الفهم يحتاج إلى بعض التنزل ومحاولة الأخذ بناظريه بهدوء ولفت انتباهه إلى تلك النقطة التي تشير إليها بسبابتك وتلك الزاوية الصحيحة للنظر وتلك الرؤية الشاملة قائلا بتبسط: انظر.

هناك.

نعم..

في هذا الاتجاه.

هذه هي النقطة التي عنها نتحدث.

ها هي هناك واضحة.

وفي النهاية هي مجرد نقطة.

نقطة واحدة وحسب.

نقطة من ضمن نقاط أخرى كثيرة ليس معنى أنها مهمة أن النقاط الأخرى ليست كذلك أو أن هناك ضرورة تلازم أو حتى تعارض.

فإما أن يستقيم البصر ويدرك المراد والمقصد وإما أن يظل الحول وانحراف النظر أو قصوره كما هو وفي تلك الحالة فعليه أن يبحث عن علاج لحول العقول .

علاج يتلخص في كلمتين.

الشمول.

والتوازن.

## ٥ ـ من أنتم؟!

العب يلا.

ولَّع يلا.

اضرب يلا.

كنت دوما أتصور أن تلك الأغنية أو المهرجان كما يحلو لهم تسميته والذي اشتهر جدا وصار مليء الأسماع والأبصار منذ فترة = هي مجرد أغنية ماجنة أخرى تدعو للعب واللهو كسائر تلك النوعية الهابطة مما ابتلينا به.

كان الأمر كذلك حتى اضطررت للتواجد في محيط يصر أصحابه على إسماع المتواجدين فيه قصرا لتلك .

المهرجانات.

عندئذ كانت المفاجأة.

محتوى المعاني كان مختلفا تماما عما تصورته من العنوان أو المقطع الذي كان يتردد صداه دوما عبر وسائل المواصلات التكاتك منها والميكروباصات.

العب يلا.

ولع يلا.

اضرب يلا.

المتوقع من مثل تلك الجمل أن تكون دعوة للعب واللهو.

لكن يتضح عند السماع أن هذه هي وسوسة الشيطان وأن المطربين – أو من يفترض أنهما كذلك – يعظان المستمع الذي انتدبه حظه ليجلس متدبرا تلك الموعظة.

وعلى أنغام المهرجانات الصارخة يشدو الواعظان – عذرا أقصد المطربان – ليحذرانك من ألاعيب الشيطان الذي يقعدك عن العمل ويؤخرك عن الصلاة ويمنعك عن التوبة والإقلاع عن المخدرات.

رسالة سامية هي بلا شك.

لكن سترقص عليها.

هكذا يعدانك في مطلع المهرجان.

(بخلاف إنك سترقص على الأغنية لكن حبينا نوصل لك رسالتنا) .

هكذا قال أحدهما في مقدمة المهرجان الصارخ .

ثمة رسالة إذاً.

ارقص وامرح ولتتعظ بالمعاني السامية في الوقت نفسه.

لكن أليس هذا تناقضا؟

أليس الرقص يعد مجونا أو نزقا يخالف معنى الرسالة؟

هذا ما كنت أتصوره.

لكن يبدو أننا في زمان لم يعد فيه ذلك تناقضا.

أو أنني لم أعد أفهم.

أعترف أنني مؤخرا صرت لا أستوعب كثيرا من الأنماط التي تحيط بنا.

رغم اعتنائي واهتمامي القديم بالأنماط البشرية وتباينها للدرجة التي جعلتني أصنف منذ أعوام كتابا كاملا يحمل الاسم نفسه – أنماط – إلا أنني أشعر مؤخرا أن الأمور ليست على ما يرام وأن وتيرتها قد تجاوزتني .

ثمة شخصيات وأنواع من البشر لم أعد أستطيع فهمها أو إدراك حقيقة المزيج المعقد الذي صارت إليه.

مزيج عجيب غريب.

ومريب.

فعلا مريب.

ذلك الاختلاط المربك بين معاني الدين وشعائره وسمته وبين ضد ذلك كله

أعلم أن طبيعة النفس البشرية التي أُلهمت فجورها وتقواها وهُديت النجدين = تحتمل وجود تلك المتناقضات.

وأدرك أيضا أن الإنسان كان ولم يزل وسيظل يخطيء ويصيب، ويزل ويثبت، ويضعف ويصمد وكل ذلك يجتمع فيه جنبا إلى جنب ويتبادل الظهور في واقعه كل حين.

لكن دوما كانت هنالك غلبة لجانب على الآخر.

دوما كان يغلب على الشخص أو على الأقل يغلب على ظاهره سمت يرجح إحدى الكفتين الخير أو الشر.

الجديد عليَّ والمربك بالنسبة لي أن ذلك صار يحدث في الآن نفسه!

تلك المنتقبة التي رأيتها منذ أيام بينما أقود سيارتي لأفاجأ بها تخرج من نافذة سيارة مجاورة وتتراقص بجنون على الموسيقى الصارخة التي تعليها تلك السيارة المسرعة ضمن سيارات أخرى تزوف عروسين على ما يبدو.

كدت أصطدم بتلك السيارة لشدة ذهولي من تناقض المشهد.

وذلك الشاب الذي تبدو عليه أمارات الصلاح وتزين وجهه لحية كثة ليست كتلك التي تعتبر صيحة أناقة معاصرة.

هي لحية سنية مألوفة تتكامل مع أثر السجود لكن ما بين إصبعيه لم يكن سواكا هذه المرة.

إنها لفافة تبغ تتناسب جدا مع نغمة هاتفه الراقصة.

لا أدري .

ربما أكون عتيق الطراز رجعي النظرات ولكن صدقا هذه النماذج ليست مألوفة.

وليست مفهومة على الأقل بالنسبة لي.

نموذج الشخص المتدين ذي السمت الطيب والمتمسك بالهدي الظاهر وهو في الوقت نفسه يجهر بأمور يعلم جيدا أنها لا تناسب سمته.

أمور كان يعدها يوما معاصي.

ارجع مرة أخرى للفعل الذي استعملته لتدرك مقصدي .

« يجهر ».

هذا هو الجديد عليّ.

كلنا يعصي.

وكلنا ذوو خطأ.

لكن الجهر والاستعلان والفجاجة بل وإن شئت فقل الوقاحة = فهذا هو الجديد الذي لا يمكنني إلفه ولا أظن أنني سأفعل.

إن المجاهرة بالذنب والتبجح بالخطأ يخشى أن يكون تصريحا وعلامة على استحلال المخطيء للخطأ والتمادي فيه لدرجة التفاخر به .

المجاهر بالذنب لا يكتفي بذنبه القاصر على نفسه بل يجعله متعديا يفتن به غيره ويهون خطورته ويقلل من أثره بين الناس .

لعل ذلك هو سبب تلك القاعدة النبوية المحكمة الحاسمة: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين**» رواه البخاري.

ذلك لأنهم لا يجدون غضاضة من استعلانهم بالخطأ أو المعصية ويكون في ذلك نوع من الترويج له واستحسانه في قلوب المستمعين خاصة إذا كان المجاهر المستعلن في مقام القدوة لدى البعض.

لذا ضرب النبي مثلا في باقي الحديث لهذه الأصناف فقال ﷺ: « **وإنَّ منَ المُجاهرةِ أن يعمَلَ الرَّجلُ باللَّيلِ عملًا ، ثُمَّ يصبِحَ وقد ستَرَه اللهُ فيقولَ: يا فلانُ ، عمِلتُ البارحةَ كذا وَكذا ، وقد باتَ يستُرُه ربُّهُ ، ويصبِحُ يَكشِفُ سترَ اللهِ عنهُ**».

ومما حفظ الناس من كلام النبوة الأولى: إن لم تستح فاصنع ما شئت.

الشريعة حضت دوما على الحياء والستر وهؤلاء المجاهرون يأبون ذلك ويصرون على المباهاة بخطاياهم بدلا من أن يستتروا بها فجمعوا مع خطئهم إصرارا واستكبارا وإفسادا لغيرهم وصار رجوعهم عن تلك الأخطاء أصعب وأشق.

خصوصا أن تدينهم الظاهر يعد شرعنة لتلك الأخطاء للأسف.

والأشد خطورة أن بعضهم يتبجح بتلك الشرعنة ويصرح بها.

المتدين شخص غير معصوم وكما سبق وأشرت أنه سيخطيء لا محالة.

لكن هل نزل دين جديد أو تجدد هبوط الوحي من السماء كي يشرعن الخطأ ويسوغ الباطل وتخرج تلك النسخة المعدلة التي لم نسمع عنها إلا هذه الأيام؟

نسخة منتجها النهائي = شخص متسنن سمتا بينما خطاياه طافحة وزالاته ظاهرة صارخة

شخص لا يأبه بطلب الستر ولا يشغله استحياء من صالحي قومه كما أوصى نبيه ﷺ.

أناس يبدو عليهم التدين ويظهر عليهم التنسك وتستشف فيهم الاستقامة ثم لا تلبث إلا وتفاجأ بطامات أخلاقية .

بل وعقدية.

والجديد والمريك مرة أخرى أنها كما أشرت ليست خفية.

والأدهى والأَمَرُّ أنها غير قابلة للتأول.

هم يعرفون ويقرون أنها طامات وكوارث لكنهم إما يجادلون عنها أو يبررونها.

منذ زمن ليس بالبعيد كانت نوعية الزلات والأخطاء بل والخطايا مختلفة.

كانت موجودة بلا شك.

لكنها كانت ضعيفة منكسرة وإن كبرت وفحشت.

كانت تصر على التخفي ولا تجرؤ على التبجح .

وكان صاحبها إن كشف ستر الله عنه لا يكابر ولا يبرر ولا يماري أو ينافح عنها طالما ظل مصرا على التمسك بكونه طالب هداية وراجي استقامة .

فإن قرر التمادي واختار التبجح بالفجور كان لديه من الاتساق النفسي ما يؤهله للاعتراف بحقيقة ما حدث له .

من هذا المنطلق كان يستطيع أن يرجع ويصلح لأنه ببساطة يدرك أنه قد فسد وأفسد.

والاعتراف بوجود مشكلة هو بداية طريق حلها.

أما أن تكون مسخا.

أن تكون مزيجا متداخلا لا لون له ولا هوية.

أن تخدر صوت الحقيقة في نفسك بمسكنات السخط على واقع المتدينين أو الإحباط من مواقف بعضهم أو حتى كثير منهم وتعليل خلطك العجيب بصدمتك فيهم وجعل سخطك عليهم أو إحباطك منهم مبررا لتدمير كل الثوابت التي كنت ولا زلت في قرارة نفسك تعرفها = فعذرا هذا لن يغير من حقيقة الخليط العجيب الذي صرت إليه.

خليط مربك مريب يلقي في الروع نفس الحيرة التي تطرأ عليه حين الموعظة الدينية الصريحة على أنغام مهرجان راقص.

لقد صار الأمر معقدا وأصبح من الضروري أن تلحق كلمة ملتزم عند وصف الكثيرين بكلمة أخرى من ثلاثة أحرف.

كلمة «لكن».

صار لدينا ملتزم لكن مغتاب أكال للحوم إخوانه قتات يمشي بالنميمة بين الناس ويغرس البغضاء والعداوة بين المتآخين.

وأضحى لدينا ملتزم لكن بذيء فاحش اللسان إباحي التلميحات دنيء التصريحات ماجن الألفاظ والمصطلحات.

وأصبح عندنا ملتزم لكن كذاب وملتزم لكن خائن وملتزم لكن خسيس يقطر حاله بالنذالة وملتزم لكن شحيح على الخير وملتزم لكن كاره حاقد قاس القلب نسي معنى الأخوة وملتزم ولكن ولكن ولكن ولكن....

أشعر بعد ما سطرته بجوار كلمة «لكن» أنني قد أخطأت في اختيار الكلمة التي بجوارها من الناحية الأخرى.

أشعر أنني أشاركه الجريمة حين أسميه ملتزما حتى لو شفعت ذلك بكلمة «لكن».

حين أسترجع ذكريات ووقع تلك الكلمة وسمت وحال من انتسبوا يوما إليها ووصفوا بها ثم أضعه بجوار تلك الكلمات التي تلي «لكن» أشعر أنه قد حان الوقت لكي يصاغ مصطلح جديد ومختلف يعبر به عن تلك الصور المشوهة ويتصف بها أصحاب تلك المزاوجة الممسوخة التي تكاد تطمس المعنى الجميل لذلك الوصف وتشوه تلك الصورة.

كتبت من قبل ان الالتزام لا يعني العصمة ولا يرادف التنزه الكامل عن الخطأ .

لكن ليس لهذه الدرجة وليس بهذا الإصرار والمجاهرة.

ولو حدث ووقع الملتزم في بعض ما قلته مما سبق فإن بقاء الوصف يستلزم المسارعة إلى ترك التلبس بتلك المصائب.

أما أن يستمرىء الملتزم الخطأ وأن يطبع حياته مع المعاصي وأن يتعايش مع الذنوب ويألفها بل يشرعنها ويجهر بها فكيف يظل الوصف؟

لا أجد تشبيها لذلك الخليط المريب أقرب من هذه الموعظة المتناقضة التي بدأت بالكلام عنه.

موعظة على أنغام راقصة.

موعظة ورسالة مختصرة شعارها وشعار المرحلة = إلعب يالا.

❊ ❊ ❊

# الجزء الثاني: الخصائص

## ١ـ إن كان رضيه لكم..

- زوجني ابنتك

بهذه العبارة استفتح رسول الله ﷺ كلامه مع هذا الرجل من الأنصار .

تهلل الرجل واستبشر وأجاب بدون تردد.

نِعِمَّ وَكَرَامَةٌ يَا رسول الله، وَنُعْمَ عَيْنِى.

استطرد رسول الله ﷺ مبينا وموضحا: إِنِّى لسْتُ أُريدها لنفسي.

هنا سأل الرجل: فَلِمَنْ يا رسول الله؟

أجاب رسول ﷺ: لِجُلَيْبِيبٍ.

عندها تردد الرجل.

جليبيب .

هذا الفقير الدميم.

صحيح هو رجل طيب المعشر حسن الخلق قريب لقلب رسول الله ﷺ وهو القائل عنه يوما: ولكنك عند الله لست بكاسد.

لكنه ليس الزوج الذي كان يتمناه لابنته.

- يا رسول الله أشاور أمها.

هكذا كانت الإجابة المبدئية التي أرجأ من خلالها قراره .

رسول الله ﷺ يخطب ابنتك.

طبعا كانت إجابة المرأة حين سمعت البشرى كإجابته الأولى: نعم، ونعمة عيني.

استدرك الأنصاري بسرعة: إنه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجليبيب.

- أَجُلَيْبِيبٌ ابْنَهْ؟!

أَجُلَيْبِيبٌ ابْنَهْ؟!

لاَ لَعَمْرُ اللهِ لاَ تُزَوَّجُهُ.

هكذا كان رفض المرأة قطعيا سريعا.

وكاد الرجل أن يستجيب لقولها الذي على ما يبدو صادف ميلا في نفسه.

فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ ليخبره بما قالت الأم؛ استوقفته ابنته وكانت على ما يظهر قد استمعت لما يجري أو علمت نبذة منه.

- من خطبني إليكم؟

سألت الفتاة ذلك السؤال المحوري الفارق.

من صاحب المطلب؟

من الذي ارتضاه؟

من الذي زكاه وقربه لدرجة أن يخطب له بنفسه؟

- أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟

هكذا ألقت بسؤالها الحاسم الذي لا يملك مؤمن إلا إجابة واحدة صحيحة عند سماعه.

ولقد قالتها وقررتها مباشرة بعد السؤال.

ادفعوني إليه فإنه لن يضيعني.

إن كان رسول الله قد رضيه لكم فارضوه.

ثم رتلت بخشوع ما تحفظ من قول ربها: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾

[الأحزاب: ٣٦]

لقد قبلت الفتاة بالزواج من جليبيب ـ رضي الله عنه ـ رغم فقره ودمامة خلقته، طاعة لرسول الله ﷺ.

ولم يكن من الوالدين حين ذكرتهما بهذا الأصل الإيماني إلا أن يتراجعا عن رفضهما .

ويستجيبا.

ولقد فعلا..

« **اللَّهُمَّ صُبَّ عَلَيْهَا الْخَيْرَ صَبًّا، وَلَا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا كَدًّا** » .

كان هذا دعاء النبي ﷺ لها حين علم بمقالها وقرارها.

تزوجت الفتاة جليبيبا ولم يطل زواجهما إذ أدركته الشهادة سريعا وشرفه النبي بشهادة قل من قيلت في حقه.

هَذَا مِنّي وَأَنَا مِنْهُ.

هَذَا مِنّي وَأَنَا مِنْهُ.

هَذَا مِنّي وَأَنَا مِنْهُ .

حمله رسول الله ﷺ بنفسه ما له سرير إلا ساعدي رسول الله ثم وضعه في قبره بأبي هو وأمي .

أما المرأة الصالحة فأدركتها بركة دعوة النبي ﷺ فما كان في الأنصار أيِّم أنفق منها حتى أن الصحابي الجليل أنس بن مالك ـ رضي الله عنه قال في حقها: « فما رأَيْتُ بالمدينةِ ثيِّبًا أنفَقَ منها (أي كثيرة النفقة والخير والأموال ) وما كادت تنتهي عِدَّتها حتَّى تسابق إليها الرجال يخطبونها ».

موقف تلك الفتاة الصالحة دوما كان يبهرني في تلك القصة التي رواها الإمام أحمد وغيره .

إنها نموذج مثالي لخصيصة من أهم الخصائص التي تستطيع أن تفرق بها بين صالح وطالح .

إن لم تكن هي الأهم على الإطلاق .

لأجل ذلك أبدأ بها هذا الجزء الذي أتحدث فيه عن خصائص الالتزام الحق

إن أولى تلك الخصائص والتي كما أسلفت تفرق بين صالح وطالح وبين مستقيم ومنحرف .

بل وبين مؤمن صحيح الإيمان ومن تشوب إيمانه الشوائب وتدنسه الأهواء = تلك الخصيصة التي تلخصها كلمة واحدة.

**القبول.**

تلك الخصيصة التي يقابلها على الجانب الآخر خصائص مضادة.

الحرج من اختيار الشرع.

الضيق والعنت الذي يجده البعض عند مخالفة الشرع لأهوائهم.

الرفض لحكم من أحكام الإسلام رغم إدراك ثبوته.

جحود فكرة الاتباع وطاعة أمر الدين أو بعضه.

تصور إمكانية استبدال المحكم الثابت من الشرع بغيره مما يرضي الأهواء وأهلها.

كل ما سبق أو بعضه = أعراض لخلل عميق من أخطر ما يمكن أن يجده المرء في قلبه.

أن يدرك أو يوقن بدليل واضح وقاطع أن هذا الأمر دين أو شرع قُضي بحكمه لكنه لا يجد في قلبه قبولا له أو أن يضيق ذرعا بذلك الوجود ويتحرج من كونه من الدين أصلا.

لا أتحدث هنا عن ضعف يوهن الانقياد أو غفلة تقلل الطاعة أو نسيان يعكر صفو الاتباع فهذا طبع البشر.

الضعف والزلل والنسيان وقلة العزم.

لكن عن الأصل أتحدث...

عن القبول والتسليم وإن لم أستطع التنفيذ.

هذا القبول إن لم يوجد مع وجود القناعة بثبوت الأمر = كارثة إيمانية.

نعم... الأمر متصل مباشرة بالإيمان

في تلك الآية التي ذكرتها الفتاة المؤمنة

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [سورة الأحزاب: ٣٦].

وكذلك في غيرها كثير.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء: ٦٥].

﴿كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

[سورة الأعراف: ٢]

تأمل المشترك بين الآيات الثلاثة التي تتحدث عن قبول الشرع وقضاء الله ورسوله دون رفض أو حرج.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إنه لفظ الإيمان بمشتقاته.

القضية هاهنا إذاً إيمان وشرط من شروطه.

لكن ما الصلة؟

ما علاقة الإيمان بالقبول؟

الحق أن العلاقة وطيدة للغاية.

علاقة تصديق بربوبية المولى جل وعلا وتسليم بألوهيته وأحقيته وحده بالتشريع والأمر والنهي كما هو وحده من خلق وبرأ وصور وفطر.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

إنها علاقة ثقة ويقين أنه يعلم من خلق وأنه وحده الخبير بما يصلحهم بإطلاق .

المؤمن يصدق بذلك ويوقن به.

لذلك فهو يقبل شرعه ولا يعتري قلبه الحرج أبدا من شيء قضاه الله وذلك ببساطة لأنه هو سبحانه من قضاه وحكم به.

وهو الأحق .

وهو الأعلم.

وهو الأرحم.

أفينازعه العبد في علمه ليتحرج وليكون له قول بعد قوله؟

أم ينازعه في حقه ومقتضى استحقاقه الحصري للعبادة والطاعة المطلقة؟

أم هو يشكك في رحمته ومودته وإرادته الخير بعباده في دنياهم ودينهم وفي أخراهم ومعادهم؟

هذه للأسف مقتضيات الحرج من الشرع بعد ثبوته ووصول العلم به.

وتلك هي الصلة بالإيمان الذي يخالف معناه كل تلك المقتضيات تمام المخالفة.

مؤمن = مصدق بأحقية المولى في التشريع وكماله ونفعه.

وتصديقه يقتضي القبول التام غير المشتمل على أي استثناء أو قيد أو شرط

هذه من أخص خصائص من يستحق أن يطلق عليه لفظ الصلاح أو الاستقامة أو ما رجنا على تسميته بالالتزام.

القبول المنافي للرفض والتمرد والحرج.

ثم يأتي الانقياد والأمتثال والطاعة والعمل بعد ذلك.

لكن البداية تكون بوجود ذلك القبول قابعا هنالك بين جنبات الصرح الحاكم على الجوارح كلها.

القلب.

## ٢ـ فيما شردت؟!

ذلك الشيء الذي يسارع إليه ذهنك حين تخلو بنفسك أو تخلد إلى فراشك الشيء الذي يشغلك حين تجول بخاطرك بعيدا عن الخلق وضجة الحياة.

ما يسميه الناس بالشرود أو بالعامية (السرحان) .

في تلك اللحظات سل نفسك فيم تفكر؟

بماذا تفرح؟

على ماذا تندم؟

يتقلب الواحد منا في فراشه لساعات وقد يجافيه النوم تماما إن كان مقبلا في صباح اليوم التالي على امتحان أو مقابلة عمل مصيرية.

يفقد عزيزا أو يفتقد مفارقا أو مسافرا فتجد ذهنه يرحل إليه كلما سنحت فرصة.

يحب ويهيم عشقا فيمازحه من حوله ساخرين من شرود ذهنه وسائلين إياه عمن أخذ عقله ليهنأ به.

ينشغل بمشاكل مادية أو بديون تثقل كاهله أو بأزمة عائلية فتجده يشرد بذهنه أيضا وتبدو عليه آثار العنت حتى يسأله من حوله مشفقين: مالك تحمل همَّ الدنيا على كتفيك؟

نعم... هذا هو اللفظ الصحيح للتعبير عن كل ذلك.

الهمّ.

ذلك الذي يحمله الإنسان في صدره ويشفق منه.

ينشغل به.

يفكر فيه.

ثم يتحرك بتأثير مباشر منه.

حين يتعاظم هذا الهم فإنه يكاد يسيطر على واقع الإنسان بشكل شبه كامل.

لفظ مهم يغفل عنه الكثيرون في حديث الرجل الذي كرر النبي ﷺ أنه من أهل الجنة واتبعه سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص ليعلم بماذا نال هذه المنزلة وتلك البشرى .

الرجل إذ أوى إلى فراشه وغط في نومه كان كلَّما تعارَّ وتقلب في مضجعه = **سبَّح، وكبَّر، وهلَّل، وحَمِد اللهَ،**

وفي رواية أن الرجل انتبه في جوف الليل، فقال: **لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، آمنتُ بالله العظيم** - ثلاثًا - **لا حول ولا قوة إلا بالله** - ثلاثًا - ثم نام حتى سمع غَطيطَه،

ثم انتبه انتباهةً أخرى، فقال مثلها، ثم نام، فانتبَه وقد جاء الصبح، فقال: يا ابن أخي، قُمْ فتوضَّأ؛ حتى نصلِّيَ ركعتي الفجر، ثم ندركَ الصلاة مع رسول الله ﷺ.

ثلاثَ ليالٍ لا يَزيد الرجل على هذا.

في الحديث خلاف بين أهل العلم منهم من صححه ومنهم من أعله؛ لكنه بلا شك يحوي نموذجا لتلك الحالة التي نتحدث عنه.

هم وإشفاق وانشغال يحويه الصدر ويؤثر على الإنسان في شتى مواضعه خصوصا تلك التي تخلو من تكلف كمثل التقلب في فراشه.

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

[ السجدة: ١٦]

تأمل وصف قيامهم لصلاة الليل والذي تشعر من خلاله أنه غير متكلف إذ الجنوب لا تطيق دفء المضجع الوثير نظرا لذلك الهم الذي لخص في كلمتين.

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾.

هذا الهم أقامهم وحركم ودفعهم للإنفاق بعد ذلك.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ تحدث عن رجلين يعجب منهما الله.

أحدهما؛ رجل ثار من وطائه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي" رواه أبو داود.

تأمل العلة من جديد.

رغبة وشفقة.

هذا هو ما يملأ النفس ويحركها ويدفعها للعمل.
ويظهر ذلك لا محالة عبر انشغالها وما يلفت انتباهها.
إنه الهم..
الفكرة المركزية التي تدور حولها سائر المفاهيم الأخرى.
مركزية الدين في حياتك...

ذلك المفهوم والتصور الذي يعد في رأيي حلا جامعا لكثير من إشكاليات التدين والاستقامة.

أن يكون الدين هو المركز الذي تنبعث منه تصوراتك، والأصل الذي تُبنى عليه أقوالك وأفعالك، والنواة التي تدور حولها سائر خياراتك وتنبثق منها أهم قراراتك .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

من خلال هذه الآية الجامعة تنبعث تلك المركزية المفترضة والأصل الجامع .

إنما العبادة بمفهومها الشامل والذي لا يقتصر على الشعائر وإنما يمتد ليشمل سائر الأقوال والأفعال والأخلاق والمعاملات والسلوكيات .

والهموم أيضا.

حين أخبر النبي ﷺ أصحابه عن مدة مكث المسيح الدجال في الأرض وأيامه الأربعين والتي منها يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم.

= عندها توقف الصحابة عند أمر عجيب ربما لا يكون هو أول ما يتبادر إليه الذهن عندما يروى أمر خارق للطبيعة ومخالف لنواميس الكون المعتادة.

**يوم كسنة!**

الذي يتبادر للذهن قد يكون سؤالا عن الكيفية أو الحكمة أو تفاصيل هذا اليوم الطويل وهل يكون ليلا كله أم نهارا كله وهل هذه ظاهرة قد تتكرر أم لها ارتباط بالخوارق المعاصرة للدجال إلى آخر قائمة الأسئلة التي قد يبدو كثير منها منطقيا وبديهيا.

لكن الصحابة سألوا عن شيء مختلف تماما.

سألوا عما يشغلهم..
عن الهم المركزي الذي كان يملأ صدورهم.
عن الشيء الذي يشكل المساحة العظمى من تفكيرهم.
يا رسول الله فذاك اليوم الذي كسَنَة أتكفينا فيه صلاة يوم؟
أجابهم النبي ﷺ: لا، اقدروا له قدره.
هكذا كان السؤال واضحا .
عن الصلاة.
عن الطاعة.
عن الوسيلة لنيل مرضاة الله.

كان هذا هو الهم المركزي الذي شغل قلوبهم وعقولهم وعنه تفرعت جل أقوالهم وأعمالهم .

ستكون هناك استثناءات وغفلات بلا شك؛ لكن حين يظل المقصد واضحا والمركزية موجودة بداخل التصوره والهمِّ والمراد = ستكون العودة سهلة ومتوقعة بإذن الله.

وهذه خصيصة مهمة تستطيع أن تدرك بها عمق الالتزام والاستقامة والصلاح في نفسك بينما أنت تحاسبها.

همُّك.
انشغالك.
إشفاقك.
أولولياتك.
أين إرضاء الله في ترتيب ذلك كله؟
ها هنا كان الهم الأول لدى الصحابة.
همُّ إرضاء الله وطاعته.
لكن الأهم كان في أن لديهم هماً .
فماذا عني، وعنك؟!

## ٣. لترضى:

ذلك الهمّ والإشفاق والأولويات التي ذكرناها في الفصل السابق والتي كان في صدارتها هم إرضاء الله = كان هو نفسه ما خالط قلوب أصحاب الكهف بينما هم يعاينون أول المشاعر الإنسانية بعد تلك النومة الطويلة؛ شعور الحاجة إلى الطعام.

إنهم بشر.

وإن المعجزة قد تمت وعادت خصائصهم البشرية للعمل من جديد.

لكن هذه الغرائز الطبيعية لم تكن أبدا بمعزل عما لأجله ضحوا بكل شيء.

لم تكن بمعزل عن دينهم.

لذلك ظل هم صحة الدين وصواب الاختيار وعدم التفريط في مرضاة الله هو المطلب الأول.

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾

[الكهف: ١٩]

إنهم يصرون رغم حاجتهم إلى الطعام على أن يكون هذا الطعام هو الأزكى

الأطهر.

الأحلّ.

رغم أنهم كما رُوي كانوا من أبناء الأمراء والوزراء وعلية القوم إلا إنهم حين ابتغوا طعاما لم يقولوا ائتنا بالأفخم أو الألذ طعما أو الأغلى ثمنا.

بل طلبوا الأزكى .

قال ابن عباس: أزكى أي أحل ذبيحة؛ لأن أهل بلدهم كانوا يذبحون على اسم الصنم، وكان فيهم قوم يخفون إيمانهم.

لم تحملهم غرائزهم أو يدفعهم جوعهم أو تضطرهم شهوتهم إلى نسيان حقيقتهم.

إنهم فتية آمنوا بربهم.

إنهم قوم أصحاب عقيدة ودين .

قوم يتحرون الحلال في كل شيء ويقصدون إلى الأطهر من كل شيء ويعمدون إلى الأزكى بين كل شيء.

قوم يحركهم الدين ويضبط حركتهم الشرع.

وحتى في أحلك المواقف وأصعب الأحوال يظل المقام محفوظا.

مقام لا يتقدم عليه شيء ولا يعلو فوقه شيء.

مقام إرضاء الله.

وهذا هو الهم الأول الذي ينبغي أن يتلمسه المسلم في صدره ليدرك حقيقة استقامته والتزامه.

أن تكون الغاية العظمى أن يرضا.

وأن يكون المقصد الأول تحقيق مراده.

﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [ طه: ٨٤].

هكذا أعلنها نبي الله موسى عليه السلام.

لترضى .

ذلكم المقصد وتلكم الغاية.

نفس المقصد هو ما زُكي به أصحاب محمد ﷺ ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ... ﴾ [الفتح: ٢٩].

القضية إذا قضية استرضاء .

وهذا من أخص خصائص الالتزام.

أن يكون الهم والغاية والمقصد = استرضاءه جل وعلا.

العبادة ما هى إلا استرضاء لله جل وعلا وعمل بما يحب وليست بتقديم ما تحب نفسي على ما يحب ربي ، حتى لو كان ما أحبه عبادة أيضا.

إنما يعبد الله بالذى يرتضيه فى الحال الذى يكون عليه الإنسان ، والمقام الذى أقيم فيه

لذا على من يطلب الاستقامة ويريد الالتزام أن يسأل نفسه ويجيب بصدق: أين أنا من ذلك الاسترضاء؟

أين هو في همومي وترتيب أولوياتي؟

هل أتحرك في هذه الدنيا لأرضي نفسي وحسب أم ليرضى هو فأرضى أنا بالتبعية؟

حتى في العبادات المختلفة على المرء أن يتلمس هذا الهم وهذا المقصد.

هل أتهجد فقط لأتلذذ وأستمتع أم أقنت من الليل ساجدا وقائما حذرا من عذابه وراجيا رحمته؟

إن التلذذ والاستمتاع بالعبادة والبكاء من خشية الله ومشاعر السمو وأحاسيس العلو فى سماوات التذلل والتقلب فى درجات الخشوع والإخبات والإنابة = هى بلا شك من فتوحات العبودية وبركات القنوت وفيوضات الركوع والسجود.

لكن النية الأعظم والمقصد الأسمى للعبادة والعمل الصالح هو ببساطة = إرضاؤه .

إرضاء الله عز وجل.

أن يرضى الله وأن يغفر ويرحم فهذا هو الفوز سواء جاء الاستمتاع وحضرت اللذة أو تأخرت.

والأجر بالمناسبة غير مرتهن بالأحاسيس والمشاعر وحسب.

النبي ﷺ قال أن أجر ليلة القدر مثلا مرتبط بالإيمان والاحتساب وليس بالشعور والبكاء .

من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه .

هكذا الشرط وجوابه.

قام.

عمل .

واحتسب.

وصبر حتى وإن لم يتلذذ أو تعجل له المشاعر المريحة المرضية.

وهذا معيار التزام حقيقي وظهور لأثر الهم الصادق فعلا.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ

وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥]

تأمل قوله تعالى : ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ .

إذاً فالعبرة ليست فقط فى صلاح العمل ، ولا فى رضاك أنت .

بل فى رضاه هو .

المهم أن يرضى .

حتى لو لم تستمتع في كل لحظة أو تجد لذة عاجلة.

بل حتى لو لم تجد قلبك .

الرجل الذى كان يحمل أمه قديما ، ويطوف بها ، ربما لم يكن مستمتعا بهذا الجهد المضنى ، لكنه فعله لأنه الأرضى لله جل وعلا .

أويس القرنى رحمه الله ، مثال واضح لتفضيل رضا الله على ميل النفس .

وأويس هذا تابعي ورد في شأنه حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه يقول فيه النبي: «**إن خيرَ التابعين رجلٌ يقالُ له أويسٌ وله والدةٌ وكان به بياضٌ فمروه فليستغفرْ لكم** ».

وقصة الرجل باختصار كما رواها الإمام ابن حجر فى كتابه الإصابة أن أويس هذا أسلم وعاصر النبى ﷺ وكان يستطيع اللحاق بالحبيب والتنعم بصحبته ولا شك أن هذا أمتع للمحب من المكث بجوار أمه .

لكن المعيار لديه كان رضا الله والتقديم كان لمراد مولاه والتفضيل كان للأحب لسيده والأجلب لرضاه وقد كان هاهنا = بره بأمه فاختار ذلك ومكث بجوارها حتى تُوفي النبي قبل أن يلحق به أويس ثم تُوفي خليفته الصديق ولم يلحق بالمدينة إلا حين توفيت أمه في خلافة عمر بن الخطاب .

فهل ضره هذا ؟؟

أبدا.

لقد زكاه الحبيب وسماه خير التابعين وإن لم ينل شرف الصحبة فإن النبى ﷺ قد أمر من نال ذلك الشرف أي الصحابة رضوان الله عليهم أن يسألوا هذا الذى لم ينلها أن يستغفر لهم.

وقد فعل عمر بن الخطاب ذلك فما أن لقي أويس حتى طلب منه أن يستغفر له عملا بوصية النبي ﷺ.

**تخيل تابعى يستغفر لصحابى!**

أنعم به من فضل ناله ذلك المسترضي.

فضل ناله بحرصه على الأرضى لله سبحانه وتعالى حتى لو لم يكن الأرضى لنفسه عاجلا.

لأنه اختار مراد الله وآثر مراده على مراد نفسه .

وهذا ما تشد إليه الرحال ، وتنفق فيه الأعمار قبل الأموال ،

إرضاء الله حيث أراد ، وكيف أراد ، وشعار المسترضى فى ذلك كموسى عليه السلام .

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه: ٨٤] .

فإن هو رضى فاعلم أنك أيضا فى النهاية وبإذنه .....سترضى

**٤. أن تعرف:**

لكي يكون إرضاء الله والحرص على تحقيق مراده = الهمَّ الأول الذي يشغل بال المسلم ويحركه كما تحدثنا في الفصل السابق هناك ما ينبغي أن يترسخ ابتداءً وتغرس بذوره في القلب أولا.

**تعظيم مقام الله في القلب.**

أن يكون قلب المؤمن متطلعا إلى السماء مستشعرا السمع الأعظم والبصر الأعظم والرقابة الأعظم والأشمل والأعم والإحاطة والعلم واللطف والخبرة التي ليس كمثلها شيء .

أن يكون كل ذلك له وحده .

لله..

وعندما يستقر تعظيم الله في القلب = تنبت التقوى يشتد عودها وتعظم الشعائر والحرمات ويبرز الحياء من الله ليسود النفس ويصبغها ويكون همُّ العبد أن يرضي مولاه أولا ثم ليكن بعد ذلك ما يكون.

فليرض عني الناس أو فليسخطوا أنا لم أعد أسعى لغير رضاك.

قال الإمام محمد بن نصر: «إذا ثبت تعظيم الله في قلب العبد أورثه الحياء من الله والهيبة له، فغلب على قلبه ذكر اطلاع الله العظيم ونظره بعظمته وجلاله إلى ما في قلبه وجوارحه. وذَكَر المقام غدا بين يديه. وسؤاله إياه عن جميع أعمال قلبه وجوارحه. وذكر دوام إحسانه إليه. وقلة الشكر منه لربه. فإذا غلب ذكر هذه الأُمور على قلبه هاج منه الحياء من الله، فاستحى من الله أن يطلع على قلبه وهو معتقد لشيء مما يكره، أو على جارحة من جوارحه يتحرك بما يكره، فطهَّر قلبه من كل معصية، ومنع جوارحه من جميع معاصيه».

هذه كلمات تلخص هذا الأصل .

أصل التعظيم .

وعليه ينبني معنى التضحية والترك.

المعنى الذى لا يستقر إلا فى قلب المعظم لله تعالى.

حين يستقر فيه أنه لا شىء ولا شخص ولا محبوب ولا مرغوب ولا مرجو أعظم فى قلبى من الله وأننى على استعداد لأن أضحى بكل شىء فى سبيل رضاه

التضحية هي فى الحقيقة نتيجة وليست أصلا.

الأصل هو التعظيم .

حين يوجد التعظيم في القلب يسهل فعل أي شيء ويهون ترك أي شيء دون المُعظَم وعندئذ تأتى التضحيات وتظهر الطاعات وتتحدد الاختيارات .

وكل ذلك قرين التعظيم .

ما من مضح يضحى ولا تارك يترك ما يحب أو يشتهي إلا إن كان معظما لما يضحي لأجله فتهون بالمقارنة قيمة أى شىء يفعله أو يضحي به حتى لو كان ولده...

وما إقدام نبى الله إبراهيم عليه السلام على ذبح ولده إسماعيل ببعيد عن الأذهان .

ترى كيف كانت مشاعره فى تلك اللحظات وهو يتفرس فى ملامحه وينظر إلى قسمات وجهه الذي طالما اشتاق إليه ؟!

كيف كان حال قلبه المتدفق بمشاعر الأبوة الحانية وهو يردد على مسامعه ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [**الصافات: ١٠٢**].

فقال الولد الصالح الذى ورث عن أبيه الخليل أدبه مع الرب الجليل ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

هو أيضا اختار التضحية وقدم مراد الله على روحه ونفسه.

كأنما يقولان للعالم بلسان الحال : لا نقدم شيئا على تعظيمنا لله لا شيء يقف بيننا وبين مراد الله .

لن يعطلنا عن إرضائه وامتثال أمره شيء ولو كانت أرواحنا أو أقرب الناس إلى قلوبنا بل فلذات أكبادنا.

لقد كان المعيار واضحا.

﴿مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ .

ما دام الأمر من الله.

ما دام سعيا إلى رضاه.

ما دام تحقيقا لمراده.

فلا بأس.

ولا ضير .

كذلك قال السحرة وهم مقبلون على الموت تمسكا بدينهم ومعتقدهم.

﴿ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٠].

هي جملة تظهر بوضوح حقيقة الغاية والهدف والهم الذي حملوه الذي حين يترسخ في الوعي = يهون كل شيء مهما بدت صعوبته.

لقد أظهر السحرة ذلك من خلال إثبات ونفي..

هذا الإثبات وذلك النفي كانا متعلقين بعدوهم الطاغية الذي يعتبر نموذجا يضرب به المثل لسائر الطغاة عبر العصور

لقد أثبتوا له قضاءً وأثرا على عاجل دنياهم ﴿قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه: ٧٢].

لكنهم نفوا الضير.

قَالُوا لَا ضَيْرَ.

كيف؟!

تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم وتعذيبهم؛ كل ذلك لا يعتبرونه ضيرا رغم إقرارهم بإمكانية وقوعه.

السبب ببساطة هو وضوح الغاية الذي تحدثنا عنه والذي يظهر بعدها مباشرة .

﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٠].

هذا هو ما ترسخ في أنفسهم فصار الهم الحقيقي الذي تحمله صدورهم هو هم ذلك اللقاء وتلك الساعة وأزاح من هذه الصدور كل هم آخر مهما بلغت قسوته .

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥١].

هذا هو الهدف وذلك هو المراد الذي انشغلوا به.

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٣].

إن الانشغال بالله وتعظيمه إذا استقر فعلا في قلب العبد = هون عليه الكثير مما يلاقي.

ولقد كان السحرة مثالا لحمل هذا الهم والانشغال الحقيقي به.

لم يستنكف السحرة رغم ما لديهم من العلم السائد في عصرهم قبل الإيمان ورغم بطولتهم في الصدع والتضحية بعد الإيمان = أن يعلنوا ببساطة حقيقة الأمر .

رضا الله والجنة.

هذه هي حقيقة الغاية والهدف دون تقعر أو تعقيد.

رضا الله .

والجنة...

حين عظمت تلك الغايات = سهلت البطولات وهانت التضحيات.

وهذا ما حدث ويحدث دائما .

ما أقدم إبراهيم على تضحيته بولده التي أشرنا إليها إلا لأن مقام الله كان فى قلبه أعظم .

و ما ضحى يوسف بحريته ومكانته وأعلن أن السجن أحب إليه إلا لأن خشية الله فى قلبه أكبر .

و ما جاد صهيب الرومى بماله كله أثناء هجرته إلا لأنه حبه لله ورغبته فى رضاه كانت أظهر .

و ما كان خبيب يبالى حين يقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعه إلا لأنه معظم لربه.

و ما قال سعد بن أبي وقاص لأمه حين حاولت فتنته عن دين ربه بقتل نفسها : لو أن لك مائة نفس خرجت كلها نفسا نفسا ما تركت دينى فكلى إن شئت أو لا تأكلى . إلا لأن حبه لله أكبر .

وما قام حنظلة غسيل الملائكة ملبيا نداء المنادى يا خيل الله اركبى ومضحيا بليلة عرسه ثم بعد قليل مضحيا بنفسه إلا لأنه أحب الله أكثر وعظمه أكثر .

و كذلك كان حال كل شهيد صادق وكل منفق مخلص وكل مضح محتسب التعظيم.

بل حتى ذلك العاصي الذي قرر بصدق التضحية بالمعصية والتوبة

تأمل مشهد المرأة الغامدية حين أثنى عليها النبي ﷺ قائلا : «**لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ولو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم. وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى ؟** ».

تأمل مرة أخرى قول حبيبك جادت بنفسها.

أى ضحت .

و ما ضحت إلا لأنها عظمت الله فعظمت حرماته.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [**الحج**: ٣٠].

و هل استعر الندم فى قلبها طوال أشهر الحمل والرضاع دون أن تخفت إلا لهذا التعظيم ؟!

من هنا تتضح أهمية السعي لترسيخ ذلك الأصل.

أصل التعظيم.

ولأجل ترسيخ معنى التعظيم في القلب = شرع الله قدرا ضخما من التكبير في حياتنا.

يكاد التكبير يحيط بكل عباداتنا وأحوالنا.

يكاد يكون الذكر الأكثر تكرارا في يوم المسلم وليلته وسائر أحواله.

في العيدين شرع التكبير.

وفي الصلاة تكبير من أولها إلى منتهاها بل من قبلها في الأذان ثم الإقامة ثم تكبيرة الإحرام ومرورا بأركانها وشعائرها وركوعها وسجودها وحتى انتهائها بل وبعد انتهائها في أذكار ما بعد الصلاة.

وكذلك في الصيام قال الله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأيضا في الحج والنسك يقول الله ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧]

وعند لقاء العدو ومناجزته أيضا كان التكبير.

وعند السفر شرع لنا أن نكبر الله في دعاء السفر.

وعند ارتقاء مرتقىً شرع التكبير أيضا.

وعند النوم يسن التكبير.

وعند الذبح يكبر المسلم.

وعند الاستسقاء يصلي الناس ويكبرون.

وفي فرحهم يكبرون كما ثبت من فعل الصحابة رضي الله عنهم.

وأيضا في الحزن وعند مفارقة الأحبة نكبر عليهم أربعا في الجنازة.

وغيرها من مواطن أحاط الله حياتنا وعبادتنا فيها بالتكبير.

هل تأملت من قبل مغزى ومقصد كون التكبير أكثر الأذكار الواجبة على المسلم كمًّا وأعمها وأشملها على سائر لحظات يومه وعباداته؟!

لن يدرك الإجابة إلا من تدبر معنى التكبير.

الله أكبر..

هذه الجملة القصيرة ذات المفضول المحذوف هي من أبلغ ما قالته العرب في التعظيم.

هذا المفضول المحذوف تقديره = كل شيء.

وأي شيء.

أكبر من ماذا؟

أكبر من كل مخاوفك ومرهوباتك.

من كل مرجواتك ومحبوباتك.

من همومك وانشغالاتك.

من كل ما يمنعك عنه أو يعطلك عن سبيله.

هو معنى أراد الله أن يعم حياتك وأن يشمل أوقاتك وأن يترسخ في قلبك في حل وترحالك وفي فرحك وأحزانك.

ً أن تتذكر أنه مهما كبر عليك شيء من أمر الدنيا أو عظم عليك شأن من شؤونها.

فالله أعظم.

لكن للأسف هناك من لا يجاوز التكبير لسانه ولا يلامس التعظيم قلبه.

لا أريد أن أفصل في نماذج ومواقف تدلل على خلو الذكر من معناه وكونه لدى البعض مجرد ألفاظ لا يعون معناها ولوازمها فأظن أن تلك الأمثلة أشهر وأكثر من أن تحصى لكن يكفي أن أذكر بحقيقة واحدة.

إن لتعظيم الله دلائل وعلامات وليست مجرد ادعاءات.

وعلى المعظم حقا والمكبر صدقا أن يعي كون تعظيمه لربه= لابد أن يكون مقترنا بتعظيمه لشرعه وأمره ونهيه .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾[**الحج: ٣٢**].

أن يكون مقترنا بالاستعداد لتفضيل مرضاته على كل شيء والتضحية لنيل ذلك بأي شيء.

ليس شرطا لتظهر تعظيمك أن تهاجر أو تتكلف تضحية بولد كفعل سيدنا إبراهيم .

وليس شرطا لتظهر تعظيمك أن تهاجر أو أن تقتل أو تضحى بنفسك أو بمنصبك أو بمالك إلا إذا تعين ذلك لكن مناط الأمر يكمن في تلك الكلمة التي أشرت إليها.

الهمّ.

ثم التحرك وفقا لهذا الهم .

ولذلك إرهاصات لابد أن تظهر أولا.

لابد أن يظهر تعظيم المرء لله ولشرعه ولحرماته وشعائره ابتداء حتى إذا حدث التعارض بين محبوب أو مرجو وبين رضوان الله والحق الذي يرضاه = قدم بلا تردد رضوان الله.

لكن كيف نعظم الله ذلك التعظيم المورث لتقدم هذا الهم في وجداننا؟

كيف تسود القلب تلك المشاعر من تعظيم وعلو مقام وإجلال ورجاء وقار

إن لتعظيم الله طريق محدد وسبيل واضح لا يخطؤه مريد ولا يحيد عنه راغب.

إنه طريق المعرفة.

أن تعلم عن الله .

أن تكون به خبيرا.

أن تحاول وسعك إحصاء أسمائه وصفاته وأن تتفكر في نعمه وآلائه وأن تنظر إلى آثار رحمته وتجليات قدرته.

من دون ذلك فأنَّى يكون التعظيم؟

كَيف يعظِّم العَبْد من لَا يعرفهُ؟!

عندما تجيب هذه الأسئلة بصدق ستبصر الطريق.

وعندما تسلكه ستتذوق تلك اللذة.

لذة التعظيم النابع عن معرفة الله سبحانه وتعالى.

ليس ثمة صفة أو اسم أو فعل من أفعال الله لا يورث العلم بها أثرا على القلب من حب أو رغبة أو رهبة أو رجاء أو وجل.

وكل تلك المشاعر وغيرها يجمعها رباط واحد.

التعظيم .

لكن هذا لن يكون بمعرفة سطحية أو محض علوم نظرية جافة جامدة.

إنها حياة كاملة متكاملة مع الله.

حياة ازدهرت بها واحات قلوب الصالحين وأينعت فيها ثمرات يقينهم ودنت عليها ظلال توكلهم فكانت تلك الأعاجيب وكان ربهم بهم حفيا وما كان أحدهم بدعائه شقيا.

وكـذلك معرفـة الله إذا خالطـت بشاشـتها القـوب وعاينـت بهجتهـا النفـوس ولاطفت نسماتها الأرواح.

فمن عرف الله حق المعرفة وأحصى أسماءه وصفاته ومننه وألاءه وأحبه وامتلأت نفسه بتعظيمه وإجلاله = فإن قلبه يفيض بتلك المعرفة والمحبة والتعظيم ليظهر ذلك بشكل أو بآخر على سلوكياته واختياراته ولينضح على تصرفاته وتفضيلاته .

من علم عن الله وتعرف عليه فإنه يخشاه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]

ويوجل قلبه لذكره فهو ممن قيل فيهم ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]

لكنه ما إن يتذكر واسع فضله وجنات جوده وغيث إحسانه حتى يسارع إلى رحابه ويعجل إلى خلوة به مرددا قول الكليم عليه السلام ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

وهذا هو الهدف يعلن من جديد والغاية الكبرى تطل بوضوح.

لترضى.

فإذا ضعف مرة أو زل ونسي مرة أخرى وخبا وضوح ذلك الهدف أمام الشهوات والمغريات وتسببت غفلته في سوء اختياره فاختار المعصية على الطاعة واستبدل الذنب بالقرب = فإنه رغم ذلك يحمل قلبا عرف ربه.

والقلب الذى تشرب العلم بالله ومعرفة أسمائه وصفاته ونعمه وآلائه لا يحتمل أن يمكث طويلا تحت وطأة المعاصى أو يطول عليه الأمد فى رجس الخطيئة فما أن يُذَكَّر بمولاه حتى يسارع للاستغفار والتوبة والأوبة إلى رحابه لأنه يعلم جيدا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤] وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو فيكون ممن قال الله فيهم : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥] .

و لربما بلغ درجة أعلى من ذلك كما حدث مع يوسف عليه السلام إذ يقول ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

وتلك كما ترى درجة مختلفة.

أن يتمنى المرء ألا يعصى الله فذلك حسن.

وأن يبغض المعصية وينفر قلبه منها فذاك أحسن.

وأن يتحمل الأذى ويصبر عليه لئلا يقع فى الفاحشة فتلك درجة عالية رفيعة

لكن أن يصل به تعظيمه لحرمات مولاه لأن يكون الأذى والعذاب الدنيوى أحب إلى قلبه من المعصية فهذا مقام من تشرب قلبه بمعرفة ربه.

معرفة أسفرت عن محبة صادقة وتعظيم خالص يجعله لا يطيق إغضابه والتعدى على حرماته .

معرفة جعلت أى مكان لا يعصى فيه الله أهون عليه من محل المعصية ولوكان البديل = قعر سجن بارد مظلم.

ببساطة.

لوعرفته حق المعرفة.

لأحببته فما فضلت شيئا على ما يحب.

ولامتلأت نفسك بخشيته وإجلاله وتعظيم أمره فما أطقت إغضابه وما تحملت موجبات سخطه.

ولتاق فؤادك إلى قربه والأنس بلقائه .

ولزهدت روحك فى كل شىء إلا قربه.

ولهان عليك كل شىء فى سبيل إرضائه.

لكن تظل البداية أن يعرف .

ومن ذاق عرف.

ومن عرف اغترف.

وهنا نأتي للسؤال العملي الذي تعد إجابته طريقا أوليا لبلوغ تلك الغاية - أن يكون إرضاء الله همك الأول من خلال تعظيم مبني على أساس راسخ من المعرفة = سؤال الكيفية.

**كيف أتعرف الله؟**

ابتداء ينبغي أن تقر بالأصل.

إن التعرف على الله مهمة حياة.

هذه من أهم القواعد التي ينبغي ترسيخها لدى الملتزم أو من يبغي سلوك سبيل الالتزام.

أن تكون مهمة التعرف على الله أصلا محوريا في حياته.

بل أن تكون همًّا مرتبطا بهم إرضائه.

أتعرف عليه جنبا إلى جنب مع التعرف على مراده مني.

إنها قيمة سامية لا تنفك عما ذكر ربنا أنه علة الخلق.

العبودية.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وتلك العبودية لا تصح بغير معرفة المعبود

إن كل لحظة تنفقها من عمرك لتتعلم عن ربك ولتتعرف عليه بأسمائه وصفاته لهى لحظة غالية نفيسة لن تكون حياتك بعدها مثل حياتك قبلها .

وإن أعظم ما تتعرف به على ربك هو كلامه .

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤].

هل جربت يوما أن تقرأ كتاب ربك بهذه النية وبذلك الهدف.

إن أعظم ما تتعرف به على الله عز وجل من خلال ما اختار أن يعرف به نفسه عبر وحيه المنزل.

ثم كلام عباده المقربين العارفين به عنه.

ثم كتابه المنظور من حولك والذى تتجلى فيه آثار قدرته ورحمته وسائر صفات الجلال والجمال والكمال التى يتصف بها .

ثم من خلال معاملته .

وتلك الأخيرة مختلفة حقا.

إنها العلاقة المباشرة بينك وبينه .

نجاتك وتفريج كرباتك.

شرح صدرك وتخفيف ألمك.

إجابة دعائك واختيار ما ينفعك.

لطفه معك وحكمته في دفع ما قد تريده ويضرك.

وعلى ذاك فقس كل معاملاته معك في سائر حياتك .

كل نعمه الظاهرة والباطنة التي حين تتذكرها وتتأملها تتعرف عليه تعرفا عمليا .

أما التعرف عليه من خلال كلامه عن نفسه في كتابه المنزل وأحاديثه القدسية فيظل السبيل الأصلي والمبدئي والأكثر ضبطا وإحكاما.

القرآن الكريم هو أعظم كتاب اعتقاد موجود بين أيدينا.

لا تكاد تخلو سورة أوآية فيه من ذكر لله أوحديث عن اسم من أسمائه أوصفة من صفاته ولا يوجد مخلوق يحيط علما بالله جل وعلا لذا فأعظم ما تستمد منه معرفتك هو كلامه عن نفسه .

وأيضا تتعرف عليه من خلال كلام نبيه ﷺ وأحاديثه الصحيحة التى يكلمك فيها عن الله جل شأنه ويثني عليه ويحمده ويقدسه.

وتستطيع أن تتعرف على الله كذلك من خلال كلام العلماء العارفين الذين أفنوا أعمارهم في التعرف على الله والتعلم عنه .

وأيضا من خلال التدبر في الكون والنظر في ملكوت السماوات والأرض والتأمل في آثار رحمة الله في الخلق حيث تستطيع أن ترى تجليات الصفات في هذا الكون السرمدي البديع.

المهم قبل كل ذلك أن تدرك المبدأ وتفهم ماهية المهمة.

أن تؤمن كما أشرف ابتداءً أن التعرف على الله مهمة حياة وليس فقط كتاب يقرأ أو مسألة تدرس .

إنها رحلة تحتاج إلى إرادة حقيقية وصادقة من المرء لكي يسلك سبيلها وينال تلك المعرفة.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : أي شيء عرف من لم يعرف الله ورسله ، وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة ، وأي علم أوعمل حصل لمن فاته العلم بالله والعمل بمرضاته ومعرفة الطريق الموصلة إليه ، وماله بعد الوصول إليه.

وإن نقص هذا العلم بالله قد يورث سوء الظن به .

وفساد الظن به مهلك ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣].

وإن أقواما لم يعرفوه حق المعرفة فظنوا به غير الحق ظن الجاهلية وما قدروه حق قدره ولا ارتجوا له وقارا فكان عاقبة أمرهم خسرانا فى الدنيا بأن شُغلوا بأنفسهم وحسبوا كل صيحة عليهم وفى الآخرة ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: ٢٤].

ويقول الإمام ابن القيم: فالعلم بالله أصل كل علم، وهوأصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وماتزكو به وتفلح، فالعلم به سعادة العبد، والجهل به أصل شقاوته.

وأشد الجهالة هى الجهالة بمقام الله وهى إن وُجدت وُجد معها العصيان والاجتراء على الحرمات سرا وجهرا.

قد يعذر المسلم بجهله حكما خفي عنه أونقص علمه بحرمة حرام أومنكر منهى عنه.

لكن الجهل بالمقام الإلهى أمر مختلف فعنه شرعت التوبة كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ [النساء: ١٧].

أهي جهالة بالحكم كما أشرنا؟

إن كانت كذلك فهي مما يشمله العفو الإلهي عن الخطأ والسهو والإكراه فما كان الله معذبا حتى يبعث من يقيم الحجج ويثبت العلم.

ليست جهالة الحكم إذاً.

هو جهل بمقام الملك ناشيء عن جهل به وقلة أو انعدام ما نتحدث عنه من المعرفة.

معرفة الله.

ولقد أمر الله بالتعجيل بالتوبة عن تلك الجهالة فى قوله: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧].

وتمام تلك التوبة يكون بإصلاح ذلك الجهل بالله عن طريق التعلم عنه وحسن معرفته.

عندئذ يعظم مقام الله فى القلب ويهون كل ما دونه.

وعندما يستقر التعظيم ويترسخ يكون الهم الأول = إرضاء المعظم.

من هنا يفهم مغزى ذلك الوصف العجيب للعبد الرباني والذي روي عن الجنيد رحمه الله.

عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيبته، وصفا شربه من كأس وده، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله " ...

وجم القوم حين سمعوا كلمات الشاب وساد صمت مطبق ، لا تتخلله إلا همهمات بكاء مكتوم ، بينما عيون دامعة تنظر إلى الشاب الذى فتح عليه بتلك المعانى الرائقة ، محركة قلوبهم ، ومالكة عليهم أفئدتهم ، ومسيلة أنهار الشوق من مآقي بصائرهم ..

ثم قطع الصمت قول قائلهم ؛ مكللا بمتداخل غمغماتهم تصديقا لقوله :

ما على قول الجنيد مزيد.

نعم والله ما على قوله هذا من مزيد فى وصف حال العبد الربانى .

عبد يعيش لا هم له إلا إرضاء سيده ..

البعض ينظر إلى كلمات الجنيد هذه على أنها محض خيال لا يمكن تحقيقه علي أرض الواقع الشرعي .

معقول أن يوجد من يعيش لله وبالله ومع الله ، بهذا التجرد الفريد ، وذاك التحقق الغريب ، وذلك الإخلاص العجيب؟!

الجواب :

نعم ؛

معقول جدا ،

بل مطلوب أيضا.

لو تأملنا خواتيم سورة الأنعام ، لوجدنا هذا المعنى ظاهرا جليا .

إنه معنى الحياة لله .

أن يعيش المرء وأن يموت لله رب العالمين ، وليس فقط يصلى وينحر له جل وعلا ،

تأمل فى قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٤].

إنها بحق نقلة فكرية وروحية هائلة ، من عقيدة قاصرة ، وتصور للدين شائه مقزم منقوص ، إلي عقيدة راقية ، وتصور للدين واضح كامل متكامل جليل .

علي حين جرت العادة بين الخلائق قرونا قبل بعث النبى ﷺ ، بهذه العقيدة الشاملة الكاملة ؛ أن يوجه الناس ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، وأن ينعزل الدين عن الحياة ، ويظل حبيسا بين جدران دور العبادة ، فلا يعود يُذكر إلا حين الحاجة إليه ،

وعلي حين جرت العادة أن يُنظر دائما إلى الدين على أنه فقط شعائر تعبدية، لا علاقة لها بمعايش الناس ولا بمعاملاتهم ، وأن تقتصر على صلاة وذكر ودعاء ونسك - أى ذبح - وما كان على ذلك النسق ، من ملامح العبودية وأمثلتها ؛

جاء الإسلام بدين يعبر حدود الجدران والصدور ، منتظما كامل الحياة ، ومهيمنا علي جميع ملامحها ومجالاتها وأنشطتها علي السواء .

تصور لم يعرفه العرب قبل البعثة ،

ولا تصورته الأمم في سالف الأديان ..

هذه الآية العظيمة تفاجئ أصحاب تلك الأفكار الإقصائية - للدين- بمعنى مباين تماما لما يظنونه ويهوونه ، بل وتستريح إليه نفوسهم الأمارة بالسوء ، المحجوبة عن شهود حقيقة العبودية الجامعة .

إنها تفاجئهم بأن الدين منظومة حياة كاملة شاملة .

وأن الحالة التي أشار إليها الجنيد ، عن العبد الذى يتكلم وينطق ويتحرك لله وبالله ، ليست خيالا نظريا ، ولا دروشة أو تكلف ، بل هي حقيقة شرعية واقعية علي أرض العبودية المشروعة والربانية !

أن يكون المحيا لله ، والممات لله ، وليس فقط النسك والصلاة..

قد يُفهم أن يكون الممات لله ؛ حين الجهاد والتضحية بالنفس فى سبيل الله ، وقد قيل إن هذا ربما يكون أهون على النفس البشرية من منهجة منظومة الحياة لتكون ، فى سبيل الله ،

الموت لحظة ، إذا تجرأ الإنسان واتخذ فيها قرار الإقدام والبذل لله ، فإنه لا يجد من آلامها إلا كمس القرصة ،

لكن الحياة فى سبيل الله شأن آخر ، وعمل شاق ، ومكابدة ، وجهاد أي جهاد !

أن يصبغ المرء توجهه بمرضاة الله كما ذكرنا.

أن يكون هدفه الأوحد إرضاء ربه ، فى كل سكناته ، وحركاته ، ومعاملاته وصمته ، وكلماته .

أن يكون هذا محل همه ومحتوى روحه وما يملأ نفسه.

هذه هى الحياة لله !

وهذا من الفوارق بين المخلِص - بكسر اللام - والمخلَص - بفتحها ؛

فالمخلِص بالكسر الذى يبتغى وجه الله فى أعماله ، وخص البعض تلك الأعمال بحال عبادته ؛ لا يريد بها إلا الله ،

أما المخلَص بالفتح فهو أعلى درجة ومنزلة ، حيث إنه هو من استخلصه مولاه استخلاصا ، فصار فى حياته ، وسائر حالاته، مع الله ، وبالله ، ولله ،

وهذا هو من ينجو من إغواء الشيطان وكيده ، كما استثنى هو فقال : ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [**الحجر**: ٤٠-٤١] ..

ولقد تحمل من يعيشون لله ما لا يتحمله غيرهم ممن لا يستقر فى قلوبهم هذا المعنى السامى الأصيل،

وهل كان نوح ليطيق سخرية واستضعافا ، ويصبر على لأواء الدعوة وتكاليفها ألف سنة إلا خمسين عاما ، لولا أنه عاش هذه الأعوام الألف مع الله وبالله ولله؟

وهل كان يوسف ليصبر على السجن ، بل ويصرح أنه أحب إليه من لذيذ عيش فيه عصيان لمولاه ، لولا أنه رجل يحيا بالله ولله ومع الله؟

وهل كان إبراهيم ليواجه قومه ويصبر على أذاهم وبطشهم ، لولا ذلك؟

وهل كان أيوب ليتحمل أعواما من الضر والمرض والآلام ، لولا أنه عاشها فى أنس بمولاه؟

وغيرهم ممن أدركوا أنه كما أن الأمر كله لله ، والفضل كله بيد الله ، فإنما تكون الحياة كلها لله ومع الله وبالله ،

إنه المعين الروحي والزاد الإيماني الذي سهل على أمثال هؤلاء ممن عاشوا لله وجعلوا مرضاته خيارهم الأوحد أن يتحملوا كل ذلك.

حدث كل ذلك حين عرفوه.

ثم عظموه.

ثم جعلوا مطلبهم الأول وهمهم الأكبر = أن يرضوه .

فكانت حياتهم ترجمه عملية لشعار موسى عليه السلام

﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

## ٥ـ (تارجيت) حياتك:

ويا ترى تارجيت حياتك... حققته ولا لسة؟

هكذا قاطع عم ضياء ذلك المشهد المرح المفعم بالأمل الذي تجمد فجأة حين وضع الرجل يده السمراء على كتف الموظف الذي كان يوجه بعض من حوله بحماس ليحفزهم على تحقيق (التارجيت) الذي تطالبهم به الشركة التي يعملون بهامنهم .

تتعالى الموسيقى الحزينة لتصبغ الموقف بلون معتم بينما يخرج صوت عم ضياء عميقا جادا ليسأل الموظف في كآبة: طيب وتارجيت حياتك... حققته ولا لسة؟

يتساءل الممثل المرح بدهشة عن هذا التارجيت المقصود فيرد ضياء بصوت حالك: التارجيت بتاعنا كلنا الآخرة... لما نموت ونرتاح من الدنيا وبلاويها.

يصيح الممثل برعب مندهش: لسة بدري يا عم ضياء...

عندئذ يفاجئه ضياء وهو يغادر المكان ببطء ثقيل ينافس ثقل كلماته: مافيش بدري..

هم مترين في متر..
وكله رايح...
كله رايح..

كان هذا المشهد من ضمن المشاهد التي فاجئتني حين كتبت على يوتيوب جملة (كله رايح) وذلك بعد أن لفت نظري في أواخر رمضان الماضي عدد كبير من المنشورات و(الكوميكس) التي فيها هذه الجملة وصورة هذه الممثل الذي لم أجده معهودا لديّ.

لفت نظري أن المنشورات كانت تحوي ما جرت العادة على كونه مواعظ أو تذكرات بالآخرة وعجالة الدنيا لكنها في سياق يبدو أنه مضحك أو هكذا خيل لي من خلال المنشورات والكوميكس.

لكن كيف؟

هكذا سألت نفسي بدهشة.

ما العلاقة بين ذكر الموت والقبر والجزاء الأخروي والتزهيد في الدنيا وبين الضحك والكوميديا والإفيهات؟!

ثم انهالت الإجابات عبر عدد كبير من الفيديوهات المقتطعة من مسلسل رمضاني كوميدي حوى هذه الشخصية .

**شخصية عم ضياء.**

بغض النظر عن الشخصية العجيبة والظلامية أو هكذا أرادوا أن تكون واضحة الكآبة بدءا باختيار ممثل ذي بشرة سمراء لا يضحك أبدا وتناقض خصاله اسمه المبهج ومرورا بالموسيقى الحزينة المصاحبة دوما لظهوره والسيجارة التي لا تفارق أصابعه ويلفظ أنفاسها بقرف ويأس ظاهر وانتهاء بكلماته التي أرادوا أن تكون متممة للمشاهد الكابوسية التي يظهر فيها.

بغض النظر عن ذلك كله فإن ما لفت نظري مما رأيت وسمعت من تلك الشخصية التي يفترض أن تكون يائسة أو متشائمة أو ظلامية كئيبة أنها قد وصلت لذلك اليأس والكآبة أو أوصلته للمشاهد عن طريق أمر هو من يعد من أصول الدين وقواعده الراسخة ومن أعمدة التدين أو ما اصطلحنا على وسمه بالالتزام.

**إنه همُّ الآخرة.**

الهم الثاني الذي ينبغي أن يستقر في قلب الملتزم ويحركه بعدما تحدثنا عنه من همٍّ إرضاء الله والسعي لتحقيق مراده.

أن يأتوا بشخص عدمي لا يرى أملا في الحياة أو لا يؤمن بقيمة لأي عمل أو حتى متشائم كما يكون التشاؤم حقا بتوقع الأسوأ مثلا عند كل محك فهذا مفهوم وسيوفي بالغرض منه تماما خصوصا إذا عرضت أقواله المتشائمة وطاقته السلبية الرهيبة في سياق مناقض للحالة الكوميدية الموجودة فيحدث الضحك لهذا التناقض كما ضحك الكثيرون عندما وضع ذكر الموت والآخرة في نفس السياقات.

لكن ما الذي يضحك في حديث عن الموت والآخرة والحساب.

ما الذي يجعل قائلها أيقونة فنية ناجحة؟

ما الذي يضحك في جملة نصها : « ده العمر مافيش أقصر منه.

كلنا خارجين منها بسرعة.. . ما تستعجلش... كله رايح» .

أو قوله: «هو العمر لسة فيه وقت عشان نقعد نحكي؟ » .

أو «بكرة تموت وتتدفن يتقفل عليك الباب اللي ما بيتفتحش» .

أو «استخبى بس خليك فاكر ماحدش بيستخبى من قدره.

ده الموت بيدخل من غير استئذان وبييجي في وقته بالظبط ماحدش بيقدر يقدمه أو يأخره».

أو سؤاله «إنت متأكد إن هي لسة فيها بعدين؟ ده العمر بيخلص في لحظة».

أو « ما القبر مابيشلش غير واحد بس».

أو «افتكر ان في الآخرة في امتحان اسئلته إجباري مافيهاش اختياري .

وممكن يكون تقديرك في الآخرة ض. ج ».

إلى آخر تلك الجمل التي طالعتها بدهشة عبر صفحات التواصل التي احتفت بتلك المقاطع التي يفترض إنها كوميدية.

أكرر السؤال بعد أن تتفضل مشكورا بإعادة قراءة هذه العبارات السالف ذكرها .

ما المضحك فيها؟

أين الكوميديا في هذه العظات؟

نعم والله هي عظات لو أردنا أن نستدل لكل منها بآية قرآنية أو حديث نبوي لفعلنا

ألم يمر رسولُ اللهِ ﷺ على عبد الله بن عمرو بن العاص وهو يعيد بناء بيت له فقال : ما هذا ؟ فقال ابن عمرو : خُصٌّ لنا وَهَى فنحن نُصْلِحُه.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ : «**ما أَرى الأمرَ إلا أَعْجَلَ مِن ذلك**».

يعني أمر الآخرة؟

ألم يصر رسول الله ﷺ على تزهيد الناس في الدنيا كلما سنحت مناسبة لذلك.

ألم يمر يوما على جيفة جدي أسك فيخبر أصحابه أن الدنيا أهون عند الله من هوان تلك الجثة الميتة عليهم؟

ألم يذكر أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة وأن مثله والدنيا كراكب استظل بظل شجرة؟

ألم يأمر بكثرة ذكر هادم اللذات الموت فقال أكثروا من ذكر هادم اللذات؟

تأمل الكلمة «أكثروا». ليس مجرد ذكر بل إكثار!

هذا غيض من فيض وقليل من كثير ناهيك عما في القرآن من ذكر للموت وللآخرة ولدنو مقام الحياة الدنيا.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾

[فاطر: ٥]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾

[لقمان:٣٣]

**هذا قرآن .**

**كلام الله.**

ليس طاقة سلبية ولا نازع للدفء من القلب كما سمعت في أحد المقاطع تعليقا على ما فعله بطل تلك المقاطع بمواعظه في الناس حين أبكاهم بذكر الموت

هل كان رسول الله ﷺ ينزع الدفء من القلوب حين يعظ بمواعظه البليغة التي كانت منها القلوب توجل وعلى إثرها العيون تذرف كما شهد الصحابة بذلك؟

هو هو نفس الرسول الذي استحب التبسم وأخبر أنه صدقة وهو هو نفسه الذي أخبر أن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وهو هو القائل: «**يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا**» وسنفرد فصولا كاملة لذلك اللين وتلك البشاشة والبِشر إن شاء الله.

## لا تعارض إذاً

صحيح أن لكل مقام مقال.

لكن لابد أن يظل ذلك الهمُّ موجودا وإن لم يشترط بروزه الدائم على السطح في كل مقال كما تفعل الشخصية المذكورة إلا أن المطلب الذي ينبغي أن يظل واضحا ألا يزول هذا الهم من قلوب تعودت الضحك على ما حقه أن يبكيها فتستخف بما هو أولى أن يوجلها ويخيفها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]

تأمل الكلمة التي تتكرر.

خاف عذاب الآخرة.

﴿خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

تلك أمور من الدين.

هم الآخرة وذكر الموت والبعث والنشور والحساب والجزاء ليست أشياء فكاهية يُتندر بها وتستجلب المزحات والضحكات!

أن يتحول ما ما يفترض أن يقلقنا أو يخيفنا أو يهمنا إلى طرفة أو صورة يصاحبها تعليق ظريف أو (إفيه) لطيف فذلك أمر ينبغي الحذر منه بلا شك.

ضد ذلك هو ما ينبغي أن يكون.

لا أقول ولا أطالب أن تكون كل كلمات الملتزم = مواعظ وخطب وتذكير بالموت والآخرة وذلك قبل كل شيء استنان برسول الله ﷺ الذي كان يتخول أصحابه بالموعظة من حين إلى آخر خشية عليهم من السأم.

لكن ما أتحدث عنه هو استقرار الفكرة واستدعاءها مباشرة دون تكلف عند الحاجة وهذه هي ثمرة وجود ذلك الهم.

هم الآخرة.

أن يبرز إلى سطح تفكيرك عندما تخطيء فيمنعك عن الخطأ.

أو أن يظهر بعد الخطأ فيذكرك بالمآل والمصير فيدفعك للتوبة والندم.

أذكر منذ سنوات طويلة ذلك الموقف الذي عرفت فيه قيمة هذا الهم وضرورة استدعائه عن الحاجة.

لم يكن الجو صحوا في ذلك اليوم بل كان حارا خانقا .

انتظرنا صاحبنا طويلا ولم يأت.

كنا أنتظر أنا وصديقي الجديد ذلك الشاب الملتحي الهاديء والذي تبدو السكينة والوقار على سمته.

تعرفت على هذا الشاب حديثا وكانت تلك أيام بداية تعرفي على ذلك الطريق.

طريق الالتزام... التدين... التنسك.. التسنن.. محاولة الاستقامة.. سمه ما شئت أيا كانت التسمية التي ترتاح إليها ولا تحمل تزكية .

المهم أني كنت حديث عهد بالتدين عموما وكنت أنتظر صديقنا الثالث الذي واعدنا ذلك اليوم ليصحبنا إلى مكتبة ضخمة تبيع الكتب الإسلامية لم يكن في ذلك الوقت في بلدتنا منذ ما يقارب العشرين سنة غير تلك المكتبة الشهيرة.

وكان صديقنا المنتظر أسبق منا وله باع في طلب العلم ولعله كان من أسباب سلوكي هذا الطريق حيث كان من أول من دعوني إليه.

لكنه مع فضله يظل صديق طفولة وزميل دراسة ولا يحق له أن يتركنا هكذا ننتظره في هذا الجو القائظ.

لما تجاوز الأمر حد المعقول وكاد ملل الانتظار أن يفتك بي = اغتبته..

ندت مني جمل غاضبة ذكرت فيها صديقي بما يكره.

«كيف يفعل بنا هذا؟ أين الذوق؟ يبدو أنه سهر أمس وأطال في النوم متجاهلا موعدنا ».

ألمح ابتسامة على طرف شفتيك وأنت تهمس ساخرا: وأين الغيبة أنت لم تقل شيئا جارحا؟

ربما كان ذلك بمقاييسنا الآن = لا شيء.

ووقتها كذلك لم أنتبه أني قد اقترفت إثما أصلا.

هو مجرد استنكار عادي وأنا أصلا لازلت أتخلص بصعوبة من عاداتي القديمة التي لم أكن أراعي فيها حلا ولا حرمة.

لكن صديقي الجديد كان أكثر ورعا.

يا محمد.. ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ **[المرسلات: ٣٢]**.

هكذا علق صديقي بصوت حاسم وهو يمسك بمعصمي برفق.

ماذا تقصد؟

سألت صديقي الجديد بدهشة ووقع كلماته لم يصل بعد لإدراكي.

الحق أنها ليست كلماته.

هي كلمات الله.

كرر صديقي: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾.

نعم نعم أعرف الآية.

حفظتها منذ أيام ضمن الجزء التاسع والعشرين.

لكن ما المقام هنا؟

لماذا تقول لي ذلك؟

بعد لحظات وحين كررها مبتسما للمرة الثالثة فهمت..

هو لا يتحدث كثيرا ولا يجيد الخطابة وربما لا يحسن ترتيب مواعظ كالتي يلقيها الممثل الكوميدي المذكور أعلاه.

لكنه الآن يعظني.

يذكرني بالقرآن .

﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: **٤٥**].

هكذا لخصت الآية الكريمة الأمر ببساطة ووضوح .

بالقرآن.

بكلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

كثيرًا ما يكون مفتاح شخصية الإنسان وسبيل تغييره - فقط - في التذكير بالقرآن.

**القرآن وحسب.**

دون وسيط أو إضافة أو تكلف أو كثير من كلام البلغاء ونظم الفصحاء الذي ربما تكون له مواطن أخرى ولا أقلل منها ولا من أثرها.

لكنها لن ترقى أبدا لذلك العلاج الرباني.

**القرآن.**

أن يقع القرآن على قلبك مباشرة وأن يلامس أسلوبه نفسك بدون مقدمات.

للأسف قليل من المربين والموجهين هم من يعنون بتوجيه قلوب وعقول الناس لتلك القيمة والحقيقة القرآنية فيجعلون كلام الله هو الأصل الذي تدور حوله عظاتهم وتذكراتهم ونصائحهم وتوجيهاتهم.

قليل منهم من ينتبه لضرورة ذلك ويدرك هذه الحقيقة البسيطة النقية ..

حقيقة كون الإنسان في لحظة ما يحتاج إلى أن يُخلَّى بينه وبين كلام ربه مباشرة ..

يخاطب قلبه ويمس فؤاده وتهفو إليه روحه.

تغيره أساليب القرآن وتؤثر فيه طرقه.

هذا ما فعله صاحبي جزاه الله خيرا.

لقد ذكرني بالقرآن .

ولقد كان بارعا فاختار الطريقة القرآنية التي تعد من أنجح الطرق في التغيير.

طريقة غرس هذا الهم الذي نتحدث عنه منذ بداية هذا الفصل.

هم الآخرة.

لقد اختار صديقي أن يستحضر مشهدا مهما يكثر ذكره في القرآن.

مشهدا أخرويا.

وهذه الطريقة القرآنية بالذات لها أثر مذهل في التعامل مع ضعف المرء أمام المعصية خصوصا تلك التي اعتادها وصارت شهوة ولذة لا يكاد يستطيع تركها

في ذلك الموقف معي كانت الغيبة هي تلك الشهوة .

وفي مواقف أخرى تكون معاصٍ أخرى.

والطريقة تتكرر في القرآن ترغيبا وترهيبا لكن العامل المشترك فيها هو إبراز الميزان الصحيح.

## ميزان الدنيا والآخرة.

إن حب الشهوات وتزينها في أعين الناس = مسألة عامة لا يخلو منها إنسان طبيعي بنص الآية التي لم تستثني .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ.. ﴾ [آل عمران:١٤].

تأمل.. الناس

لم يقل الله بعض الناس ولم يقل الناس إلا فئة كذا أو طائفة كذا.

بل الناس... هكذا عامة مطلقة .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران:١٤].

والشرع لم يأت مصادما لوجود هذه الشهوات من جذورها أو مانعا لوجودها بشكل مطلق خصوصا إن كانت حلالا كما في النماذج المذكورة في الآية في أصلها لا تحرم لكن الشرع جاء ضابطا لها ومعينا للإنسان على التحكم فيها وأداء حقها .

والأهم أن يضبط توصيفها وأن ينظر لها نظرة صحيحة ويعطيها قيمتها الحقيقية .

## قيمة المتاع .

إن كل ذلك مجرد متاع.

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [آل عمران:١٤].

والمتاع هو ما يستعمله المرء لفترة مؤقتة ثم يزول الاستمتاع به بعد انقضاء هذه الفترة طالت أو قصرى.

هكذا كانت النظرة القرآنية لكل ذلك النعيم الدنيوي الزائل حتى لا ينجرف الإنسان إلى أن تكون تلك الشهوات غاية رجائه ومنتهى أمله وهدف حياته.

إنه مجرد متاع مؤقت .

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران:١٤].

هنا تتمة الميزان وكفته الراجحة.

استحضار المآب.

**الآخرة.**

**النهاية التي بلا نهاية.**

الخير الحقيقي والمتعة الخالصة التي ينبغي أن يعلق المرء قلبه بها.

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

[آل عمران: ١٥]

هنا مشهد ترغيب بخلاف المشهد السابق والمشهدان يشتركان في المبدأ.

استدعاء الآخرة.

بذلك الميزان تنضبط النظرة ويصح التصور وتستقيم مسيرة الإنسان في ظلال تلك الشهوات والمتاع.

حين يدرك أن تلك الشهوة العاجلة خصوصا إن كانت محرمة ليست النهاية هناك آخرة عليك أن تحمل همها.

هم مكانك فيها.

ومكانتك.

ودرجتك.

الدار التي ستسكنها.

والجار الذي ستقترب منه.

هذه الدار ينبغي ألا يقارن همها بدار أخرى .

ببساطة لأنها أعظم في كل شيء ومفضلة على الدنيا على كل حال.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ [ الضحى :٤].

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [ الأعلى: ١٦ – ١٧].

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

[القصص: ٦٠]

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [ النساء ٧٧].

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

[الأنعام: ٣٢]

هذه بعض نماذج لآيات تفضيل الآخرة بشكل عام.

هي دوما خير.

وهي أبقى.

ثمة آيات أخرى تبين تفاصيل التفضيل والتعظيم الذي يكون دوما في صالح الآخرة إذا ما قورنت بالدنيا.

فنعيم الآخرة ودرجاتها أعظم وأبقى وثوابها وأجرها أكبر .

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾

[الإسراء:٢١]

﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [ النحل: ٤١ ].

﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [ يوسف: ٥٧ ].

﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [ الزخرف: ٣٢ ].

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١].

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم: ٧٦].

وكذلك عذاب الآخرة أكبر وأشد وأخزى.

﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [ الزمر: ٢٦ ].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [ طه: ١٢٧ ].

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[السجدة: ٢١]

﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ [ الغاشية: ٢٣– ٢٤ ].

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [ القلم: ٣٣ ].

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١].

كل هذه الآيات وغيرها تلخص هذه القيمة التي يعد ترسيخها غرسا لذلك الهم وتلك القيمة.

قيمة تعظيم الدار الآخرة.

وحمل همها.

بل جعله هو الهم الأوحد إذا استطاع المرء.

هكذا نصح رسول الله صلى الله .

روى ابن ماجة وغيره من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**من جعل الهموم همّاً واحداً هم المعاد كفاه الله همّ دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك**».

تأمل التوجيه واللفظ المستعمل.

الهم.

أيضا يتكرر اللفظ فيما روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجَهْ، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: « **مَن كانتِ الآخرةُ هَمَّه، جَمَع الله له شَمْله، وَجَعَلَ غناهُ في قَلْبه، وَأَتَتْه الدُّنيا وهي راغِمة، ومَن كانتِ الدُّنيا هَمَّه، فَرَّقَ الله عليه شَمْله، وجعل فقره بين عَيْنَيْه، ولم يأتِه منَ الدُّنيا إلاَّ ما قدر له**»

وكان من دعائه صلى الله عليه .

«**ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا**» رواه الترمذي.

إذا همُّ الآخرة يتكرر ذكره في كلام الرسول.

يشغله ويبين لمن حوله أهميته.

إنه مبدأٌ رَبَّى عليه النَّبي ﷺ صحابتَهُ الكِرام، فكان عليه الصلاة والسلام يغرس في قُلُوب أصحابه هذا الهمِّ

كان إذا رأى شيئًا مِن زينة الدُّنيا يُسْمِع أصحابه: «لبيكَ إنَّ العيشَ عيش الآخرة».

ولما أهديت له من أحد الملوك جبَّة من ديباج، منسوج فيها الذَّهب، تَعَجَّبَ الصَّحابة مِن لين مَلْمسِها وجمالها؛ فقال لهمُ النَّبي ﷺ أمام هذه الدَّهشة: «**أَتَعْجَبُونَ مِن هذه الجبَّة، فوالله لمناديل سعد بن معاذ في الجنَّة أحسن مما تَرَوْن**».

تأمل ما يغرسه.

ما يوجه القلوب إليه.

الجنة.

الآخرة.

دار البقاء.

أن يكون هذا هو الهم والإشفاق.

هذا الهمُّ الذي أيقظه يوما مِن منامِه لينادي في الناس: «يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءتِ الرَّاجفة، تتبعها الرادِفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه».

من أين جاء بهذا الهم والإشفاق بأبي هو وأمي صلوات ربي وسلامه عليه؟

جاء به من المعين الأعظم والذي تكتظ آياته بهذه القيمة.

من القرآن.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨ - ٤٩].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٧ - ١٨].

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾

[سورة المعارج: ٢٧ - ٢٨]

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٧].

في كل ما سبق من الآيات ستجد كلمة تتكرر باشتقاقتها.

كلمة الإشفاق.

مُشْفِقُون.

مُشْفِقِين.

إنها كلمة تلخص الكثير والكثير.

تلخص ما يجيش في صدورهم ويعتمل في نفوسهم .

ما يجول في خواطرهم وما توجل منه قلوبهم.

نفس ما ظهر في كلام سحرة موسى بعد إيمانهم والذي يظهر بوضوح حقيقة الغاية والهدف الذي حين يترسخ في الوعي = يهون كل شيء مهما بدت صعوبته.

تحدثنا عن وضوح غايتهم وهمهم في الفصل السابق .

رضا الله.

والجنة.

لأجل ذلك تحملوا عن طيب خاطر تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم وتعذيبهم؛ وكل ذلك لم يعتبروه ضيرا رغم إقرارهم بإمكانية وقوعه.

السبب ببساطة هو وضوح الغاية الذي تحدثنا عنه والذي يظهر بعدها مباشرة .

﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٠].

هذا هو ما ترسخ في أنفسهم فصار الهم الحقيقي الذي تحمله صدورهم هو هم ذلك اللقاء وتلك الساعة وأزاح من هذه الصدور كل هم آخر مهما بلغت قسوته .

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥١].

هذا هو الهدف وذلك هو المراد الذي انشغلوا به.

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٣].

إن هم الآخرة إذا استقر فعلا في قلب العبد = كفاه الله كل الهموم ولقد كان السحرة مثالا لحمل هذا الهم والانشغال الحقيقي به.

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه: ٧٤-٧٦].

هكذا يتحدثون عن الجنة والنار.

بهذه البساطة والوضوح بينوا حقيقة انشغالهم وغاية سعيهم .

هذا الخطاب الواضح المباشر بين حقيقة الغاية والهدف بجلاء.

أن يستقيم الميزان وأن ندرك حقيقة التفاضل وأن تظهر القيمة الحقيقية للأشياء التي مهما تزينت وتجملت واقتربت وسهلت منالها.

ستظل مجرد متاع .
ومتاع الدنيا مهما كثر فهو قليل.
والآخرة خير وأبقى.
فأيهما يستحق أن نحمل همه إذاً؟

## ٦ـ دينك دينك لحمك دمك:

سألتني متعجبة: هي إيه علاقة القدس بالدين؟!

صبية في مقتبل العمر هي؛ كانت قد سمعتني أتحدث مع أبيها عن القدس بحماس أثناءإحدى الانتهاكات التي حدثت وتحدث لمسرى نبينا ﷺ.

فطنت الصبية إلى وجود علاقة بين كلامي عن الأحداث وبين ما تستشف منه بفطرتها اليافعة أنه دين..

عندئذ تعجبت وسألت لتفهم.

كدت أبادر لألقي في نفسي باللائمة على والديها الذين لم يغرسا في وعيها الإجابة عن ذلك السؤال المهم أو على البيئة والظروف وعوامل الإغفال والإلهاء التي جعلت سؤالا بديهيا كهذا لا تبدو إجابته واضحة لصبية من بيت طيب كهذه.

إلا أن سؤالها في الحقيقة جرَّ إلى ذهني ذكريات قديمة كنت أظنها قد اندثرت لكنها على ما يبدو ظلت كامنة تنتظر الفرصة لتصعد إلى السطح وتجعلني أتمهل قبل المسارعة باللوم.

ذكريات كان عمري أثناءها أكبر بعض الشيء من تلك الصبية وكنت مثلها لا أعرف فعلا إجابة ذلك السؤال.

أو إن شئت فقل: كانت إجابتي عنه خاطئة تماما!

تلك الفترة من صباي ومراهقتي كانت في الحقيقة فترة خادعة..

فترة أراها اليوم تتسم في حقيقتها بالخواء وربما بالسطحية والخلو من معالي الامور والاهتمام بسفسافها.

كنت ككثير من الصبية والمراهقين أعظم ما يهمني في تلك الفترة = المتعة واللذة..

ورغم أن تلك المتع واللذات ولله الحمد لم يغلب عليها الطابع المادي ولا المحرم منه تحديدا إلا إنها تظل خاوية فارغة أو على أقل تقدير أنانية لا يعبأ صاحبها إلا بنفسه ومن يهمه أمرهم وحسب.

حتى برزت في حياة جيلنا قضية فلسطين.

كانت هذه هي بداية تغير الأمر بالنسبة لي ولكثير من أبناء جيلي.

كانت بداية الاعتناء بأمر له علاقة بالأمة وله صلة بما قامت عليه تلك الأمة. الدين.

حين انتفضت فلسطين للمرة الأولى في ثمانينات القرن الماضي كنت وقتئذ غلاما صغيرا لم أدرك تفاصيل ما يحدث ولم تجد الصور والحكايات التي تبقت من تلك الانتفاضة متسعا كافيا بين اهتماماتي اللهم إلا بما يخدم شغفي الأدبي وما ينتقيه الأدباء من تلك الأحداث ليضعوه في مروياتهم بشكل عابر يلخصه مشهد طفل يحمل حجرا في مواجهة دبابة.

والحق أقول أن المشهد رغم تواريه خلف زحام اهتماماتي التي أراها اليوم سطحية أنانية = إلا إنه كان يحمل دلالات ورمزيات تكفي لكي ترسخ في وعيي احتراما لأولئك الصامدين!

ولصمودهم..

و حين قرر الفلسطينيون أن ينتفضوا للمرة الثانية في مطلع الألفية الحالية كان الأمر مختلفا.

صرت حينئذ شابا يافعا يودع مراهقته ويوشك على ولوج الحياة العملية بآمالها وآلامها.

وصارت النظرة مختلفة.

حين قرر الفلسطينيون أن ينتفضوا انتفاضتهم الثانية التي عرفت بانتفاضة الأقصى بعد أن اقتحم الهالك شارون وجنوده باحات الأقصى واندلع الغضب في شوارع بيت المقدس ومنها إلى سائر حواضر المسلمين = كان الأثر في نفسي ونفس كثير من أبناء جيلي مزلزلا .

يمكنك اليوم أن تزايد كما تشاء وتقول وماذا صنع الغضب وماذا فعلت الانتفاضة وهل قدمت أو أخرت أو غيرت .

وربما تكون الإجابة على تساؤلاتك مرضية لمبدأ المزايدة المريح.

لكن يكفيني من تلك الأيام أنها بالنسبة لي على الأقل ولكثير ممن هم مثلي = كانت البداية .

بداية التغيير وإدراك أشياء كنا في معزل اختياري عنها.

عرفت وعرف كثير من غافلي جيلي إجابة السؤال الذي طرحته تلك الصبية التي أيقظت هذه الذكريات.

عرفت أنني جزء من أمة.

وأن لهذه الأمة قضايا عظمى وأمورا جساما ينبغي للمرء أن يعنى بها.

أن ثمة هموم أخرى خلاف تلك التي لا نفكر إلا فيها ولا تجاوز الوصف النبوي.

سفاسف.

ترهات.

تفاهات.

أشياء لا قيمة لها.

أو على أقصى تقدير أشياء تخيم عليها وعلينا الأنانية.

ثمة هموم أخرى ومعالي أمور لم نكن نعرف عنها شيئا.

هنالك هم الأمة وأمور المسلمين الذين من لم يُعن بشأنهم عليه أن يفكر مليا في حقيقة كونه منهم! .

صورة الطفل محمد الدرة وهو يلفظ أنفاسه برصاص اليهود بين يدي أبيه لم تكن هذه المرة لتمر مرور الكرام العابر.

ظلت تنغص نومي وتقض مضجعي في زمان لم يتعرف بعد على ألف درة بل ربما مائة ألف درة.

مشاهد تتوالى بمعدلات تعد هائلة بالنسبة لزمان لا يعرف شبكات التواصل وزحف الإعلام الذي نعيشه اليوم.

كل ذلك كان كافيا لأنتبه.

ولأبدأ البحث عن جذور الصراع وماهيته وحقيقته.

ولأعرف أن هناك قضايا للأمة.

بل أن أعرف أصلا أن هناك أمة.

وأدرك أن هذه الأمة جمعها دين.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢]

هذه الأمة وقضاياها - وفي القلب منها فلسطين - كانت بالنسبة لي المنبه الأول إلى الدين الذي جمعها.

قد يكون ذلك المسار مخالفا للمعتاد الذي جرى عليه حال الأكثرية حيث يعرفون ربهم ويتعرفون على دينهم ثم يتعرفون على القضايا المتعلقة به.

الأمر معي كان معكوسا حيث انتبهت للدين من خلال انتباهي لقضاياه.

وأزعم أن كثيرا من أقراني انتبهوا بالطريقة نفسها.

المهم أن التغيير قد وقع وأن الغافل قد انتبه .

وأن إجابة السؤال عن (علاقة القدس بالدين) = قد ظهرت وترسخت في ذلك الحين.

الإجابة التي تتلخص في حذف تلك ال(باء) التي تفصل بين الكلمتين ليكونا جملة تامة مكتملة من مبتدأ وخبر.

القدس دين.

قضايا الأمة دين.

مقدساتنا دين.

مسرى نبينا دين.

أولى قبلتينا دين.

ثاني بيت وضع للناس في الأرض ليعبدوا ربهم = دين.

ثالث مسجد تشد إليه رحال المسلمين = دين.

عرفت ذلك واعتقدته واعتنقته.

وعرفه من عاصروا تلك الحقبة الثرية وتفاعلوا معها في واقعهم الشخصي والعملي والسلوكي في وقت كان ذلك هو وجه التفاعل حين لم تكن «الماجريات» بنفس الكثافة التي هي عليها اليوم ولم يكن موضوع الساعة أو ما

يعرف ب «التريند» يتغير بهذه السرعة لينسى الناس بكل حدث ما كان قبله ولينشغلوا بتفريغ شحنات الحدث الجديد.

دارت هذه الخواطر كلها في ذهني وأنا أستعد لإجابة تلك الصبية من محارمي عن سؤالها الذي ظننته بديهيا.

نعم يا بنيتي.

القدس ثغر مفتوح وجرح لم يندمل.

قضية من أهم قضايا الأمة وهمومها.

وهم الأمة يا صغيرتي من هم الدين.

ودينك دينك لحمك دمك كما كان سلفنا يقولون.

دينك الذي بين الله أن طعنه = طعن لك لا يمر .

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢].

تأمل اللفظ القرآني جيدا لتدرك عمق القضية.

﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾.

يقصد هنا لو أساءوا للدين أو انتقصوا منه بأي صورة.

لكن اللفظ المختار هو الطعن وليستقر المعنى في روع المؤمن.

كأنما الدين جسد يود أعداؤه طعنه وعلى المسلم الحق ألا يسمح بذلك.

وأن يحمل همه.

إن همَّ الدين هو الهم الثالث المحوري الذي ينبغي أن يحمله الملتزم جنبا إلى جنب مع ما تحدثنا عنه من قبل؛ هم إرضاء الله والتعرف عليه أولا ثم هم الآخرة ثانيا.

هم الدين ينقسم إلى قسمين رئيسين.

هم دينك ابتداءً .

لقد كان رسولُ اللهِ ﷺ يقول: «**اللهمَّ أَصلِحْ لي ديني الذي هو عصمةُ أمري. وأصلِحْ لي دنيايَ التي فيها معاشي . وأصلِحْ لي آخرتي التي فيها مَعادي . واجعلِ الحياةَ زيادةً لي في كلِّ خيرٍ . واجعلِ الموتَ راحةً لي من كلِّ شرٍّ** » رواه مسلم.

تأمل هنا بنا بدأ به.

دينه.

عصمة أمره.

طريق نجاته.

هذا هو الشق الأول من هم الدين.

أن تشعر بقيمته وأهميته.

وأن تخشى عليه إذا داهمه ما يفسده وأن تسعى لإصلاحه إذا أصابه ما يمرضه.

إيمانك الذي قد يبلى ويهترىء في جوفك كما يبلى الثوب .

صحيفة أعمالك التي تمتليء في كل يوم بل في كل لحظة .

طاعاتك ومصلحات قلبك التي تدخرها ليوم لا ينفع فيه مال إلا من أتى الله بقلب سليم.

شهادة جوارحك التي عصيت الله بها والأرض التي عصيت الله عليها والملكين الذين لم تلفظ قولا إلا كتباه بكل دقة.

كيف حال وردك من القرآن؟

كيف حالك مع أذكارك وخشوعك ؟

كيف حال صلاحك الشخصي؟!

كيف حال قلبك؟

كل هذه أشياء تشكل أمثلة يسيرة مما يمكن أن يفكر فيه المرء وينشغل به من أمور دينه.

ويهتم.

ثم يأتي دين الأمة وقضاياها وهمومها.

وهذا تحديدا من أهم الفوارق بين العبد الصالح والمصلح فضلل عمن قرر أن يكون مجرد رقم آخر في تعداد المسلمين لا يشغل باله إلا بما تحت قدميه ولا يعتنى حتى بدينه.

فقط دنياه هي ما يشغله.

أتحدث عن المصلحين الذين هم صمام الأمان لأي أمة .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [سورة هود: ١١٧].
تأمل الكلمة مرة أخرى.
مصلحون.
يظن البعض أن الصلاح الشخصي والتعبد القاصر يغنيهم ويغني أمتهم عن الإصلاح في الأرض والنفع المتعدي.
والعكس.
والحقيقة أن الأمرين مترابطان ويجمعهما هم واحد.
**هم الدين.**
فأي مصلح ذلك الذي ليس لديه رصيد داخلي من الصلاح؟!
وأي مُغَيِّر هذا الذي لا يستطيع أن يغير نفسه أولا.
وأي برٍّ هذا الذي يأمر به الناس وينسى نفسه.
إن التلازم بين الصلاح والإصلاح أمر مطرد في كتاب الله .
يكفيك أن تتدبر في تلك الآية من سورة الأعراف والتي بدأها الله بذكر الصلاح من تمسك بكتاب الله وإقامة للصلاة ثم ختمها بوعد ألا يضيع أجر المصلحين.
فكان في ذلك إشارة إلى أن أولئك المصلحين لم ينسوا أنفسهم ولم يغفلوا عن طاعة ربهم بل تلازم صلاحهم مع إصلاحهم وارتبط نفعهم القاصر بنفعهم المعتدي.
فتأمل.
﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾
[الأعراف: ١٧٠]
لم يكتفوا بصلاتهم وتمسكهم بكتاب ربهم.
بل أيضا أصلحوا فكانوا كما ختمت الآية = من المصلحين.
بينما في المقابل كان الذم والنهي عن طاعة المسرفين الذين من صفاتهم أنه يمتنعون عن تلك القيمة ولازيحملون همها.
قيمة الإصلاح .

﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾

[الشعراء: ١٥١-١٥٢]

تلك القيمة التي تصدعت في نفوس جمع لا بأس به من الخلق بعد أن كانت يوما على ألسنتهم وفي قلوبهم وضمن همومهم.

كلمات مثل دعوة، دعاة، مدعويين .

تلك المصطلحات التي صارت عتيقة بعد أن غابت عن أذهان الكثيرين قبل أن تغيب عن واقعهم.

فقط أولئك الذين يحملون هم الأمة ويعنون بشأن المسلمين ويحيون بقيمة حمل الرسالة يدركون وقع تلك الكلمات جيدا.

يدركون ذلك الهمّ الذي كانوا يحملونه تجاه الناس ورغبتهم الصادقة في أن يذوقوا مما ذاقوا ويغترفوا مما اغترفوا.

ليس استعلاءً أو تفضلا ولكن إيمانا علامته أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه كما أخبرنا قدوتنا.

والمرء يحب لنفسه مرضاة الله والجنة.

وكذلك كان يوما يحبهما للخلق وإن جفوه وأنكروه وآذوه فمعذرة إلى ربهم ولعلهم يتقون.

اليوم تهاوت تلك القيم العظيمة في أنفس الكثيرين واستُبدلت بعداوات عامة شملت الفاسد والمفسد وعمت الرأس والذيل وغمرت التابع والمتبوع وأُطلقت على الضال والمضل والجاهل ومن جهله.

صار تمني الهداية وصلاح الحال وتبدل المآل = مندثرا في غياهب أنفس قررت تعميم الكراهية.

لا شك أن هناك مضلين ومفسدين.

وهناك من يستحق العداوة والبغضاء وأوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله.

وهناك من لابد من مفاصلته مفاصلة تستبين على إثرها سبيل المجرمين.

لكن هل هذا يشمل الجميع ؟!

هل رُفع التكليف بالبلاغ وزال همُّه وبطُل أمر هداية الناس الذي أوصى به النبي ﷺ في مقام مقارعة يهود خيبر قائلا لقائد جيشه علي رضي الله عنه: لئن يهدي بك الله رجلا واحدا خير لك من حمر النعم.

الجواب: لا.

لم تزل الدعوة مطلوبة ولم تزل الأمة مبتعثة ولم يزل التكليف قائما - بلغوا عني ولو آية.

وهذا التكليف لابد أن يقوم على شعور بالحرص والرغبة الصادقة في هداية الخلق

أو على الأقل جزء من الخلق.

جزء هو أحوج ما يكون للهداية التي قد يجعلك الله سببا فيها.

أنت... أنت أيها القاريء الكريم.

نعم أنت قد تكون سببا في هداية إنسان وتغيير واقع علاقته بالله إلى الأفضل

فقط إن حملت ذلك الهم الذي طالما حمله الأنبياء والصالحون المصلحون من قبلك.

همّ الدين .

لطالما كان هناك رجال من هذا الصنف الذي لم يحقر أفراده أنفسهم بل قاموا وقالوا الحق وأعلنوه ودعوا الخلق إليه

فعل ذلك أصحاب الكهف ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

ولكم تكرر هذا المعنى في كتاب رب العالمين ولكم ترسخ هذا المفهوم في كلام سيد المرسلين ولتستقر تلك العقيدة ولتضرب تلك القيمة بجذورها في قلوب المؤمنين.

قيمة البلاغ والصدع بالحق والرغبة في هداية الخلق بغض النظر عن الظروف والمعاملات والمؤثرات المحيطة وبدون تعليق الأمر على مظان الاستجابة من عدمها.

إنها قيمة غرس الفسيلة حتى لو كان ذلك بين يدي الساعة وتيقن استحالة إدراك الثمرة.

بتلك القيمة = "قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]

ورغم وجود نبيين أثناء تلك اللحظات الحاسمة التي أمر الله فيها بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة ومواجهة القوم الجبارين وقعود بني إسرائيل عن ذلك ورغم أن كثيرا من الناس سيعلقون هنا مسؤولية النصح والبلاغ على النبيين موسى وهارون عليهما السلام إلا أن رجلين من عوام الناس – على قول جمهور المفسرين- لم يفعلا.

إنهما رجلان أنعم الله عليهما بالتقوى والإيمان والفهم الصحيح والعقل الراجح قد استشعرا مسؤولية وعلما أن عليهما واجبا تجاه أمتهما فلم يحقرا نفسيهما كحال كثير من الناس بل تكلما ونصحا وصدعا وأعذرا.

صحيح أن بني إسرائيل لم يستجيبوا لهما لكن يكفيهما أن ربهما قد ذكرهما وأنعم عليهما وخلد سيرتهما بتلك القيمة التي تُبرز أرقى معاني الإيجابية والرغبة في تغيير الناس للأفضل مهما قست طبيعتهم ووعرت نفوسهم وصعبت استجابتهم.

وعلى الدرب نفسه سار من قبلهم مؤمن آل فرعون.

ذلك الرجل الذي كان يكتم إيمانه خوفا من بطش الطاغية مدعي الألوهية.

لكن تلك اللحظة التي برزت فيها قيمة الجهر بالدعوة والحرص على الأخذ بيد الخلق إلى الحق كانت قد آنت وحان موعدها ومن ثم تكلم الرجل وفاض ما في قلبه إلى لسانه وجوارحه التي ظهر عليها مدى خوفه على قومه ورغبته في هدايتهم .

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠-٣١].

لم يكن الأمر قاصرا على الدفاع عن موسى أو الذب عنه والتخذيل عن قتله كما يظن البعض.

بل لقد كان الأمر = دعوة .

موعظة وتذكرة عامة تقصد القلوب وتغمر الأفهام والألباب .

ولعل أعظم دوافع تلك الدعوة بعد ابتغاء مرضاة الله = ذلك الخوف المنبثق عن الهمّ الذي أشرت إليه.

خوف الحريص على أن يذوق كل الخلق ما ذاقه وأن يغترفوا مما اغترف.

خوف المشفق الذى يعلم ما ينتظر من لم يغترف .

من ليسوا متنبهين لحجم الخطر لا يخشونه على أنفسهم .

لكنه يخشى عليهم .

﴿ وَيَـٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾[غافر:٣٢-٣٣].

ما أجمل دعوته!

إن دعوته لهى دعوة الفطرة ، والحق ، والخير العظيم والنصيحة والحرص الأمين علي استنقاذ الخلق من العذاب المهين.

دعوة مزينة رقيقة يقطر منها الحرص وتفوح منها الرغبة فى الخير للمدعو.

أشرف وأحسن قول يمكن أن يوفق إنسان لقوله .

البلاغ عن الله .

لقد كانت دعوة مؤمن آل فرعون لمن يتأملها ويتدبر أركانها = نصيحة شاملة جامعة جمعت بين الترغيب والترهيب والتذكير وضرب الأمثال وحوت المنطق العقلى ، والمعالجة الإيمانية والبعد التاريخى وزينها تواضعه وأدبه واحترامه للمخاطب .

وهذه من أهم عوامل قبول الدعوة.

الأسلوب.

طرق الباب قبل الدخول.

الاستئذان بشكل مهذب رقيق ليس فيه اقتحام للخصوصية أو استعلاء أبوي أو جلد للمدعو وتقريع له .

شيء من الاحترام وعدم فرض النفس بشكل مبالغ فيه سيفرق كثيرا.

أن يشعر المتلقي أنك لم تأت لتستعلي عليه أو لتستعرض ما عندك أو تشعر وتشعره بفضلك فتلك من مفاتيح القلوب التي تسهل قبول الدعوة أو النصيحة.

هكذا كانت دعوة مؤمن آل فرعون.

ومثله كانت دعوة مؤمن آل ياسين .

لقد كانت هي أيضا من أوضح النماذج القرآنية التي يتجلى من خلالها هذا المعنى وتبرز تلك القيمة.

قيمة حمل الهمّ.

هذا الهم هو المحرك الأول للدعوة.

الدعوة المتجردة المنطلقة التي لا تعرف عوائق ولا تعطلها شبهات لعل أهمها عدم استشعار المسؤولية وعدم توقع حدوث التأثير أو انعدام الحاجة إلى قيام المرء بتلك الدعوة.

فظاهرا لم تكن الحاجة إلى ذلك الرجل ماسَّة ولم يكن الأمر عليه متعينا.

إن في مدينته أنبياء.

ليس نبيا واحدا ولا اثنين بل ثلاثة أنبياء كانوا هنالك .

وهو رجل عادي من عوام الناس فماذا عساه أن يزيد عليهم؟

ما الفارق الذي يمكن أن يصنعه في وجود كل هذا العدد من أفاضل الخلق وأحسنهم بيانا وأبلغهم حجة ومنطقا؟

وهل بعد تكذيب مدينته لأولئك المعصومين يُنتظر له استجابة أو يُظن به قدرة على التأثير؟!

ربما دارت كل تلك الأسئلة والخواطر في ذهن حبيب النجار كما تدور في ذهن كثير من الخلق معطلة إياهم عن الدعوة إلى الحق.

لكن هذه الافتراضات أو إن شئت فقل: الشبهات = لم تعطل مسعاه ولم تعرقل بذله ولم تعكر صفو نيته أو تقلل من همته بينما هو في طريقه من أقصى المدينة ساعيا مُجِدّاً في سيره ليبلغ مكان اجتماع الناس ومنتداهم .

ولربما استرجع في تلك اللحظات ما لقيه المرسلون من عنت وصدود وتكذيب .

ولعله قد دارت بخلده مشاهد الإهانة والتوبيخ التي قوبل بها أولئك الأخيار والتي تجعل غالب الظن بعد كل ذلك أن يلقى ما لقيه أئمة الحق أو أشد..

لكنه كما سبق وقدمنا مع ذلك = ما انفك عن السعي وما تباطأ به المسير أو قعد عن البذل!

إنه رجل يعرف هدفه جيدا ويدرك أبعاد قضيته بشكل واضح ويعلم أن مناط تلك القضية ليس مطلق ترتب الثمرة ولا حصول الاستجابة فتلك أمور بيد مولاه، لكن الصدع بالحق كان هو مبتغاه والبلاغ عن الله كان هو غاية مسعاه.

لذلك جاء..

ومن أقصى المدينة سعى..

ومن أعمق أعماق نفسه صدع: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [يس:٢٠].

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [يس:٢١].

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [يس:٢٢].

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ... ﴾

[يس:٢٣-٢٥]

كلمات نورانية رقراقة تخاطب العقل والروح معا في آنٍ واحد، نطق بها الرجل في هذه الظروف العصيبة ورغم كل ذلك التكذيب وتلك العوائق والعقبات التي واجهت من هم أعلى منه منزلة وأجل قدرا.

ولئن كان من متعذر عن الدعوة إلى الحق والصدع بكلماته لوجود مظنة التكذيب وتوقع عدم الاستجابة = لكان رجل يعيش بين قوم كذبوا ثلاثة أنبياء ولم يقبلوا منهم حقا ولم يصدقوا منهم حرفا وما استجابوا لهم هو أولى الناس بذلك.

هو أولى الناس بأن يقطع الطمع في هداية الخلق أو يفقد الأمل في هدايتهم إلى الحق؟

لكنه لم يفعل..

ولم يتعذر ولم يتلكأ.

لم يحقر نفسه ولم يتحجج بعدم أهمية قوله أو يحتج بقلة قيمة صدعه.

بل جاء من أقصى مدينته وسعى وتكلم وصدع ونصح ووعظ .

ولقد أعذر.

فأي همة تلك؟!

وأي إصرار هذا الذي استقر في نفسه؟

وأي همٍّ وحرص ذاك الذي بدا على كلماته وأفعاله ؟!

إنه الحرص على أن يعلم الناس عن ربهم مهما كان الثمن.

ولئن كان الثمن حياته نفسه فسيدفعها عن طيب خاطر.

فقط لكي يكون قومه ممن يعلمون..

لعل أشد ما يثير الدهشة والعجب في تلك القصة وذاك الموقف القرآني الباهر هو الموطن الذي قيلت فيه تلك الكلمة: يا ليت قومي يعلمون.

لقد قال الرجل تلك الكلمات في دار غير الدار وحال غير الحال.

لقد قالها وهو يكاد يدلف إلى الجنة!

خرجت منه تلك العبارة بعد أن دفع الثمن بالفعل .

قالها بعد أن قتله قومه ونال على أيديهم الشهادة .

رغم ذلك كان كل همِّه أن يعلموا!

كانت رغبته وما يشغل ذهنه أن يدرك الناس ما عند الله من المغفرة والإكرام

إنه مشهد يجسد حرصا غير عادي وتفانٍ منقطع النظير ورغبة عارمة في هداية الخلق وتعريفهم بالحق..

حتى بعد موته ظل همُّه وبقيت رغبته في هداية الناس يقظة وحرصه على نصحهم وإرشادهم متأججا فقال حين عاين النعيم وأبصر الجنة: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس:٢٦-٢٧].

في ذلك المقام الذي كان من الممكن أن ينشغل فيه عن كل ذلك بالطيبات التي بها أُكرم وينسى واجب البلاغ.

لكنه أيضا لم يفعل، فلم ينقطع أمله في قومه ولم يتكاسل عن نصحهم وبذل الوسع في الأخذ بأيديهم طالما كان فيه عرق ينبض.

بل استمر على شأنه هذا حتى بعد أن لم يعد ذاك العرق ينبض وانتقل إلى دار القرار فلم تعطله كما قلت شبهة ولم تعوقه مزاعم جوفاء أو أفكار سلبية مثبطة تنتشر للأسف بين كثير ممن ابتلي بتخذيلهم المسلمون .

من أخطر تلك الأفكار السلبية التي تحطم ذلك الهم - هم هداية الخلق = فكرة اليأس من هدايتهم وقطع الطمع في تغييرهم .

افتراض استحالة الإصلاح والجزم بفساد الناس المطلق والتام.

والحقيقة أن قطع الطمع في تغيير النفس أو الآخرين ليس من اختصاص البشر والذي يقع فيه البعض من الجزم بمآل الناس بشكل قاطع وحاسم هو أمر يحتاج إلى إعادة نظر خصوصا عند استحضار تلك الكلمة القرآنية التي وُصف بها فعل نبي الله يونس عليه السلام حين قرر من تلقاء نفسه أن يغادر القوم الذين أُرسل إليهم.

كلمة أبق...

يا لها من كلمة

إنه اصطلاح يوصف به العبد الذي غادر سيده بغير إذنه.

ولماذا هذا الوصف الشديد؟

هذا ببساطة هو ما أتحدث عنه.

أمر من شأن الخالق وليس للعبد أن يقرر قطعه من تلقاء نفسه.

إنه الأمل.

الأمل في هداية الخلق وتغييرهم للأفضل.

هذا الأمل لا ينبغي أن يُجزم بقطعه من دون وحي منزل من الله.

وحي كالذي قيل لنبي الله نوح عليه السلام:

﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦].

لاحظ متى قيلت ومن القائل.. لقد قيلت بعد ألف سنة إلا خمسين عاما.. ومن قالها هو الله الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

ولاحظ أيضا كيف كان حال نوح قبل هذا القطع من الله.

دعوة متفانية لمئات السنين وبكل الأسباب الممكنة ولقوم نفوسهم يقينا من أبشع النفوس وقلوبهم من أقسى القلوب وكفى بإصرارهم على كفرهم ونسبته الساحقة دليلا على ذلك المحل الفاسد الذي ما آمن منه إلا قليل.

ومع هذا لم ييأس نوح ولم يكل أو يمل ولم يدع عليهم بالهلكة أو يسخر منهم إلا بعد هذا الإخبار الإلهي ألا فائدة منهم ترتجى ولا صلاح منهم ينتظر.

فهل لدى قاطعي الأمل في الناس اليوم مثل هذا الخبر اليقيني؟!

وبالأمل في التغيير والإصلاح خلد ذكر الناهين عن السوء في قصة أصحاب السبت.

أولئك الذين حاول المثبطون تخذيلهم وإبطاء دعوتهم ونصحهم متحججين بهلاك الناس لا محالة ومدعين أنه لا سبيل لهدايتهم ولا قيمة لوعظهم ودعوتهم فقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟

فكان الرد من الناهين عن السوء حاسما ساطعا براقا: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

لاحظ الأمل في قولهم: لعلهم يتقون.

لا تدري مصيرهم مهما بلغ غيهم فلعلهم في النهاية.. يتقون.

طالما لم تطلع الشمس من مغربها ولم يغرغر المرء بعد ولم ينزل من عند الله نبأ يقطع الطمع في تغييره ويغلق بوابة الرجاء في عودته، وطالما لم يجزم وحي منزهٌ معصومٌ بفساد مآله واستحالة هدايته، فلم تزل الفرصة قائمة ولم يزل باب المعذرة لربنا مفتوحاً على مصراعيه ولم تزل المحاولة وبذل الوسع خياراً وسبيلا ولعلهم يتقون.

أما إن كان هناك ما يضاد هذا الذي سبق فعندئذ فقط.. ينقطع الأمل.

ويزول الهمْ.

أيضا من أخطر هذه الأفكار السلبية والشبهات المعوقة عن الدعوة والتي يصر هؤلاء على بثها = تصوير الدعوة على أنها من التدخل في شؤون الغير وكيف أن المرء لا شأن له بغيره ولندع الخلق للخالق.

وكأن هؤلاء لم يقرأوا بين دفتي المصحف كل ما سبق الإشارة إليه من النماذج التي تصيح أحداث قصصها ببطلان مزعمهم.

لم يطلعوا في سورة الكهف على قصة صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن وكيف ظل هذا الأخير يحاوره ويكلمه ويعظه ويحذره من مغبة أفعاله لدرجة أن قالها له صريحة في النهاية: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٣٧-٣٨]

بمنطق هؤلاء المثبطين عن الدعوة فإن الرجل المؤمن أخطأ بسؤاله لصاحبه وأجرم بنصحه له وتدخله في شؤونه وكان عليه أن يدع الخلق للخالق ويتركه في حاله أو أن يستدعي شيخا بعمامة ليعظه ويذكره بالله!

هل يعقل أن يذكر لنا ربنا تلك القصص لنرفض ما فيه والقيم التي تغرسها عن رجال من عموم الناس قاموا بالحق ودعوا إليه في كل زمان ومكان ليسوا بأنبياء ولا مرسلين بل هم بشر عاديون غير معصومين، جمعت بينهم الدعوة إلى الحق الذي عرفوه والإيمان الذي خالطت بشاشته قلوبهم وامتزج ضياؤه بقناعة عقولهم فلم يملكوا كتمانه بل فاض من تلك القلوب حتى عبر الألسنة وتجاوز أصحابها إلى غيرهم.

أناس لم يشترطوا على ربهم أن تنجح دعوتهم، ولا أن تثمر مسيرتهم، فكان حالهم ومآلهم نموذجا عمليا وتطبيقا واقعيا لتلك القاعدة الربانية: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف: ٢٩].

وإن من الناس من يظن أن دعوته مرتهنة بمظنة استجابة الناس له وطلبهم لسماعه وقبولهم لقوله، فإن غلب على ذلك الظن أنهم سيستجيبون نطق وإن آنس منهم رغبة في سماعه تكلم ونصح، وإن كانت الأخرى سكت وكتم وأعرض؛

قد طابت نفسه وارتاح ضميره بمسكنات «لا فائدة » ومهدئات «هلك الناس »، ونسي هؤلاء أو تناسوا أن المرء إنما يدعو لينجو، وينصح ليُرضي ربا لم يتعبده بالنتائج ولم يكلفه بالثمار، وأنه أحوج إلى النطق بالحق والدعوة إليه من أولئك الذين يسمعونه سواء أستجابوا له أم لم يستجيبوا، متمثلا نهجا قويما لطالما سلكه الدعاة وأقره كتاب الله.

نهجا فحواه: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤]..

وما يدريه ألا يكونوا من أهل قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ؟

وذلك الأمر دائما ممكن..

**لعلهم يتقون..**

مهما كانت طبيعة المدعو أو حالته أو المكان الذي يتواجد به أو الظروف التي يحياها = فإن هدايته ممكنة.

والسعي لإيقاظ مشعل الهداية لتقتدي به النفوس التائهة = مُراد ومطلوب.

في هذا المكان البئيس الذي يجتمع فيه عادة شرار الخلق من السراق والقتلة والغاصبين وقد يندر أن تجد بارقة نور ولمسة صلاح = وجد سجينان جنائيان ذلك المشعل.

**مشعل الهداية.**

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

كان هذا هو المعيار الذي بنيا عليه لجوءهما إليه وتلك كانت الصفة التي أخذت بقلبيهما إليه.

لقد التمسا في نبي الله يوسف عليه السلام سمتا حسنا وخلقا وورعا جعلوه أهلا للسؤال ومظنة للإجابة.

لم يكن لسؤاليهما علاقة بمعتقده أو معتقداتهما.

لم يسأله صاحباه عن ربه ولم يشاوراه في شأن أربابهما.

السؤال كان عن رؤيا...

عن حلم رآه كل منهما..

لكن إجابة نبي اللع يوسف كانت في صميم العقيدة.

وقبل أن يسارع بتأويل الرؤيا وإجابة السؤال تذكر رسالته والهم الذي يحمله في صدره.

نظر إلى حال المخاطبين وتأمل طبيعة المتلقين فكانت الرسالة قبل الإجابة والدعوة قبل النفع المباشر.

في البدء كانت الطمأنة أن الجواب لديه.

﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾[يوسف: ٣٦].

هكذا قرر يوسف عليه السلام وبين أنه على علم بالتأويل وأن مطلبهما عنده وزيادة لكن ذلك كله ليس بفضله أو بكسبه وإنما هو من عند ربه وهنا يأتي التدرج في توصيل المعنى والرسالة التي يريد لها أن تصل.

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف:٣٧].

لقد أدار دفة الحديث إلى أمر الدين بشكل سلس ويسير ثم استمر في رسالته وأداء مهمته.

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:٣٧-٣٨].

هكذا عرف يوسف عليه السلام نعمة الله عليه ولم تنسه إياها تلك الجدران الرطبة والأسوار العالية التي هو حبيس بداخلها والنعم التي هو محروم منها فكل ذلك يهون مادامت النعمة العظمى موجودة - نعمة الحق وشرف معرفة خالقه وتوحيده وعبوديته.

هكذا عرف النعمة وشكرها ثم عرَّف الخلق بها ودعاهم لمعرفتها ومعرفة من أنعم بها.

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[يوسف:٣٩-٤٠]

دعوة رقيقة راقية ومنطق سهل بسيط والأهم رسالة لا ينساها حاملها.

ثم بعدها جاءت إجابة السؤال وتأويل الرؤى.

لكن الأهم كان ذلك الهمّ الذي يشغله.

همّ.

همّ لا يفارق الصدر.

ويحرك اللسان والجوارح.

همّ إنقاذ صاحبيه من ظلمات الشرك في الدنيا ونيران الجحيم في الآخرة.

ذلك الهمّ الذي نسيه البعض اليوم والذي لم يعد يشغلهم في ظل حمى التأطير والتصنيف المتبادل.

همّ أخشى أن يتحول بعد حين إلى تاريخ يُتحاكى عنه بعد أن يندثر تحت طبقات سميكة من اليأس والتيئيس وتصفية الحسابات وسوء الظن والصراع المحتدم الذي يجعل الناس في النهاية إما أعداء وإما أولياء.

إنه همُّ الدين .

دين الأمة.

دين الناس.

همّ الدعوة إلى الحق والحرص على هداية الخلق.

عندما يستعيد حملة الرسالة تلك القيم وتتعالى من جديد في نفوسهم سيدركون أن كثيرا من تلك الجدالات والاستدراج إلى مراء وصراعات لم تكن دائما هي الأوْلى وأن إجابات أخرى وهموما مختلفة كانت أولى بقلوبهم وصدورهم .

فقط لو كانت قلوبا صادقة في حملها للرسالة وتحملها للأمانة.

ولو وُجد الهمُّ.

همُّ دينك.

الذي هو أغلى من لحمك.

ودمك..

**٧. لسانه:**

بالله عليك.

جزاك الله خيرا.

وإياك.

ولك بمثل.

وجزاك خيرا مثله.

شكر الله لك.

بارك الله فيك.

الله يرفع قدرك.

الله يعزك.

أحسن الله إليك.

الله المستعان.

أحبك في الله .

اللهم أطعم من أطعمنا واسق من سقانا.

أكل طعامكم الأبرار.

كفارة المجلس.

ما سبق يمثل بعض نماذج من كلمات كانت يوما تعد علامة على الملتزمين أو المنتسبين للتدين بشكل عام.

كانت تمثل طابعا أصيلا يشي أن المتكلم بها يحمل هما وفكرا يظهر على سلوكه وكلامه .

قد يعتبر البعض أن جزءا منها متكلف أو أنه يقال في غير موضعه إلا أنني كنت دوما أعتبرها نوعا من الارتباط القولي بالشريعة وآدابها .

أعتبرها من قول المعروف والحسن المأمور بهما شرعا.

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣]

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]

«**الكلمة الطيبة صدقة**».

هذه بعض نصوص شرعية تبين قيمة الكلمة الطيب ولين الكلام الذي يرقى بصاحبه إلى غرف الجنة كما صح عن النبي ﷺ.

لا شك أن هذه النوعية من الكلمات وما كان على شاكلها إن لم تكن من السنن القولية المندوبة = فإنها تدخل على أقل تقدر في باب الكلام الطيب والذي لا يخلو من ذكر وتذكير.

ولقد كانت – ولم تزل – هذه النوعية من الكلمات محل سخرية الناقمين على هذا المنهج واستهجانهم .

أفلام ومسلسلات كانت تتخذ من أصحاب ذلك السمت أضحوكة يتندرون بها أو يشوهونها ويعتبرونها نوعا من الطرف .

مقالات وأطروحات يصر أصحابها أن هذه الطريقة في الكلام تعد طمسا لهوية قومية يعتزون بها أو أنها تحمل دلالات تأثر وانبطاح لفكر تم استيراده مع سطوة النفط إلى آخر تلك المحاولات المعتادة للتحقير والازدراء للفكر نفسه وكل ما يمت له بصلة.

الغريب أن طبيعة الساخرين من هذا الفكر ولوازمه القولية أو علاماته = قد تغيرت في الآونة الأخيرة أو يمكنك القول أنها اتسعت لتشمل بعض أصحاب والمنتسبين إليه أنفسهم.

بعض من قرروا الانسلاخ والتمرد على هذا السمت أو المنهج بدعوى تجديد أو إصلاح = لم يميزوا بين أخطاء التطبيق وما لحق بها من آفات الأتباع وبين ما هو منه أصالة وصلة بالمنبع نفسه.

صلة بكتاب الله وسنة نبيه.

بعض المنتسبين للالتزام والمفترض بهم الصلاح والذين يزينهم سمت التدين يسخرون صراحة من هذه الجمل التي يعد أكثرها تسننا بالنبي ﷺ ويدعون أن هذا من تكلف التحدث بفصحى لا مجال لها بين أناس يتكلمون العامية .

هزيمة نفسية طافحة وانكسار واضح يجعل هؤلاء يستحيون ويتحرجون من هدي نبيهم ﷺ ومن تبعه بإحسان لمجرد أنها لا تتماشى مع سطوة اللهجات والعاميات.

بل ولقد قرر بعضهم استبدال تلك الطريقة بما هو ضدها تماما ولم يكتفوا بهزيمتهم نفسيا وضعفهم أمام غلبة ألسنتهم السليطة بل ونسبوا كل ذلك للشرع

وبعد أن كان جُل كلامهم ينضح بذكر الله وطيب القول وبعد أن كنت لا تخطىء حسن سمتهم وضبط ألفاظهم وحرصهم على قول التي هي أحسن فإذا ندت منهم غفلة أو غلبت على أحدهم لفظة من ميراث ما قبل الالتزام بحكم العادة فإنه كان يسارع للاستغفار معتذرا في حياء.

بعد أن ظل أعواما يجاهد لسانا يُكَب الناس على وجوههم يوم القيامة بحصائده .

وبعد أن كان يجاهد نفسه ليضبط كلمات الواحدة منها في سخط الله قد تهوي به في النار سبعين خريفا.

وبعد أن استقام له لسانه وانضبطت كلماته وصار لا يعرف منه إلا الخير وإن لم تصبك منه ريح طيبة فلن يؤذي مسامعك من جهته لفظ خبيث.

بعد كل هذا قرر أن ينقلب شخصا آخر وأن يستبدل لسانه بآخر بـذيء يقطر منه الفحش وتنضح منه القذارة.

صار من النادر أن تمر عبارة من عباراته سالمة .

لابد من ختم البذاءة في كل جمله أو جلها.

لابد من تلميح إباحي هنا أو إشارة جنسية هنـاك أو سـب لوالـدين هنالـك أو لفظ خارج كان يوما إذا سمع أهون منه احمر وجهه وحمد بلسانه وقلبه ربا عافاه مما ابتلي به غيره.

اليوم صارت مرادفاته فاجرة ومفرداته ماجنة ونعوت عباراته سافلة وتراكيبه فاحشة ومزحاته بذيئة فاسقة.

نادرا ما تلمس في كلامه ذكـرا لمـولاه أو تصـادف في تعليقاتـه تـذكيرا بـالله أو تجد في عبارته رفقا ومناجاة .

لا تكاد تجد ثمة فارق بين ما يقول أو يكتب وبين ما يتكلم به عتاة أهل الفسق.

من هذا؟

ماذا دهاه؟

ماذا تغير في وسيلته ومبتغاه؟

أين حسن سمته وطيب مسعاه؟

هـل نـادى منـادٍ مـن السـماء أن البغـي اللفظـي حـلال و البـذاءة مسـتحبة والفحش مستحسن والاستطالة في الأعراض لم تعد أربى الربـا فلمـا سـمع ذاك المنادي سارع إلى تلك البضاعة المزجاة؟

أم تراه قد زال عنه التكليف ورفع عنه القلم؟

إن الأصل الثابت شرعا هو ضد كل ذلك

كم الأحاديث والآثار وأقول الصحابة والتابعين والعلماء التي تصرح بكـون الأصل هو ذم البذاءة والفحش = أكبر من أن يحصيها مقال أو فصل من كتاب

عـن عبـد الله بـن مسـعود ﵁ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «**لـيس المـؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء** ».

وعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «استأذن رجل على رسول الله ﷺ، فقال: ائذنوا له، بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة، فلما دخل ألان له الكلام. قلت: يا رسول الله، قلت الذي قلت ثم ألنت له الكلام. قال: أي عائشة، **إنَّ شرَّ الناس من تركه الناس**- أو ودعه- **الناس اتقاء فحشه**».

وعن عقبة بن عامر- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: « **حسب الرجل أن يكون فاحشا بذيا بخيلا جبانا**» .

وورد عن النبي ﷺ بإسناد فيه مقال : « **ألا إن البذاء لؤم**» وورد عنه أيضا بإسناد أصح أن البذاءة شعبة من النفاق .

وعن أبي هريرة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار**».

وعنه أن النبي ﷺ قال: «**إياكم والفحش والتفحش، فإن الله لا يحب الفاحش المتفحش**».

وعن أبي الدرداء- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن النبي ﷺ قال: «**وإن الله ليبغض الفاحش البذيء**» .

وعنه أيضا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة**» .

وعن أنس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه، ولا كان الحياء في شيء قط إلا زانه» .

عن جابر بن سمرة-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: كنت جالسا في مجلس فيه رسول الله ﷺ وأبي سمرة جالس أمامي فقال رسول الله ﷺ: «**إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن خير الناس إسلاما أحسنهم خلقا**» .

وقد روى مالك عن يحيى بن سعيد أن أن عيسى بن مريم عليه السلام لقي خنزيرًا في طريق فقال له: انفذ بسلام. فقيل له: تقول هذا لخنزير؟ فقال عيسى ابن مريم: إني أخاف أن أعود لساني المنطق السوء. ( مرقاة المصابيح)

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « ألأَمُ خُلق المؤمن، الفحش».

- ورأى أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امرأة سليطة اللسان، فقال: لو كانت هذه خرساء، كان خيرًا لها .

وعن إبراهيم بن ميسرة قال: يقال: الفاحش المتفحش يوم القيامة، في صورة كلب، أو في جوف كلب.

– وعن عون بن عبد الله قال: ألا أنَّ الفحش والبذاء من النفاق، وهن مما يزدن في الدنيا، وينقصن في الآخرة، وما ينقصن في الآخرة أكثر مما يزدن في الدنيا.

– وقال الأحنف بن قيس: أولا أخبركم بأدوأ الداء: اللسان البذيء، والخلق الدنيء.

ما سبق غيض من فيض يرسخ للقاعدة التي ينبغي أن يكون الحيد عنها لا يغادر أمرا من اثنين.

استثناء مسبب ومعتبر.

ضعف وزلل .

أما أن تشرعن البذاءة ويصير الفحش والتفحش هو السمت الجديد ويحتج على ذلك بأدلة ترتبط بموقف عابر أو ظرف محدد زعما أن الظروف الآن قد تغيرت والمحن قد أملت الوضع الجديد = فهذا خطر حقيقي .

خطر على فهم الدين نفسه قبل أن يكون خطرا على القلب أو على ميزان الأعمال والأقوال.

أي تغيرات أو ظروف أو محن تلك التي تغير حكما مطردا ثابتا وتنقله عن أصله.

الحقيقة أن الأخلاق لا تظهر حقيقتها إلا في المحكات.

هذه قاعدة محكمة .

لن يظهر حسن او سوء خلق المرء إلا عندما يختبر ذلك .

طالما هو في رخاء والأمور طيبة ومستقرة فكيف سيعرف أنه صبور قادر على تحمل الأذى أو ساخط غير مطيق للبلاء.

وطالما هو في مودة ووفاق مع غيره ولم يحدث أي اختلاف بينه وبينهم فمن أين سيعلم أنه متعصب غضوب أم هو منصف قادر على الحوار والتفاهم .

ومن أين سيدرك أنه سيء الأدب بذيء اللسان فاحش القول إن لم يوجد من يستفزه ويحرك مكامن تلك السلوكيات القابعة في أعماق نفسه تنتظر تلك اللحظة التي تجد فيها من يحركها لتخرج بكل بشاعتها وقبحها.

نعم إنها الشدائد والمحن التي تظهر وتميز الدعي من الحقيقي والكاذب من الصادق والمرائي من المخلص.

إنها الابتلاءات التي تبين المعدن الحقيقي للإنسان وهل هو يردد مجرد شعارات جوفاء ويعلي مجرد مبادىء صورية سرعان ما تنهار عند أو محك أم أنه فعلا يعتقد ما يقول ويمارس ما يدعو إليه .

أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين.

وهذا هو المعنى الحقيقي والأهم للفتنة وليس فقط ما يصر البعض على حصر الفتنة فيه من كونها التباس في الرؤية وعدم وضوح الحق من الباطل.

لكن الفتنة من مادة ف.ت.ن .

وأصلها فتن الذهب أي صقله وصفاه ليخرج ويصفي ما فيه من الخبث.

وهذا هو ما نراه اليوم بكل وضوح.

كم من ثوابت وشعارات ومبادىء وأخلاق توطأ بالأقدام ويلقى بها عرض الحائط لأن صاحبها ومرددها رسب في الاختبار وسقط في امتحان البلاء واختبار الضراء أو السراء.

إن الأزمات، والابتلاءات، وعدالة القضايا، وسلامة المقاصد ليست مبررات أو مرخصات للتنازل عن الثوابت والمبادىء الشرعية والأخلاقية.

ومن كانت مبادئه وثوابته مرتبطة بمشاعره وردود أفعال مخالفيه وجودا وعدما فهي في الحقيقة ليست مبادىء ولا ثوابت ولا أخلاق لكنها بالنسبة إليه مجرد شعارات يمتطيها وقت الحاجة وقد صح عن النبي قوله: « **ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل من إذا قطعه الناس وصلهم.....** »

والحديث معناه أن المرء حين يصل ما أمر الله به أن يوصل فإنه لا يفعل ذلك كمقابل أو مكافأة لمن يصلهم ولكنه يفعله لأنه الصواب ولأنه قبل أي شيء يعامل الله وليس الناس.

من فهم ذلك وجعله نصب عينيه سهل عليه معه أن يحسن ويصبر ويدفع السيئة بالحسنة لكن من ظل الارتباط عنده بين أخلاقه وثوابته وبين حالته النفسية ومزاجه الشعوري وحبه او بغضه فإنه لن يطيق أن يطبق ما يدعو إليه وستفضحه الشدائد وتعري حقيقته الأزمات وتظهر خبث سريرته الاستفزازات والملمات.

وليس الأمر دوما عبارة عن منافسة الغاية فيها الرد بالمثل.

صحيح أنه حق للمساء إليه والمظلوم ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] و﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء: ١٤٨].

إلا أن هذا الحق ليس ملزما بل غالبا ما يتبعه حض على تركه والعفو ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣]

التفكير المنطقي البسيط يقول ذلك أيضا.

إصرارك على رد كل شر يصيبك بمثله وحرصك على معاملة من ساءت أخلاقهم معك بنفس أخلاقهم نتيجته المنطقية = أن تصير أسوأ من آحادهم!

ببساطة سيحدث ذلك لأن الواحد منهم إن أساء فقد أساء في باب بعينه أما أنت فقد اقتديت بهم جميعا فاجتمعت فيك خصال السوء التي تفرقت بينهم .

هذا كذب فلتعامله بالكذب.

وهذا خان فلتخنه أنت بدورك.

وهذا في خصومته فجر وذاك غدر وهذا اغتاب وذاك سب وفحش.

فلتفعل أنت معهم نفس ما اقترفوه في حقك وحينئذ فلا تدهش حين تستيقظ وقد نظرت في مرآتك فوجدت كاذبا خائنا غادرا مغتابا فاحشا بذيئا.

لا تدهش وقد أعرضت وتجاهلت وصية إمامك ﷺ .

أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَك، وَلا تَخُنْ مَنْ خَانَك.

تأملها مرة أخرى..

ولا تخن من خانك.

ليس الخائن قدوة لك.

وليس بالباطل يستجلب الحق.

وكل إناء بما فيه.. ينضح.

صحيح أن الانحدار في اللفظ والإسفاف في الأسلوب له شهوة خفية خصوصا في أوساط الشباب وتحديدا في مواقع التواصل وهو يجلب الكثير من التفاعل خصوصا إن احتوى على تلميحات وربما تصريحات جنسية أو بذاءات لفظية.

وأحيانا تكون النية المزعومة دقة التوصيف أو الحديث بلغة العصر لتبسيط المعنى وتوضيحه وجذب.

لكن هذا ليس سمتا ودأبا للصالحين وليست أبدا طريقة الشرع.

في كتاب الله النموذج والمثل لرقي العبارة وعذوبة اللفظ حتى عند ذكر مواقف قد يقتضي في زماننا لتوضيحه شيئا من التصريح .

مثلا موقف مراودة امرأة العزيز لنبي الله يوسف عليه السلام.

الموقف بتعبيرات هذا الزمان = موقف جنسي فيه امرأة تريد الفاحشة وتفعل الأفاعيل لتقترفها.

لكن ارجع لوصف ذلك المشهد في كتاب الله = ستجد تمام المعنى قد وصل للقارىء وبشكل مكتمل دون أي لفظ جارح أو كلمة نابيّة أو مصطلح خادش للحياء.

وذلك الأخير - الحياء - هو بالمناسبة = خلق هذا الدين بلفظ النبي ﷺ «**إِنَّ لِكلِّ دِينٍ خُلُقًا وخُلُقُ الإسلامِ الحَياءُ**».

في سورة يوسف تم المعنى ووصل بأرقى لفظ وبأبهى عبارة ودون أي تدنٍ في دركات البذاءة أو تردٍ في مهاوي الفحش والتفحش رغم حساسية الموقف الموصوف.

لماذا لا يعود الاقتداء بهذا الأسلوب القرآني العظيم ومثله في كلام من كان خلقه القرآن.

لماذا لا نرتقي في توصيفنا ونقاشنا قدر المستطاع فلا يكون خلاف ذلك إلا على سبيل الاستثناء ولحاجة كما هو الحال في الأدلة المعدودة التي سيسارع البعض لوضعها كالعادة لبيان الجواز والذي هو ليس ما أتحدث عنه أصلا.

ما أتحدث عنه - مقرا وجود الاستثناء = أن يكون رقي اللفظ وحياء الإشارة وجمال العبارة هو الأصل والسمت وما دونه هو الاستثناء لحاجة أو لضرورة.

أن تعود هذه الخصلة لمكانه الطبيعي في حياة الملتزمين وأهل الصلاح.

خصلة عفة اللسان ونقاء اللفظ واختيار التي هي أحسن.

أن يعود لسان الملتزم = لسانا ملتزما.

**٨ـ كي نسبحك...... وعلى جنوبهم:**

لما أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون ليدعوه ابتداء ثم ليرسل معه بني إسرائيل الذين كانوا محل استضعافه واضطهاده = طلب موسى من ربه عدة أمور.

جل تلك الأمور كانت تتناسب ظاهريا مع المهمة العظيمة التي كُلف بها.

- رب اشرح لي صدري.
- ويسر لي أمري.
- واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي.

كل ذلك متوقع وواضح.

هو ذاهب لدعوة أحد أقسى الطغاة الذين عرفتهم البشرية إن لم يكن الأقسى على الإطلاق فمن الطبيعي أن يطلب شرح الصدر لهذه المهمة وتيسير الأمر وطلاقة اللسان وكل ذلك علته مواضحة وهدفه ظاهر.

بيان الحجة ووضوح الدعوة.

ثم جاء المطلب الأخير .

العون والسند.

شد الأزر والدعم.

الوزير والصاحب صاحب اللسان الفصيح والحرص على أداء المهمة بإخلاص لا يقل عن إخلاص موسى عليه السلام.

واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري .

طبيعي أن يطلب العون على هـذه المهمـة الثقيلـة ويبتغي مـن يشـد مـن أزره وليس من أحد أنسب لهذه المهمة من أخيه المحب المخلص الذي سيقف معـه في مواجهة الطاغية.

لكن ثمة مفاجـأة أتـت بعـد ذلـك حين بـين موسـى عليـه السـلام علـة مطلبـه ومقصده الأسمى.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:٣٣-٣٤].

هذه ليست أبدا هي العلـة التـي تتبـادر إلـى الـذهن حين ينظـر المـرء لسـياق الأحداث.

- ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:٣٣-٣٤].

هذا هو المقصد الأسمى وتلك هي الغاية العظمى.

التسبيح والذكر.

لأجل ذلك طلب موسى أن يبعث الله معه أخاه هارون وزيرا.

لـيس يتحـدث هنـا عـن عـون مـادي أو دعـم ملمـوس ولكنهـا الإعانـة علـى التسبيح والذكر!

والعجيب أن التسبيح = ذكر.

لماذا إذاً هذا التفصيل؟

إجابة هذا السؤال تظهر حقيقة تلك العلة وذلـك المقصـد الـذي نغفـل كثيـرا عنه حين نتحدث عن الذكر أو نتصوره..

الذكر في الذي هو في حقيقته يحمل معنى أشـمل كثيـرا مـن تمتمـات غامضـة وهمسـات غيـر مفهومـة يحـرك بهـا الـبعض شـفاههم أثنـاء مـرور أصـابعهم علـى حبـات المسـبحة أو يضـغطون رز عـداد التسـبيح الإلكـتروني بشـكل روتينـي لا يحمل باطنه كثيرا مما يبدو على ظاهره!

**الذكر حياة!**

سلوك ومنهاج ومعاملة .

حالة متكاملة يتلبس بها الذاكر في سائر أموره وأحواله.

فدعوته ذكر .

وصدعه بالحق ذكر.

وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ذكر.

وسلوكه وأخلاقه ومعاملاته يحدوها الذكر ويحركها الذكر ويضبطها الذكر

إن هذا المقصد الذي أعلنه نبي الله موسى عليه السلام في سياق الإقبال على مواجهة فرعون بدعوته = لهو أبلغ دليل على عموم وشمول معنى الذكر لكل ما سبق.

وهذا الفهم لم يتأت لموسى في تلك اللحظة وحسب وإنما سبقه تأصيل رباني لهذه القيمة حتى تشربها قلب موسى...

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٤].

كان هذا هو أول أمر تعبدي يتلقاه موسى بعد أن كلمه ربه وعرفه بنفسه في الوادي المقدس بصحراء سيناء.

فاعبدني وأقم الصلاة...

ثم يبين له مقصد العبادة وغاية الصلاة منذ البداية.

**لذكري...**

ويحسن موسى تلقي الأمر ويدرك قيمة هذا المقصد وشموله فيطلب من الله من يعينه عليه بخصوصه ﴿ كَيۡ نُسَبِّحَكَ ﴾ [طه: ٣٣]. وعمومه ﴿ وَنَذۡكُرَكَ ﴾ [طه: ٣٤]

ثم يعضد الله ذلك الفهم بمزيد من التأكيد على الأمر فيقول بعد أن يحقق مطلبه ويبعث معه أخاه:

﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴾ [طه: ٤٢].

لا تكلا ولا تملا ولا تتوانيا عن ذكري حتى في هذا الموقف العصيب.

في مواجهة فرعون.

وفي مواجهة كل صعاب هذه الدنيا وهمومها ما من زاد مثل الذكر.

لذلك شرع الله الذكر في أحلك المواقف ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ولذلك أيضا جعل الذكر مقترنا بأهم العبادات..

فالصلاة إنما شرعت لذكر الله وهو أكبر ما فيها ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

والصيام جعل التكبير من علله ومقاصده ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥].

والحج كله يتخلله الذكر والنسك كذلك ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٣٤].

وعلى هذا جل المواضع القرآنية الكثيرة التي وردت فيها تلك القيمة العظمى والمقصد الأسمى..

حتى عند ارتكاب المعصية بل الفاحشة مطلوب بعدها ألا يتمادى المؤمن في نسيانه وغفلته بل يسارع إلى التوبة والاستغفار وبداية ذلك أيضا تكون بالذكر ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

أوبعد ذلك كله يتصور البعض أن الذكر قاصر على بعض حركات الشفاة التي لا تجاوز الحناجر ولا تمس القلوب أو ينعكس صداها على الجوارح والسلوكيات والمعاملات؟!

هيهات هيهات.

الذكر قضية أعظم من ذلك كثيرا وأشمل.

الذكر حياة كاملة .

هذا الفهم الدقيق لمعنى الذكر يمثل في تصوري فارقا مهما بين المستقيم الملتزم مبتغي الصلاح وبين غيره ممن يغفلون عن تلك القيم.

يفترض أن الملتزم بدينه المستقيم على مراد ربه يدرك هذا ويستقر في ذهنه.

يدرك أن الذكر مهمة حياته وزاد قلبه وغذاء روحه الحقيقي .

يفترض أنه يفهم معاني الأذكار والقيم الروحية والتربوية والإيمانية والعقدية التي تبثها تلك الكلمات في نفسه وترسخ في وجدانه.

يفترض أنه يعرف حقيقة الذكر ويستشعر قيمته بأن يعرف من يذكره ويثني عليه ويناجيه ويطرح حوائجه وهمومه بين يديه مستحضرا عظمته ومتذكرا جليل أسمائه وجميل صفاته.

بشكل جامع ومختصر تستطيع أن تقول أن الملتزم يستوعب أن جوهر الذكر ببساطة = أن تظل ذاكرا له ولا تنساه أبدا.

هذا هو الفهم الأعم لمعنى الذكر.

وهذا ما يفترض أن يكون عليه المسلم المستمسك بدينه الطامع في رضا ربه فإن لم يكن كذلك فإنه على الأقل يطلب ذلك.

هكذا ورد عن أحد الصحابة يقال له حدير روى قصته ابن منده وابو نعيم في كتابه معرفة الصحابه وابن حجر في الإصابة.

رووا أن هذا الصحابي دعا بهذا الدعاء.

اللهم كما لم تنس حديرا؛ فاجعل حديرا لا ينساك.

حين يدرك المرء ذلك المعنى والمطلب سيفهم قول نبيه ﷺ: «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره كمثل الحي والميت**».

تأمل المقابلة والفارق الكبير جدًّا بين الحي والميت.

تضاد رهيب وبون شاسع حين ينتقل المرء من الحياة إلى الموت.

الحال يتبدل والوصف ينقلب رأسًا على عقب بالانتقال من الأول إلى الثانى.

يخبو بريق الحياة في العينين حتى يختفى تماما وتتيبس الأطراف وتسرى في البدن تلك البرودة الصامتة، ويتحول في لحظات إلى جثة هامدة ..

وبعد أن كان مفعما بالحركة والحيوية، تسرى في بدنه حرارة الحياة، وله تأثير فيما حوله وفيمن حوله.

= صار جثمان يابسا متحجرا تجمدت في أوصاله برودة الموت الساكنة التي تتلفع بالصمت والجمود.

فارق كبير جدًّا يعرفه كل من تعامل مع الموت وشهد منظر الجثة التي تقلب يمنة ويسرة فلايتحرك فيها ساكن، وهى التي كانت منذ لحظات تملأ الدنيا صخبًا ونشاطًا!

هذا هو الفارق بين من يذكر بحق ومن على النقيض.

من نسي ربه.

من ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [**التوبة**: ٦٧]

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [**الحشر**: ١٩]

لأجل ذلك تجد لفظ (الذكر) من الألفاظ المتواترة في القرآن فقد ورد هذا اللفظ في ثمانية وستين ومئتي (٢٦٨) موضع وتجد الوصايا القرآنية والنبوية بالذكر أكثر من أن يحصيها مقال.

من ذلك على سبيل المثال لا الحصر.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤].

﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾

[الرعد: ٢٨]

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧].

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠: ١٩١].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

[الأحزاب: ٤١، ٤٢]

﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]

﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٨].

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [المنافقون:٩].

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [سورة النور: ٣٦]

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٥].

تأمل الكم الهائل من الأمر بالذكر في القرآن واقترانه في جل المواضع بالكثرة والديمومة

ومثل ذلك في سنة النبي ﷺ.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: « **إن الله - عز وجل - يقول: أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه**».

وعن عبد الله بن بسر - رضي الله عنه - قال: (قال أعرابي لرسول الله - ﷺ -: يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء منها أتشبث به ، قال: «**لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله - عز وجل -**».

وعن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**ما عمل امرؤ بعمل أنجى له من عذاب الله ، من ذكر الله** ».

عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأرضاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم؟** » ، قالوا: بلى ، قال: « **ذكر الله تعالى**».

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**من عجز منكم عن الليل أن يكابده، وبخل بالمال أن ينفقه، وجبن عن العدو أن يجاهده، فليكثر ذكر الله** ».

وعن أبي هريرة – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قال: كان رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له: جمدان، فقال: «**سيروا ، هذا جمدان ، سبق المفردون**» ، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ ، قال: «**الذاكرون الله كثيرا والذاكرات** » .

تأمل كل هذا واستوعبه جيدا وعندما تفعل؛ سيكون مقصدك الأسمى الذي تسعى بكل ما أوتيت لتحقيقه وشعارك الأعظم في تلك الحياة هو ذلك الشعار الذي رفعه موسى عليه السلام والمقصد الذي طبقه عمليا بكل حذافيره.

كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا.

وعندئذ تكون قد حققت خطوة جديدة في طريق التزامك واستقامتك حين أدركت ما ينبغي أن يكون عليه ذكرك لربك.

ذكر الملتزم.

الالتزام ٤٠

خصائص الالتزام.

**٩ـ روح الملتزم:**

في تلك الليلة وفي ذلك الثغر من ثغور المسلمين كان يقف في الحراسة بينما رفيقه يأخذ قسطا من الراحة .

إنه لن يضيع وقتا حتى في مثل هذا المبيت الشريف.

ركعات سيصليها لله في جوف الليل يتلو فيها من آيات من كتاب ربه.

يدركه أحد المشركين ويراه على تلك الحال من الخشوع فيرميه بسهم.

في ضلع من أضلاعه يجد السهم مستقرا لكن بعد أن يكسر شيئا من العظام سبقها تمزيق للحم صدره.

لا شك أن الألم رهيب.

ألم كسر الضلع قد لا يحتمل.

إلا أن اللذة التي كان يتقلب فيها يبدو أنها كانت تفوق أي ألم!

ما هذا الذي يفعله؟

حقا عجيب أمره!

لقد نزع السهم و...

أكمل صلاته..

وتلاوته.

لعل الدهشة قد أصابت ذلك الجندي من المشركين الذي رماه بالسهم الأول.

لكنه لم يضيع الوقت ولم يسترسل طويلا خلف دهشته.

بسرعة عاجله المشرك بسهم آخر .

ثم بسهم ثالث .

وفي كل مرة ينزع السهم ولا ينتزع نفسه من صلاته .

بعد حين أدرك العابد أنه مقتول لا محالة لا محالة وهو يكاد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

عندئذ سينكشف الجيش من ناحيته وبسببه.

لعله يسترجع قولة الصحابي سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما: بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قِبلي.

ركع بسرعة وأنهى صلاته بين دفقات دمائه.

ثم أيقظ رفيقه في الحراسة الذي هب بسرعة ليؤمن الثغر الذي كاد ينفتح.

ها قد زال الخطر وفر العدو.

سأله في دهشة وقد رأى كثرة السهام التي انهالت عليه: هلا أهببتني من نومي من السهم الأول ؟!.

هنا تأتي الإجابة.

إجابة المحب:

لقد كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أُنْفِذَهَا .

وَأيم اللهِ لَوْلَا أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِهِ لَقَطَعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أُنْفِذَهَا.

لقد كان في سورة لخروج روحه من بين جنبيه أحب إليه من أن يخرج منها.

مشهد مذهل روى أصله الإمام أحمد وأبو داوود وحسنه الألباني.

قيل أن صاحب تلك الكلمات هو صحابي يقال له عباد بن بشر رضي الله عنه وقيل أن بطل هذه القصة لم يُعين.

وسواء كان عباد أم غيره فالعبرة في الموقف نفسه.

إنه موقف يلخص معنى الصحبة ودرجة الارتباط الوثيق التي يمكن أن تكون بين المرء وبين كتاب ربه.

بهذا عاشوا.

ولهذا سادوا.

وبصحبة ذلك الكتاب قدموا أعجب الأمثلة وأروع نماذج البطولة والفداء التي لم تكن لتخرج منهم لولا تلك المعجزة التي هي الأعظم على الإطلاق.

**معجزة القرآن.**

إن صاحب تلك الكلمات لم يكن يفتعل أو يتكلف بلسانه وقد خطت دماؤه الصادقة ذات المعاني التي تكلم بها .

إنه فعلا لا يريد أن يغادر السورة التي يتلوها.

لا يطيق مفارقة آيات الله ولا يصبر عن مجافاة صاحبه.

القرآن.

إنه نموذج لدرجة من درجات الصلة التي بلغت قوتها مبلغا امتزاج الروح بالجسد.

صلة كانت لها الأولوية المطلقة في مواجهة كل نوازع النفس.

فقط تراجعت تلك الأولوية حين خشي الضرر.

ليس ضرر نفسه... بل ضرر على الأمة وانكشاف للثغر.

أما هو فلقد تراجعت أولويته الشخصية بجوار القرآن.

وقدم صحبته على حياته نفسها وأثبت صدقه بلحم ممزق وأضلع متكسرة ربما أذهب آلامها ذاك الانغماس في التدبر والتبتل والتأمل والاتصال الروحي بكلام مولاه.

يالها من محبة.

وياله من محب.

محب يستحق أن يلاقيه القرآن يوما بتلك البشرى وذلك الفضل.

بشرى الصحبة.

تلك العلاقة الفريدة التي اختار النبي ﷺ أن تكون هي اللفظ المعبر عن العلاقة بين المسلم وبين القرآن.

**الصحبة**

هي كلمة تختلف في مدلولها عن كثير من العلاقات الإنسانية التي قد تبدو شبيهة بها ظاهرا.

قد يزامل المرء فى حياته أناسا كثرا.

وقد يتعارف على أناس أكثر.

وقد تتسع دائرة معارفه لدرجة لا تمكنه من تذكر أسماء كثير منهم حين يقابلهم.

لكن قليلا منهم من يستحق أن يقول عنه المرء: صاحبه.

صاحبك هو هذا الشخص القريب من قلبك

هو ذلك الإنسان الذي تعرفه جيدا..

تعرف صفاته ومميزاته.

تدرك خصائصه وطباعه.

تجمع بينكما ذكريات وأحداث وتشتركان في هموم وشجون ولحظات سعيدة وأحزان.

صاحبك هو ذلك الذي تكن له مشاعر وتحمل له في قلبك مودة صادقة وامتنان.

إذا ذكر أمامك سرعان ما تعتمل فى صدرك هذه المشاعر وتتأتى إلى ذهنك تلك الخصائص وتقفز إلى مخيلتك بعض من تيك الذكريات.

إن غاب عنك استوحشت وإن طال فراقكما إليه اشتقت وإن جاء موعد اللقاء به سر قلبك وفرحت.

تلك هي الصحبة وذاك هو الصاحب الحقيقي.

والإنسان بطبعه مخلوق اجتماعي ودود لابد له من أصحاب في هذه الدنيا.

هذا هو الأصل .

صحيح قد توجد لهذا الأصل بعض الاستثناءات كأن يوجد شخص منطوٍ على نفسه أو نافر منفر لا يألف الخلق ولا يألفونه .

لكن في الغالب لا يخلو إنسان من مودة أو ألفة تجمع بينه وبين إنسان آخر أو مجموعة من البشر ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف كما صح الخبر عن رسول الله ﷺ.

وتتنوع العلاقات الإنسانية تنوعا كبيرا وتتباين التفاعلات بين البشر تباينا واسعا ولا يكاد يخلو امرؤ من العديد من تلك العلاقات والمعاملات المختلفة.

فما بين معرفة سطحية وعلاقات عابرة قصيرة وزمالات عملية وبين صداقات حميمة وترابطات وثيقة تجمع بين المرء ومن حوله = يظهر ذلك التباين والتعدد بشكل واضح.

ويظهر الصاحب الحقيقي.

فكر لوهلة وسل نفسك:

كم من معارفك تستطيع أن تصفه بذلك الوصف وأن تنطبق عليه معاني تلك الكلمة؟

كلمة صاحب.

الكلمة التي أكرر أنها هي التي أراد النبي ﷺ أن تكون عنوانا ووصفا لعلاقتك بما أنزل عليه من ربه.

**القرآن .**

- «**اقْرَؤوا القرآنَ . فإنه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابه**» رواه مسلم.

- «**اقرَؤوا الزَّهرَاوَين: البقرةَ وسورةَ آلِ عمرانَ . فإنهما تأتِيان يومَ القيامةِ كأنهما غَمامتانِ. أو كأنهما غَيايتانِ. أو كأنهما فِرْقانِ من طيرٍ صوافَّ . تُحاجّان عن أصحابهما**». رواه مسلم .

- «**يجيءُ صاحبُ القرآنِ يومَ القيامةِ فيقولُ القرآنُ يا ربِّ حَلِّه فيلبسُ تاجَ الكرامةِ ثمَّ يقولُ يا ربِّ زِدْه فيلبسُ حُلَّةَ الكرامةِ ثمَّ يقولُ يا ربِّ ارضَ عنه فيرضَى عنه فيُقالُ له اقرأْ وارقَ ويزدادُ بكلِّ آيةٍ حسنة**».

رواه المنذري في الترغيب والترهيب وصححه الألباني.

- «**إنَّ القرآنَ يَلْقَى صاحبَهُ يومَ القيامةِ حينَ يَنْشَقُّ عنهُ قَبْرُهُ كَالرجلِ الشَّاحِبِ يقولُ : هل تَعْرِفُنِي ؟ فيقولُ لهُ : ما أَعْرِفُكَ ، فيقولُ : أنا صاحِبُكَ القرآنُ ، الذي**

**أَظْمَأْتُكَ فِي الهَوَاجِرِ ، وأَسْهَرْتُ لَيْلكَ ، وإِنَّ كلَّ تَاجِرٍ من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة»** السلسلة الصحيحة.

- «**إنما مَثَلُ صاحبِ القرآنِ كمثلِ الإبلِ المعَقَّلَةِ إن عاهد عليها أمسكَها وإن أطلقها ذهبَت وفي رواية: وإذا قام صاحبُ القرآنِ فقرأه بالليلِ والنهارِ ذكرَه وإذا لم يَقُمْ به نسِيَه**» صحيح مسلم.

- «**يقالُ لِصاحِبِ القرآنِ: اقرأْ وارْتَقِ، ورَتِّلْ كما كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدنيا، فإنَّ مَنْزِلَتَكَ عندَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرَأُ بِها**» السلسلة الصحيحة.

تأمل اللفظ المتكرر بمشتقاته...

«**يقال لصاحب القرآن**».

«**شفيعا لأصحابه**».

«**تحاجان عن صاحبهما**».

«**أنا صاحبك القرآن**».

كلمات ذات أصل مشترك تكررت في تلك الأحاديث التي ذكرتها في السطور السابقة.

صاحب، أصحابه، صاحبهما، صاحبك.

إنها الصحبة إذاً!!

هذه هي الكلمة المختارة من النبى ﷺ وهو الذي أوتي جوامع الكلم.

العلاقة بين الملتزم أو الصالح المستقيم مع القرآن ينبغي أن تبنى على هذا الأصل.

الصحبة!

صحبة بكل ما تشمله الكلمة من معان وخصائص وأركان.

صحبة كلية للقرآن بأكمله فلا يكاد يفارقك ولا ترتاح ولا تأنس إلا معه وتسعى جاهدا لاقتناص كل وقت تمضيه برفقته .

وصحبة جزئية ومعرفة موضوعية لسوره المختلفة.

حينَ ولَّى بعض الصحابة مدبرينَ يوم حنين أمر النبي ﷺ عمه العبَّاسَ فَناداهم : «يا أصحابَ الشَّجرةِ -يعني أَهْلَ بيعةِ الرِّضوانِ- وفي روايةٍ: ناداهم يا

أصحابَ سورة البقرةِ ينشِّطَهُم بذلِكَ فجعلوا يُقبِلونَ من كلِّ وجهٍ» صححه العلامة أحمد شاكر في مقدمة عمدة التفاسير.

تأمل قوله يا أصحاب سورة البقرة.

لقد شرفهم بهذا النسب بعد نسب لتلك البيعة العظيمة -بيعة الرضوان- وياله من شرف.

أن ينسب المرء لسورة من سور القرآن وأن يلقب بأنه من أصحابها

أي درجة من المعرفة والقرب تلك التي بلغها ليصل إلى هذا المقام - مقام الصحبة.

الصحبة الشاملة والنظرة الموضوعية العامة التي تربط بينه وبين كل سورة من سور القرآن والتي تعد توطئة وتمهيدا للمعرفة العميقة التفصيلية بمعاني آياتها وإدراك أحكامها وتوجيهاتها.

فهذه السورة لها في قلبه وقع مألوف محبب وتلك السورة يجد لها في نفسه حنينا واشتياقا أما السورة الثالثة فيخفق قلبه رهبة عند تدبر آياتها وعن تلك السورة الرابعة التي يسارع لقراءتها حين تدلهم به الخطوب ويبتغي تثبيتا لفؤاده ومواساة لجنانه فحدث ولا حرج أما هذه الآية فعلى قصرها إلا أن روحه تسمو وتهفو رجاء كلما تليت عليه.

وهكذا يتنقل الصاحب مع صاحبه.

يقف مع آية من آياته أو قصة من قصصه أو مثل من أمثاله الجامعة المانعة.

يستطرد حول المعانى ويطوف فى ظلال المشاعر ويرفل فى نعيم المبادىء التى تبث من خلال مجاورة هذا الصاحب العظيم.

يعيش مع أبطال قصصه وتتوطد علاقته بهم فيحزن لحزنهم وتتهلل أساريره لفرحهم ويواجه معهم الظالمين والطغاة ويصدع معهم بكلمات الحق التى قذفوها فى صدر الباطل.

يبحر مع نوح ويسمو بروحه في ملكوت السماء متدبرا مع إبراهيم.

يصبر مع أيوب ويسبح مع داوود ويصمد مع الغلام فى وجه صاحب الأخدود.

يتزلزل فؤاده مع المؤمنين فى مواجهة الأحزاب يوم الزلزال الشديد ثم ينشرح صدره وهو يطالع نبأ النصر المجيد والرعب الذي تصدعت به نفوس المشركين.

يتنقل من مشهد إلى آخر ومن قصة إلى أخرى ويدور مع المعانى والأمثال حيث دارت.

كذلك يجد صاحب القرآن العارف بآياته المحب لكلماته وقعا ومشاعر وآثارا كلما تفاعل مع سوره ومر بأجزائه وأحزابه.

ويكأنه يسمع قعقات المعركة وصليل السيوف مختلطا بصهيل الخيل وهو يصحب سورة الأنفال ثم يرتجف قلبه غضبا لربه وهو يطالع جرائم المنافقين في سورة التوبة .

يوجل قلبه تعظيما وإجلالا لربه إذا رتل سورة الأنعام ويذوب فؤاده شوقا لمولاه المنان وهو يتلو سورة الرحمن مجيبا لسؤالها المتكرر وصائحا من أعماق قلبه وإن لم يسمع الخلق بلسانه: لا بأي من آلائك نكذب ربنا ولك الحمد .

يزداد حمده وشكره وامتنانه وهو يطالع نعم الله وآلائه في سورة النحل ثم ترتعد نفسه خوفا وطمعا وهو يتلو سورة الرعد.

ينبهر بعدل الشريعة وإحكام إنصافها وهو يقرأ سورة النساء ثم يعاهد الله على الوفاء بعقود سورة المائدة ومواثيقها وتعلو همته ويزداد يقينه وهو يتأمل تلك المفاصلة الخالدة بين أئمة الحق وسدنة الباطل في سورة إبراهيم ويعجب لذلك اللطف الجميل في سورة يوسف ويزداد انبهارا بفتوحات الله تفرج الكروب عن موسى في سورة القصص ثم يلين قلبه حين يغمره ضياء سورة النور ويذرف الدمعات الخاشعات وهو يتأمل شكوى حبيبه في سورة الفرقان ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

ترانا وجدنا يوما مثل ذلك في علاقتنا بكتاب ربنا؟

هل هي علاقة وثيقة تستحق بالفعل أن يطلق عليها وصف الصحبة الراسخة والأنس الجميل؟

هل صاحبنا القرآن؟

هل صاحبنا سوره أو حتى بعض سوره؟

بل هل صاحبنا سورة واحدة منه؟

هل نستحق أن يقال لنا يوم نرجع إلى الله هلموا يا أصحاب القرآن؟

لا أريد بتلك السؤالات السابقة ومن قبلها ذلكم العرض الموجز لنماذج من الأنس بالقرآن والتعرف المجمل على سوره ولا بنموذج الحرص المذهل على عدم مغادرة السورة كما فعل عباد بن بشر = أن أضع تصورا مثاليا يصعب الوصول إليه أو يغرس الإحباط في نفس من لم يجد في نفسه تلك الأصداء والتفاعلات.

ما أريده فقط هو لفت انتباهك لآفاق مختلفة للعلاقة بالقرآن والتعامل مع كلام الله ليس على أنه فقط مصدر لجلب الحسنات وجمع المثوبات.

وأكرم بها من قيمة لكنها تظل فرعا عن الأصل.

والأصل أن يصحبك القرآن في سائر أحوالك.

وأن يطبع أثره على حياتك وسلوكك وأفكارك كما يفعل الصاحب مع صاحبه.

الأصل أن يغيرك ويصلحك ويوجهك ويضبط بوصلة واقعك.

وأن يحييك.

نعم يحييك.

النقلة التغييرية الهائلة التي يمكن للقرآن أن يفعلها بك لا تقل عظمة وضخامة عن إحياء الموتى.

كيف لا ورب العالمين سماه بالروح.

الله جل وعلا ذكر أن الوحي المنزل هو روح من أمره.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣] .

لقد وصف القرآن بأوصاف كثيرة، ونعوت بليغة؛ فهو النور المبين، وهو البيان والتبيان، وهو الشفاء والرحمة للمؤمنين، وهو الهدى والفرقان بين الحق

والباطل، وهو أحسن الحديث والموعظة والبلاغ، وغيرها من الأسماء والأوصاف التي وصف الله بها كتابه العزيز وسمَّاه بها.

لكن تسميته بالروح لها قيمة مختلفة بلا شك ..

لها دلالة تحتاج إلى وقفات ووقفات.

الروح هي أصل وسر تلك الحياة التي تنبض في العروق، والبريق الذي يلتمع في العيون، والحركة التي يختلج بها القلب، والحرارة والحيوية التي تسرى في جسد الحي ومتى ما نزعت خبا كل ذلك وصار جسدًا يابسًا باردًا لا حياة فيه.

ولا روح ..

لقد اختار الله لوحيه المنزل أن يطلق عليه نفس الاسم الذي يطلق على سر الحياة.

ويكأن القلوب من دون القرآن ميتة، والنفوس من دون القرآن يابسة متجمدة، والفكر من دون القرآن بارد ساكن.

باختصار .. مؤمن من دون قرآن عبارة عن جثة متحركة وجسدٍ خاوٍ.

خاوٍ من الروح ..

هل نظر الملتزمون المستقيمون وطالبو الصلاح من قبل للقرآن هذه النظرة؟

هل تفاعلوا معه من هذا المنطلق؟

هل تعاملنا مع كتاب الله على أنه روح نحتاج إلى أن تبث في قلوبنا وأن تسمو بها نفوسنا وتسري حيويتها في أوصالنا فنمشي بها بين الناس لنكون ممن قال الله فيهم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾

**[الأنعام: ١٢٢]**

نحتاج أيما احتياج إلى أن ننظر إلى القرآن هذه النظرات، وأن نتعامل معه من منطلق مختلف عن منطلق كثير من الناس الذين لا يتعاملون معه إلا كترانيم لا يفقهونها أو كوسيلة لتحصيل الثواب هي -مع حسن مقصدها- تظل هدية وكم من أُناس شغلتهم الهدايا عن الوصايا والفروع عن الأصول وتحصيل الثواب عن استيعاب المنهج والتوجيه الذي تحتويه كلمات الله.

الملتزم الحق يدرك أن القرآن في الأصل كتاب تغييرى، أنزله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهو كتاب ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا ﴾ [الحشر: ٢١] ولشهدته متصدعًا فيفترض أن يترك أيضًا أثرًا جذريًّا في حياة المرء إذا سرت فيها، وتسربت إلى أركانها آياته وتسربل بنورها واقعه.

وقد قال الله عن كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الرعد: ٣١] تقدير الكلام لكان هذا القرآن.

وهو القادر على يحدث تلك التغيرات الكونية العظيمة من تحريك جبال وتقطيع أرض وتكليم موتى، فإن كانت تلك قدرته التغييرية على تلك الكائنات والأفعال الكونية الجسيمة، بل وما هو أعظم منها فما بالك بقدرته التغييرية على قلبك ونفسك إذا صاحبته.

كم من قلوب كانت متشحة بالسواد ونفوس كانت ميتة قد أحياها الله بهذا الكتاب.

كم من بعيد عن الله مسرف على نفسه متبع لهواه هداه الله بتلك الروح من أمره.

تلك هي الفرصة الكبرى للتغيير من خلال القرآن بدايته تصحيح النظرة لهذا الكتاب المنزل من عند الله، ومن ثم تصحيح العلاقة وتحويلها إلى مصاحبة حقيقية ومعرفة تتعمق تدريجيًّا.

هناك نماذج لا تُحصى تمثَّل فيها رد الفعل الطبيعى من أهل الفضل الذين أدركوا ما يدركه العقلاء حين يُنَادَون أو يوجه إليهم الكلام فيجيبون ويستجيبون ويتفاعلون ويتغيرون .

هذا ما فعله ويفعله من يدركون قيمة النداء الربانى ويعون حقيقته ويستشعرون من الذي يخاطبهم من خلال القرآن.

إنه الله يكلمهم ويناديهم ويأمرهم ويربيهم .

وذلك هو الفارق الرئيس بين من أدرك العلاقة الوثيقة الموجودة التي تربط التدين والقرآن .

هو الفارق الرئيس بين كثير منا وبين سيدنا أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسارعته بالإجابة والعفو عن مسطح لما سمع قول الله ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] فسارع قائلًا: بلى واللّه إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا.

والفارق الرئيس بين كثير منا وبين سيدنا أبي الدحداح الذي تخلى عن ثروته المتمثلة في حديقته الغناء امتثالًا لآية من كتاب الله.

والفارق الرئيس بين كثير منا وبين الفضيل بين عياض الذي تغيَّرت حياته بالكامل بعد أن سمع النداء وأجاب واستجاب.

إنه الفارق الرئيس بيننا أو بين كثير منا وبين هؤلاء الذي عطرت السطور السابقة بذكرهم وغيرهم ممن لم يتسع لي المقام لأتشرف بذكرهم وقد أجابوا واستجابوا.

الفارق أنهم تعاملوا مع القرآن على أنه كلام الله لهم.

أنهم تفاعلوا مع القرآن ونظروا إليه نظرةً سديدةً دقيقةً ظهر أثرها جليًّا في ردود أفعالهم التي ذكرت في السطور السابقة طرفًا يسيرًا منها.

نظرة مفادها وخلاصة أثرها: أن الله يكلمنا.

هذه الآيات كلام الله لنا .

ملك الملوك يخاطبنا نحن.

هذه النداءات والسؤالات والأوامر والنواهي والتوجيهات موجهة لنا.

لك ولي ...

كيف إذًا لا أرد؟

كيف إذًا لا أتفاعل؟

وكيف قبل كل ذلك لا أَعِي وأفهم وأتدبر وأتأمل.

وهل يسعني أن أعرض وألا أجيب ولا أستجيب؟

هذا هو الفارق المحوري بيننا وبينهم.

أن كثيرًا منَّا يتغافل عن تلك الحقيقة العظمى.

حقيقة أنه كلام الله.

أنه حبله الممدود طرفه بأيدينا كما وصفه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أن ربنا يتكلم ..

لقد انصرف كثير من الناس عن الاستمتاع بالتعبد لله ومعاملته بهذه الصفة والإحساس بآثارها وتدبر تجلياتها من خلال كتابه المنزل، فكانوا كمن ظل يثبت عظمة وجلال كتاب وينفق الأوقات على إثبات نسبته لصاحبه، ثم لم يجد الوقت لفتحه أو قراءته.

أو كمن دُعي إلى وليمة فظل يتحدث عن جمالها وفخامتها دون أن يمد يده ليطعم منها ويتلذذ بطيباتها.

**ولله المثل الأعلى.**

إن صفة الكلام من أجمل الصفات التي تتعرف بها على الله جل وعلا وتتقرب إليه بمعاملته بها واستشعار آثارها.

ورغم أن حل كثير من مشكلاتك ومفاتح نفسك وتذكرة أوبتك قد تكمن في آية واحدة.

في كلمة أو كلمات ربانية تقرأها أو تسمعها فتشعر أنها موجهة لك أنت.

تنتشلك معانيها ..

تشفيك موعظتها ..

وتضيء توجيهاتها طريقك ..

ورغم أنه كثيرًا ما يكون الحل في التذكير بالقرآن -وحسب- دون وسيط أو إضافة أو تكلف أو كثير من كلام البلغاء ونظم الفصحاء الذي ربما يكون له مواطن أخرى.

رغم كل ذلك إلا أن قليلًا من ينتبه وقليلًا من يدرك هذه الحقيقة البسيطة النقية ..

حقيقة كونك في لحظة ما تحتاج إلى أن يُخلَّى بينك وبين كلام ربك مباشرة..

يخاطب قلبك ويمس فؤادك وتهفو إليه روحك.

وقليل من المربين والموجهين من يعنون بتوجيه قلوب وعقول الناس لتلك القيمة والحقيقة ويجعل كلام الله هو الأصل الذي تدور حوله عظاته وتذكراته ونصائحه وتوجيهاته

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

حين تترسخ تلك القيم وندرك أن الأمر ليس فقط بكثرة تلاوة لا ينبني عليها تغيير وعمل؛ بل هو بالمعايشة والتدبر والرغبة الصادقة في الفهم والتطبيق من خلال التعرف على معاني سور القرآن ومعايشتها لتبدأ خصائص كل سورة في الظهور ثم يتبعها انطباعات وتفاعلات ومشاعر مع كل سورة، ثم في مرحلة متقدمة مع كل آية من آيات القرآن وكل كلمة من كلماته.

عندئذ فقط يقترب المرء من منزلة المصاحبة لهذا الكتاب والتغير والتغيير به ومن خلال ذلك تتغير الكثير والكثير من مفاهيم وتطبيقات تدينه والتزامه.

يحدث ذلك عندما تصحح تلك العلاقة .

العلاقة بين الملتزم والقرآن.

**١٠ـ لن تبور:**

هل هي سنة أم فريضة؟

هل هي مستحبة أم واجبة؟

هل هو نفل مندوب أم لازم لا يسعني تركه؟

هل عليَّ ذنب إن لم أفعله؟

وهل هذا حرام أم هو فقط مكروه؟

ألا توجد رخصة في هذه المسألة أو تلك؟

لا شك أن من حقك أن تسأل هذه النوعية من الأسئلة..

من حقك أن تدرك أبعاد الطاعات وأن تعرف ما عليك وما يسعك تركه وما لا يسعك إلا فعله.

من حقك إذا خُيرت بين أمرين أن تختار أيسرهما ما لم يكن فيه إثم.

هكذا فعل نبيك ﷺ.

لا أحد يملك الحق في أن يحجر عليك ما وسعه الله أو يحرم عليك ما أباح مولاك.

لكن ثمة أصل مهم ينبغي أن يدركه من أراد تحقيق المعالي وإدراك الدرجات العلا وإقامة سياج واقٍ يحمي به طاعاته وعباداته.

أصل ملخصه = ليس كل شيء في ديننا يحسب من منطلق الفرض أو النفل ولا من منطلق الحل والحرمة.

هناك معايير أخرى لدى البعض.

معايير يعرفها ويدركها المحب الصادق.

المحب الذي لا يعدل بقرب حبيبه شيئا ولا يقدم شيئا على مرضاته والتلذذ بعبادته ومناجاته.

سيدنا موسى عليه السلام كان له ميقات وميعاد ولم يكن مفروضا عليه أن يتعجل.

لكنه فعل..

ولما سأله الله عن سبب تعجله كانت الإجابة التي تخلو من تلك الحسابات الجافة الجامدة

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

ورسول الله ﷺ لما قال لأم المؤمنين عائشة في ليلتها ذريني أتعبد لربي لم يكن مضطرا لترك فراشه الوثير ولا للتضحية بقرب أحب زوجاته إليه

وحين سمع عبد الله بن عمر قول رسول الله ﷺ « **نِعْمَ الرَّجلُ عبدُ اللهِ لَو كانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ** » لم يسأل كثيرا عن حتمية ذلك ولم يعنه كون ذلك مستحبا أم مفترضا عليه .

فقط امتثل حتى قالَ سالِمٌ: فَكَانَ عَبْدُاللهِ بعْدَ ذلكَ لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ قَلِيلًا.

إن الدافع الذي حركهم هو ببساطة ذلك الذي نزهد فيه اليوم.

الحب.

التفضيل.

عظم المقام..

هذا هو المعيار الذي ذكره ربنا ﷻ في آية التوبة لنستطيع قياس أنفسنا وقلوبنا عليه.

معيار الحب.

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

[سورة التوبة: ٢٤]

تأمل مرة أخرى الآية وانظر إلى الكلمة الفاصلة،

كلمة ﴿أَحَبَّ﴾،

تلك الكلمة التي اشتقت من نفس مادتها الكلمة الأخرى،

كلمة «مستحب».

تلك الكلمة الجميلة التي لا يدرك البعض جمالها حين يقصرون وقعها في أنفسهم على المدلول الفقهي فيجعلون هذا المدلول تمهيدا للتثاؤب وعدم العمل بما تم وصفه بتلك الكلمة،

مستحب؟!

إذاً فليس في تركه إثم؟!

لن أفعله إذاً،

مكروه وليس حراما.

فلنفعله إذاً بكل أريحية.

الحمد لله ..

يا أخي الدين يسر وليس عسرا.

ما دام مستحبا فالترك إذاً هو الخيار الأول.

وما دام مكروها فالإقبال عليه والاستزادة منه.

لكن لحظة ..

ماذا لو أعدت التفكير؟

ماذا لو تأملت بدقة في معنى كلمة مستحب؟!

لعلك ستسارع بالإجابة: هو ما يثاب فاعله امتثالا ولا يستحق تاركه العقوبة

لكني لم أطلب منك فقط التأمل في تعريفها الأصولي والفقهي على أهميته وقيمته التي سأحدثك عنها بعد سطور.

أتحدث ابتداء عن معنى الكلمة واشتقاقها الذي أشرت إليه آنفا.

مستحب أي أن هناك من يحبه.

من الذي يحبه؟

ربك هو من أحبه ويحبه.

الودود سبحانه وتعالى .

الكريم جل شأنه.

يحب هذا العمل.

ويحب لك أن تعمله.

هل نظرت من قبل للمستحب هذه النظرة؟

ربي الذي أتقلب في نعمه وأتمتع بفضله وأبيت وأصحو في خيره = يحب هذا الأمر.

يحب هذا القول.

يحب هذا الفعل.

هكذا ينبغي أن يكون وقع الكلمة في قلبك.

« **ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه**».

ما أجملها من غاية.

حتى أحبه..

حين تنتقل المحبة من العمل إلى العامل ومن الطاعة إلى الطائع.

تنتقل إليك أنت يا من تقوم بالمستحب.

أعلمت الآن أصل الكلمة؟

المستحب هو ذلك الذي يحبه مولاك.

مسألة لا يأثم تاركه هي اصطلاح فقهي معتبر لكن.

الفقهاء حين قسموا هذا التقسيم لم يكن قصدهم توهين امتثالك أو تقليله ولا كان غرضهم شرعنة ترك المستحبات كأصل ولكن كان مقصدهم بيان رفع الحرج الشرعي وعدم التكليف الفرضي بما لم يفرضه الله عليك.

بل الحقيقة أن فعل الحب في القرآن حين يأتي منسوبا إلى الله يكون ذلك غالبا في سياق أشياء لا يمكن اعتبارها من المندوب فقط .

تأتي الكلمة غالبا مع قيم وواجبات أصيلة وأساسية في الشريعة.

﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾
[سورة البقرة: ١٩٥]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [سورة البقرة :٢٢٢].

﴿بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٧٦].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٦].

﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾
[سورة المائدة: ٤٢]

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾
[سورة الصف: ٤]

تأمل الكلمات التي جاءت بعد لفظ يحب بعد هذه الأمثلة القرآنية التي يوجد غيرها كثير.

المحسنين .
التوابين.
المتطهرين.
المتقين.
الصابرين.
المتوكلين.
المقسطين.
المتراصين في مواجهة أعدائهم والمترابطين كالبنيان.
هل هذه قيم اختيارية أو صفات لا يأثم تاركها؟
كذلك في المكروه.
ما رأيك في التبذير والإسراف؟
ماذا عن قتل الأبناء خشية الفقر؟
ماذا عن القتل بغير حق عموما؟

الزنا، أكل مال اليتامى، الغش في المكيال، الكبر والغرور.

لعلك لاحظت أن كل هذه أشياء محرمة بل منها كبائر وموبقات.

أتدري أن الله ختم الحديث عنها في ذات السياق بكلمة «مكروه».

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [**سورة الإسراء: ٣٨**].

وفي الحديث أيضا.

«**إنَّ الله عزَّ وجَلَّ رَضِيَ لكم ثلاثًا** (وفي رواية ابن عساكر بلفظ أحب).

**وكَرِهَ لكم ثلاثًا: رَضِيَ لكم أنْ تَعبُدوه ولا تُشرِكوا به شيئًا، وأنْ تَنصَحوا لِمَن ولَّاه اللهُ أَمرَكم، وأنْ تَعتَصِموا بحَبْلِ اللهِ جميعًا، ولا تَفرَّقوا، وكَرِهَ لكم: قيلَ وقال، وكثرةَ السؤالِ، وإضاعةَ المالِ**»..

الألفاظ إذاً تأتي عبر النصوص بدلالات مختلفة عما انتشر من اصطلاح الفقهاء.

لا أنتقد هنا هذا الاصطلاح ولكنني فقط أنتقد استعماله لتوهين الانقياد وإضعاف الامتثال.

الملتزم الحريص والمستقيم الصالح لديه هدف كما سبق وفصلنا.

هدفه الأول إرضاء مولاه .

فإذا سمع أو علم أن الله يحب شيئا = الأصل عنده أن يسارع إليه وعلى العكس إذا أدرك أن ربه يكره شيئا فهو مباشرة ينفر منه ويحاول تركه دون كثير من الحسابات المادية المعقدة.

ما دام عملا سهلا يسيرا أو حتى فيه بعض المجهود لكن لديك قدرة على فعله فلماذا تسأل عن الترك؟!

مفترض أن المستقيم الصالح والملتزم الطائع يقيس الأمور بمعيار مختلف معيار تستطيع به قياس حقيقة مقام الله في قلبك

من خلاله يمكننا مصارحة أنفسنا بصدق لكي نستطيع محاسبة تلك الأنفس بشكل صحيح قبل أن نكتشف متأخرين أننا كنا نفضل أشياء تافهة ولا نتركها أبدا بل نقدمها دوما أو حتى نساويها بمقامه سبحانه فنكون ممن يصرخون بعد فوات الأوان:

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [**الشعراء: ٩٧-٩٨**].

الأصل أن يكون طرح الترك لمن لا يقدر أو من تكاثرت عليه الشرائع فلم يوف بحقها أو المبتدىء الذي يوغل في الدين برفق .

أو للأسف لمن لا تشكل محبة الله فارقا كبيرا بالنسبة إليه ولا تعد محركا لتصرفاته.

ذلك المغبون الذي يضيع عمره وينفق لحظات حياته الغالية فيما لا ينفع أو على أحسن تقدير فيما هو مفضول وذلك على حساب الفاضل أو الأفضل.

أحيانا يفعل ذلك بسبب الجهل وقلة الفقه فليس الفقيه فقط من علم الخير والشر ولكنه من علم خير الخيرين وشر الشرين.

أما صاحبنا المغبون فهو لا يهتم بذلك ولا يعني به لذلك وعلى الرغم من صدق رغبة بعض المغبونين في عمل الخير إلا أنه كم من مريد للخير لا يصيبه .

قد لا يؤتى هؤلاء دوما من قبل صدق نياتهم ولكن أحيانا يؤتوا من قبل جهلهم وقلة حرصهم وتكاسلهم عن السؤال وتلمس سبل الخيرات .

لو تأملت في حياة الصحابة لوجدت أنهم كانوا نموذجا في الحرص على معرفة الأفضل والأحب إلى الله .

كم سألوا النبي ﷺ عن ذلك وتعددت استفساراتهم عما هو أحب إلى الله وأرضى وأفضل.

عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبَّني الله، وأحبَّني الناس، فقال: «**ازهد في الدنيا يحبَّكَ اللهُ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبَّكَ الناسُ**»؛ [أخرجه ابن ماجه].

ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سألتُ النبي ﷺ: أيُّ العمل أحَبُّ إلى الله؟ قال: «**الصلاةُ على وَقْتِها**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**بِرُّ الوالدين**»، قُلْتُ: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»؛ [متفق عليه].

تأمل مطلبهم وما يحرصون عليه.

الذي يحبه الله.

بل الأحب .

الأفضل والأعظم والأعلى أجرا والأقرب لرضا الله جَلَّ جَلَالُهُ.

عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالوا: يا رسول الله، أيُّ الإسلام أفضل؟ قال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**»؛ [متفق عليه].

وعن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «**تُطعم الطعام، وتقرأ السلام على مَنْ عرَفْتَ ومَنْ لم تعرِف**»؛ [متفق عليه].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سألتُ رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله وجهاد في سبيله**»، قال: قلتُ: أيُّ الرقاب أفضل؟ قال: «**أنْفَسُها عند أهلها وأكثرها ثمنًا**»، قال: قلتُ: فإن لم أفعل؟ قال: «**تُعينُ ضائعًا أو تصنعُ لأخرق**» قال: قلتُ: يا رسول الله، أرأيت إن ضعُفْتُ عن بعض العمل؟ قال: «**تكفُّ شرَّكَ عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك**»؛ [متفق عليه].

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سُئل رسول الله ﷺ: أي الصلاة أفضل؟ قال: «**طول القنوت**»؛ [أخرجه مسلم]

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله عليه الصلاة والسلام سُئِل: أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله**»، قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، قيل: ثُمَّ ماذا؟ قال: «**حج مبرور**»؛ [متفق عليه].

وعنه أيضا قال: سُئل: أيُّ الصلاة أفضلُ بعد المكتوبة؟ وأيُّ الصيام أفضل بعد شهر رمضان؟ فقال: «**أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة، الصلاة في جوف الليل، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان صيام شهر الله المحرم**»؛ [أخرجه مسلم].

و عنه أنه قال: يا رسول الله، أيُّ الصَّدَقة أفضلُ؟ قال: «**جهد المقل، وابدأ بمن تعول**»، وعنه أن رجلًا قال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم؟ قال: «**أن تصدق وأنت صحيحٌ شحيحٌ، تخشى الفقر، وتأمل البقاء، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان**»؛ [أخرجه أحمد].

هذه عينة من سؤالات الصحابة تبين لك مدى الحرص الجارف على ما جزل عطاؤه وعلت مثوبته.

تارة يسألون عن أفضل الصلاة وتارة أخرى يسألون عن أفضل الجهاد ثم يسألون عن أفضل الصدقات وأفضل الرقاب التي يعتقونها لله.

العامل المشترك دائما هو السؤال عن الأفضل.

عن أحب الأعمال لله وأعلاها قدرا وأرفعها مثوبة.

لقد اختاروا سلعة غالية وتجارة لن تبور .

اختاروا التجارة مع الله .

تلك التجارة التي هي دوما رابحة الصفقات جزيلة العطايا والمثوبات.

وهذا التفكير العملي التنافسي يعد اتباعا لمقتضى قول الله : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

هذا التفكير يحلو لي تسميته بتفكير رجال الأعمال.

لكنها هنا الأعمال الأخروية.

ظهر أثر ذلك الفكر التنافسي الحريص على الأربح في حياة جل الصحابة.

فتجد صديقهم أبا بكر رضي الله عنه في مطلع يومه الذي استهله صائما قد عاد مريضا وأطعم مسكينا واتبع جنازة وكل ذلك في بداية اليوم لم تمر منه ساعات فما بالك بباقي يومه.

إنه نموذج لرجل الأعمال الأخروية الذي لا يدع صفقة رابحة إلا وضرب فيها بسهم ولم يقبل إلا الأفضل والأعلى بغض النظر عن فرضيته أو ندبه.

لذلك لما سمع عن أبواب الجنة المتعددة ونداء كل أهل عمل من بابهم كان سؤاله البديع: هل منا من ينادى منها جميعا يا رسول الله؟!

هكذا كانت همته وكذلك كان حرصه.

وليس وحده في ذلك بل كان هذا هدي رفاق دربه وعلى رأسهم الفاروق عمر الذي حين تصدق بنصف ماله كان شعاره التنافس مع الأفضل فقال : اليوم أسبق أبابكر!

استباق للخيرات وحرص على القربات.

وإعلاء للرصيد.

الرصيد.

تلك الكلمة التي يعرفها جيدا أصحاب الأموال والأرصدة التي يحرصون على استبقائها كتأمين لعيشهم ولمستقبل أبنائهم.

كذلك يعرفها أصحاب الهواتف المحمولة التى تعمل بنظام (كروت الشحن).

الكل يعرف تلك اللحظات الحرجة التي لا تأتي إلا حينما تكون قد استنفدت كل رصيدك وبدائله وتحتاج بشدة لتقوم ولو بمكالمة واحدة.

فلا تجد.

عفوا لقد نفد رصيدكم.

تخيل لو سمعت هذه الكلمة لا قدر الله فى حادثة فى طريق مقفر وتريد أن تتصل بمن يغيثك.

أو فى مصعد معطل تريد أن تتصل بأحد ليفتحه لك.

وقعها سيكون أصعب أليس كذلك ؟؟!!

تحتاج إلى مكالمة إنقاذ فلا تجد إلا هذه الكلمة تقرع أذنيك.

عفوا لقد نفذ رصيدكم ...

وماذا لو احتجت إلى رصيد من المال لتنقذ حياة تحتاج إلى علاج عاجل أو عملية كبرى ثم بحثت عنه فلم تجده.

لم تجد الرصيد.

لقد نفد هو الآخر.

مثل ذلك رصيدك من الحسنات والأعمال الصالحات**!!**

أنت الآن فى الدنيا وتستطيع أن تتزود كما تشاء من رصيد الطاعات سواء كانت مفروضة أو مندوبة.

ذلك الرصيد قد تحتاجه عاجلا ويقينا ستحتاج إليه آجلا.

أصحاب الصخرة الذين سُدَّ عليهم باب الغار احتاج كل منهم إلى رصيد يدعون الله به .

«**إنه لن ينجيكم اليوم إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم**» .

كان هذا هو المقترح الذي نفذوه.

ولقد وجد كل منهم رصيدا كان سبيلا لنجاتهم من كربهم كما أخبرنا نبينا ﷺ.

وكذلك كان رصيد الفتية أصحاب الكهف.

ذلك الرصيد الإيماني والتعبدي الذي غير الله به لأجلهم النواميس وجعل كهفا مقفرا موحشا = ملجئا وملاذا ومرفقا.

ويـونس عليـه السـلام حـين نجـاه الله مـن بطـن الحـوت وارتبطـت نجاتـه بتسبيحه.

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٤].

وأيوب عليه السلام حين بين ربه بعد ذكر الاستجابة لدعائه وكشف الضر عنه أن ما حدث جنبا إلى جنب مع الرحمة هو ذكرى.

ذكرى للعابدين.

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وكذلك زكريا عليه السلام حين تضرع لربه أن يرزقه الذرية فاستجاب له مولاه مبينا رصيده أيضا.

مسارعة في الخيرات ودعاء رغبة ورهبة وخشوع.

تلك كانت محتويات ذلك الرصيد العظيم.

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

[الأنبياء: ٩٠]

ويوسف عليه السلام حين صرف عنه ربه السوء وذكر في عقب ذلك أنه كان من عباده المخلصين.

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

[يوسف: ٢٤]

تلك كانت أرصدة هؤلاء في الدنيا .

أرصدة نفعهم الله بها ونجاهم وأكرمهم.

كذلك أنت اليوم في حاجة لمثل ذلك.

أما غدا فهى اللحظات الحرجة.

لحظات الحساب والميزان.

ذلك المخزون من الحسنات هو رصيدك الحقيقى فى تلك اللحظات التى لا تزود فيها وما سيتبقى لك منه بعد اختزال «الخصومات» و« الغرامات » من

مبطلات ومحبطات هو رأس مالك الحقيقى الذى ينجيك برحمة من الله وكرم يربيه ويضاعفه.

للأسف هناك من لن يكفيه رصيده فى تلك اللحظة.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

هذا هو المطلب الأشهر في تلك اللحظات.

العودة للاستزادة.

للعمل الصالح.

﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩].

أرجع فقط ولو ليلة .

و لو ساعة .

و لو بمقدار ركعتين خفيفتين أتوب فيهما وأنيب إليك يا مولاى.

و لو بمقدار عمل صالح يختم لى به.

بسجدة أطيلها لعلي ألقاك وأنا عليها .

﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

آلآن ؟!

آلآن تذكر الأعمال الصالحة ؟

آلان يتكلم عن المسارعة إلى الخيرات ، وهو الذى طالما تباطأ عنها ؟؟

آلآن علم أن له ربا يحب الصالح من العمل ويريده منه

﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

هذا هو المطلب حينئذ.

صدقة وعمل صالح.

وهذا هو ما يدركه الصالحون في الدنيا.

فاليوم عمل بلا حساب وغدا حساب بلا عمل.

عندما يدرك المرء ذلك = يتزود .

وإن خير الزاد التقوى.

ذلك هو الرصيد الحقيقى الذي لا يدركه المغبون المصر على البحث عن أسباب لترك العمل لمجرد أنه مستحب.

أولئك الذين هم في تكاسلهم يتقلبون وعن تلك الهمم السامقة هم معزولون وعن معالي الأمور لا يسألون وعلى معرفتها لا يحرصون.

لذلك تجدهم يضيعون أعمارهم في أشياء قد لا تكون محرمة لكنها لا تستدعي كل هذا الاعتناء والاهتمام وكل هذه الأوقات المهدورة ولا تستحق أبدا كل هذا الجهد الضائع.

يحرصون على تلك الترهات والمفضولات بدافع التعود ويصرون على طرق أبوابها بمطارق الجهل والتكاسل عن التعلم ويركنون إليها بذلك التصور القاصر الذي يجعل الزهد في كل مستحب = الخيار الأول.

فتكون المحصلة النهائية قليلة أو منعدمة ويكونوا بذلك كالمغبون الذي باع بضاعته النفيسة الغالية بزهيد الأثمان وما من شيء في حياة المرء أثمن من لحظات عمره وسويعات أيامه.

والحل ببساطة أن يعاد غرس الحرص.

الحرص على إدراك محبة الله.

والحرص على صواب العمل وأفضليته.

عندما يوجد هذا الحرص ويترسخ تظهر تلك الخصيصة العظيمة من خصائص الالتزام والملتزمين.

خاصية التجارة مع الله.

تلك التي لا تبور.

ولن تبور.

### ١١ـ واصبر نفسك:

عندما هاتفني يتلمس حالي بعد أن استشعر غيابي؛ لم أكن حينئذ في أفضل حال.

في الحقيقة كنت في حالة سيئة للغاية.

نفسيا ومزاجيا ودنيويا ودينيا .

بل وإيمانيا.

كنت أمر بمرحلة صعبة في حياتي وأقف عند مفترق طرق في منتهى القسوة.

كان ذلك بعد سنوات قليلة من ذلك القرار الذي اصطلحنا على تسميته قرار الالتزام.

ذلك القرار الذي لم تكن حياتي بعده كما كانت قبله والذي اختلفت معاييري وأفكاري واهتمامتي بعده بشكل واضح.

لكن هذه المرحلة التي جاءني فيها اتصاله كانت بمثابة انعدام وزن أو صولة استطاع فيها الشيطان أن يغزو كثيرا من حصون قلبي بخيله ورجله ويحقق انتصارات في معارك متعددة ربما لو لم تردني هذه المكالمة من هذا الرجل الطيب لكانت حربه معي قد حسمت في ذلك الحين.

حسمت لصالحه.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إزيك يا أخ محمد.

هذا الصوت الهاديء الوقور.

أعرفه جيدا.

هو شيخي وأستاذي وأحد أهم أسباب قراري وعوامل سلوكي ذلك الطريق منذ البداية.

يتصل بي رغم جفوتي عنه وابتعادي تلك المدة.

يتصل وأنا على هذه الحال المهترئة.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

يا أهلا يا شيخنا الفاضل.

أنا كويس الحمد لله.

- لا يا محمد.. صوتك مش كويس.

ولنا فترة طويلة لم نعد نراك.

خير يا حبيب.. حصل حاجة؟ الوالد بخير؟

- مافيش حاجة يا شيخنا.

أنا كويس والوالد بخير وكله تمام.

خرجت هذه الكلمات من فمي بصوت يناقض محتواها وكأن كل حرف منه يصرخ في الرجل الطيب: لا ليس بخير ولا هو قريب من الخير.

وكأنما شعر الرجل أن كلماتي لم تكن مقنعة فرد بإلحاح: لا ليست هذه طبيعتك هو أنا هأتوه عنك؟ مالك يا أخويا؟

مست كلمته الأخيرة جرحا ينتظر تلك المسة لينزف الدمع غزيرا منه.

أخوك!

لا والله لا أستحق هذا الوصف وأنا على هذه الحال من البعد والتقصير والجفاء.

أنا بأبعد يا شيخنا.

بأبعد.

هكذا أجبت من بين دموعي التي أراقها وده وحرصه.

- إنت فين دلوقتي؟ أنا جايلك حالا..

الرجل مشغول جدا وأعلم عنه أنه لا يكاد ينام في اليوم إلا سويعات متقطعة

- لا داعي يا شيخنا أنا هأبقى كويس إن شاء الله لا تعطل نفسك.

لم يدع لي الرجل خيارا.

- أنت في بيتك مش كدة؟

مسافة الطريق وأكون عندك إن شاء الله.

بالفعل لم تمض نصف الساعة حتى وجدته عند باب بيتي منزعجا يبدو عليه أنه لم يضيع وقتا في تغيير ملابس البيت المريحة بل اكتفى بوضع سترة فوقها وحضر مباشرة.

بعد أن عانقني عناق أب شفوق يواسي ولده على مصاب لا يعلمه؛ لم يطل التساؤل عن التفاصيل.

قد علمني يوما أن ليس في ديننا كرسي اعتراف ولا صكوك غفران وهو لا يحتاج لمعرفة ما طبيعة الابتعاد التي أشرت إليها ما دمت أنا لم أفصل.

كان يكفيه أنه فهم أنني ابتعدت.

وأنني حزين لذلك لم أستمرئه ولم أركن إليه.

وكان هذا يكفي.

ما إن أجلسته وحاولت القيام لأضيِّفه بما تيسر حتى أمسك ساعدي بحسم قائلا: اجلس يا محمد وناولني هذا المصحف.

فتح الشيخ كتاب الله وبصوته العذب وتلاوته الرقيقة الهادئة بدأ يرتل.

كانت التلاوة من سورة الإسراء وعلمت منه بعد ذلك أنه لم يخترها قاصدا لكنها الآيات التي وقعت عليها عيناه حين فتح المصحف.

كنت أحفظ السورة جيدا لكنها كانت كأول مرة أسمعها.

كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بتلك المشاعر عند سماعها.

لقد زلزلتني.

أجابت تساؤلات كانت في صدري.

أرشدتني.

أزالت غشاوات كانت على بصري.

وبشرتني.

ثمة أمل.

وثمة طريق للهداية من جديد.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

هذه الآية بالذات جعل الشيخ يكررها.

كان الرجل بكاءً أسيفا وكانت الآيات مزلزلة.

المعاني تنهال على مسامعي وتطرق جدران نفسي المثقلة فيبهرها الضياء المنبعث من جنبات التوجيهات القرآنية العظيمة ويهزها ترغيبها وترهيبها المتوالي.

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٧١-٧٢].

وددت لو أن الشيخ ظل يقرأ ويقرأ وألا تنتهي السورة ولا أخرج من هذه الساعة إلا على قبري أو تقوم الساعة.

لحظات فاخرة لا تتكرر كثيرا في حياة المرء .

لكنها تحفر في ذاكرة روحه.

وصل الشيخ في تلاوته إلى نهايات السورة

هاهو بصوته العذب يردد:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [**الإسراء: ١٠٦**].

هذه هي.

إنها سطوة القرآن.

وهي والله تكفي.

﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [**الإسراء: ١٠٦**].

لتقرأه.

ولتذكر به.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥].

بماذا؟

بالقرآن.

إنها تلك القيمة التي تجعل كلام الله هو الأصل الذي تدور حوله مواعظ الواعظين وتذكرات الداعين ونصائح الحريصين وتوجيهات المربين.

قيمة التذكير بالوحي.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥].

هكذا لخصت الآية الكريمة الأمر ببساطة ووضوح.

بالقرآن.

بكلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

كثيرًا ما يكون مفتاح شخصية الإنسان وسبيل تغييره - فقط - في التذكير بالقرآن .

القرآن وحسب.

دون وسيط أو إضافة أو تكلف أو كثير من كلام البلغاء ونظم الفصحاء الذي ربما تكون له مواطن أخرى لا أقلل منها ولا من أثرها.

لكنها لن ترقى أبدا لذلك العلاج الرباني.

القرآن.

رغم ذلك فإن قليلًا من الناس من ينتبه وقليلًا من يدرك هذه الحقيقة البسيطة النقية ..

حقيقة كونك في لحظة ما تحتاج إلى أن يُخلَّى بينك وبين كلام ربك مباشرة..

يخاطب قلبك ويمس فؤادك وتهفو إليه روحك.

هذا ما أدركه الشيخ الطيب الذي لن أنسى فضله عليّ أبدا وما حييت سأظل بإذن الله شاكرا لله ثم له أن جعل المولى ﷻ سببا ذلك اليوم في استفاقة كنت أحوج ما أكون إليها.

ومعها أدركت القيمة العظمى التي ينبغي أن تظل في حياتي وعلى رأس أولوياتي إن أردت ألا أبتعد مرة أخرى .

قيمة الوحي وعلاقته بأسمى أهدافنا.

الاستقامة والتدين والصلاح .

والثبات على كل ذلك من خلال الارتباط بالوحي .

لكن قيمة أخرى أيضا خرجت بها من هذا الموقف ومواقف متعددة تشبهه حدثت لي خلال سنوات الالتزام أدركت من خلالها تلك القيمة.

قيمة صحبة الخير التي يحرص أصحابها على بعضهم البعض دون مقابل أو مبتغىً دنيوي زائل.

أدركت ضرورة تلك الصحبة للثبات وأن رب العالمين حين أمر بأن يصبر الإنسان نفسه معه ولا يصرف قلبه أو عينيه عنها؛ لم يكن ذلك توجيها فرعيا أو ثانويا.

بل هو أصل ينبغي أن يحرص عليه طالب الاستقامة والثبات عليها .

إن التقلبات والانتكاسات والابتعاد هي أمور لا يكاد ينجو منها إلا من ثبته الله ﷻ .

كم شهدت في حياتك من تقلبات وتغيرات حادة أصابت كثيرا ممن حولك

بعض تلك التقلبات كان إيجابيا والبعض الآخر كان سلبيا لكن لا شك أنك لاحظت حدوث ذلك في دائرتك القريبة والأبعد فالأبعد.

ولا شك أنه أحيانا قد أدهشك!

أنت نفسك لم تكن استثناءً .

هل أنت نفس الشخص الذي كنته منذ سنوات؟!

هل تتخيل أن نفسك القديمة لو قُدِّرَ لها طيُّ الزمان لتراك الآن وتكلمك؛ هل ستعرفك؟

وهل ستعرفها؟!

إننا حقا نتغير.

تترك السنين والخبرات والمواقف آثار وعلامات.

لكن هل هذه الآثار وتلك التغيرات الملحوظة تكتفي بملامحنا الخارجية وحسب؟

أظن أن السنوات والعقود التي تمر بك كفيلة أن تجعل نفسك القديمة تنظر إلى ذلك الشخص الذي صرت إليه اليوم نظرة ذهول.

من هذا؟

أهو حقا أنا؟

كيف صرت إلى هذا الحال وما الذي أدى بي إلى ذلك المآل؟

هي أسئلة كثيرا ما تراودنا حين نمعن النظر في أنفسنا أو فيمن نعرف وندرك ما أصابهم من تغيير.

غالبا لا تستطيع أن تفهم كيف تظهر على بعض الناس خصال معينة ابتداءً، وتطل من معاملاتهم صفات في أول الأمر ثم تجد كل ذلك وقد اختفى فجأة أو انقلب إلى الضد تماما!

الحقيقة أن الأمر لا يحدث فجأة كما يهيأ للبعض.

إن ترك المرء لبذرة ما تنمو بداخله وإصراره على المكث في بيئة تحفز نمو تلك البذرة وتكاثرها أو توالدها؛ يطمس الخصال المضادة لها رويدا رويدا ويحولها تدريجيا إلى النقيض وتعلو أركان نفسه مع مرور الوقت تلك السجايا التي استنشقها وتخللت طباعه وتكاثرت فيها ذاتيا وتوالدت واستدعت المزيد من أخواتها فجعلته على تلك الحال التي قد تدهشك.

وإذا بك بعد حين تفاجأ بهم وبأنك لا تكاد تتعرف على تلك الأنفس أو تعرفها مهما كانت درجة قربها منك.

حتى لو كانت نفسك التي بين جنبيك.

أو أنك في الحقيقة لم تكن يوما تعرفهم ولا تعرف بوجود تلك المشاعر التي طفحت على سطح شخصياتهم بعد أن تكاثرت وتوالدت .

نعم... تلك هي الحقيقة التي لا يدركها البعض.

المشاعر والخصال والصفات والأخلاق تتكاثر وتتزايد بمجرد تواجدها وترك العنان لها .

وأيضا بالتواجد في بيئات تنتشر فيها تلك الصفار (الولَّادة).

قديما قالوا ذلك عن الطاعة والمعصية وكيف أن كلا منهما يتوالد ويجلب المزيد من رفاقه.

والحقيقة التي أعتقدها أن أصل ذلك هو توالد الصفات والمشاعر المؤدية لتلك الطاعة أو المعصية .

مثلا مشاعر الحقد والكراهية إذا نبتت بذرتها في قلبك ووجدت البيئة المحيطة التي تحفز نموها وتركتها أنت برهة دون مراجعة وضبط ومحاسبة للنفس وتساؤل عن كُنه تلك المشاعر وهل هي لله أم أن الهوى والأسباب الدنيوية قد تسربت إليها = فإن هذه المشاعر لا محالة ستتوالد وربما تنقسم ذاتيا وتتكاثر بشكل مريع يجعلك بعد حين تكاد تنكر قلبك ولا تعرفه وقد علاه سواد الحقد واستشرت فيه ظلمات الغل والكراهية.

نفس الأمر بالنسبة لمشاعر العشق والهيام إن لم يتم توجيهها وتأمل طبيعتها وضبطها فستجد ذلك الانغماس المفرط في هيام الرومانسية لأجل الرومانسية نفسها .

عندئذ لا تعجب حين تلحظ ذلك الهروب الواضح من الواقع لأجل التحليق الحالم بين سحائب الأوهام بأجنحة الخيال عبر علاقة عابرة أو حتى رواية سطحية أو فيلم تافه طمعا في الوصول للمزيد من تلك المشاعر الناعمة المتكاثرة.

إنها ببساطة تتوالد .

الجرأة والإقدام أيضا يتكاثران ذاتيا كلما ارتقى المرء سلمهما؛ كلما رخصت الدنيا في عينيه وبات أكثر استعدادا لتحمل كلفة الحق .

كذا الجبن والخور كلما هبط المرء إلى دركهما تدنى أكثر فأكثر وتشابكت أشواك الخوف لتصنع المزيد من الحواجز الكثيفة التي تحول بين الإنسان وبين الإقبال على كثير مما ينبغي أن يقبل عليه وهنا يتمكن الشيطان من ممارسة وظيفة مفضلة لديه وهي وظيفة التخويف ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾.
[آل عمران: ١٧٥]

لكن البداية تكون بتلك النبتة التي سمح لها المرء أن تتكاثر وتتوالد في بيئة مناسبة وهي كغيرها من المشاعر والخصال = ولّادة.

من هنا تستطيع أن تفهم طبيعة تلك التغيرات التي تطرأ على بعض الخلق وتذهب بهم من جهة إلى أخرى وترحل بهم من الشيء إلى ضده ونقيضه وكل ذلك مرتبط بالتوجه العام الذي توفره البيئة المحيطة وتشجعه.

قديما قالوا الصاحب ساحب ولقد أكد الشرع على هذا المعنى في غير موضع.

مثال حامل المسك ونافخ الكير الذي ضربه النبي ﷺ ليوضح مدى التأثير العميق للصحبة والرفقة التي هي أحد أهم أركان البيئة المحيطة.

جليس صالح كحامل مسك طيب الريح لن تعدم منه عبقا جميلا يرتاح إليه أنفك وتهفو له روحك.

وجليس سوء كنافخ كير إن لم تؤذك ناره آذتك ريحه الخبيثة ودنست نفسك آثار كيره المنتن.

وهذا من أهم خصائص الالتزام .

صحبتك .

بيئتك التي تضع نفسك فيها وتسمح لخصال أهلها أن تتسرب إليك .

هذه الصحبة التي تعين المرء على الطريق وتهون عليه ما يعتريه من مصاعب ومشاق ونتوءات ومحن وتسمح لخصال الخير أن تتوالد وتتكاثر وتنمو.

إن صحبة الخير هي أحد أهم أسباب الاستقامة التي ينبغي أن تقدر بعظم قدرها وألا تهمل أهميتها .

تلك الأهمية التي جعلت التوجيه للعناية بها في القرآن يبدأ بلفظ عجيب.

لفظ الصبر.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾

[الكهف: ٢٨]

وهل صحبة الأخيار تستلزم صبرا؟

نعم..

في الحقيقة من أراد الانتفاع ببيئة الطاعة وصحبة الخير يحتاج إلى شيء من الصبر.

بل ربما للكثير منه.

إن اختلاف طبائع الخلق قد يورث شيئا من النفور وإن قوما ليسوا معصومين قد يرتكبون ما يزهد في صحبتهم.

هذا واقع ينبغي الاعتراف .

لكن إن كانوا حقًا ممن يريدون وجه الله ويغلب عليهم الصلاح فينبغي على طالب الاستقامة ملازمتهم.

لأجل ذلك تبرز قيمة الصبر.

لتتخطى مصاعب الاختلاف وتذلل نوازع النفور.

وليس الصبر وحسب بل لابد من الملازمة حتى بالنظر وعدم الالتفات لزينة دنيا تصد عن صحبتهم.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

هكذا فعل من ذكرت هذه الآيات تعقيبا على قصتهم.

## أصحاب الكهف

هذا الصبر هو ما فعلوه في محنتهم التي هونها عليهم بعد فضل الله؛ اجتماعهم وتآزرهم.

وهكذا ينبغي أن يكون التعامل مع صحبة الخير وبيئة الصلاح.

أن يصبر الإنسان نفسه معهم ولا تعد عيناه عنهم.

وفي المقابل لابد من الحذر من الفئة الأخرى.

أهل الهوى والغفلة.

نافخي الكير .

أولئك الذين صار أمرهم فرطا فلا ينبغي التهاون مع صحبتهم ولا التساهل في مجرد طاعتهم .

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وما أكثر نماذج التقلبات السلبية والتغيرات للأسوأ والتي كانت البيئة والصحبة بطلها الرئيسي

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ .. [الفرقان:٢٨-٢٩]

هذه كلمات يروى أنها نزلت في عقبة بن أبي معيط.

يقولها يوم القيامة بينما تنهش أسنانه جلد وعظم يديه حين يعض عليها ندما وتحسرا،

يدعو على نفسه بالويل والثبور والهلاك.

يندم على خلته وصحبته لأبيّ بن خلف وأخيه أمية !

كان قد جاءه الهدى يوما وكاد أن يسلم وقد كان فى سابق عهده من أقل الناس إيذاءً للحبيب ﷺ ومن أكثرهم حرصا على حسن معاملته وعلى ضيافته حين يراه – فيدعوه لطعامه ، ويحرص على إكرامه.

ثم انقلب حاله وساء مآله ، لأجل صاحب ساحب هالك!

لقد اختار طريق صديق سوء ، وفضله على سبيل الرشد والهدى، مع صاحب الحق والخلق العظيم ؟!

**مع النبي ﷺ .**

حدث ذلك حين عاد أبيّ بن خلف من سفر تجارة كان فيه ولما علم أن صاحبه عقبة يكاد يسلم وأنبأته قريش أنه قد صبأ – هكذا سموا إسلامه – فهرع إليه ووجهه مسود وهو كظيم ؟

رفض أن يرد عليه؛ حين حياه عقبة فلما سأله عن سبب جفوته أجاب بغلظة: لا أرد عليك تحيتك وقد صبأت؟

حينئذ رق قلب عقبة لصاحبه الساحب ومالت للغواية نفسه وحنَّت لنافخ الكير فلم تلحظ الحفرة التى يلقيه فيها إلا بعد فوات الأوان.

صاح به أبيّ: لا أرضى حتى تأتي محمدا في مجلسه وتبصق في وجهه وتطأ عنقه ، وتسبه.

**ولقد فعل عقبة.**

بل وزاد وبالغ في إيذاء النبي ﷺ حتى صار من أعتى المشركين وأشدهم إيذاء لرسول الله ﷺ.

لقد كان هو الذي وضع سلى الجذور الميتة على رأس النبي ﷺ وهو يصلي وكان أن يقتله يوما خنقا أمام أعين الناس.

**لكن لماذا؟**

ما الذي دفع أبي لهذا الإصرار على صد عقبة؟

رجل أسلم أو كاد يسلم فى غيابه بالشام فما الذى يضره ؟

ألهذه الدرجة يصل الشر بالإنسان ؟!

أن يكره الهدى لغيره ، ويبغض الصلاح لمن دونه ؟

إنه دأب نافخ الكير فى كل زمان ومكان.

دأب جليس السوء ورفيق الغواية .

لا يحب أن يرتقي أحد عن الدرك الذى هو فيه، ويبغض أن يتطهر مخلوق من مستنقع الآثام الذى يتقلب فى نجاسته.

تقبع داخله بقايا فطرة منتكسة وتسكن هنالك نفس حاقدة حسود ة تدرك أن صاحبها ليس على خير وأن السوء والفحشاء شعار حياته.

هو لا يريد لأحد أن يكون أفضل منه .

ولسان حاله : إن ضللت أنا فلا يهتدين أحد غيري .

و كأنى به يهتف بكل أفعاله فى رفاقه : مثلهم مثلى ليسوا خيرا منى.

ما أشبه ذلك الجليس المضل بإمامه إبليس .

بدلا من أن يتوب عن عصيانه ؛ اختار أن يأخذ معه كل من يستطيع فيلبسهم مثله رداء المعاصى والآثام ،

أبى أن يُلعن فيلج الجحيم وحده ، وقرر أن يغويهم كما غوى ، فيسحبهم جميعا عنده .

كذلك فعل أبىّ بن خلف مع عقبة.

وكذلك يفعل كل أبيّ مع كل عقبة.

وإن هذا يفسر كثيرا من التغيرات المفجعة التي تدهشنا وتحزننا في الآن نفسه.

ينغمس في بيئة الفساد ويتهاون مع صحبة الباطل ويتقلب في أجواء الفتن ثم يندهش حين تتوالد المعاصي في حياته ويكسو السواد قلبه.

أوبعد كل ذلك يندهش؟

وماذا كان ينتظر وقد اختار وقرر وأعرض عن محل الصحبة الأخرى وموطن توالد الخيرات ومنبع النور والهداية .

هنالك في تلك البيوت.

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [النور: ٣٦].

هنالك حيث الطائعين المسبحين.

حيث العابدين المتبتلين.

حيث الرجال بحق.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

ومن هناك تكون البداية .

وهناك تدرك أن هناك دائما ثمة أمل في التغيير للأفضل وأنه مهما قحلت تربة نفسك فإن إمكانية استصلاحها وإعادة غرس النبت الطيب فيها موجودة.

بشرط رعاية ذلك النبت وتوفير البيئة المناسبة لتكاثره وتوالده كما تتوالد الحسنات التي هي كما ذكرنا = ولّادة .

وكذلك السيئات ...

والسوءات!

## ١٢ـ مش ببلاش

## "الجنة مش ببلاش"

كانت هذه إجابة ذلك الشاب صاحب فكرة مشروع إيواء المُشردين والمُشردات حين سئل عن سبب ما يفعله وما العائد الذي يرجع عليه وعلى أصدقائه بالنفع جراء ذلك المشروعالذي هو بلا يحمل خطورة .

بعض هؤلاء المشردين أصحاب علل نفسية وعقلية ويسببون مشاكل ضخمة عند محاولة إيوائهم أو البحث عن ذويهم وأحيانا تكون المشاكل من المارة ومن اعتادوا وجودهم حيث تتبادر اتهامات التجارة بالأعضاء واستغلال هؤلاء المشردين من أناس فقدوا كثيرا من ثقتهم أن ثمة من يفعل خيرا بلا مقابل

فما الذي دفع هؤلاء الشباب إلى تلك المخاطرة ولماذا تحملوا هذه المتاعب التي جرها إليهم ذلك المشروع.

الحقيقة لا أعرف أحدهم شخصيا ولا أستطيع من دون دراسة وافية أن أزكي شيئا لا أعلم عنه كثيرا من التفاصيل لكن الفكرة أعجبتني جدا حين رأيت ذلك التقرير المصور عنها.

والذي أعجبني أكثر هي تلك الإجابة التي خرجت من ذلك الشاب الذي لم يجاوز عمره فيما أتصور عقدين من الزمان .

- لما بنساعد الناس ربنا بيكرمنا في حياتنا وفي دراستنا وبنحس بالسعادة لما بنسعدهم.

وبعدين الجنة مش ببلاش.

هكذا أجاب ببساطة ومن دون تكلف.

وبتلك الإجابة رسخ لذلك الأصل العظيم الذي طالما رسخته نصوص القرآن والسنة.

أصل التطوع.

النفع المتعدي وعمل الخير وبذل المعروف دون مقابل دنيوي عاجل.

العطاء المرسل من غير تعقيدات وبلا حسابات .

هذه أشياء ينبغي ألا تخفيها ظروف طاحنة أو أزمات خانقة ولا يصح أن تطمسها سطوة المادية التي تعلو يوما بعد يوم.

بالمعايير المادية المعتادة الآن لم يعد هناك شيء بدون مقابل.

يندر أن يفعل أحد شيئا عظيما أو يُسدي خدمة لأحد دون أن ينتظر منه أجرا

هكذا يقيس الأمور كثير من الخلق .

بمنطق المصلحة المتبادلة والنفعية الصارمة التي لا هوادة فيها.

شيء مقابل شيء .

وخدمة نظير أجر.

هكذا فعل سكان بين السدين مع ذي القرنين وكذلك كان ظنهم به في القصة الشهيرة من سورة الكهف لما جاءوا يشكون إليه فساد يأجوج ومأجوج .

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:٩٤].

هل نجعل لك أجرا عظيما ومالا وفيرا مقابل تلك المساعدة في إنقاذنا من المفسدين وعزلنا عنهم بسد منيع.

كان ذلك عرضهم .

وكانت تلك إجابته .

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف:٩٥].

إجابة مفاجئة لمن لم يدرك ذلك المعيار الآخر .

معيار طلب رضا الله وابتغاء ما عنده.

المعيار الذي به يقيس الصالحون الأشياء.

ليس معنى ذلك أنهم يحرمون ما أحل لهم الله من اتخاذ الأجر مقابل العمل

لقد قبله موسى عليه السلام وهو من هو من الصلاح والتقوى .

لكن إن كان الله قد كفاني وأغناني فلماذا لا أتطوع؟!

لماذا لا أتعفف عن الأجر والمقابل أحيانا؟ .

لعل هذا ما فكر فيه ذو القرنين.

ولعل مثله ما فكر فيه سليمان عليه السلام حين جاءته هديه أهل سبأ فقال بحزم : ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾

[النمل:٣٦]

ومثله ما ورد في كلام كثير من الأنبياء عليهم السلام.

المال خصوصا .

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [هود: ٢٩].

﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[هود: ٥١].

هكذا أعلنوها مرارا ناصعة نقيَّة نافية لانتظار الأجر ..

أي أجر.

فالقضية ليست دوما عند الصالحين كمسألة حسابية لابد فيها من طرفين مستويين وشيء لزوم الشيء.

القضية لها مقاييس أخرى عندهم.

مقاييس أخروية .

شعارهم فيها ولسان حالهم ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧].

هكذا يفكرون.

وكذلك يفعلون.

أحسب أن هذا الشاب الطيب فكر بهذه الطريقة وبكلماته البسيطة وصف تلك السعادة واللذة والمتعة.

**متعة العطاء.**

نعم للعطاء متعة ولذة.

أذكر جيدا ذلك اليوم حين كنت مدعوا في أحد المحافل التي تقيمها إحدى الجمعيات الخيرية من أصحاب الجهد في رعاية الأيتام والمساكين .

كان ذلك الشعار يتوسط المكان .

متعة العطاء.

يومها تأثرت جدا حين لمست في الشباب القائم على تلك الأعمال شعورا أحسبه صادقا بهذا المعنى. لقد كانوا سعداء.

بل كانوا مستمتعين.

والمؤمن من سرَّته حسنته.

أن تعطي دون أن تنتظر مقابلا عاجلا.

أن تغرس فسيلة لتثمر سواء أكلت منها أو أكل غيرك.

أن ترسم بسمة على وجه حزين أو تمسح دمعة تترقرق من مقلة يتيم أو تربت على كتف مهموم لتضمد جرح قلب أليم.

أن تنفع الخلق ويتعدى خيرك لغيرك.

شيء من ذلك لن يمر بغير عائد عاجل تلمسه وتتذوق أثره.

ربما لن تشعر به في انتفاخ حافظة نقودك أو عدد أصفار ما تدخره من مال إن جاورته أصفار أصلا.

وربما فعلت.

إن هذا لن يكون أولوية في تفكيرك أصلا حين تتذوق ذلك العائد الآخر.

عائد أسرع وأجمل أثرا ينتظرك حين تفعل ما قدمت به أو بعضه.

إنها السعادة.

نوع آخر من السعادة لا يشبه تلك التي تنتجها الشهوات واللذات والمتع الحسية.

هاهنا سعادة مختلفة ومتعة أخرى.

متعة العطاء.

لذة النفع المتعدي.

حلاوة العون وطعم كشف الكرب.

ثم قرة عين ورضا يملأ مولاك به قلبك شكرا منه لك أن أرضيت عباده المساكين وكشفت كرب المكروبين.

إن هذا وربي لهو العائد الحق والربح العظيم.

وهذا ما لا يشتريه المال.

من ذاق تلك المتعة يدرك جيدا هذا المعنى ويعرف هذا الأثر الذي يتركه في نفسه عمل الخير وتغرسه صنائع المعروف.

شكا رجل إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال له ﷺ: « **إذا أردت أن يلين قلبك فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم** ». (**صحيح الجامع والسلسلة الصحيحة**) .

إنه ربط نبوي واضح بين عمل الخير وبين التغير الذي يطرأ على القلب والثمرة الجميلة التي تثمرها صنائع المعروف على من يفعلها.

**رقة القلب ولينه.**

تلك القسوة والغلظة التي صارت تعاني منها مجتمعاتنا وهذه الفظاظة وخشونة اللفظ والمعاملة التي صارت سمتا على كثير من إخواننا وأخواتنا = أحد طرق الخلاص منها صنائع المعروف.

إن المسارعة إلى تلك الصنائع باختلاف صورها وأشكالها = كفيل بجعل من يقوم على تلك الأعمال مرهف الحس رقيق المشاعر خصوصا حين يرى أحوال هؤلاء المبتلين ويشهد من جانب نعمة الله عليه وتفضيله إياه.

**كما أنه يحظى بالرحمة.**

تلك الرحمة التي كانت سببا في مغفرة ذنوب بغي من بغايا بني إسرائيل أسدت معروفا إلى كلب.

سقته فغفر الله لها!

إن الله شكور وجزاؤه من جنس عملك فإذا رحمت رحمك وإذا أشفقت وتلطفت بالخلق = لطف بك وإذا فرّجت عن غيرك فرج عنك.

«كَلَّا، أَبْشِرْ، فواللهِ لا يُخْزيك اللهُ أبدًا، إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحديثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْري الضيفَ، وَتُعينُ عَلَى نَوائبِ الحَقِّ ».

كانت تلك هي حيثيات أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي تواسي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين جاءها خائفا في أول التقاء بالوحي وحامله عليه السلام.

تَصِلُ الرَّحِمَ.

تَصْدُقُ الحديثَ.

تَحْمِلُ الكَلَّ.

تَقْري الضيفَ.

وَتُعينُ عَلَى نَوائبِ الحَقِ.

هذه كانت حيثيات البشرى.

ولقد صدقت ولم يخزه الله أبدا.

كمٌّ هائل من النصوص الشرعية يرسخ لهذا المعنى.

أن تكون نافعا لغيرك.

أن تكون خَيِّرا بل أن تكون مفتاحا للخير.

وأن هذا هو سبب تفضيلك وخيريتك ومحبة الله لك.

« **المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير النَّاس أنفعهم للنَّاس**» السلسلة الصحيحة.

تأمل .

خير الناس = أنفعهم.

«**خير الأصحاب عند الله خيركم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيركم لجاره**» صحيح الجامع.

«**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**» سنن الترمذي.

«**خيركم من أطعم الطعام وردَّ السلام**» صحيح الجامع.

«**خيركم من يُرجى خيره ويُؤمَن شره**» سنن الترمذي.

« **خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» صحيح البخاري.

« **مَن دلَّ على خير فلَه مِثل أجْر فاعله**» صحيح مسلم.

« **لا يُؤمِنُ أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنَفْسِه**» صحيح البخاري.

«**من نفَّسَ عن مؤمنٍ كُربةً من كُرَبِ الدنيا، نفَّسَ اللهُ عنه كُربةً من كُرَبِ يوم القيامةِ، ومن يسّرَ على معسرٍ، يسّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخرةِ، ومن سترَ مسلمًا، ستره اللهُ في الدنيا والآخرةِ، واللهُ في عونِ العبدِ ما كان العبدُ في عونِ أخيه**». صحيح مسلم.

«**أحبُّ الناسِ إلى اللهِ أنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وأحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ سُرُورٌ يدْخِلُهُ على مسلم، أوْ يكْشِفُ عنهُ كُرْبَةً، أوْ يقْضِي عنهُ دَيْنًا، أوْ تَطْرُدُ عنهُ جُوعًا، ولأنْ أَمْشِي مع أَخٍ لي في حاجَةٍ أحبُّ إِلَيَّ من أنْ اعْتَكِفَ في هذا المسجدِ، يعني مسجدَ المدينةِ شهرًا، ومَنْ كَفَّ غضبَهُ سترَ اللهُ عَوْرَتَهُ، ومَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، ولَوْ شاءَ أنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلأَ اللهُ قلبَهُ رَجَاءً يومَ القيامةِ، ومَنْ مَشَى مع أَخِيهِ في حاجَةٍ حتى تتَهَيَّأَ لهُ أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يومَ تَزُولُ الأَقْدَامِ، وإِنَّ سُوءَ الخُلُقِ يُفْسِدُ العَمَلَ، كما يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ**». صحيح الترغيب.

كل هذه النصوص وغيرها كثير = ترسخ لهذا الأصل وتقيمه في نفسك.
خيريتك ليست فقط لنفسك.
أحسن قولك هو ما كان نفعا وخيرا.
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾
[سورة فصلت: ٣٣]

وأحسن نجواك وأمرك هو ما كان بمعروف أو إصلاح
﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وهذه والله من أكثر الأشياء التي تأخذ بقلب الإنسان لربه وتجعله يدرك مقامه عنده ومودته له تلك.

تلك التشريعات التي تحض على نفع الغير أو ما يعرفه العلماء بالنفع المتعدي .

إذا نظر الإنسان نظرة مختلفة لأحاديث فضائل النفع المتعدي = فذلك حريٌ بأن يجعله منبهرا بذلك القدر من الرعاية والعناية اللذان يوليه الشرع بهما.

هل حاولت يوما عكس اتجاه تلك التشريعات والنصوص التي تحض على نفع الغير لتتأملها على أنها إنما جُعلت من أجل راحتك وسعادتك ونفعك أنت؟

نعم أنت.
يعاملك الله بها من خلال شرعه .
من خلال أوامر ومندوبات قالها نبيه ﷺ .

كلها تقريبا لو عكست اتجاهها فتفاجأ أنها إنما جُعلت لأجل إسعادك أنت وإدخال السرور على قلبك أنت وتفريج كربك وإزالة همك أنت.

كما طالعت في النصوص السابقة لقد جعل الله أحب الأعمال إليه سرورا يدخله الناس على قلبك .

في الحديث الصحيح «**أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على قلب مسلم**»
وجعل الله خير الناس أنفعهم للناس ... وأنت ناس فخير الناس أنفعهم لك ومن سترك ستره الله.

من كان في عونك كان هو سبحانه في عونه.

من نفس عنك كربة من كربات الدنيا فرّج هو عنه كربة من كربات يوم القيامة.

من يسر عليك حين إعسارك عن أداء دينك يسر عليه في الدنيا والآخرة وتجاوز عنه وجعله في ظل عرشه يوم القيامة.

من علمك خيرا جعل الملائكة والمخلوقات حتى النملة في جحرها يصلون عليه.

ولقد جعل أحسن القول قول من دعاك إليه وأخذ بيدك لطريق هدايته.

ولو أنك زوج جعل جهاد زوجك الفاضلة في إحسانها لك وجعلك سكنك وطاعتك هو خير أعمالها بعد أداء فروضها.

ولو أنكِ زوجة فقد جعل خير الرجال زوجك إن كان خيرهم معك وجعل إحسانه إليك ومودته لك ورحمته بك مقصدا أسمى في زواجكما حتى اللقمة يضعها في فمك جعلها له أعظم صدقة.

ولو أنك والد جعل بر أبنائك بك أعظم أعمالهم بعد صلاتهم بل وقدمه على الجهاد في سبيله.

في صحيح مسلم سُئل رسول اللهِ ﷺ: أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى اللهِ؟ قالَ «**الصَّلاةُ على وقتِها قيل: ثمَّ أيٌّ؟ قالَ ثمَّ برُّ الوالدينِ قيل: ثمَّ أيٌّ؟ قالَ ثمَّ الجهادُ في سبيلِ اللهِ**».

ولو أنكِ والدة فقد رغّب أبناءك في حسن صحبتك بجملة جامعة مانعة «**الزَمْ رِجْلَها ، فَثَمَّ الجنةُ**».

بل جعلك أحق الناس وأولاهم بحسن الصحبة وجعل المبدأ الراسخ يقودهم في ذلك ظاهرا جليا «**أمك ثم أمك ثم أمك**».

أما لو افتقرت وأصابك العوز والحاجة فقد جعل لك نصيبا من زكاة الأغنياء ورغبهم في التصدق عليك.

ولو مرضت لا قدر الله فقد جعل الله زيارتك وتطييب خاطرك من خير أعمال الناس وقيد ملائكة يصلون على من زارك وعاتب من لم يزرك قائلا: «**لو زرته لوجدتني عنده**».

وإذا عطست أوجب على الناس أن يدعو لك بالرحمة.
وإذا طلبت نصحا أمر الخلق أن ينصحوا لك.
وإذا مروا بك جعل حقك أن يسلموا عليك.
وإذا دعوتهم لمناسبة جعل حقك عليهم أن يجيبوا دعوتك.
حتى البسمة التي يلقونك بها جعلها صدقة ورغبهم فيها .
رغبهم أن يبتسموا في وجهك .
أما إن أطعته وصرت وليا له فالويل الويل لمن عاداك.
قد آذنه الله بالحرب...
«**من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب**».

**تأمل .**

حرب من الله فقط لأن ذلك الشخص قد عاداك.
أفيجعل لك كل هذا إلا لأنه ودود يتودد لك؟
ثم تعلم ذلك ولا يذوب قلبك حبا له وشوقا إليه؟!
بل وتعلم هذا ولا ترغب بكل كيانك أن تكون جزءا من هذه المنظومة الرائعة والقيمة الماتعة.
منظومة نفع الناس وقيمة التطوع .
تلك القيمة ة التي لخصها النبي ﷺ في حديثه المشهور «**إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها**».
فليغرسها حتى في ذلك الظرف الذي تيقن فيه أنه لن يأكل منها لكنه مكلف بالغرس في ذاته.
مكلف بالنفع المتعدي طالما كان ذلك بيده .
ربما كان الأمر على المجاز فإن زلزلة الساعة شيء عظيم تذهل فيها المرضعة عما أرضعت ومن باب أولى يذهل حامل الفسيلة عن غرسها .
لكن المعنى واضح.
اغرس الفسيلة وليس شأنك ثمرتها.
اصنع الخير ولا تنتظر نتائجه العاجلة.

تجاوز آمالك الضيقة وخالف طبعك الأناني وفكر أحيانا في أن هناك شيئا يقال له العطاء.

ولا تدري لعل الله يسوق لك ثمرة ذلك العمل من حيث لا تدري ولا تحتسب في الدنيا فيرفع عنك بلاء أو يقيك شرا لا تعلمه.

والأهم هنالك في الآخرة .

حيث الجنة.

تلك التي وصفها الشاب وصفا على بساطته هو من أدق ما سمعت.

الجنة التي ليست (ببلاش).

❊ ❊ ❊

## فصل:
## عوائق الالتزام

قد يكون المرء مقتنعا بحتمية الاستقامة وبأن ابتغاء تحقيق الصلاح هو أمر لازم وأن سلوك طريق التقوى وسبل الخير = ضرورة لا مناص عنها.

وقد يكون مدركا لما ينبغي أن يكون عليه التزامه ومحيطا بكثير من خصائص التدين الذي يبتغيه والاستقامة التي يحلم بها.

باختصار قد يكون مقرا تماما بحتمية الالتزام..

إذاً تصوره المبدئي ليس فيه مشكلة والفكرة التأسيسية مستقرة لديه .

فأين المشكلة؟

لماذا إذاً لا يلتزم؟

ما الذي يحول بينه وبين تحقيق ما هو مقتنع به وما الذي يمنعه من سلوك طريق يراه هو الصواب ويدرك لزوم السير العاجل فيه؟

لهذه الأسئلة قائمة ليست بالقصيرة من الإجابات.

ستجد ضمن الحواجز التي تحجره عن الامتثال لما يعلم حتميته = شبهات راسخة وشهوات جذابة ومخاوف قاسية وعلائق وعوائق سأحاول قدر وسعي بيانها تفصيلا في الجزء القادم لعل حسن التشخيص يعين على شيء من تصويب العلاج.

من هنا كانت أهمية هذا الفصل الذي عنونت له بهذا العنوان المباشر.

عوائق الالتزام.

الأشياء التي تؤخرنا عن الاستجابة .

السدود التي تحول بيننا وبين الاستقامة والسعي لتحقيق مراد الله منا.

إذا عرفنا هذه الأشياء وتمكنا من تحديدها نكون بذلك قد خطونا خطوة لا يستهان بها نحو هذا المقصد الأعظم.

مقصد إرضاء الله.

### ١ـ غدا الذي لا يأتي:

لعل من أهم تلك العوائق التي أشرت إليها = تلك القيود الثقيلة من التباطؤ وهذه الأغلال التسويفية التي تحول بينه وبين أن يعجل إلى ربه.

لكن لماذا العجلة؟

وفيم التسرع؟

سوف نلتزم ونستقيم وننصلح ونتقي ونتوب..

لكن ليس اليوم .

التوقيت ليس مهما إلى هذه الدرجة.

المهم إننا سوف نفعل يوما.

ربما غدا .

أو بعد غد.

غداً .

هي كلمة السر ومفتاح تلك الشخصية المتباطئة التي هي في حقيقة الأمر تقبع في أعماق كلٍ منا بنسب مختلفة.

- غدا سأتغيرً...
- غدا سأكون إنسانا رائعا..
- غدا سأبدأ بداية جديدة ومختلفة تماما..
- غدا سأُقلع عن كل تلك العادات السيئة التي تلازمني..
- غدا سأحل كل مشكلاتي وسأصلح كل أخطائي وسأعوض ما فاتني...
- غدا سأُنزِل من وزني الزائد وسأمارس الرياضة وأتبع حمية غذائية منضبطة..

غدا سأذاكر... غدا سأصلي... غدا سألتزم... غدا سأتوب...

غدا سـ.. سـ... سـ...

دائما غدا..

هذا هو الشرط.

غدا وليس أبدا اليوم.

وغدا هذا لا يأتي قط!!

لقد صار (غداً) لدى البعض سجنا كبيرا؛

سجنا قضبانه التسويف وأسواره الشاهقة ينافس ارتفاعها فقط طول أمله وبعد مسافة أمانيه.

والحقيقة أن التحرر من هذا السجن في مسألة الالتزام والاستقامة والتسنن = ليس ترفا اختياريا ولا هو مسألة تحتمل الأخذ والرد تماما كما بيَّنا أنه ليس كذلك بالنسبة للقرار نفسه.

لابد أن يكون قرارا عاجلا وفوريا.

تتضافر الأدلة الشرعية لغرس تلك الحقيقة.

حقيقة أنه لا مجال للتسويف ولا أحد يضمن العيش لتحقيق ما سوَّفه.

حين يأتي الحديث عن الاستقامة أو اتباع الصراط المستقيم في القرآن بصيغة الأمر فإن الحرف (فاء) والذي يفيد الترتيب والتعقيب يكون هو المستعمل بشكل ملحوظ وفي جل مواضع الأمر.

﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت:٦].

﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود:١١٢].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام:١٥٣].

أيضا في السنة جاء في رواية مسلم لحديث الاستقامة الأشهر حين قال سفيان بن عبدالله الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا، لا أسأل عنه أحدًا بعدك، أجابه الرسول: قل: آمنتُ بالله، فاستقم.

تأمل من جديد حرف (الفاء) الذي يسبق الأمر بالاستقامة.

لكن عند وصف الامتثال لذلك الأمر وتنفيذه ستجد اللفظ (ثم) ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت:٣٠].

ذلك لأن طبيعة البشر تحمل شيئا من التراخي.

لكن عند الأمر فالمراد = المسارعة والعزم المباشر والفوري.

لذلك كانت المسارعة والمسابقة والعجلة هي المقصودة دوما في أمر الدين وشأن الآخرة ولقد صرح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك فقال: «**التؤدة** (أى التمهل والتأني) **خير فى كل شىء إلا فى عمل الآخرة**» **صحيح الجامع**.

وعن الآيات التي رسخت لهذا المبدأ - المسارعة = فحدث ولا حرج.

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٣].

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [سورة الحديد: ٢١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٦١].

﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [سورة البقرة: ١٤٨].

﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾

[سورة المائدة: ٤٨]

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ [سورة الواقعة: ١٠ - ١١].

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [سورة المطففين: ٢٦].

تأمل تتابع الألفاظ التي تتصدر التوجيه بالعمل للآخرة.

سارعوا..

سابقوا..

فاستبقوا..

يسارعون..

السابقون..

فليتنافس المتنافسون..

بل لفظ العجلة نفسه جاء في سياق الحديث عن فعل رسول مكلم من أولي العزم من الرسل .

هو شعار لنبي الله موسى عليه السلام .

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾

[طه ٨٣ - ٨٤ ]

هذه هي العجلة المحمودة.

وهذا هو المقصود شرعا والممدوح في ديننا.

أما التثاقل والتباطؤ والتسويف والتعويق = فمذموم في جل مواضعه.

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ [النساء: ٧٢].

تأمل الكلمة!.

منكم..

ها هنا ذم واضح لنموذج الشخصية المتثاقلة والمتراخية المتباطئة عن الخيرات.

حدثنا الله عن ذلك النموذج الثقيل مرارا فقال في سورة التوبة محذرا من فعله: ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ [التوبة: ٣٨].

وكلمنا عن تعويقه لغيره في سورة الأحزاب فقال: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [الأحزاب: ١٨].

وهكذا في مواضع متعددة لا يتسع المقام لذكرها نجد هذا الذم للتثاقل والتباطؤ.

الحقيقة أن التسويف فمشكلة حقيقية نعاني منها جميعا بأقدار متفاوتة، وعلى جميع المستويات والمجالات.

مشكلة تظهر على صنوف متباينة من البشر وهي من الأمور التي تقدح في جودة الشخصية التي تعاني منها بشكل عام وليس فقط فيما يخص التدين.

فما بين عاصٍ مسوِّف يُرجيء أمر توبته لأجل غير مسمىً، وطالب متكاسل يعلق آمال عريضة على أوهام اجتهاد سيهبط عليه فجأة، وموظف مماطل يدمن تعطيل مصالح الناس لـ (بُكرة) المزعوم الذي يتجلى دوما في شعاره العتيد (فوت علينا بكرة) وكل من يسرف في وعود وردية وأحلام مستقبلية موعدها دائما في ذلك الغد الذي لا يأتي أبدا.

وعلى قدر تمكن أحدنا من تجاوز تلك القضبان التسويفية = على قدر نجاحه في تحقيق تلك الآمال والطموحات وقدرته على إثبات ذاته وإنجازه لشيء خلال تلك الحياة القصيرة.

فقط إن كسّر تلك القضبان واعتلى تلك الأسوار وأدرك أنها فعلا كذلك.

فعلا حياة قصيرة.

إن لم يدرك المرء ذلك اليوم فهو للأسف سيدركه في غدٍ مختلف.

غدٍ حقيقي ونهائي ولا ينفع فيه ندم ولا تحسر.

- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾

[المؤمنون:٩٩-١٠٠]

- ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

[الزمر:٥٨]

- ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الأنعام:٢٧]

- ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢].
- ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

[ المنافقون:١٠]

- ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾

[إبراهيم:٤٤]

- ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف:٥٣].
- ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى:٤٤].
- ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾

[فاطر:٣٧]

مجموعة كبيرة من الآيات تشترك كلها في ترسيخ هذا المعنى المحوري وتلك الحقيقة المتغافل عنها .

ندم المسوِّفين وتحسرهم على تسويفهم .

ثم توحدهم خلف مطلب واحد لا غير.

العودة.

الرجوع.

المَرَد.

الرغبة في التعويض.

إنها آيات تبين بشكل قاطع أن ذلك السجن الذي اختار المسوفون المكث خلف جدرانه لم ينفعهم بشيء وأن غالب تحسرهم لما يأتي الغد الحقيقي سيكون على تضييعهم الفرصة حين كانت سانحة؛ فرصة التحرر من هذا السجن التسويفي البغيض.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

هكذا كان دائما فحوى الرد على ندمهم وكذلك كانت الإجابة المتكررة على تحسراتهم وطلبهم الفرصة بعد فوات الأوان .

قد عمّرتم طويلا ومكثتم في الأرض سنين عددا وذُكّرتم وأُنذرتم وكان كل غدٍ يمر عليكم بمثابة فرصة جديدة أصررتم على تأجيلها كل مرة حتى لم يعد هناك غدٌ في الدنيا وجاءت الأخرى فلم يعد ينفعكم الندم ولم يعد هناك (سوف)

الغد المزعوم الذي طالما تحججتم به لم يعد له وجود.

غدكم الذي لا يأتي أبدا.

والذي ينبغي أن يأتي فورا.

### ٢. لما ربنا يهدي :

ومن أهم تلك العوائق المثبطة للكثيرين وربما المانعة لهم عن سلوك سبيل الالتزام هي تلك الشبهة المتعلقة بتصورهم عن الهداية.

في نظر هؤلاء الهداية ليست كسبية بإطلاق.

ليس لهم أي دور .

ليس عليهم أي تكليف.

فكرة الاستهداء لديهم تكاد تكون ملغاة تماما.

فقط رد واحد يتصدر المشهد حين يذكر الالتزام أو يحين موعد النصح بالصلاح والاستقامة.

لما ربنا يهدي!!

بهذا الفهم وذلك التعليق على ذلك الفعل الإلهي = يستريح كثير من الناس في أمر هدايتهم ويخدرون ضمائرهم ويسكتون أنفسهم اللوامة بتلك الحجة.

لما ربنا يهدي...

حسنا... ماذا فعلت ليهديك؟

هل أخذت بأسباب الهداية؟

هل سلكت سبلها؟

والأهم هل فهمت أصلا معانيها؟

هذه هي للأسف أهم الأسئلة التي قليلا ما يسأل المرء منا نفسه عنها!!

نعم هذه هي الحقيقة التي يصر أولئك المرجئون على تجاهلها.

للهداية سبل وأسباب وطرق .

وثمة تكليفات بشأنها.

أهم تلك التكليفات ما يعرف بالاستهداء.

طلب الهداية.

السعي إليها.

ثم قبولها واستحبابها واتباعها حين تأتيك.

في الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته**»..

ها قد قامت الحجة لهم.

أو هكذا يتصورون لأنهم ببساطة لا يكملون.

نعم الكل ضال إلا من هداه الله.

ومن يهدي الله فهو وحده المهتدي.

لكن أين باقي الحديث؟

أين التكليف؟

ها هو يظهر واضحا بعد تقرير تلك الحقيقة.

حقيقة أن الهداية بيده سبحانه.

«فاستهدوني = أهدكم» .

هكذا الأمر إذاً.

الهداية عليه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [**الليل: ١٢**].

والاستهداء عليك «فاستهدوني أهدكم».

هذا هو المطلب والتكليف الأول.

وهذا ما اتضح بشكل مكثف في حياة النبي ﷺ ودعائه المأثور الذي علمنا إياه وأكثر جدا منه .

دعاء الهداية.

التضرع للوصول إليها.

سؤال الله بأسمائه وصفاته كي يرزقنا إياها.

ظهر ذلك فيما علمه لابن عمه وصاحبه سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين قال: «**قل اللهمَّ اهدِني وسدِّدْني . واذكر ، بالهدى ، هدايتَك الطريقَ . والسَّدادَ ، سدادَ السَّهمِ** » صحيح مسلم.

وعنه أيضا أن رسول الله كان يقول في استفتاح صلاته: «**اهدِني لأحسنِ الأخلاقِ . لا يهدي لأحسنِها إلا أنت**» صحيح مسلم .

وعن أبي سلمةَ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ قال سألتُ عائشةَ أمَّ المؤمنين : بأيِّ شيءٍ كان نبيُّ اللهِ ﷺ يفتتحُ صلاتَه إذا قام من الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليلِ افتتح صلاتَه : «**اللهمَّ ! ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ . فاطرَ السماوَاتِ والأرضِ . عالمَ الغيبِ والشهادةِ . أنت تحكم بين عبادِك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدِني لما اختُلفَ فيه من الحقِّ بإذنِك إنك تهدي من تشاءُ إلى صراطٍ مستقيم** » صحيح مسلم.

وعن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: علَّمني رسولُ اللهِ ﷺ كلماتٍ أقولُهنَّ في قنوتِ الوترِ.

« **اللهمَّ اهدِني فيمن هديتَ وعافِني فيمن عافيتَ وتولَّني فيمن تولَّيتَ وبارِكْ لي فيما أعطيتَ وقِني شرَّ ما قضيتَ إنك تَقضي ولا يُقضى عليك وإنه لا يَذِلُّ من واليتَ ولا يعِزُّ من عاديتَ تباركتَ ربَّنا وتعاليتَ**» سنن أبي داوود.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو قائلا: «**اللهمَّ إني أسألُك الهدى والتقى والعفافَ والغنى**» صحيح مسلم .

هذه الأحاديث وغيرها تبين بوضوح تلك القضية التي تشغل رسول الله ﷺ أو يريد لها أن تشغل من تبعه بإحسان.

قضية الهداية وطلبها.

الاستهداء.

إن أكثر دعاء مطلوب من المسلم تكليفا وفرضا لا تنفلا أو استحبابا هو دعاء الهداية.

في كل صلاة بل في كل ركعة يقرأ فيها بأم الكتاب التي لا صلاة لم يقرأ بها إلا باستثناءات محدودة جدا = ستجد دعاء واحدا يتكرر أمامك ويلهج به لسانك ويفترض أن يتضرع به قلبك.

إنه دعاء الهداية.

الهداية التى من دونها الضلال.

لكى تعلم دقة هذا التكليف وخطورة هذا الدعاء وأهميته لابد أن تعلم طبيعة ذلك الشىء الذى تحتاج أن تهدى خلاله.

إنه الصراط.

الصراط المستقيم فى الدنيا والآخرة.

هذا الطريق المحفوف بالمخاطر فى الدارين.

في الدنيا حف هذا الصراط بالمكاره والشهوات والشبهات وامتلأ بالمزلات والفخاخ وتربص بك فيه الأعداء من كل جانب خارجك وداخلك.

أبواب وسبل وستور مرخاة ودعاة على تلك الأبواب .

وفى الآخرة الأمر أخطر والصعوبة أشد فصراط الآخرة كما وصفه النبى دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس على وجهه في النار ] خرجاه في الصحيحين وفي رواية لمسلم قال أبو سعيد الخدري بلغني أن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف.

فيمره المؤمن كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب حتى يمر آخرهم يسحب سحبا.

هو إذا طريق محفوف بالمهالك ممتلىء بالأعداء من شياطين الإنس والجن ومن قبلهم النفس الأمارة بالسوء ثم كلاليب وخطاطيف ومهالك شتى.

مثل هذا الطريق حرى بالمرء أن يتأهب فيه ويهاب سلوكه بغير معين.

عندئذ يبرز ذلك الدعاء من قلب مفتقر وعقل يعى خطورة الأمر فيجأر به كل لحظة لمن يستطيع إعانته على وعورته.

ويطلب تلك الهداية في الدنيا والآخرة.

يستهدي.

وللهداية معانٍ وأقسام لابد أن تدركها لتستطيع التفريق بين ما هو بيد الله وحده وما هو كسبي للإنسان دور واضح فيه

لقد أُثبتت صفة هداية الغير للنبي ﷺ في موضع ونفيت عنه في موضع آخر أُثبتت في قول الله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة الشورى:٥٢]

ونُفيت في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

ولا يوجد تعارض بين الأمرين ببساطة لأن الهداية هدايتان!

هداية إرشاد وتوجيه ودلالة إلى الخير وصراط الله المستقيم وتلك هي المثبتة للنبي ﷺ وإخوانه الأنبياء ثم من سار على نهجهم وتلك التي رفضها أهل الباطل دومًا وقالوا: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦].

وهناك هداية أخرى وهي بمعنى شرح الصدر للحق والتوفيق للخير وقبول تلك الدلالات والإرشادات وهذا النوع هو ما لا يملكه مخلوق ولا يطلع على موعد وحقيقة وروده على نفس المخلوق إلا الله الهادي سبحانه.

وتلك الهداية التي ينبغي للعبد أن يطلبها ويفتقر ويضرع لربه داعيًا أن يرزقه إياها.

أن يستهدي.

المشكلة أن هذين النوعين يختلط أمرهما على كثير من الناس فيظن أن المسألة ليست كسبية مطلقا وأنه لا يوجد أدنى تكليف أو دور عليه وبالتالي يستريح ضميره ويرجيء الأمر ويسوفها متحججا بذلك التعميم والإطلاق لهداية التوفيق التي لا يملكها إلا الله.

والحقيقة أن ربنا لا يظلم أحدا ومعاذ الله أن يكون الأمر عشوائيا وإلا كان اتهاما ضمنيا لله.

وحاشا وكلا.

هناك أسباب يأخذ العبد بها وسبل يتبعها والله وعد هذا المخلوق – الإنسان– في بداية الحياة على هذا الكوكب بأنه إذا فعل واتبع هداية الدلالة والإرشاد التي ستأتيه وقبلها = فإن الله سيعطيه هداية التوفيق والسداد

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [سورة طه:١٢٣].

من اتبع الهدى الذي يرسله الله فلن يضل ولن يشقى..

واضحة حاسمة قاطعة.

في المقابل: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [سورة طه:١٢٤-١٢٦].

هو الذي نسي.

هو الذي أعرض عن الذكر.

هو الذي تغافل عن الآيات وتعامى عنها.

صحيح أنه لم يكن أعمى البصر لكن بصيرته كانت هي الضريرة باستحبابه العمى على الهدى.

تماما كما فعلت ثمود.

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة فصلت: ١٧].

تأمل مرة أخرى قوله سبحانه ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾

كيف يصفهم بتلقي الهداية وهم قوم هلكوا على الكفر.

ببساطة هي تلك الهداية الأولى.

هداية الدلالة .

ولقد نالتها ثمود وجاءهم بها نبي الله صالح.

فماذا فعلوا؟

نقضوا التكليف وأعرضوا عما كان ينبغي لهم.

لا هم استهدوا ابتداء ولا هم قبلوا واتبعوا انتهاء.

ببساطة.. رفضوها..

هم من فعلوا.

هم الذين استحبوا العمى وكرهوا الهدى وأعرضوا عنه فحرموا من تمامه ولم يبصروا نوره .

وكذلك فعل كل من أعرض ونسي وتغافل فلا يلومن إلا نفسه إن لم يهتدي وبدلا من تخدير نفسه بمسكنات الإرجاء على موعد الهداية الذي يأت بعد والذي يتصور ألا سعي له ولا كسب = فليبحث عن السبب في صده وحجبه عنه من بين أسباب حجب الهداية التي ذكرها الله في كتابه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل ١٠٤].

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ **[البقرة ٢٥٨ وآل ٨٦ والتوبة ١٩، ١٠٩ والصف ٧ والجمعة ٥]**.

﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ **[المائدة ١٠٨ والتوبة ٢٤ و٨٠ والصف ٥ والمنافقون ٩]**.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ **[البقرة ٢٦٤ والمائدة ٦٧ والتوبة ٣٧ والنحل ١٠٧]**.

كل هذا وغيره من البيان القرآني المتكرر والمفصل للأسباب والعوامل المانعة عن الهداية ثم تجدهم يتساءلون بسذاجة مصطنعة وتكلف متنطع: لماذا لا يهدينا الله؟!

ثم يعلقون قرارهم وقبولهم للهدى الذي يأتيهم بتلك الجملة المخدرة المريحة وتلك الشبهة الإرجائية المبطأة.

## جملة: لما ربنا يهدي...

## ٣. ظروف!

الظروف..

فساد الواقع..

ضغوط المجتمع..

الأحوال المحيطة..

الفتن التي تبرز من كل مكان.

البيئة التي نحيا فيها بكل ما تحمله من تفاصيل .

تلك العوائق الأشهر التي يتحجج بها أكثر الناس حينما يحاولون تبرير الحواجز بينهم وبين قرار الاستقامة والتسنن وسلوك سبيل الصلاح أو ما اصطلحنا على تسميته في هذه السلسلة منذ شرعنا فيها بقرار الالتزام .

الحقيقة رغم كون هذه الأشياءكلها معتبرة ومؤثرة إلا إنها لا ينبغي أن تكون التفسير الدائم لفشلنا في تحقيق المراد منا.

ببساطة لأننا مطالبون بمواجهتها والصمود أمام رياحها العاتية.

هي تشكل نوعا من الابتلاء والاختبار يفترض أن نحسن الإجابة عليه وعلى قدر صعوبته ومشقته تكون الجائزة.

أما أن تكون تلك المصاعب دوما هي الشماعة التي نعلق عليها استسلامنا فذلك يعني ببساطة أننا فشلنا .

هكذا بوضوح ودون مواربة أو تبرير.

إن الجنة قد حُفت بالمكاره وإن النار على النقيض طريقها مفروش بالشهوات والمحبوبات فهل الركون لتلك الطريق الممتعة ورفض أي بذل أو تضحية في الأخرى = الإجابة الصحيحة؟

وهل علينا أن نغض الطرف عن تلك النماذج التي ذكرت في كتاب الله وتبين من خلاله كيف واجهت بيئتها الضاغطة ولم تنكسر للظروف أو ترضخ لفتن الواقع.

هل تلك المقابلة بين امرأة نوح وبين امرأة فرعون لا تلفت انتباهنا إلى كون البيئة المحيطة ليست العامل الوحيد في خياراتنا؟!

لقد عاشت الأولى في بيت من أطهر البيوت وأنقاها.

بيت مليء بالتقوى يقوده واحد من أفضل البشر وأعظمهم على الإطلاق.

بيت نبي رسول من أولي العزم من الرسل.

عاشت في بيت نوح عليه السلام!

ومثلها في بيت نبي عاشت امرأة لوط عليه السلام.

بينما عاشت الأخرى في بيت طاغية من أظلم وأفسد الطغاة الذين عرفتهم البشرية.

عاشت في بيت فرعون.

ذلك الظلوم مدعي الربوبية ومنتحل الألوهية والمجترىء على كل قيمة توحيدية تخالف شرعته الأرضية الوضعية.

ورغم أن الظروف والأحوال المحيطة بكل منهما كان من المفترض أن توجهها إلى طريق يناسب ظروفها المحيطة ومآل يشابه بيئتها التي عاشت فيها إلا أن العكس هو ما حدث.

لقد كفرت امرأة نوح وابنه.

ومثلهما فعلت امرأة لوط.

بينما آمنت امرأة فرعون وأحسنت.

لم تنفع الأولى بيئتها الصالحة ولم تقف البيئة الفاسدة حائلا بين الثانية وبين بشاشة الإيمان التي خالطت قلبها فصارت الأولى مع أختها وشبيهتها - امرأة لوط = مثالا قرآنيا يضرب للذين كفروا وأضحت السيدة آسية بنت مزاحم قدوة ومثلا للذين آمنوا.

يقول ربنا في سورة التحريم ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

ويقول أيضا: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[التحريم: ١٠]

هذين المثالين القرآنيين من أوضح الأمثلة على تلك الحقيقة التي يتجاهلها كثير من الناس.

حقيقة أن الشماعات التي يعلق عليها البعض فشلهم أو انتكاس فطرتهم ليست كافية أبدا.

شماعات الظروف والبيئة المحيطة والعوائق الصادة والصعوبات التي تفصل بينه وبين الهداية والاستقامة والالتزام.

حقيقة أن المرء مكلف أن يبذل وسعه للوصول إلى الحق وأن يثابر ويصابر مهما كانت الظروف المحيطة قاسية ومانعة.

أقر مرة أخرى أن البيئة المحيطة عامل لا يستهان به وعنصر ينبغي اعتباره لكنها - وأكرر - ليست العامل الوحيد.

لم تشفع البيئة الصالحة والبيت الطاهر لامرأة نوح ولا لامرأة لوط ولم تقف حائلا بينهما وبين الكفر.

بينما صمدت امرأة فرعون في ظروف صعبة وبيئة بشعة قاسية.

وهل من بيئة أسوأ من تلك التي عاشت فيها؟

هل من ظروف أقسى من تلك التي عانت منها هذه المرأة المؤمنة وهي تواجه طاغية لا يستنكف أن يذبح أطفالا رضع ويستحيي نساء ويستعبد أمة بأسرها؟

بل ولقد تطور أمره حتى طالها هي وأذاقها المجرم من صنوف العذاب حتى قتلها.

لو كانت البيئة والظروف هي العامل الوحيد الذي يحلو للبعض أن يركنوا إليه عند تبرير تقصيرهم لكانت تلك المرأة الصالحة أولى الناس بالتعذر به والركون إليه.

لكنها لم تفعل.

بل صمدت وصبرت.

ونالت ما طلبت.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ **[العنكبوت: ٦٩]**.

وهكذا الصادق في طلب الحق والاستهداء بنوره لا يلفته عنه شيء ولا يثنيه عائق أو تؤخره ظروف أو تعطله علائق.

لا يعلق تقصيره على شماعات ومبررات واهية بل يسعى ويجتهد ويعلم علم اليقين أن نور الحق نافذ ولو غلظت سحائب الباطل وكثرت غيومه.

هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن تعيها.

أنت صاحب القرار والخطوة الأولى منك أنت فلا تعلق مآلات أحوالك واختياراتك على البيئة والظروف فأنت من تختار لنفسك وتحدد طريقك والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وإن يعلم الله في قلبك خيرا يؤتك خيرا .

فدع عنك المبررات.

وألق عن كاهل تقصيرك كل تلك الشماعات ولا داعي لكل تلك الظروف والجوابات.

### ٤ . الباحث عن الحق:

لعل أحد أوضح الأمثلة على عدم الاستسلام لما ذكرناه في الفصل السابق من ضغط الواقع المحيط وتعليق الحال على شماعات الظروف والبيئة = نموذج سلمان الفارسي.

لم يكن سلمان مجرد شاب آخر لا أحد يأبه به..

لقد كان سيدا في قومه.

كان ابنا لأحد أهم رجالات بيئته.

في الحقيقة لقد كان بمثابة أمير.

وليس أي أمير بل كان أميرا مقدسا ترتبط قداسته بقداسة إلههم الذي يعبدون والذي يعد والده كاهنه الأعظم والمسؤول عن إبقائه -الإله المزعوم أعني- حيا قويا.

تخيل شخص مسؤول عن حياة إله.

لا تعجب فإلههم = مجرد شعلة تطفئها ريح متوسطة القوة.

لكن هكذا كانوا يفكرون وهكذا وقروا أباه ومن ثم وقروه..

بيئة تمتليء ترفا ودعة وأضف إليها إجلالا من شعبه وقوة ومال وجاه وسلطان.

لكن كل هذا لم يضعفه ولم يثنه عن مطلبه.

لم تشغله الأموال والضيعات عن رغبته ولم تثنه المكانة بين الناس عن مطلبه.

كان قلبه رغم كل ذلك يتوق إلى شيء آخر.

نداء يتصاعد بشكل مستمر من أغوار سحيقة لفطرة لم تنجح نجاسات الوثنية في طمسها.

نداء يخبره أن ثمة حقيقة مختلفة وأن نيرانا تحتاج لوالده كي تبقى جذوتها متقدة لا يمكن أبدا أن تستحق عبوديته.

ولقد استمع إلى النداء.

وقرر أن يستجيب له.

أتراه ذلك الكنيس المتاخم لحدود مدينته الأصبهانية العتيقة؟

أتراهم أولئك الرهبان الزاهدين العابدين هم من يملكون ما يبحث عنه ويعرفون جوابا يتوق إليه؟

لقد تنصت إلى ترانيمهم أكثر من مرة ولقد وقعت من نفسه موقعا حسنا.

لا شك أن هذا خير مما هو عليه وأقرب لفطرته التي تتململ خلف غيوم المجوسية الحمقاء.

تهلل قلب مشتاق إلى الحق وفرحت نفس طالما اشرأبت باحثة عن الصدق ولم يستطع أن يكتم تلك الفرحة .

لقد أخبر والده .

- هذا الدين خير مما نحن عليه.

- بل دينك ودين آبائك خير منه .

كانت تلك إجابة الوالد القولية والتي تبعتها إجابة عملية تمثلت في قيود غليظة جعلها في رجل ولده خشية أن تدفعه فطرته المتوثبة للذهاب إلى غير رجعة طالبة مبتغاها الوحيد.

طالبة للحق الذي يعلم الوالد في قراره نفسه أنه لا يملك إجاباته ولا يحيط بمنطقه وأن أضواء نيرانه المتراقصة لم تكف لكشفها لولده.

ولقد وقع ما كان يحذر.

لم يلبث الشاب الباحث عن الحقيقة إلا أن كسر قيده وتخلص من آصار أغلال الحديد التي مهما بلغ ثقلها تظل أخف وأهون من آصار وعلائق أخرى غليظة قد ألقاها من قبل عن عن قلبه.

ولقد رحل .

قصد إلى الشام مبتغيا أصل ذلك الدين الجديد عليه.

لكن الأمر لم يكن في البداية كما تصور.

إن ذلك الرجل الذي أرسلوه إليه ليمكث عنده متعلما ووصفوه بأنه أعلمهم بهذا الدين لم يكن أبدا مثالا جيدا لحملة الحق.

بل كان في الحقيقة شر مثال .

كان راهب سوء يأكل أموال الناس بالباطل ولا يؤديها لمستحقيها حتى اجتمعت لديه ثروة عظيمة و﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

لكن صاحبنا لم يصد.

لم يسارع إلى نمط النفور من الدين لخلل بحامليه ولم يلجأ إلى فرضية العصمة التي تلبس للمتدينين وتكون عند انكسارها سبيلا إلى مغادرة الدين بحجة فساد أهله ولم يعرف الحق أو يصد عنه بالرجال.

لقد استطاع بتجرد مذهل أن يصبر نفسه مع راهب السوء ينهل مما لديه من الحق ولا يخلطه بما عنده من الباطل حتى جاء أجل ذلك الراهب وحانت نهايته

**ثم كانت الجائزة.**

لقد أكرمه الله براهب آخر يخلف ذلك الفاسد وشتان الفارق الذي كان بينهما

وكذلك الصابر الصادق ييسر الله له سبل الهداية للحق حين يري الله منه خيرا فيؤته خيرا

مكث «سلمان الفارسي » لدى هذا الرجل الصالح ما شاء له الله أن يمكث وتعلم من فعاله قبل أقواله ثم حانت لحظة الفراق وجاء أجل الراهب.

لكن نهم المعرفة ورغبة البحث عن الحق لم تنطفىء جذوتها بعد.

بل لعل وهجها قد ازداد كلما اقترب .

- سيدي قد حضرتك الوفاة، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟

قال الراهب المحتضر: أي بني، والله ما أعلم أحدًا اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان، وهو على ما كنت عليه، فَالْحَقْ به.

**الطريق إذاً لم يزل بعد طويلا.**

سيرحل الباحث عن الحق إلى المشرق من جديد وبغيته العراق هذه المرة ليس ليقترب من موطنه وعز أبيه وجاه منصبه وترف سلطانه ولكن لأجل غايته السامية التي لم يعد في نفسه غيرها.

**غاية البحث عن الحق.**

سيمكث الباحث في الموصل ما شاء له الله أن يمكث ثم يتكرر الأمر ويأتي الأجل عابدها ليقطع عليه تعلمه لكنه لم يقطع همته وشغفه وسينطلق من شاطىء دجلة إلى ضفاف الفرات بنصيبين العتيقة لينهل من عابدها ثم يحيله ذلك الأخير عند إتيان سكرات موته إلى الشام من جديد ليمكث لدى عابد عَمُّورِيَّةَ ما شاء له الله أن يمكث حتى يأتيه أجله أيضا فلا تفلح الأعوام الطويلة والرحلات الشاقة المتكرر في كسر همة الباحث أو طمس شوقه للحقيقة وإذا به يسأل عابد عَمُّورِيَّةَ على فراش موته سؤاله المعتاد:

- سيدي قد حضرتك الوفاة، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني؟

لكن الإجابة هذه المرة كانت مختلفة.

كانت فصلا بين عصرين وحدا فاصلا بين زمانين.

عصر عباد حنفاء معدودين متفرقين وزمان ندرة حق وقلة صدق وعز يقين قد آذن بالانتهاء وليظل الكون زمان جديد .

**زمان نبي.**

-أي بني، والله ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب مهاجرًا إلى أرض بين حَرَّتَيْنِ بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فَافْعَلْ.

هكذا بين الراهب تلك الحقيقة الفاصلة واقتربت الرحلة الطويلة من نهايتها وأكرم بها من نهاية.

لكن صعوبات الرحلة لم تنته بعد وصدق الباحث عن الحقيقة سيتعرض لاختبار أشد وأصعب.

إنه القيد من جديد لكنه هذه المرة قيد الظلم والعبودية والأسر.

لقد أسرته تلك القافلة التي لحق بها إلى جزيرة العرب وباعته رقيقا إلى رجل من يهود بني قريظة.

وهنالك كانت بغيته ووجد مراده ووجهته.

لقد بلغ أرض النخل التي بين حرتين وبقي أن يصل إليها نبي آخر الزمان.

لقد بلغ يثرب التي ستدعى بعد حين مدينة رسول الله.

بلغها عبدا أسيرا وكان يستطيع وهو شريف النسب مرموق الآل أن يرسل إلى أهله الأغنياء ليفتدوه بالذهب والفضة .

لكنه لم يفعل .

صبر صاحبنا على مرار الأسر وضيم العبودية لا لشيء إلا لتلك الغاية وذاك الهدف الذي قد اقترب.

ثم وصل .

وجاء النبي ﷺ إلى مدينته مهاجرا وسارع إليه سلمان وعرف صفته ونعته وخاتم النبوة وضيئا على ظهره فانكب عليه يذرف دموعا ساخنة.

دموعا ترسم على وجنته بريق فرحة طال انتظارها واحتمل الباحث في سبيلها مشاقا ومصاعب يندر أن تجد من يحتملها.

وها قد وصل وأدرك المنزل.

**« إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان»**.

هكذا أعلنها النبي ﷺ وجمع سلمان الفارسي الأعجمي بعيد النسب إلى جوار صاحبيه المهاجرين المجاهدين الباذلين المضحيين الذين كانا على الأذى والصعاب صابرين محتسبين.

جمعه إليهما مخبرا بشرفه العظيم ومكانه الكريم في جنة الخالدين التي تشتاق إلى لقائه.

وكيف لا وقد اشتاق إليها وسلك سبيلها مضحيا بكل غالٍ ونفيس لأجل بلوغها وبلوغ طريقها.

طريق الحق.

لقد كان سلمان نموذجا حيا لتلك القيمة التي تكاد تندثر اليوم خلف طبقات الغفلة والكسل والتعصب وتقليد الآباء والمتبوعين.

قيمة الحق..

والبحث عنه.

وبذل كل ما يستطيع الإنسان ليصل إليه.

لقد تجلت تلك القيمة في جملة نبوية من أعجب ما يكون .

- «**اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم** ».

رسول الله ﷺ المعصوم الذي يأتيه الوحي من السماء والذي لا ينطق عن الهوى يفتقر إلى مولاه ليهديه إلى الحق الذي اختلف فيه.

إنه درس عملي مذهل يدلنا من خلاله الحبيب ﷺ قيمة عظيمة.

قيمة طلب الحق والهداية إليه والبحث عنه وعدم الركون إلى المتوارث المتعارف عليه وترك الاستسهال عند الخلاف .

بل افتقار ورغبة للوصول تتجلى في لفظه الجامع مناجيا به ربه «**اهدني لما اختلف فيه من الحق**».

تقرير لتلك الحقيقة وذلك الأصل أن هناك خلافا قد يحدث بين الناس وكل يدعي وصلا بالحق .

إن تلك الهداية كما بينا ليست بمجرد التمني ولا بإرجائها إلى ما لا كسب للإنسان فيه.

طريق الاستقامة والهداية إليه يستلزم جهدا وبحثا وقرائن تدل على وجود الرغبة الحقيقية في الوصول إليه.

الصدق والافتقار والبذل أهم تلك القرائن.

هكذا رأينا في قصة سلمان ذلك الباحث عن الحق والسالك لسب الهداية والرشد.

وكذلك في حياة كل باحث بصدق عن تلك القيم العظمى.

وهكذا وعد الملك الحق فقال وقوله الحق ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

تأمل الوعد الإلهي.

وعد بالهداية.

لنهدينهم .

هذا وعد من الملك الذي كان وعده مفعولا.

لكن الشرط مقدم.

المجاهدة أولا.

والإحسان آخرا.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

حينئذ يكون الوصول.

الوصول للهدى والحق...

## ٥- يا عزيزي لسنا كلنا لصوصا:

« يا عزيزي كلنا لصوص».

لطالما لفت نظري هذا العنوان الصادم لتلك الرواية الشهيرة التي كتبها إحسان عبد القدوس وتحولت إلى فيلم سينمائي في أواخر الثمانينات من القرن الماضي.

الجملة على اختصارها تلخص تبريرا معتادا لكثير من الأخطاء والخطايا التي يرتكبها مقترفوها ثم يتمكنون من التعايش معها من خلال تعميم الخطأ على الجميع.

يحدث ذلك من خلال جمل مشهورة من نفس النوعية:

هي يعني جت عليّ أنا؟!

ما كل الناس كدة..

أنت مش عايش في الدنيا ولا إيه؟!

بص حواليك.

اللي زي الناس ما يتعبش.

هي كدة كدة بايظة.

احنا أحسن من غيرنا.

المجتمع كله فاسد.

بمثل هذه الجمل والمعاني يتم تبرير الخطأ ويحدث التعايش معه ويتلاشى مبدأ الاعتراف بالخلل أو الزلل وتختفي ثقافة الاعتذار والإصلاح نظرا لاختفاء الشعور أصلا بأن ثمة شيء مختلف أو شخص مختلف.

- كلهم زي بعض.
- الجميع سيئون.
- الكل أشرار.

هذه الجمل والتصورات تعد من أوضح الصور لهذا الوجه من وجوه الهروب .

تعميم الخلل على الكل وإلقاء اللوم على الجميع وإخراج رسالة ضمنية مفادها تلك الجملة المشهورة التي عنون بها إحسان عبد القدوس روايته.

جملة: يا عزيزي كلنا لصوص.

عندما يُصدِّر لك الهاربون من تحمل مسؤولية أخطائهم ذلك المعنى بهذا الإطلاق فإنهم بذلك يظنون أن الأمر قد انتهى وأن المعضلة الأخلاقية قد تم حلها وأنه ما دام الجميع سيئين = فلا يوجد أي داعي للتغيير الذي لا فائدة منه أصلا ففي النهاية الكل سواء.

و تلك الكلمة الأخيرة هي الأهم.

لابد من ترسيخها في الوعي الجمعي.

كلمة: سواء.

كلهم سواء.

زي بعض .

جميعهم واحد.

المسروق والسارق.

المقتول والقاتل.

المظلوم والظالم.

الضحية والجلاد.

يا عزيزي كلنا لصوص..

لابد أن تزول الفواصل والفوارق كلها كي نستريح من أي بقايا وخز ضمير أو آثار نصيحة ناصح يبتغي التغيير للأفضل.

تغييرنا.

ولماذا نتغير والكل في النهاية هالكون؟!

لكن هل فعلا الكل هالكون؟!

يجيبك النبي ﷺ مبينا خطورة ذلك الطرح بجملة جامعة مانعة كعادته: «**إذا قال الرَّجلُ: هلك النَّاسُ، فهو أهلكُهم**» رواه مسلم في صحيحه.

رواه مسلم في صحيحه.

ورواه الإمام أحمد في المسند ولفظه: إذا سمعتم رجلا يقول قد هلك الناس فهو أهلكهم يقول الله إنه هالك .

قيل في معنى هذا الحديث: إذا قال ذلك استحقارا للناس واستصغارا لهم فما اكتسب من الذنب بذكرهم وعجبه بنفسه أشد. وقيل: هو أنساهم لله، وقال الإمام مالك معناه هو أفلسهم وأدناهم.

يعني ببساطة ليس من حق أحد تعميم الخطايا على الناس سواء كان ذلك لتبرير خطئه أو للهروب من حتمية التغيير والالتزام الذي يشكل هذا التعميم عائقا آخر من أهم عوائقه.

عائق كان من الممكن لبطل الفصل السابق - سيدنا سلمان الفارسي أن يستعمله لتبرير القعود وعدم بذل الجهد للبحث عن الحق.

كان يمكنه التحجج بعموم البلوى في مجتمع من المجوس عبدة النار تماما كما يفعل كثير من الناس اليوم من تحجج بانتشار المعاصي أو بتقصير الآخرين ولسان حالهم يكاد يطابق مقال الصبية الصغار حين يعلقون أخطاءهم على شماعة: اشمعنى.

اشمعنى فلان فعل.

اشمعنى فلانة سوت.

اشمعنى علان أخطأ.

هكذا نظل ندور في دائرة مفرغة من أفعال آخرين يفترض ألا يكون لنا شأن بهم.

سلمان الفارسي كنموذج لشخص عاش في بيئة فاسدة لم يفعل شيئا من ذلك.

لم يتحجج ببيئته المجوسية ابتداء.

ولم يتحجج بفساد الراهب الأول الذي التقى به وصحبه في الشام رغم كون فساد رجال الدين يعد من الحجج التي يحبها كثير من الخلق ويبررون بها أخطاءهم.

لم يفعل سلمان شيئا من ذلك بخلاف ذلك النمط الطفولي المثير للشفقة يصر دائما على استعمال تلك الحجة.

استدعاء المقارنة بالغير واسترجاع أخطائهم والتنقيب عن زلاتهم في دفاتر التاريخ القريب أو البعيد.

أزعم أننا جميعا تعاملنا مع هذا الصنف في واقعنا الديني والدنيوي على حد سواء بل ولربما وقع كثير منا في بعض خصاله أحيانا.

ذلك الموظف الذي يبرر تكاسله بتكاسل الآخرين.

ذلك الطالب الذي يحتج لفشله في الامتحان بأن الكثيرين فشلوا مثله.

ذلك التاجر الذي يبرر تدليسه أو كذبه وغشه بأن هذه هي التجارة وهذا هو العرف العام بين أقرانه.

قل لي بربك ألم تشهد أبدا شيئا من ذلك المعيار لاستيعاب النقص والخلل

ألم تشهد مؤخرا أي حوار احتوى نوعا من النصيحة فوجدت الحوار قد تحول فجأة إلى الحديث عن أخطاء الناصح نفسه حتى لو لم يكن لها أدنى علاقة بالموضوع محل النقاش؟

ألم تفاجأ يوما بمن يبرر أخطاءه بوجود مثلها لدى الآخرين؟

ألم تر قط استدعاء منطق المقارنات في أي نقاش لا علاقة له بهذه المقارنة أو بمبدأ المقارنات نفسه؟

حينئذ تضرب كفا بكف ولسان حالك يسأل بدهشة: ما العلاقة؟ ما الرابط؟

ما الحجية؟

الناس يخطئون ويزلون ويعصون.. حسنا..

كذلك كانوا.

وسيظلون هكذا.

ما الذي يغيره ذلك في تكليفك؟

وكأن كون الآخرين سيئين يتيح للمرء أن يكون سيئا هو الآخر .

وكأن أخطائهم أو حتى جرائمهم تبيح له أن يُجرم أو يتهاون في حق من حقوق الله أو حقوق عباده وتسقط عنه المسؤولية وتعفيه من المساءلة ثم تنجيه من عاقبة ذلك يوم العرض على الله.

وكأن معصية الغير أو تقصيرهم وخطأهم ترخص للجميع أن يفعلوا المثل.

لو افترضنا جدلا أن عنوان إحسان عبد القدوس له وجه من الصحة وأن اللصوص كُثُر فهل يبرر ذلك لمعنى العنوان بأن نكون جميعا = لصوص.

هكذا إذا سيستباح أي شيء وكل شيء ببساطة لأن أغلب الأشياء لابد أننا سنجد لو بحثنا من فعلها أو يفعلها فلو أردنا قول: اشمعنى فسنجد بعدها ألف فلان وعلان وذلك في أكثر الأخطاء التي يرتكبها البشر.

إن ذلك الخطأ أو تلك المعاصي الجديدة بالكلية والتي لن تجد لك سلفا فيها = أشياء نادرة فعلا.

لعل ذلك المنطق الطفولي - منطق اشمعنى - يُقبل من صبي صغير أو من شخص غير مكتمل النضج العقلي أو الفكري.

لكن أن يستحضر ذلك المنطق من قبل أناس يفترض أنهم كبار السن والمقام راجحو العقل والتفكير = فذلك بلا شك أمر يدعو للاندهاش والأسف

أما الاندهاش فهو لدرجة سذاجة وسفه هذا المنطق الذي يُستدعى عند كل نكير ويُصَدَّر في وجه كل ناصح حريص على استقامة الخلق وصلاحهم.

وأما الأسف فلتلاشي الشعور بالأسف، واختفاء ثقافة الاعتذار وتحمل المسؤولية وإدراك حتمية التغير لدي أولئك المستعيلين (نسبة للعيال) ومن سار على دربهم واستعمل منطقهم.

طالما كانت أخطاء الآخرين وسوءاتهم هي دوما مبررات أفعالنا ومسوغات مواقفنا وخياراتنا = فأنى لنا إصلاحا أو تغييرا للأفضل؟

لكن الحقيقة الواضحة والمبدأ الوجيه الوحيد = أنه الخطأ ذاتي والجريمة الأصل فيها أن تكون فردية وأنك ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤] وأنه لا يسأل عن جرمه إلا الذي أجرم ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥]

وبالتالي فلا حجة في الدنيا إلا بكسب المرء والكثرة لا تعفي من الخطأ ومسؤولية ذلك الخطأ ستظل واقعة على من اقترفه حتى لو أخطأ جميع من حوله معه

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]

حين تقف بين يدي الله فلن تُسأل إلا عن نفسك ولن تحاسب إلا على كسبك ومن كانوا في مسؤوليتك فربك يقول: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ويقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] ويقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٥].

عزيزي المتحجج بعموم البلوى وشيوع الفساد.

تذكر دوما هذه القواعد.

لن تُكلف إلا نفسك فأعد جوابك من الآن.

أعد جوابا ليس فيه: أصل (فُلان) كان سيئا و(علّان) كان مجرما و(ترتان) قال وفعل وسوى وزاد وعاد.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

ببساطة أكثر أقولها لك: لو كنت خاطئا أو حتى لصا فيا عزيزي لسنا كلنا لصوصا..

ولو افترضنا - جدلا - أننا جميعا كذلك فهذا إن كان جوابك فلن ينجيك.

لذلك أعد جوابك عنك أنت .

أنت وحدك.

## ٦ـ عادي

عادي.
طبيعي.
وفيها إيه؟
أين المشكلة؟
لا داعي للتزمت.
لا تضخموا الأمور.

تلك الإجابات التي يقابل بها النصح وترد عن طريقها جهود الناهين عن السوء والداعين للاستقامة = تشكل أحد أهم العوائق التي تحول بين الإنسان وبين اتخاذ قرار الالتزام وسلوك سبيل الاستقامة والسعي لتحقيق الصلاح .

التطبيع مع المعاصي والتصالح معها.

هذه الآفة الخطيرة التي تحدث بعد فترة من الإصرار وعدم المقاومة والتمادي في المعاصي.

هذا التصالح قد يتطور بعد حين ليصير تطبيعا شاملا تجاهها.

عندما يحدث ذلك يصير التغيير صعبا جدا بل مجرد الاقتناع بوجود حتمية لذلك التغيير = تكون حلما بعيد المنال.

فما الذي يضطرني للتغيير أو للتوبة والإقلاع عن ذنب أو إصلاح تقصير وأنا أصلا لم أعد أراه كذلك بل أنظر إليه على أنه شيء طبيعي وعادي ولا يشكل أدنى خلل .

هكذا يتكون هذا العائق تدريجيا ليفيق المرء فجأة فيذهله وقوعه في تلك المعاصي أصلا وقد كان بينه وبينها يوما آماد بعيدة ومراحل عديدة وكانت تفصله عنها أسوار عالية من الخشية والورع وجدر محصنة بالتقوى والزهد والإخبات.

فيتعجب فعلا ويتساءل مستنكرا غير مصدق: كيف وصلت إلى هنا؟!
أَنَّى لي تجاوز كل الحوائل وطي كل تلك المسافات؟!

أين ذهبت كل أسوار الخشية وحواجز الورع التي كانت تحول بيني وبين ما هو أدنى بكثير من تلك المعصية؟!

والحقيقة أن دهشته سببها تغافله عن هذه المشكلة.

مشكلة التدرج في المعاصي.

خطوة أولى خطاها متبعا شيطانه ومصدقا وعده ومغترا بتزيينه.

خطوة خطاها ذاهلا عما يحدث وأنه بتلك الخطوة قد وقع في الفخ وأن الخطوة سيتلوها خطوات إن لم ينتبه ويتدارك نفسه.

خطوات سماها مولاه: خطوات الشيطان.

خطوة ثم أخرى ثم ثالثة ورابعة..

ظل يتقدم تدريجيا دون أن يلحظ إلا البريق ولا يلتفت إلا للتزيين ورويدا رويدا بدأت قدماه تغوصان في الوحل وهو لا يشعر بملمسه القذر على رجليه.

وفجأة ينتبه ليجد نفسه هنالك وقد تلطخ جسده الطاهر وتدنست روحه الورعة وغاص جسمه في وحل الخطيئة حتى كاد أن يغرق في تلك البقعة التي تؤدي إليها تلك الخطوات.

**خطوات الشيطان..**

فالآن يندهش وبعد كل ذلك يتعجب؟!

لكن الأمر كما قلت لا يحدث بغتة ولا تنقلب تلك المشاعر بين عشية وضحاها.

قد يستغرق ذلك وقتا كبيرا والانهيار يسبقه تصدعات وتشققات في جدر تلك المشاعر الإيجابية ثم تتسع تلك الشقوق تدريجيا حتى تصير النفوس القابعة خلفها عرضة لكل عوامل الإضرار بها والتأثير عليها ثم ينكس الجدار.

بعد حين ينقلب بناء القيم رأسا على عقب ويحدث التطبيع..

إن الطريق من كون الخطأ خطئا إلى كونه أمرا طبيعيا أو عاديا بل ومستحسنا مستحبا ليس طريقا قصيرا أو سريعا لكنه يمر بدروب طويلة ومسالك ملتوية تلتف حول حقيقة ذلك الخطأ حتى يتحول إلى تلك الصفة القميئة.

الاعتياد والإلف والتطبيع.

المعصية تصير شيئا عاديا.

الخطيئة تتحول إلى أمر طبيعي.

الكبيرة تصبح هفوة والصغيرة تكون أصلا مطردا مجرد إنكارها = تزمت وتشدد.

لم يعد المرء كما وُصف حال المؤمن: يرى ذنوبه كأنما هي بأصل جبل يوشك أن يسقط عليه بل صار يراها كبعوض حط على أنفه فأشاح بيده ليزيحه بكل سهولة ويسر.

صار يقترف أشياء كان يعدها يوما من الموبقات فصارت في عينه أدق من الشعر .

نفس الوصف الذي وصف به سيدنا أنس بن مالك بعض التابعين.

تخيل في زمن من عايشوا الصحابة يقول لهم سيدنا أنس: إنك لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله من الموبقات.

كيف حدث ذلك؟

إنه التدرج.

الخطوات .

خطوات الشيطان التي أدت لهذا التطبيع.

يقوم المعتاد المطبع عن المعصية ببساطة ويعود لروتين حياته دون أن تهتز شعرة في جسده ودون حتى أن يختلج قلبه.

لم يعد مكان لتلك الغصة التي كانت تملأ حلقه بعد الذنب وتدفعه للتوبة والإنابة ولم يعد الحزن يعتصر قلبه لما فرط في جنب الله.

كما قلت آنفا وأكرر.. هذا الانهيار سبقته تصدعات وتشققات في جدر المفاهيم والقيم .

ثم اتسعت تلك الشقوق تدريجيا حتى صارت النفوس القابعة خلفها عرضة لكل عوامل الإضرار بها والتأثير عليها.

ثم ينكس الجدار وينهار البناء بعد حين ثم يحل محله كيان آخر مشوه لا يمت للأول بصلة وتتساءل مندهشا: من أين ولد هذا؟

والإجابة في كل مرة = التدرج.

الخطوات.

كم من أمور كانت مستغربة فى أولها مستهجنة فى بدايتها ثم تحولت مع الوقت وقلة النكير إلى أمور عادية.

«ودّ» و«سواع» و«يغوث» و«يعوق» و«نسرا» - تلك الأصنام التى كان يعبدها قوم نوح - ماذا كانت؟

**ما أصلها؟**

هل كانت منذ البدء آلهة باطلة تعبد من دون الله؟

يجيبك صاحب رسول الله وابن عمه حبر الأمة عبد الله بن عباس مبينا أن هذه الأسماء كانت لرجال صالحين عابدين لله ولما ماتوا اقترح البعض أن يتخذوا على أماكن عبادتهم أنصابا تذكرهم بصلاحهم وعبادتهم فيعبدوا الله مثلهم.

فلما تعاقبت الأجيال ونسخ العلم ونسى الناس أصل تلك الأنصاب وعبدوها.

هل كان أحد يصور أثناء حياتهم أو أثناء الدعوة الأولى لاتخاذ أماكن عبادتهم أنصابا تذكر الناس بعبادتهم = أن يتحول الأمر لهذا الشرك؟

بل أن يتحول إلى عائق من أبشع العوائق التي ذكرت في القرآن والتي حالت بين قوم وبين التغير للأفضل حين أصروا على بقاء الحال كما هو عليه.

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: ٢٣].

مثل ذلك ما ورد عند ابن هشام من طريق ابن إسحاق عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من أصل قصة الصنمين المعروفين بإساف ونائلة وكيف أنهما كانا قد وقعا في فاحشة فَمَسَخَهُمَا الله حَجَرَيْنِ ، فَنُصِّبَا عِنْد الْكَعْبَة ، وَقِيلَ: عَلَى الصَّفَا وَالْمَرْوَة لِيَعْتَبِر النَّاس بِهِمَا وَيَتَّعِظُوا ثم مر الزمن أيضا ثم عُبدهم الناس من دون الله حتى دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة فأمر بكسرهما.

هذه نماذج واضحة لخطورة التدرج في التصالح مع الخلل ولتحول شيء ربما جاز في أصله أو صاحبته نية طيبة = إلى مصائب ومآلات خطيرة كما رأينا ونرى.

بل قد يصل لدرجة الزعم أن المعصية = طاعة والفاحشة مقصود شرعي ومطلب ديني.

والله أمر بها.

ظهر ذلك جليا في آية من سورة الأعراف حيث سبق وصف القوم للفاحشة بأنها أمر من الله قولهم ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

لقد حدث التطبيع التدريجي مع الخطأ وتمت شرعنته وتسويغه بل وتزيينه ربما تطلب الأمر عقودا طويلة وأجيالا تلو أجيال حتى صار الخطأ في النهاية دينا يتدين به هؤلاء لدرجة أن قالوا عن الفاحشة بلا استحياء: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

هنا كان لابد من البيان القاطع ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

إن التطبيع والتصالح مع الخطأ وتوارثه الأعمى قد يؤدي في النهاية لتلك المصيبة.

أن تتحول الفاحشة إلى شيء جميل مستحسن ثم إلى طاعة وأصل وأن تنطمس حقيقة كونها في النهاية فاحشة.

يصير المبدأ بعد حين بصورة أو بأخرى كما أعلنه قوم لوط.

﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٢].

لماذا؟

ماذا فعلوا؟

ما الجرم الذي اقترفوه؟!

ما الخطيئة التي تلبسوا بها؟!

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

هكذا فقط؟!

يتطهرون!!

تلك هي مشكلتهم وهذه هي جريمتهم وذاك وحسب هو ما يُنقم عليهم.

ذلك هو المناط وتلك هي الحقيقة الواقعية المؤلمة.

حقيقة أن انقلاب المعايير وتحول الحق إلى باطل والباطل إلى حق لابد أن يؤدي لهذه النتيجة في النهاية ويشكل هذا العائق والسد المنيع أمام التغيير.

لا بد أن يؤدي إلى إخراج آل لوط من القرية.

ومن كل قرية يُخَوَّن فيها الأمين ويُؤتَمَن فيها الخائن ويُكَذَّب فيها الصادق ويُصَدَّق فيها الكاذب وينطق الرويبضة.

والبداية تكمن في ذلك الخلل الذي تنقلب به الأمور رأسا على عقب.

التطبيع المؤدي لانقلاب المعايير.

الاعتياد والإلف الذي يحول الفاحشة إلى طاعة وأصل ويطمس حقيقة كونها في النهاية فاحشة.

أشياء كثيرة نتعامل معها اليوم بشكل عادي وطبيعي كانت بالأمس أمورا مستقبحة مستنكرة.

قيم وأخلاق كانت طبيعية وغير متكلفة صارت اليوم نادرة وشاذة وصار ينظر للداعين إليها باستهجان ودهشة ويكأنهم يغردون خارج السرب أو يؤذنون في مالطة.

أمور كان بعضنا لا يتخيل -مجرد تخيل- أن يشهدها صار اليوم يقترفها بكل أريحية بل وينكر على من لم يزل على عهده الأول ومبادئه القديمة.

أناس كانوا على حال ثم صاروا إلى نقيضه فلا تدري حقا هل يعرفون تلك الوجوه التي يطالعونها في مراياهم أم تراهم ينكرونها وتنكرهم.

ثم ماذا بعد؟!

ماذا يبقى لنا بعد أن تنقلب القيم والمباديء وتنهار البديهيات الشرعية؟!

وإلى ماذا سيؤول حالنا وقد تصدعت أصولنا وبدأت الشقوق تتسع؟!

ترى هل سننتبه إلى تصدعها مبكرا أم سنتركها تنخر في جدر مبادئنا وأصولنا حتى تنكسها وتقلبها رأسا على عقب ويصير الشعار بصورة أو بأخرى في النهاية هو.

أخرجوهم من قريتكم .

إنهم أناس يتطهرون.

الالتزام ١٤

## ٧. سلطة الجموع الضاغطة:

لا يشترط أن يكون تأثر الإنسان بفساد البيئة المحيطة مقصودا ولا أن يكون عائق عموم البلوى وانتشار الخلل = نوعا من الشماعات التي يعلق عليها صده عن التدين وبعده عن سلوك سبيل الهداية.

أحيانا تكون هذه البيئة هي الضاغطة والمهددة لالتزامه بشكل مادي مباشر

يحدث ذلك من خلال ما أسميه بضغط الجموع أو يسميه بعض الكتاب الأفاضل بسلطة الثقافة الغالبة.

إن للجموع سطوة عاتية تنتهج طرقا متعددة منها المزايدة والتبكيت ومنها التخويف والترهيب وربما يصل الأمر إلى الإيذاء المباشر وتنفيذ ذلك التهديد ولتصير تلك الجموع الضاغطة عائقا ضخما يحول بين الكثيرين وبين الهداية.

﴿ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ ﴾ [هود: ٦٢].

هكذا قال قوم ثمود لنبيهم صالح عليه السلام حين جاءهم بما لم يعجبهم.

حين صار مختلفا عما عهده .

حين أتاهم بالحق الذي يزلزل باطلهم.

لقد كنت مرجو النفع يؤمل فيك العقل الراجح والفكر السديد.

كنت محمودا موقرا يُقتدى بأخلاقك وتُقدر أقوالك.

كنت...

في الماضي.

أما اليوم وقد جرؤت أن تختلف معنا وتقول بخلاف ما توارثناه عن آبائنا وسادتنا وكبرائنا = فلتفقد مكانتك وليدنو قدرك إذاً.

أو فلتكف عما تقول.

أسلوب معتاد يتبعه كثير ممن يقررون أن يكونوا عوائق بين الخلق وبين الهداية.

أسلوب يحمل بداخله ترهيبا وترغيبا.

يحمل التبكيت وتقطر منه المزايدة.

تذكير بالمكانة السابقة وترهيب من خلال التهديد بنزعها والترغيب الضمني باستعادة تلك المكانة وربما زيادتها إذا استجاب ولم يخالف التيار.

عبارات كثيرا ما يصدرها أصحاب هذا الأسلوب من نوعية.

«سقطت من نظرنا»، «صدمنا فيك»، «فقدت مكانك» إلى آخر تلك العبارات التي يكون الغرض الأساسي منها تخويف من يعرف الحق ويهتدي إليه ويستعلن به .

الغرض ببساطة هو الإسكات أو ضم المهتدي لركب العامة ليكون في النهاية مجرد صدىً لأصواتهم.

نوع من الضغط الإيجابي الذي تمارسه الجموع على من يخالفها ويختلف عن الضغط التلقائي الذي تحدثنا عنه في عائق عموم البلوى وتنشئه البيئة الفاسدة بذاتها دونما احتياج للترهيب والترغيب.

لكن أحيانا تتحول البيئة كما رأينا من ثمود وغيرهم إلى عامل ضغط مباشر من خلال المزايدة والتهديد وربما الإيذاء أحيانا.

نفس ما فعله أهل مدين مع نبيهم شعيب عليه السلام حين قالوا: ﴿يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧].

استهزاء وسخرية يحملان تذكيرا بسابق العهد وسالف المكانة .

أنت يا شعيب!!.

أنت يا من كنت فينا حليما رشيدا.

أنت يا من عُرفت بحسن الأخلاق ورجاحة العقل ومكارم الصفات يصدر عنك هذا القول.

لم يكن الأمر هنا قاصرا على السخرية وحسب بل كما ذكر القرطبي والبغوي والرازي أنه كان يحمل وجها من وجوه التذكير بهذا المقام الذي كان له بينهم والمزايدة عليه.

المقام الذي يوشك أن يفقده لأنه خالفهم وتجرأ أن يتكلم بغير قولهم ويختار ما يباين خياراتهم.

وبالفعل لم يمض كثير من الوقت حتى تغيرت اللهجة وزال الاحترام ورحلت المكانة.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١].

في لحظات صار ذلك الذي وصفوه بالحليم الرشيد يتكلم في نظرهم كلاما

غير مفهوم وصار ضعيفا فيهم ولم يعد عزيزا بينهم بل وهددوه ضمنيا بالرجم.

ولماذا كل هذا؟!

لماذا تحول الأمر هكذا مع الأنبياء ختاما بالنبي محمد ﷺ الذي كان يلقب بين قومه بالصادق الأمين فلما قال ما لم يوافق الهوى ولم يشابه ما يقولونه إذا به يُرمى بالكذب والسحر والكهانة ويكون أول من يتوعده عمه تبت يداه.

وهذا ما توقعه ورقة بن النوفل وصرح للنبي ﷺ به.

ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أخرجه قومه.

هكذا الأقوام إذا طغوا والجموع إذا فسدت.

كلما يأتيهم من يحطمون التصورات السائدة ويقررون الصدع بما اعتقدوه وإن خالف عموم الناس أو ضايقهم = أخرجوهم من قريتهم.

هذا هو الأصل خصوصا في العقائد.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ٨٨].

وليس شعيب وحده.

بل سائر الرسل كما جاء التعميم في سورة إبراهيم.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [سورة إبراهيم: ١٣].

وليس الرسل فحسب ولكن الصالحين أيضا تعرضوا لذلك العائق الخطير.

عائق التهديد الصريح ومحاولة التأثير الإيجابي على المهتدي.

أصحاب الكهف حدث معهم ذلك ورغم كونهم من أبناء الوجهاء والأثرياء إلا أن ذلك لم يشفع لهم لدى الجموع الغاضبة من اختلافهم الرافضة لإيمانهم.

﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾

هكذا أوضح أصحاب الكهف مصدر الخطر وعلته.

الرجوع عن الحق والعودة إلى ملة الآباء.

وليس الأمر مقتصرا على الملل والعقائد فقط.

بل مجرد الاختلاف عن الحالة السائدة من الفساد = تؤدي إلى التهديد الأشهر نفسه.

الإخراج.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦].

لكن لماذا؟

ماذا فعلوا؟

ما الجرم الذي اقترفوه؟!

ما الخطيئة التي تلبسوا بها؟!

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

هكذا فقط؟!

يتطهرون!!

أتلك هي مشكلتهم وهذه هي جريمتهم وذاك وحسب هو ما تنقمون عليهم؟

نعم.

تلك كانت الإجابة.

وهذه كانت دوما القاعدة.

«**لقد ودت العاهرة لو أن كل النساء زواني**».

تلك هي حقيقة المقصد والهدف.

ولقد صرح القرآن بذلك المقصد وبوضوح تام.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٢٧].

هدفهم ليس فقط أن تميل وتزل.

وغايتهم ليست مجرد الوقوع في أمر يحتمل خلافًا.

هدفهم الذي أخبرك به الله -ومن أصدق من الله حديثًا- هو الميل العظيم.

مرادهم وغايتهم الحقيقية أن تميل ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٢٧].

دعهم ينكرون كما يشاءون ودعهم يتجملون ويكذبون ويدلسون ويزعمون أنهم وسطيون وعلى مصلحتك حريصون.

مهما قالوا ومهما ادعوا فإن القول الفصل قول ربك ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٢٧].

هذا هو الاقتران وتلك هي المزاوجة التي لا تنفصل عند أولئك المفسدين.

اتباع شهوات.

ورغبة في إمالة الخلق.

وتذكر ليس مجرد ميل .

بل ﴿مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ [سورة النساء: ٢٧].

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ [النساء: ٨٩].

إن انقلاب المعايير وتحول الحق إلى باطل والباطل إلى حق لابد أن يؤدي لهذه النتيجة.

لابد أن يؤدي إلى إخراج آل لوط من القرية.

ومن كل قرية.

يُخَوَّن فيها الأمين ويُؤتَمَن فيها الخائن ويُكَذَّب فيها الصادق ويُصَدَّق فيها الكاذب وينطق الرويبضة.

بهذه الكلمات الجامعة وصف رسول الله ﷺ تلك الحالة التي تنقلب فيها المعايير وتتصدع القيم وتنهار المبادىء وتستحق تلك السنوات ذلك اللقب الذي أطلقه عليها النبي .

لقب السنوات الخداعات.

وهكذا نرى مصداق كلماته يوميا ونشهد حقيقتها صارخة جلية من حولنا وتنضح بها التجارب الإنسانية السابقة واللاحقة ترفع ذلك المبدأ المعكوس والمنكوس .

مبدأ أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون.

طالما أنك تشبهني وقناعاتك تطابق قناعاتي وسمت مثل سمتي وكلامك يشبه كلامي = فأهلا بك وسهلا وعلى الرحب والسعة وحبيبي وصاحبي وتاج رأسي .

أما إذا فكرت يوما مجرد تفكير أن تختلف أو أن تخرج عن النسق الذي قرروه لك = فتبـًا لك سائر اليوم كما قال أبو لهب.

لتسقط عنك أي فضيلة وليزل عنك أي حق وليقال لك: أنت شرنا وابن شرنا كما قالت يهود لعبد الله بن سلام حين اختلف عنهم وفارق معتقداتهم وقد كانوا يصفونه قبلها بخيرهم وابن خيرهم وأعلمهم وابن أعلمهم.

هذا النسق من سلطة الجموع حتى لو كانت مخطئة معروف ولطالما كتب عنه المفكرون وتمثل به الأدباء والقصاصون.

لعل من أشهر الأمثلة على تلك السلطة الغالبة للجموع القصة التي كتبها سير هربرت جورج ويلز فى مطلع القرن الميلادى الماضى عن ذلك المبصر في قرية العميان.

بطل الرواية كان يظن في البداية أنه سيتصدر المشهد.

كان يعتقد أنه سيملك القوم عملا بقاعدة «الأعور وسط العمي مفتح».

وهو ليس بأعور بل هو مبصر تمام الإبصار .

إنه الوحيد في تلك القرية الذي يرى وتعمل عيناه بكفاءة كاملة .

لا شك أنه سيتزعمهم ويتقدمهم جميعا بتلك المزية.

لكنه لم يلبث أن اكتشف حقيقة الأمر وأدرك أنه كان واهما.

إنهم يريدونه مثلهم.

بل لن يقبلوه إلا لو كان مثلهم.

أعمى..

إن طول فترة مباشرتهم للظلام جعلتهم يبغضون الضياء ولا يتصورون أن يكون من بينهم من يبصر ذلك النور أو يرى الدنيا بلون آخر خلاف اللون الحالك الذى يغشى مدينتهم الكئيبة.

- تحدثنا عن السماوي ولون البحر الأزرق ولون الشفق الأرجواني ؟!

- ما هذا الكلام العجيب.

- أومنا الأشقر والأسمر والقمحي والأبيض المشرب بحمرة؟!

- أوتتباين درجات ألوان بشرتنا وشعرنا وتزعم أن ملامحنا أيضا تتفاوت وتختلف سيمانا؟!

- لقد طاش عقلك يا هذا.

- إنه اللون الواحد والشكل الواحد والمشهد الواحد.

- دعك من هذه الخزعبلات وعش مثلنا.

وإن كان هذا العضو الذي يتوسط وجهك هو ما يغرس تلك التصورات المضحكة في عقلك فتزعجنا بها فانزعه إذاً لتحيا بيننا كواحد منا.

هكذا طلبوا من الرجل..

لكى يستطيع التعايش معهم عليه أن يفقأ ذلك العضو الغريب الذى يجعله مختلفا ويجعله يقول أشياءً ويرى أمورا غير تلك التى ألفوها واعتادوا عليها.

طلبوا منه أن يفقأ عينيه .

ولقد كاد أن يفعل.

الضغط الدائم والاستهجان المتواصل والرفض المستمر لما يقول بسبب ما يراه بذلك العضو الغريب كل ذلك جعله يقدم على تلك الخطوة ليستطيع الاندماج مع سكان تلك القرية التى ساقه القدر إليها ليفاجأ بأن كل سكانها من العميان.

والقاعدة تقول (اللى زى الناس ما يتعبش).

لذا همَّ بطل الرواية أن يستسلم لسلطة الجموع الغالبة.

يفقأ عينيه.

يندمج!

يصير (زي الناس) .

لكن القصة تقول أنه قد تراجع فى آخر لحظة.

لقد قرر مبصر الرواية الاحتفاظ بعينيه في النهاية .

قرر ألا يكون إمعة.

قرر ألا يطمس بصره ليكون مثلهم ويعيش بينهم فى سلام .

لقد قرر أن يبصر ويرى.

ويظل يبصر ويرى.

حتى لو كان ما يراه مختلفا.

وحتى لو جعله ذلك منبوذا مرفوضا.

لن يبيع بصره ولن يفرط في بصيرته.

وللأسف كثير من مبصري اليوم لم يفعلوا مثله.

لقد قرر كثير منهم أن يركعوا للضغط وينحنوا للموجة .

ويستسلموا لسلطة الجموع الغالبة.

قرروا أن يخوضوا مع الخائضين ويهووا مع الساقطين حتى لو خالف ذلك ما يرونه ويعتقدونه.

حتى لو خالف ضمائرهم ومبادئهم إن كان قد بقي لهم شيء منها.

هانت عليهم ثوابتهم فسهل عليهم أن يطمسوا النعمة التى أنعم الله عليهم بها.

نعمة البصر والبصيرة.

فقط ليكونوا (زي الناس).

(واللي زي الناس ما يتعبش).

هكذا يزعم المثل الشعبي الشهير.

على هذا الأساس يرضون بكل شيء وأي شيء فقط ليسايروا الموجة ويذوبوا في واقعهم حتى لو كان ذلك معناه أن يصيروا إمعات أو حتى عميان.

ما دام بين العميان إذا فلا مشكلة.

هذا التقليد والاتباع الأعمى لضغط الجموع ومزايداتها كانا دوما من أكبر الأسباب فى صد كثير من الناس عن طريق الحق حين لا يتصورون أن يرد جديد عليهم ولو كان ذاك الجديد هو الحق الذي لا مرية فيه.

لا يتصورون فوات الحق علي ما يتوهمونه نبوغا لآبائهم وسادتهم وكبرائهم!

إنه التقليد المقيت الذى هو ضد الإدراك الصحيح لطبيعة الحق.

فالحق حق بذاته لا يحتاج لمن يزكيه أو يزيده بهاءً وسطوعا وهو ليس بمن يدعونه وليس بمن يزعمون أنهم عليه أو يظن بهم ذلك.

الحق يعرف بذاته وليس بالرجال ولا بالآباء والأجداد.

ولا بمجرد أن يكون المرء.. (زي الناس).

مهما كان هؤلاء الناس ومقامهم ومحبتهم.

حتى لو كانوا آباء وأجدادا وحسبا ونسبا.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

إنه التقليد والاتباع الأعمى والإمعية الكاملة.

الاستسلام لضغط تقليد الآباء والأجداد وتقليد المجتمع واتباع البيئة المحيطة ، دون فهم ولا وعي ولا إدراك، لما عليه هذا المجتمع وتلك البيئة .

لذا جاء الرد الصادم بعد تلك الدعوى التقليدية المقيتة.

جاء الرد الصادم ليهدم هذا الوثن من أوثان النفس ولتنجلي الحقيقة نقية دون رتوش.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وقد صح موقوفا عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: لا تكونوا إمَّعةً ؛ تقولون : إن أحسنَ الناسِ أحسنَّا، وإن ظلموا ظلمْنا، ولكن وطِّنوا أنفسَكم : إن أحسنَ الناسُ أن تُحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلِموا .

والله يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

مبدأ ا ينبغى أن يفهمه كل مسلم.

آية من كتاب ربنا تشرح لنا لماذا ثبت الثابتون رغم وعورة الطريق وقلة السالكين.

آية تبين كيف أن القضية ليست فى كثرة الموافقين والمؤيدين ، ولا في وفرة الداعمين المنافحين.

القضية هي فى الحق نفسه.

لا يضر المرء إن ضل كثير ممن حوله ، ما دام موقنا أنه على الحق الذى أمره به ربه .

﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

إنه بناء متفرد للشخصية الإسلامية التى لا يقبل صاحبها أن يكون إمعة ، مهما كانت الظروف ومهما تزايدت عليه الضغوط .

وكم من أناس حرصوا على التمسك بالحق ، وإظهاره ، والسير فى طريقه ، رغم قلة السالكين ، وربما انعدامهم فى بعض الأحيان ،

كم من أناس خاضوا غمار الضغوط وثبتوا عند حلول النوازل ، رغم الصعاب التى واجهتهم ، ورغم كثرة المخالفين ، لكنهم كما قال رسول الله ﷺ عن أمثالهم : « **لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم** » .

لذا كانت العبادة فى الهرج كالهجرة إلى رسول الله ﷺ ،

ذلك لأنه لا يتفرغ لها فى هذا الوقت إلا أفراد ،

فلما تمايزوا تميزوا.

القضية إذن ليست بالعدد ، ولا بالصخب ولا بالمقام والمكانة، ولا بمطلق ما عليه الناس من حال ،

القضية بالحق ، فإذا كان معك ؛ تبينته ، وتشربه قلبك من معينه ، فأنت الجماعة ، ولو كنت وحدك .

فإياك أن تفقأ عينك أو تبيع بصرك.
إياك أن تكون إمعة لمجرد أن تكون مثلهم أو (زيهم).
زي الناس.
إياك أن تنحني لتهديدهم أو ترضخ لمزايداتهم وتبكيتهم.
إياك أن تستسلم لهذا العائق من أهم عوائق الالتزام .
عائق الجموع الغالبة وسطوتها الضاغطة .

**٩- انهيار القدوة:**

في بداياتها لم تكن الثورة الفرنسية تعرف ذلك الشعار المشهور عنها اليوم والذي ينسب لميرابو خطيب تلك الثورة إذ يقول: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس».

هذا الشعار كما هو واضح يحوي بعدا دينيا صارخا وكأن تلك الثورة كانت في الأصل ثورة على الكنيسة كمؤسسة أو على المسيحية كدين.

لكنها في الحقيقة لم تكن كذلك..

لقد كان الأمر في البداية أبسط وكان مرتبطا بنتائج الممارسات المتشابكة بين الكنيسة والإقطاع والسلطة الملكية الحاكمة.

ممارسات أدت إلى تردٍ اقتصادي واجتماعي شديد فكان المطلب الرئيسي لها والذى يدركه الفلاح الفقير الذي كان وقود تلك الثورة في البداية شعار واحد أشار إليه سير. هربرت جورج ويلز فى كتابه «معالم تاريخ الإنسانية».

شعار الخبز .
والخبز أولا .

لكن مفكري تلك الثورة لم يرضوا أن يقف الأمر على ذلك الشعار الذي لم يشبع مآربهم إلا أن الانتقال لشعار أكثر تعقيدا وارتباطا بالدين لم يكن سهلا.

لقد احتاج تلاميذ فولتير وروسو وموليير أن يقوموا بمرحلة وسيطة تتيح لهم غرس تلك الأفكار المتمردة والمعقدة فى عقول أولئك البسطاء من خلال حملات توجيه مبسطة وسهلة الفهم لكنها تغرس في العقل الفرنسي صورة مشوهة لرجال الدين.

قاد خطباء الثورة والممثلون بمسارحهم المتنقلة تلك الحملة لسنوات

أحصاها بعض المؤرخين بعشر سنوات والبعض قال أضعاف تلك المدة أظهروا فيها رجال الدين فى أسوأ وأحط صورة يمكن تخيلها وحرصوا على أن يبدو الممثلون الذين يقومون بأدوارهم بصورة مقززة منفرة بل وفاحشة حتى ذكرت بعض الروايات التاريخية أنه قد مرت على رجال الدين فى فرنسا فترات لم يتمكنوا فيها من ارتداء زيهم المميز والخروج به خشية السخرية والامتهان والاستهزاء والتي كانت ثمارا طبيعية لتلك الجهود الموجهة والمساعي الحثيثة

بذلك زالت قداسة رجال الدين والتي حتى إن لم يكن الله قد أنزل بها من سلطان إلا أنها لم يكن ينبغي أن تتحول إلى النقيض.

إلى زوال أصل الاحترام والتوقير.

ثم القبول .

ثم زالت المرجعية الدينية بالكلية بعد ذلك وصارت الثورة الفرنسية ثورة علمانية صريحة عازلة للدين نفسه وليس فقط لمن فسد من رجاله أو لفكرة الكهنوتية وصكوك الغفران وغيرها من المسائل الخاطئة التي أحسن علمانيو فرنسا استغلالها وصنعوا من خلالها وعبرها هزة عقدية زلزالية كانت بمثابة شرارة سرت بعدها العلمانية في ربوع أوروبا والعالم سريان النار في الهشيم.

الحقيقة أن الثورة الفرنسية رغم مركزيتها الفكرية لا تمثل النموذج الأوحد.

الأحداث المفصلية الكبرى تتبعها إهتزازات شاملة في البنى الفكرية والأيديولوجية والقيمية الخاصة بهذه الشعوب التي مرت بتلك الظروف الاستثنائية .

هذا الأمر مطرد متكرر في جل الأمم التي حدثت فيها مثل تلك المنحنيات الحادة في مسارها السياسي والاجتماعي.

وسواء كانت تلك المنحنيات في شكل ثورات شعبية أو حروب شاملة أو أهلية أو احتلال أو تحرر من احتلال = فإن المآل الفكري يتشابه ويشترك في معامل أساسي ألا هو التغيير .

التغيير الحاد والجذري والشامل.

الشعوب في تلك الظروف الاستثنائية تميل بشكل واضح للتغيير في كل شيء تقريبا وهذا التغيير أحيانا يكون بشكل جمعي موجه أو بشكل متشظٍ عشوائي أو تختلط فيه العشوائية بالتوجيه.

إن المُقَلِّب لصفحات التاريخ يجد قاعدة مهمة ماثلة أمام عينيه.

ليس ثمة أمة يمكن أن يقال عنها أنها بمعزل عن التغير والتحول والتبدل.

كم من الأمم تغيرت عقائدها وأفكارها مرارا وليس مرة واحدة، خصوصا بعد الأحداث الجسام كالثورات والحروب.

وهل عرفت روسيا الشيوعية قبل ما يسمى بالثورة البلشفية؟

وهل كانت فرنسا ليبرالية أو عرفت علمانية شرسة تعلن شنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس قبل الثورة الفرنسية؟

وهل تشبه تركيا أتاتورك وما بعده تركيا الخلافة العثمانية أو تبدو إيران الشاه قريبة أيديولوجيا أو ظاهريا من إيران الخميني وولاية الفقيه؟!

وهل كانت مصر قبل الحقبة الفاطمية وحكم العبيديين مثل مصر بعدهم؟!

بل هل مصر الخمسينات والستينات تشبه مصر في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من حيث التمسك بالدين وشعائره وسمته وثوابته؟!

إن نظرة سريعة على أدبيات النصف الثاني من القرن الميلادي العشرين ومنتجاته الفكرية والثقافية والفنية تظهر لنا بجلاء تغيرا جذرية في البنية الدينية للأمة المصرية في ذلك الوقت.

لست بصدد التناول التفصيلي لتلك المرحلة ومظاهر الانتكاس الديني فيها على الأقل ظاهرا فإنها معروفة ومسجلة ولكنها قد لا تظهر إلا عند المقارنة بالحقبة المحافظة التي سبقتها في أوائل ذلك القرن أو الذي سبقه.

وإن المتأمل في الواقع الإسلامي اليوم ليلحظ بسهولة ويسر أن هزة شبيهة وربما أعمق وأخطر تتعرض لها الحالة الدينية المعاصرة حتى بين أبنائها والمنتسبين إليها على الأقل ظاهرا.

والاتصال بين الظاهر والباطن هو أمر لا يجحده بصير ففي الجسد مضغة بصلاحها يصلح وبفسادها يفسد وإن جل الكتب يظهر عنوانها الخارجي الكثير من مضامينها.

إن من ينكرون اليوم أن هناك مشكلة حقيقية في التزام الناس بتعاليم الدين وتكاليفه وإقبالهم على شعائره وقبولهم لدعوته هم في رأيي يمارسون نوعا من تقليد النعام!

دس الرؤوس في الرمال.

بتجاهلهم لظواهر إعلامية وثقافية وحياتية يومية تصرخ فيهم أن انزعوا رؤوسكم من رمالها وانتبهوا.

= فثمة مشكلة حقيقية يعانون منها.

ولولا أنني لست من محبي الخوض في التفاصيل المحزنة والمشاهد الموجعة على الأقل من باب ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨] لذكرت عشرات الشواهد التي تثبت ما ذهبت إليه من أن هناك مشكلة حقيقية تصل أحيانا إلى أسوار العقيدة نفسها .

لكن الأهم من الرصد وتفصيل التوصيف هو البحث الجاد عن العوامل التي أدت وتؤدي لتلك الهزة الدينية والانتكاسة الالتزامية المعاصرة أو العوائق الكبرى الاي تحول بين الملتزم وبين الاستمرار في التزامه أو تحول بين غير الملتزم وبين إقباله على الالتزام بتعاليم الدين واادخول في شرائعه كآفة كما أمره الله.

تلك في ظني هي أولى خطوات الحل ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٢١ ].

الحقيقة أن العوامل التي تتضافر لزلزلة معتقدات الناس وثوابتهم وخلخلة تماسكهم العقدي وتمسكهم العملي كثيرة؛ من ضمنها بلا شك تجفيف منابع التلقي الديني خصوصا من خلال الدعوة العامة والوعظ المطلق الذي رغم رتابته وعدم تجديد آلياته يتم تقييده وحصره .

أيضا من العوامل ارتباط الأعمال الدعوية في أذهان المتلقين بالصراعات المعاصرة وافتراضهم المسبق أنها ليست دعوة خالصة ولكنها لأجل غايات سياسية أو حزبية.

كل ذلك جنبا إلى جنب مع إسراف في مصادر التلقي المضاد وإطلاق يد المفسدين في المقابل ليعبثوا بأدواتهم من شهوات جاذبة أو شبهات لامعة تلقى بكل حرية .

لكنني هنا أريد أن أقف وقفة مع عامل مهم ومرتبط بما اخترته مقدمة لهذا الفصل واختاره من قبلي مفكرو الثورة الفرنسية لتوهين العلاقة بالدين عموما من خلال هدمه وإحلال غيره محله بإصرار .

إنه عامل القدوة .

القدوة التي تنهار في النفوس تدريجيا .

ولست أعني بالانهيار هنا انهيار الاستحقاق فإن القدوات ومن يستحقون أن ينظر إليهم الناس بعين التقدير موجودون دائما بفضل الله ولا يزال الخير في الأمة حتى تقوم الساعة.

لكنني أعني هنا انهيار تلك القدوات في نظر الناس وذلك إما بتشويه متعمد مكذوب أو للأسف بأخطاء حقيقية وقع ويقع فيها البعض بسفه غير مسبوق وعدم تحمل لمسؤولية المكانة وقيمة الاقتداء بهم مما أثر على كل من يحمل السمت نفسه بالتبعية .

كثير ممن هم في مقام القدوة يهونون على أنفسهم خطورة هذا العامل بترديد تلك القاعدة العظيمة المنسوبة لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «لا يعرف الحق بالرجال».

وهي كقاعدة لا غبار عليها.

لكن كم من الناس يدركها ويطبقها؟!

كم من الخلق يتعامل على أساسها ولا يفتن بضدها؟!

الحقيقة الواقعية والمشاهدة أن أكثر الناس يتأثرون وربما يفتنون بأفعال المتدينين وأخلاقهم وينظرون دوما إلى صنيعهم.

لذلك راعى النبي هذا الأمر واعتبره فقال: « **إن منكم لمنفرين**».

ولو كانت القاعدة مطردة تسري على كل الخلائق فلماذا أقر النبي أن هناك من ينفر عن الدين بسبب أهل الدين من المنفرين.

نعم هي ليست حجة مبررة لأفعال وتفريط النافر لكنها حجة على المُنَفِّر والمستهين بتلك القيمة .

قيمة أنه قدوة .

والمتغافل عن كون مقام الرجل الصالح في نفس الإنسان البسيط -حتى ولو كان هذا الإنسان عاصيا- هو مقام كبير ومهم ينبغي أن يصان وأنه إن سقط في نفس الإنسانية كانت النتيجة لا تحمد عقباها.

«أُوصيكَ أن تَستَحي مَنَ اللهِ تعالى، كما تَستَحي مِن الرَّجلِ الصَّالِحِ مِن قومِكَ».

هي جملة بسيطة واضحة مباشرة كعادته لخص بها النبي صلى الله عليه وسلم معان كثيرة

وقيما عميقة .

كما تستحي من الرجل الصالح!

بتلك الكلمات الموجزة بين النبي أن هناك حياءً من الرجل الصالح وقيمة القدوة وحرص على رعاية تلك القيمة في نفوس الناس.

تخيل لو انهار ذلك الصالح وسقط في أعين الناس.

النتيجة الحتمية عندئذ أن يهون كل شيء وأي شيء.

إذا كان هذا الرجل الصالح المتدين (بتاع ربنا كما يقولون) فيه كذا وكذا من سيء النعوت وقبيح الخصال فماذا أفعل أنا وأنا الشخص العادي الضعيف الذي لم يدع يوما أنه متدين؟!

كلنا في الهوا سوا.

لسان حال وحديث نفس كثير ممن يستمرؤون الخطأ تبعا لأخطاء المتدينين أو انهيار صورتهم .

والحقيقة أن صاحب السمت الملتزم وذي الصلاح الظاهر المتمسك بالتقوى والبعد عن الفواحش والحريص على الطاعات والعبادات يسبب نقصا عند بعض الناس ممن استسلموا لشهواتهم وتقلبوا في دنس معاصيهم.

تلك حقيقة شرعية ونفسية وواقعية تظهر جلية في قول ربنا: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٢٧].

فحين لا يقدر المفرط على إصلاح حاله أو الإقلاع عن معصيته يكون البديل لديه أحيانا أن يكون الناس كلهم مثله أو أسوأ.

هم أفاقون، ومنافقون، وتجار دين، وطلاب دنيا ومنصب وجاه .

بينما هو بحاله ومعاصيه لم يفعل شيئا من هذه الطامات كما يقنع نفسه فترتاح.

لم يعد هناك داع إذن للتغيير أو التوبة.

وهذا هو محل الخطر.

وذاك ما يسعى إليه البعض بكل قوة وتساعدهم فرص ذهبية يعطيهم إياها بعض المتدينين بعدم تحملهم لتلك المسؤولية .

تعظم تلك الزلات والتغيرات وتسليط الضوء عليها.

ومن ثم تنهار القدوة ويخبو في القلب ذلك المثل الحسن.

وبانهيار تلك القدوة وانطفاء تلك الجذوة من ضياء التأسي والاستحياء من صالحي القوم تتحول الهزة.

المجتمعية إلى هزة دينية وتردٍ التزامي وأخلاقي.

حين تنهار فكرة القدوة.

يقول الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: ٩٤].

قال ابن كثير مفسرا هذه الآية: «حذر الله عباده من اتخاذ الأيمان دخلاً: أي خديعة ومكراً لئلا تزل قدم ﴿بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ مثلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة، المشتملة على الصد عن سبيل اللّه، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ ﴾ [النحل: ٩٥] أي لا تعتاضوا عن الأيمان باللّه عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند اللّه هو خير له، أي جزاء اللّه وثوابه خير لمن رجاه وآمن به، وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده».

كل هذا يضاعف من مسؤولية القدوات وأهل الديانة وأصحاب السمت ويجعل من الضروري أن يتم الالتفات إلى خطورة دعوة الحال وعدم الاكتفاء بدعوة اللسان والكلام وأن كثيرا مما يتهاون فيه البعض من الأفعال يعد عوائق الالتزام.

بل يعد من الصد عن سبيل الله وعامل لأن تزل قدم عن طريق هداية كانت قد ثبتت عليه يوما ما.

### ٩ـ مصاصو الديانة:

في ذلك الشارع المظلم وفي هذا الوقت المتأخر من الليل سار الرجل بخطوات متسارعة.

بل هي في الحقيقة خطوات خائفة .

ما الذي أنزله في تلك الساعة ولم تتبق إلا سويعات على بزوغ الفجر كان من الممكن أن يقضيها في الحانة بدلا من السير في شوارع البلدة في ذلك الوقت المرعب.

هذه البلدة مشهورة بهم.

الكل حذَّره قبل أن يأتي لزيارة تلك البلدة الصغيرة من إقليم ترانسلفانيا برومانيا.

الليل لهم...

لا داعي للخروج ليلا إلا لضرورة.

الليل لهم...

لطالما سخر من تلك الأساطير.

أي عاقل هذا الذي يصدق تلك الخرافات عن هذه المخلوقات الليلية المزعومة.

لطالما تعجب أن هناك من لم يزل يصدق حكايات الجهلة والسذج التي يرددونها بأصوات مرتجفة حول المدفأة ليلا وقد غلقوا عليهم أبواب بيوتهم الصغيرة بعد أن علقوا عليها الثوم اللازم لدفع تلك المخلوقات الشريرة .

لطالما سخر واستهزأ.

حتى عندما حذروه في حانة تلك البلدة من الخروج في هذه الساعة المتأخرة لم يأبه وتعالت ضحكاته المستهجنة لذعرهم.

لكن هذه السخرية لم تلبث إلا تلاشت بينما يخطو وحيدا في شوارع البلدة الخاوية على عروشها.

تلاشت وحلت محلها قشريرة باردة تزحف إلى ظهره باستمرار كلما لمح تلك الظلال تتراقص على جدران البيوت المزينة أبوابها بالثوم دفعا لهذا الضيف غير المرحب به والذي يعتقد سكان البلدة أنه يكره رائحته كثيرا.

الأبواب مغلقة جيدا وأهلها بداخلها رغم خوفهم آمنين .

ذلك لأن الضيف الثقيل لا يدخل إلا إن أذنوا له وهم لن يفعلوا أبدا.

لن يأذنوا له بالدخول..

لكم يغبطهم الآن.

كلما زحفت القشعريرة وازدادت الرجفة في قلبه سارعت خطاه أكثر وهو يكاد يقسم أن هناك من يتبعه.

المشكلة أنه كلما التفت خلفه لم يجد إلا تلك الظلال المتراقصة بفعل لهيب المشاعل الذي تتلاعب به رياح الليل الباردة تخترقها خفقات أجنحة

الوطاويط التي يبدو أنها قد أصيبت جميعا بالجنون هذه الليلة.

تبا لتلك الفئران المجنحة .

وكأنها تتبعه بإصرار .

لماذا يسترجع الآن كل ما سمعته أذناه من همسات أهل البلدة عن أولئك الذين تجرأوا على الخروج في تلك الساعة التي لا يجترىء أحد على الخروج فيها منذ ابتليت بلدتهم بتلك المخلوقات الشيطانية ثم لم يعودوا إلا جثثا هامدة مثقوبة الأعناق منزوعة الدماء حتى آخر قطرة.

لماذا تمر بذهنه الآن تلك الشائعات التي ترددت حول هذه الجثث وكيف أن قبورها قد نبشت بعد دفنها بأيام واختفت منها تلك الجثث المصفاة لتلمح بعد حين في ليلة كهذه وقد تغيرتها هيأتها وصارت مثلهم.

لماذا هذه الهواجس الآن ؟!

سارع الخطى أكثر وأكثر.

يكاد أن يعدو من شدة السرعة وينكفىء على وجهه من شدة الفزع.

يقينا هناك من يتبعه.

يبدو أن سخريته لم تكن في محلها .

ها هو ينعطف في ذلك الشارع الضيق الخاوي من القناديل ليجده في انتظاره.

تماما كما وصفوه وسخر من وصفهم .

شاحب هو .

عيناه تتوهجان رغم الظلام.

ابتسامته القبيحة تكشف عن بريق نابين طويلين .

تماما كما وصفوه.

وقبل أن يفكر حتى في الهرب كان النابان يستقران في عنقه بسرعة البرق وأنفاس الكائن العفنة تُلهِب نحره ودماؤه تسري في عروق الكائن الليلي لتروي ظمأه السرمدي .

ظمأ مصاص الدماء.

تلك الشخصية الكابوسية التي طالما تردد ذكرها في الميثولوجيا الشعبية لكثير من أمم وحضارات أوروبا القرون الوسطى .

اتخذت تلك التيمة أشكالا وخصائص كثيرة وكانت معينا لا ينضب يرتوي منه خيال الأدباء والمخرجين منذ بدايات صناعة السينما .

أصحاب الأنياب الطويلة والبشرة الشاحبة والشبق اللانهائي لأكسير الحياة الأحمر القاني .

الدم..

إنهم (الغير موتى) كما يحلو للبعض أن يسميهم .

تلك الكائنات الليلية التي لن تدخل البيت إلا إذا أذن لها صاحبه.

كائنات كابوسية لا تطيق الثوم ولا تحتمل الشمس رغم قدراتها الخارقة والقدرة على التحكم والتلاعب بالعقول أو الإذهان كما يطلق عليه البعض.

كائنات خيالية هي؟

ربما..

هل لها أصول حقيقية؟

محتمل.

قيل أن أصل الحكاية مرض له أعراض تتشابه مع ما يقوم به مصاصو الدماء وهو مرض وراثي نادر للغاية يسمى البورفيريا وينتج عنه نقص مادة الهيموجلوبين وتراكم مادة البورفيرين التي قد تؤدى إلى حساسية للضوء تقرحات وتآكل في الجلد إذا تعرض الإنسان إلى أشعة الشمس وأيضا تقلص في عضلات الفم والشفاه مما يؤدي إلى ظهور الأنياب بشكل أكبر من الطبيعي.

وقيل أن مريض البورفيريا يحتاج إلى مادة الهيموجلوبين التي يستطيع أن يحصل عليها من شرب الدماء الطازجة لتعويض هذا الظمأ الشديد الذي يشعر به.

الظمأ للدماء..!!

ربما كنت عزيزي القارىء من محبي مشاهدة ذلك النمط المرعب كملايين البشر الذين يتابعونها في عشرات وربما مئات الأفلام السينمائية والحلقات التليفزيونية.

وربما كنت ممن يضيقون بها ذرعا حتى أنك وجدت مللا وربما رهبة من مقدمة مقالي التي تمثل مشهدا معتادا متكررا في تلك الأسطورة وتناولها الأدبي أو السينمائي.

لكنك على أي حال ستعدها في النهاية سواء أعجبتك أو لم تعجبك مجرد مقالة والسلام .

المشكلة أن يتطور الأمر فينتقل من كونه فيلما مسليا أو مقالة مثيرة أو حتى مملة إلى واقع بغيض.

واقع تعيش فيه تلك الكائنات أو أشباهها.

ربما لا يكون مصاص دماء اليوم ذا بشرة شاحبة أو أنياب طويلة لكنه يشترك مع صاحبنا الخيالي أو صاحبنا مريض البورفيريا في خصلة رئيسية.

الظمأ.

كل منهم لديه نوع من الظمأ.

كل منهم لا يستطيع العيش بدون ارتواء .

بدون الدماء لا قيمة لمصاص الدماء.

يفقد حينئذ قدراته وقوته.

يصير عاجزا ضعيفا .

لكن الدماء - والدماء فقط - هي ما يروي ظمأه ويشمع شبقه النهم .

وكذلك مصاصو اليوم.

لا يرتوون إلا بالدماء أيضا.

لكنها دماء مختلفة.

إنها دماء دينك وعصارة تقواك ورحيق فكرك .

دينك دينك الذي يفترش أن يكون أغلى عليك من لحمك ودمك .

وهم لا يرتاحون حتى تميل عنه ميلا عظيما .

مصاصو الدين اليوم لا ينامون في توابيتهم نهارا فقصورهم ومنتجعاتهم مشمسة لكنهم بلا شك يفضلون الظهور ليلا.

ولا تستطيل اليوم أنيابهم فألسنتهم الحداد تكفي في استطالتها لإراقة مزيد ومزيد من أكسير حياتهم ليتغذوا عليه ويعلو شأنهم أكثر وأكثر.

مصاصو الدين لا تجدي معهم مياه مقدسة أو شمس حارقة أو تعاويذ غامضة ولا الثوم ولا البصل سيشكلان فارقا معهم.

مصاصو اليوم لديهم مناعة ضد كل ذلك .

لكنهم كمثل أشباههم الأسطوريين لديهم نقطة ضعف.

إنهم لا يستطيعون الدخول إلا إذا دعوتهم.

لا يملكون التحكم في عقلك وإذهانك إلا إذا فتحت لهم الباب وقلت لهم تفضلوا بالدخول.

فإذا فعلت فلا تلمهم حين تجد أنيابهم قد استقرت في عقلك لتمتص روحك وإنسانيتك وتنهش ديانتك فتستيقظ بعد أيام وقد صرت مثلهم.

تلك طبيعة مصاصي الدين لا يملكون العيش دونها.

وتذكر أنك أنت من دعوتهم وأدخلتهم بضغطة من إصبعك على زر بالريموت كنترول كفل لهم أن يدخلوا بيتك ويقتحموا حياتك وينهلوا من دماء دينك وينهشوا تقواك ويقتاتوا على ثوب إيمانك حتى يبلى.

فهل عرفتهم ؟!

والأهم هل ستسمح لهم بالدخول؟!

إن أخوف ما خافه النبي ﷺ على أمته قوما سمى لهم إمامة لكنها إمامة ضلال «**أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون** ».

ولقد أقر لهم النبي في موطن آخر بعلم لسان وجدال بالقرآن لكنه علم وجدال لم ينف نفاقهم وتدليسهم وتلبيسهم على عباد الله.

فقال: «**أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان يجادل بالقرآن**».

للأسف ينكر البعض بكل حماس خطر ذلك العائق من عوائق التدين والالتزام التي نتحدث عنها.

عائق المضلين.

الصادين عن سبيل الله.

من يفسدون على الخلق دينهم بسلاحي الشهوات والشبهات.

بل ينكر البعض وجودهم أصلا.

لا يريدون الاعتراف بوجود تلك الفئة تريد للأمة أن تتبع الشهوات وأن تميل ميلًا عظيمًا وأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ويسفهون بكل قسوة ممن يحذر الخلق من تلك الطائفة وكأنه يدعي شيئًا أسطوريًّا غير موجود كمصاصي الدماء والموتى الأحياء والعنقاء وسائر الوحوش التي تزخر بها الروايات الخيالية.

ولو أنهم تدبروا كتاب ربهم لوجدوا بيانه القطعي عن تلك الطائفة المضلة

التي تريد للمؤمنين الميل معها وتسعى بقوة لتمرغهم إلى جوارها في أوحال الفساد ومن أصدق من الله حديثًا وهو القائل: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٢٧].

هدفهم كما قلت من قبل ليس فقط أن تميل وتزل.

وغايتهم ليست مجرد الوقوع في أمر يحتمل خلافًا .

هدفهم الذي أخبرك به الله –ومن أصدق من الله حديثًا– هو الميل العظيم.

مرادهم وغايتهم الحقيقية أن تميل ﴿مَيۡلًا عَظِيمًا﴾.

دعهم ينكرون كما يشاءون ودعهم يتجملون ويكذبون ويدلسون ويزعمون أنهم وسطيون وعلى مصلحتك حريصون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١١] سيكون ردهم دوما ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] .

مهما قالوا ومهما ادعوا فإن القول الفصل قول ربك الذي كشف لك مرادهم ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ٢٧].

هذا هو الاقتران وتلك هي المزاوجة التي لا تنفصل عند أولئك المفسدين ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١] ..

اتباع شهوات.

ورغبة في إمالة الخلق.

وتذكر ليس مجرد ميل.

بل ﴿مَيۡلًا عَظِيمًا﴾.

هذا هو الهدف الذي تحويه قلوب تلك المخلوقات الشيطانية.

نعم مخلوقات شيطانية في حقيقتها.

في رواية صحيحة لحديث سيدنا حذيفة عن الشر الذي كان يسأل عنه النبي فأجاب: فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس ".

تأمل..

الجثمان الظاهر لإنسي عادي أو حتى مثير للإعجاب والثناء.

لكن أمر القلب مختلف.

إنه قلب شيطان.

بل هو نفسه في التعبير القرآني الصريح = شيطان.

إنه ذلك المتبوع المستكبر الذي يضل الناس عن سبيل الله بغير علم ولا هدىً فيقتدون بضلالته ويتبعون باطله ستجد ذكره في القرآن بهذه الصفة الشيطانية.

وليس أي شيطان.

بل شيطان مريد.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾

**[سورة الحج: ٣]**

قال السعدي رحمه الله: ومن الناس طائفة وفرقة، سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق، يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم، تقليد أئمة الضلال، من كل شيطان مريد، متمرد على الله وعلى رسله، معاند لهم، قد شاق الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين يدعون إلى النار.

الحديث ها هنا إذا عن شياطين الإنس وليس فقط مردة الجن.

لكن العجب ليس من هؤلاء فتلك طبيعتهم وأصل اختبار الخلق بهم تماما كإخوانهم شياطين الجن.

العجب الحقيقي فيمن يعطيهم الفرصة على طبق من ذهب حين يسلمهم أذنيه ومن بعدهما قلبه وروحه.

فيمن يفتح الباب لمصاصي الدماء.

عذرا... أقصد مصاصي الدين والالتزام.

يفتح لهم ثم يطيعهم ويصير عجينة طرية بين مخالبهم.

يطيعهم متجاهلا النهي القرآني الصريح.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ **[ الكهف: ٢٨]**.

لقد ظلت وستظل حيل هؤلاء تنطلي على الكثيرين.

تنطلي على السماعين لهم الراضين بقبيح فعلهم وقولهم.

هكذا قال ربنا .

﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾ **[التوبة: ٤٧]**.

نعم .

فيكم.

في المؤمنين.

أنتم أيها المؤمنون من تفتحون لهم أبواب أسماعكم وأبصاركم.

أنتم أيها المؤمنون من تأذنون ليدخلوا حماكم وليبثوا سمومهم في أعز حصونكم.

في قلوبكم.

وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ .

هذه هي المشكلة الحقيقية.

بعد أن أعجبكم مظهرهم = فتنكم حرفهم .

بل وأعجبتم بكلامهم كما أعجبتكم صورتهم وأبهرتكم هيئتهم.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

يعجبك قوله.

لازلتم تنخدعون.

فكما انخدعتم آنفا بالصورة يخدعكم الآن الحرف.

وكأنكم تتحرون سبل الإعجاب بهم ولتنسوا أو تتناسوا في نهاية الأمر تلك الحقيقة المحكمة التي طالما نبهكم إليها ربهم.

حقيقة: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤].

هم العدو!

هكذا تتم الجملة وقد عُرِّف خبرها بالألف واللام.

وكأنه لا عدو غيرهم .

بالطبع هناك أعداء كثر ومحاربين من شتى صنوف أهل الكفر والشرك.

لكن إتمام الجملة بهذا الشكل يفيد التنبيه الشديد لخطورتهم الرهيبة ووجوب الحذر منهم.

كيف لا وهم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.

وفينا من يسمعهم.

ويصدقهم.

بل ويجادل عنهم.

مع وضوح العلامات وظهور القرائن الفاضحة هناك يصر على فتح بابه

على مصراعيه وإدخالهم لبيته.

ولقلبه.

### ١ـ منفرون

يا معاذ... أفتَّان أنت؟!

يا معاذ... أفتَّان أنت؟!

يا معاذ... أفتَّان أنت؟!

هكذا كررها رسول الله ﷺ في موضع من أهم مواضع غضبه وغيرته التي لم تكن يوما إلا لله جل شأنه.

غضب النبي من أحد أحب أصحابه إليه وأعظمهم شأنا وعلما.

معاذ بن جبل الذي أقسم النبي يوما أنه يحبه والذي أوصى أن يؤخذ القرآن من أربعة كان منهم معاذ وهو الذي أخبر النبي أنه أعلم هذه الأمة بالحلال والحرام وأنه يأتي يوم القيامة أمام العلماء برتوة، أي متقدماً بمسافة.

رغم كل ذلك غضب منه النبي ﷺ وعاتبه بشدة وذلك حين تسبب في أن يفارق رجل صلاة الجماعة بسبب إطالته.

عن جابر بن عبد الله ؓ أن معاذ بن جبل ؓ كان يصلي مع النبي -ﷺ- ثم يأتي قومه فيصلي بهم الصلاة، فقرأ بهم البقرة، فتجوّز رجل فصلى صلاة خفيفة

وفي رواية مسلم : «فانحرف رجل فسلم ثم صلى وحده وانصرف ».

فبلغ ذلك معاذاً فقال: إنه منافق.

فبلغ ذلك الرجل فأتى النبي -ﷺ- فقال: يا رسول الله، إنا قوم نعمل بأيدينا ونسقي بنواضحنا، وإن معاذاً صلّى بنا البارحة فقرأ البقرة، فتجوّزت فزعم أني منافق،

ما كان من النبي -ﷺ إلا أن استدعى صاحبه وتلميذه وقال تلك الكلمات ( يا معاذ أفتّان أنت؟ - قالها ثلاثـًا.

فلولا صليت بسبح اسم ربك والشمس وضحاها والليل إذا يغشى، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة.

ها هنا يثبت النبي ﷺ أصلا مهما .

لا جدال حول صلاح سيدنا معاذ وفضله وعلمه.

رغم ذلك يبين رسول الله ﷺ أنه من الممكن أن يكون فتَّانا للناس.

أن يكون سببا في فتنة البعض.

لا شك أنه لا يقصد ذلك ولا يريده.

لكن النبي ﷺ أثبت إمكانية وقوعه.

أن يكون الملتزم أو المتدين عائقا من عوائق الالتزام والتدين!

ليست عائقا عن طريق تشويه الآخرين له أو ادعاءات ومزاعم كاذبة كما حدث ويحدث وتكلمنا عنه آنفا.

بل عن طريق فعل حقيقي وتصرفات قام بها المتدين فصار بها فعلا سبب فتنة.

من هنا نفهم قيمة الدعاء القرآني الجامع.

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [ الممتحنة: ٥ ].

قال مجاهد: معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا وكذا قال الضحاك.

وقال قتادة لا تظهرهم علينا فيفتنونا بذلك يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه وهذا كان اختيار ابن جرير.

تأمل... يدعون ربهم ألا يصيبهم من الضعف والخذلان أو الهزيمة على يد الكافرين فيكون ذلك سببا في ظن خاطيء لدى هؤلاء أن باطلهم هو حق وصواب = فيفتنون.

هكذا كان الصالحون يحذرون دوما من كونهم سببا للصد عن سبيل الله.

وهكذا حذر الرحمن جل وعلا في تلك الآية التي أشرنا إليها في فصل سابق

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: ٩٤].

هو مثلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة، المشتملة على الصد عن سبيل اللّه، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام.

وتزل الأقدام بسبب من تهاونوا في أيمانهم.

إذاً فتلك الأخطاء التي يقع فيها بعض المتدينين أو الأنماط المنفرة التي لا تتحمل المسؤولية قد تسبب فعلا صدا وفتنة وإبعادا وتنفيرا.

وذلك هو ما حذر النبي ﷺ معاذ بن جبل وحذر أصحابه أن يكونوا من ضمنه حين قال: « **إن منكم لمنفرين**».

الفكرة إذا حاضرة بقوة في القرآن وفي السنة.

ولو كانت مسؤولية كل شخص عن نفسه وحسب وليس له علاقة بمن يفتنون بسببه فلماذا أقر النبي أن هناك من ينفر عن الدين ويفتن بسبب أهل الدين من المنفرين.

أن يكون المتدينون أو الصالحون بغير قصد سببا لفتنة الناس عن الحق.

بتنفيرهم وتشديدهم على الخلق.

بغلظة في طباعهم وفظاظة في أخلاقهم.

بعبوس واكفهرار وجوه.

بضعف وفشل الدنيوي تغلفه طبقة من الزهد المتكلف.

بذلك الحزن المدعى والمسكنة المنتحلة وخشوع الرقاب الذي يحلو للبعض إظهاره وكأنه الخشية والإخبات والورع.

كل هذا وغيره يتحمل المتدينو مسؤوليته إن اقترفوه وهو حجة عليهم إن تهاونوا فيه وفعلوه.

لكن ينبغي أيضا أن يعلم الآخرون أنه ليس حجة لهم.

ليس سبيل نجاة لي يوم القيامة إذا تعذرت بأن فلانا المتدين كان منفرا لي.

أن فلانة المنتقبة لم تكن قدوة.

أن الداعية المشهور والعالم الذي يشار إليه بالبنان حين اقتربت منه لم يكن عند حسن ظني.

كل هذا في الحقيقة لن يشكل فارقا شرعيا في حال اخترت الفساد أو قصرت في الطاعة.

بينت من قبل أنه لا يسأل عن جرمه إلا الذي أجرم ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٢٥].

وبالتالي فلا حجة في الدنيا إلا بكسب المرء ومسؤولية الخطأ تقع على من اقترفه حتى لو أخطأ جميع من حوله معه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

حين تقف بين يدي الله فلن تُسأل إلا عن نفسك ولن تحاسب إلا على

كسبك ومن كانوا في مسؤوليتك .

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر : ٣٨].

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٣-١٥].

أنت ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ﴾ [النساء: ٨٤] وفساد الآخرين متدينين كانوا أو غير متدينين واشتراكهم معك في الخلل لن ينفعك،

خصوصا هناك.

في الآخرة.

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [ الزخرف: ٣٩].

سنين طويلة مضت منذ اللحظة التى تلقيت فيها تلك القاعدة العظيمة التى شكلت بعد ذلك محورا مهما في حياتي.

قاعدة «لا يعرف الحق بالرجال».

أذكر شعورى فى تلك اللحظة جيدا وقد كنت قبلها أعانى من تسلل الشيطان إلى نفسى من مدخل إبراز العيوب والزلات فى بعض المنتسبين للتدين.

حاول الشيطان من خلال تلك الأخطاء المضخمة إيجاد المبررات للتفلت عن المنهج طالما أن بعض أتباعه قد كشفت لى زلاتهم وظهرت لى معايبهم.

عندها برزت تلك القاعدة في حياتي.

وارتحت.

عند كل موقف يكشف فيه ستر أحد إخوانى أحمد الله جل وعلا أن هدانى لهذا المبدأ المريح وتلك القاعدة العبقرية.

هي مقولة المنسوبة لسيدنا على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فيما رواه عنه ابن مفلح في الآداب الشرعية نقلا عن ابن الجوزي في كتابه السر المكتوم.

« الحق لايعرف بالرجال.. وإنما يعرف الرجال بالحق.. فاعرف الحق تعرف اهله ».

و القاعدة بكل بساطة معناها أنه لا أحد مهما كان حجة على الدين.

حجة على الحق.

حجة على الصواب.

فأى رجال - ما دون الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم - هم بشر يخطئون ويصيبون ويعصون ويطيعون ويزلون ويوفقون وهذه الزلات والمعاصى والأخطاء هم فقط من سيحاسبون عليها.

المنهج الذى لا يضره أخطاء الأتباع إنما يضره أن ينسب إليه ما ليس منه.

حين يخطئون أو يزلون أو يقصرون فلأنفسهم وعليها.

ما شأني أنا.

ما علاقة هذا بتقصيري.

أولئك الذين تهزهم زلات الأفراد وتزعزع ثقتهم أخطاء الأتباع التى لن تنتهى مادام على ظهر الأرض خطاء من نسل آدم عليه السلام = هل كانوا يظنون أن المتدين معصوم؟

أم هم يزعمون أن الدين هو الذي أمرهم بأخطائهم تلك؟

من قرر أن يعلق تقصيره على تلك الشماعة فهو للأسف إما ضعيف أو متربص .

و ما الضعف إن لم يكن ذلك؟

و ما الضعف إن لم تكن كلمة تأتي بك وأخرى تبعدك؟

للغزالي في الإحياء كلام يلخص هذه الحقيقة.

يقول: « وهذه عادة ضعفاء العقول يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق» .

«فاعلم أن من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال، فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكا طريق الحق وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس، فلا تغفل الصحابة وعلو منصبهم»

الأخطر أن يكون هذا الاهتزاز عبارة عن تربص أو محاولة مقصودة لإيجاد مبررات التفلت والنكوص بإقناع النفس أن هذا هو الأصل وأنه ليس وحده المتفلت والأمر هين وهذا كما يقال بالعامية نوع من أنواع « التلصيم ».

نعم « تلصيم ».

نفوس يمكنك أن تقول عنها بالعامية المصرية أنها: (متلصمة) .

ومتلصمة كلمة عامية مفادها أن هذا الشىء الموصوم بالتلصيم أقل شىء يكسره وأهون مؤثر يغيره وأتفه حدث يؤذيه ويزعجه.

إنها أنفس قابلة للكسر.

إن من الأنفس البشرية ما تصلح تلك الكلمة التي توضع على صناديق البضائع الضعيفة أن تكون عنوانا لها .

وكذلك تلك الأنفس..

أقل شيء يكسرها وأهون سبب يجعلها تتأرجح على حافة السقوط تنتظر دفعة يسيرة لتقع بعدها وتتهشم ثم تتردى مهزومة أمام تلك المؤثرات بضعف منقطع النظير!

أن تطلع على عيوب بعض المتدينين أو تنكشف لك سوءات وعورات تخص بعض من كنت تحسبهم على خير؛ فذلك اختبار صعب بلا شك .

لكن لا تظن أبدا أنك وحدك من تتعرض لهذا الاختبار أو إن شئت فقل: لتلك الفتنة!

الحقيقة أنها فتنة واختبار وامتحان متكرر ولا أظن أن منا من لم يتعرض لمثله بل ربما لأبشع منه كثيرا.

وللأسف قليلون من يثبتون في مواجهة هذا الاختبار ولا تتغير نظرتهم للدين نفسه أو يسوغوا لأنفسهم الشك في الطريق والمنهج بسبب تلك السوءات من بعض المنتسبين له!

أما الضعفاء فللأسف يفعلون ذلك بكل أريحية ويستسلمون بكل سهولة للكسر.

وطالما لم يثبتوا أن الدين أو المنهج هو الذي يأمر بتلك الزلات ويؤدي لهذه السقطات والسوءات فحينئذ فما هي إلا معاذير وحجج فارغة يبررون بها سقوطهم مع من سقط ويسكنون بها جراح فطرتهم التي نكسوها عمدا بهذا التربص والتعذر و« الحرف» الذي كانوا يعبدون الله عليه

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [**الحج**: ١١].

هناك أيضا من يعيش على هذا الحرف ويبني مواقفه ومبادئه وأحكامه على هذا الحرف الكائن على شفا جرف هار يوشك أن يخر به ويهوي إلى أعماق سحيقة .

والحقيقة أن الشريعة وأحكامها لا يمكن أن تعامل بهذه الطريقة.

ليس دين الله بالعزومة ولا بالتلاصيم .

والمرء عند التعامل مع الصدمات في أشخاص لا ينبغي أن يكون مهتزا ضعيف الشخصية ينتظر أقل سبب ليبرر لنفسه ترك الطريق ويركن إلى اليأس والقنوط بحجة إنه مصدوم أو فتنه الآخرون ونفروه.

لقد أخبرنا ربنا أنه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨] وأن ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨] وأوصانا فقال ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] وغير ذلك من الآيات التى لم تدع لأحد هؤلاء المتربصين والمتلصمين حجة ولم تترك له فرصة ليبرر لنفسه التفلت بفعل الرجال.

الحق حجة علينا جميعا وليس أحد منا حجة عليه وقد أبى الله أن تكون عصمة إلا لكتابه ولأنبيائه و

لم يعطها لأحد غيرهم.

أكرر أن هذه الكلمات ليست تهوينا من شأن الأخطاء أو تبريرا للمخطئين ولكن تبرأة للمنهج الذى لا يعرف إلا برجال زكاهم الله وأثنى عليهم وأنعم عليهم ﴿ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]

ومن كان مستنا فليستن بمن قد مات.

أما نحن !!

الأحياء الخطاءون من بنى آدم فلن تؤمن علينا الفتنة.

لم ولن نكون أبدا حجة على الحق ومن كان أفضل منا ما يوما رأوا فى أنفسهم ذلك .

الإمام مالك – رحمه الله تعالى ينسب إليه قولا جميلا.

« إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا فى رأيى فإن وافق الكتاب والسنة فخذوا به وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه».

وكذلك الإمام الشافعى رحمه الله يقول: « ما من أحدٍ إلا وتذهب عليه سنة للنبى أو تعزب عنه فمهما قلت من قول أو أصّلت من أصل فيه عن رسول الله خلاف ما قلت فالقول قول رسول الله وهو قولى وجعل يردد هذا الكلام ».

و غير ذلك مما نقل عن أولئك الأخيار الذين لم ير أحدهم نفسه حجة على

المنهج أو علامة عليه.

سيظل الخطأ خطئا وستبقى المحاسبة واجبة والمسئولية قائمة وإلا ما قال النبى ﷺ لبعض أصحابه «**إن منكم لمنفرين**» ولما أصر أن يبرىء ساحته – رغم أنه لم يتهم – حينما مر الصحابة فوجدوه يكلم امرأة فسارع فى إثرهم قائلا «**إنها صفية**» وفسر ذلك بقوله : «**إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم**».

و لما أصر سيدنا يوسف عليه السلام على تبرأة ساحته قبل الخروج من السجن بقوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

كل ذلك وغيره يجعلنا أمام مسئولية لا تنفيها قاعدة عدم معرفة الحق بالرجال لكنها تتعاضد معها لتشكل التكامل المطلوب .

لأجل ذلك سنناقش في الفصول القادمة بعض العوائق المختلفة عما سبق.

عوائق التنفير والمنفرين.

أولئك الذين ينبغي أن نسأل الله بصدق ألا نكون منهم وألا يجعلنا فتنة.

ألا نكون من المنفرين.

## ١١ـ الفظ الغليظ:

– يا بن عبد المطلب يا ابن هاشم.

يا ابن سيد قومه.

أنتم أهل حرم الله وجيرانه تفكون العاني وتطعمون الأسير جئناك في ابننا عندك وحَمَلْنا إليك من المال ما يفي به، فامْنُنْ علينا وفاده لنا بما تشاء وأحسن إلينا فدائه.

كانت هذه كلمات حارثة بن شراحبيل للنبي ﷺ حين علم أن ولده عنده.

– ومن هو ؟!

سأله الحبيب مستفهما.

– زيد بن حارثة.

زيد !!

غلام خديجة بنت خويلد الذي أهداه إياها حكيم بن حزام ولد أختها والذي أهدته إلى الحبيب.

ذلك الغلام النجيب الذي ما فارق الحبيب منذ أهدته إليه زوجه وما عامله منذ أعتقه إلا كولده.

هل تحين مفارقته بعد تلك الأعوام ؟!
أجاب النبي ﷺ قائلا للرجل ومن معه وقد أدرك مقصودهم:
- فهل لكم فيما هو خيرٌ من الفِداء؟
أدْعوه لكم فَخَيِّروهُ بيني وبينكم فإنْ اخْتاركم فَهُو لكم بِغَيْر فدية ولا مال وإن اخْتارني فما أنا بالذي يرغب عمن اخْتاره.
- والله قد أنْصَفْت وبالغتَ في الإنصاف.
بامتنان رد الوالد فنادى رسول الله ﷺ:
-يا زيد.
أتعرف من هذان؟
رد زيد: هذا أبي حارثة ابن شُرَحْبيل، وهذا عمِّي كَعْب.
فقال الحبيب : يا زيد. فأنا من قد علمت ورأيت صحبتي لك.
وقد خَيَّرْتك فإنْ شِئتَ مَضَيْتَ معهما، وإن شِئتَ أقَمْتَ معي.
هنا كانت المفاجأة.
حاسمة سريعة في حزمها مبهرة.
لقد أجاب زيدٌ في غير تَرَدُّدٍ ولا إبْطاء: بل أُقيمُ معك،
ثم زاد زيد من نثر كلماته المدهشة:
ما أنا بالذي أخْتار عليك أحداً.
أنت مني مكان الأب والعم.
وأنعم به من أب وعمّ هو بأبي هو وأمي.
- وَيْحَكَ يا زيد، أَتخْتارُ العُبودِيَّة على أبيك وأمِّك؟
هكذا سأل الوالد المذهول.
لكن عن أي عبودية يتحدثون.
عبودية في جوار الحبيب.
أسر في صحبة من كان أول عهده به العتق والإكرام.
هنا أكمل زيد مفاجأته : إني رأيْتُ من هذا الرجل شيئـًا أنْساني كُلَّ إنْسان، ما أنا بالذي يُفارقُه أبداً وما أنا بالذي أختار عليه أحدا أبدا.
فما كان من رسول الله ﷺ حين رأى ذلك الحب والحرص إلى أن خرج بزيد إلى الحجر وصاح مشهدا أهل مكة : «يا من حضر. اشهدوا أن زيدا ابني

يرثني وأرثه».

لما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما فانصرفا وقد علما أن ذلك الرابط الوثيق والمحبة الخالصة لم تكن لتنفصم عراها قط.

ولا أي محبة نشأت وترعرت في قلب رأى رسول الله ونعم بقربه وحظي بصحبته.

لم يكن إيثار زيد لجوار الحبيب ضربا من المحبة نادرا أو خياليا.

نعم هو حب رسول الله وهو من حمل اسمه حتى جاء الإسلام محرما التبني

وهو الذي كان يقيه بنفسه أحجار السفهاء في رحلة الطائف .

ولكنه لم يكن وحده.

كل من عايشوا الحبيب ما كانوا يعدلون بقربه شيئا وما كانوا يؤثرون أحدا عليه .

فهذا خُبيبٌ بن عدي ﵁ يُقدَّم ليقتلَ ويصلب، فيقول له قاتلوه مِن مشركي قريش آنذاك: أيسُرُّك أنَّك في بيتك معافًى، وأن محمدًا مقامك،

فيلقي إليهم ﵁ بمفاجأته ومكنون مشاعره تجاه الحبيب -: لا والله، ما يسرني ذلك ولا أن يشاكَّ محمد - ﷺ - بشوكة.

الأمر ليس هاهنا تفضيل موته على موت النبي وحسب ولكنه لله دره يفضل أن يلقى ما يلقاه على أن يؤذى النبي صلوات الله وسلامه عليه مجرد أذى.

و لمَّا كان يومُ أُحُدٍ حاص المسلمون حَيْصةً ، فقالوا : قُتِل محمَّدٌ ، حتَّى كثُرت الصَّوارخُ ناحيةً من المدينةِ ، فخرجت امرأةٌ من الأنصارِ متحزِّبةً فاستقبلتْ بأبيها وابنِها وأخيها وزوجِها.

أي جاءها خبر استشهادهم.

تأمل.

أقرب الناس إليها ذهبوا ولن تلقاهم بعد اليوم.

لا وهي لا تنفك بصدد كل خبر تسأل سؤالا واحدا : ما فعل رسولُ اللهِ ﷺ؟

حتى قالوا : أمامَك .

فلما تأكدت أنه حي يرزق قالت : بأبي أنت وأمِّي يا رسولَ اللهِ !

لا أُبالي إذ سلِمْتَ من عطَب .

كل مصيبة بعدك جلل - أي صغيرة .

أي تفضيل هذا وأي رابطة وثيقة تلك؟!

رابطة تتجاوز الروابط البشرية المألوفة وتعلو على الصلات الاجتماعية المعتادة.

رابطة جعلت أبا طلحة ﵁ يقول للنبي ﷺ يوم أحد: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، لا تشرف، لا يصبك سهم من سهام القوم،

نحري دون نحرك .

تأمل المعنى الجليل ..

عنقي دون عنقك وروحي فدا روحك ونفسي تزهق دفاعا عنك عن طيب خاطر.

وهل كان تترس أبي دجانة ﵁ على رسول الله ﷺ يوم أحد، حتى صار ظهره كالقنفذ من السهام، وتقدم الكوكبة من الصحابة الكرام ﵃ في القتال دونه يوم أحد وذلك حينما حاصر المشركون رسول الله - ﷺ - ومن معه، وخلال هذا الموقف العصيب سارع المسلمون إلى رسول الله - ﷺ - وأقاموا حوله سياجاً بأجسادهم وسلاحهم، وبالغوا في الدفاع عنه، حتى قتلوا جميعا = هل كان كل ذلك إلا شواهد واضحة لتلك الرابطة والحب غير العادي.

كانوا لا يتصورون فراقه حيا فكيف يتصورونه ميتا .

ها هو ثوبان مولى رسول الله - ﷺ -، وكان شديد الحب لرسول الله - ﷺ -، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغيَّر لونه يعرف الحزن في وجهه، فقال له الرسول - ﷺ -: « **ما غيّر لونك؟** »، فقال: يا رسول الله، ما بي مرض ولا وجع، غير أنّي إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة فأخاف أني لا أراك، لأنك تُرفَع مع النبيين، وإني إن دخلت الجنة في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبدًا، فنزلت هذه الآية ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ **[النساء: ٦٩]** ».

ولقد رفض ربيعة بن كعب الأسلمي عروض الزواج التي كان رسول الله ﷺ يعرضها عليه مخيرا إياه لا لشيء إلا ليبقى إلى جواره يخدمه حتى إذا أصر النبي قبل ربيعة مضطرا.

وحين قال له رسولُ الله - ﷺ -: «**يا ربيعة، سلني**»، فقال: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: «**أَوَغَيْر ذلك؟**»، قال: هو ذاك، قال: «**يا ربيعة، أعِنِّي على نفسِك بكثرة السجود**».

إنه يفكر في المستقبل ومصير ذلك الرباط بينهما.

إنه لا يريد أن يفارق الحبيب حتى في دار الخلد .

فما خير الحياة إن كانت بدونه.

هكذا قالها عمر واضحة صريحة وذلك حين حدثت بينه وبين الصديق أبي بكر مشادة فجاء عمر إلى رسول الله فجلس بقربه فأعرض النبي عليه الصلاة والسلام عنه، فذهب إلى الجانب الآخر، فأعرض النبي عليه الصلاة والسلام عنه، فجلس بين يديه فأعرض النبي عليه الصلاة والسلام عنه،

فقال سيدنا عمر : ( يا رسول الله! ما أرى إعراضك إلا لشيء بلغك عني، فما خير حياتي وأنت معرض عني؟ ) أي خير أحصله في هذه الحياة إذا أعرضت عني؟

يا رسول الله!

والله ما أبالي ألا أعيش في الدنيا ساعةً وأنت معرض عني.

هل يمكنك بعد كل ذلك أن تتصور انفضاض هذه الصحبة الوثيقة وهذا الارتباط المحكم؟

أصحاب رسول الله ينفضون من حوله؟

أولئك الذين هم كزرع أخرج شطأه فاستغلظ فاستوى على سوقه.

أولئك الذين لم يُرَ مثل التفافهم حول النبي ﷺ ولم تعرف الدنيا ارتباطا وثيقا بشخص كما عرفت ارتباطهم به.

أولئك الذين قال عنهم عروة بن مسعود الثقفي حين رأى علاقتهم بالنبي ﷺ عندما ابتعثوه مفاوضا في صلح الحديبية من طرف قريش- وكان ذلك قبل إسلامه- فلما رجع إليهم قال لهم: لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكـًا قد يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمـًا له.

رغم كل هذا ثمة آية من كتاب الله تربط ذلك الاجتماع والالتفاف بخصال طالما وجدت = دام واتصل وإن زالت وحل ضدها محلها = حدث الانفضاض ونقض الارتباط.

مخ.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾.

[آل عمران: ١٥٩]

تأمل مرة أخرى.

لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ! .

أربع صفات أخلاقية سلوكية حوتهم هذه الآية .

صفتان منهما ليس النبي من أهلهما وصفتان بعث بهما .

لقد بعث بالرحمة وأرسل باللين .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولقد تنزه عن الفظاظة والغلظة.

ولو اتصف بتلكما الصفتين الأخيرتين فبنص الآية المحكمة الواضحة = لانفض الناس من حوله.

لنقض هذا الاجتماع الوثيق.

لانهار ذلك الرباط القوي المتين.

ولتفرق الناس وانفضوا من حوله.

هذه الآية تكفي كي ندرك خطورة هذا العائق من عوائق التدين.

الفظاظة.

وغلظة القلب.

فظاظة وغلظة يتهاون فيهما كثير من المنتسبين للدين.

هاتان الخصلتان كفيلتان بإنهاء تلك الحالة المتماسكة المبهرة التي كان عليها الصحابة مع النبي ﷺ .

وهذا هو المآل الذي لا يدركه كثير من أهل هاتين الخصلتين.

أولئك الغلاظ الذين يتحرون القسوة والفظاظة في جل ما ينطقون ويفعلون غير مفرقين بين مواضع الإغلاظ المشروعة وهي محدودة وبين أصل اللين والرفق والرحمة بالمؤمنين وتأليف قلب المدعوين؟!

أهل هذا النمط يخاطبون الخلق كأنما أرسلوا عليهم حافظين .

الخلق دوما في نظرهم متهمون أما هم ففي نظر أنفسهم قضاة ومحققون ثم جلادون يعاقبون ويزدرون كل من يخالفهم .

فكرة الدعوة والنصيحة والأخذ بيد الناس بالنسبة إليهم متأخرة وربما منعدمة.

أن يكونوا عنوانا مبشرا لما ينتهجونه لا يمثل ذلك قيمة كبرى لديهم.

الحقيقة أن وسائل التواصل الاجتماعي ساهمت كثيرا في ظهور هذا النمط

إن مجرد إحساس المرء بقدرته على السباب، والإهانة من خلف لوحة المفاتيح يعطيه نوعـًا من الشجاعة الكاذبة، واللذة الخفية، والإحساس بنصر زائف، ورخيص، وإنى لأعلم أناسا فى غاية الخجل، وربما الانطواء خارج الـ«فيس بوك» و«تويتر»، بينما تجدهم على هذه الشبكات فرسان الفظاظة والغلظة وإن كانت الفظاظة لا تملك فرسانا.

إنها شجاعة من خلف الشاشات، واحتماء بالكيبورد، وأخلاق ضباع تنضح بالخسة والنذالة .

ثم بدأت تلك الشجاعة، وإن شئت فسمها الوقاحة وقلة الذوق تتخذ منحنى جديدا فمع كثرة الاحتكاك، والتعامل مع الفظاظة، وسوء الأدب بدأ البعض يفقدون قدرتهم على التفريق بين الواقع الافتراضى، والواقع الحقيقى، وامتدت الوقاحة، والفظاظة لتصير بالتدريج سمة أصحاب هذا النمط فى مجتمعاتنا، وشوارعنا، ومنتدياتنا العامة، والخاصة..

أحيانا تلحظ كل هذا فيقفز السؤال إلى رأسك مباشرة: أين ذهبت دعوة الحال .

إلى أين رحل الأدب، والذوق، والكياسة، واللياقة، واللباقة، ولين الجانب، والمجاملة اللطيفة، والكلمة الطيبة، والبسمة المشرقة، وحسن الظن، وسائر تلك المعانى «التاريخية»؟!

هل ذهب كل ذلك أدراج الرياح، وجعله الواقع هباء منثورا تذروه عواصف الكراهية، والغل التى تؤجج فى كل لحظة؟

نعم هناك مشكلة حقيقية في هذا الجانب.

كلنا يلحظ هذا فيمن حوله، بل أحيانا فى نفسه، وأقرب الناس إليه،

لدى الكثيرين صارت الآداب والأخلاقيات التى نشأنا عليها وعملنا إياها ديننا = ضعفا، وقلة حيلة.

صحيح أن كثيرا الغلاظ الأفظاظ لا علاقة لهم بمواقع التواصل الاجتماعى، وربما لا علاقة لهم بالإنترنت نفسه، لكن هناك نسبة لا بأس بها تكفى لتتأثر بهذه الطبائع .

نسبة حرجة طبيعتها الشبابية تجعلها قادرة على التأثير فيمن حولها ممن لم يباشر بنفسه تلك الوسائل الحديثة، لكن ريحها قد تسرب إلى أنفه، وعقله من خلال التعامل مع من يباشرونها.

هذا التأثر بما في الواقع الافتراضي هو أمر في منتهى الخطورة خصوصا حين يسيطر على أهل التدين والصلاح.

فى الحياة الواقعية نحيا سويا.

نلتقي يوميا بالبر والفاجر والطائع والعاصي.

لابد أن ندرك ذلك ونفهمه.

في الحياة الواقعية لا يوجد زر (البلوك).

ليس في العالم الحقيقي خيار حظر المخالف في لحظات كما يتعامل رواد تلك المواقع مع من يضايقونهم ويؤذونهم بألفاظهم وفظاظتهم!

لابد أن يكون في أولويات الملتزم قضية الدعوة بالحال وتغيير ما حوله.

لابد أن يتعلم كذلك الصاحب المؤمن في قصة صاحب الجنتين كيف يتحاور.

كيف نختلف.

كيف ننصح ونوصل رسالتنا لغيرنا هذا إن كنا حقا أصحاب رسالة نريد لها أن تصل وتسمو بها الأرواح وتعي معانيها العقول ولسنا فقط أصحاب سياط وجلادين نصلي ظهور من يخالفنا معاقبين وبفظاظة منفرين ولمن حولنا فاضين ومبعدين.

لابد لهذا لذلك الفظ الغليظ من وقفة مع النفس قبل أن يجد حياته قد تحولت إلى صفحة تواصل اجتماعي فظة غليظة تصير فيها الفاظة أسلوبا للحياة ويصير دون أن يدري أحد تلك العوائق التي نتحدث عنها.

وكما أن الفظاظة والغلظة من أهم ما ينفر الخلق ويصدهم ويعوقهم عن

سبيل ومنهج من يتمتعون بهما ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] = فعلى النقيض يعد حسن المعشر ولين الجانب وطيب الكلام من العوامل الجاذبة والمقربة والمشجعة لمن هم محل الدعوة.

يمكنك تلخيص كل ما سبق في كلمة واحدة.

الذوق.

من يتمتعون بتلك الخصلة يختصرون الكثير من المسافات في دعوتهم بالحال قبل المقال.

وعن ذوقه ولين جانبه ﷺ = فحدث ولا حرج.

هو جانب من جوانب شخصية النبي ﷺ يغفل كثير من الناس عن معرفته فضلاً عن الاقتداء به والتأسي بتفاصيله.

جانب الذوق في حياته ومعاملاته وكلماته واختياراته.

وطيب الكلم وانتقاء أجمل الألفاظ وأرقاها.

لقد كان بأبي هو وأمي ينتقي من الكلمات أحسنها وألطفها وأرقها وكان أحرص الناس على اختيار أطيب الألفاظ وأجمل المفردات وأرقى المعاملات..

يظهر ذلك في ما لا يحصى من المواقف والكلمات التي كان يحرص على قولها لأصحابه في شتى المناسبات.

تأمل حديث عن أقرب أصحابه أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه.

- هل أنتم تارِكونَ لي صاحِبي.

إني قلتُ: «**يا أيُّها الناسُ، إني رسولُ اللهِ إليكم جميعًا، فقلتُم: كذَبتَ، وقال أبو بكرٍ صدَقتَ**».

هكذا خرجت منه تلك الكلمات الرقراقة في شأنه.

وهكذا كرر الكلمة.

صاحبي... صاحبي.

ثم يستمر في الكلام الطيب عن صاحبه:

- «**إنه ليس من الناسِ أحدٌ، أَمَنَّ عليَّ في نفسِه ومالِه من أبي بكرِ ابنِ أبي قحافةَ.**

**ولو كنتُ مُتخذًا من الناسِ خليلًا، لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلًا، ولكن أخوة**

الإسلام.

**سُدُّوا عني كلَّ خَوخَةٍ ، في هذا المسجدِ ، غيرَ خَوخَةِ أبي بكر»**.

هكذا كانت كلماته العذبة تحنو على الصديق مرة بعد مرة وفي مناسبة تلو مناسبة.

وليس فقط أبا بكر من خصه بذلك الذوق وتلك التصرفات الحانية.

ها هو يكرم جرير بن عبد الله البجلي يوم إسلامه ببردته كهدية رقيقة فرحا به وحفاوة وإكرام وما يراه بعد ذلك إلا ويتبسم في وجهه مكرما إياه.

وحين يأتيه سيدنا حذيفة بن اليمان بخبر القوم يوم الأحزاب يقربه ويهدىء من روع هذا اليوم العصيب ووقعه عليه .

بل ويلبسه عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم يزل نائما حتى الصباح متدثرا بثوب النبي فلما استيقظ يداعبه متلطفا وقائلا: قم يا نومان.

ويوم قدم جعفر بن أبي طالب من الحبشة وقد صادف يوم وصوله فتح خيبر يعاجله بكلمات حانية تقطر مودة يستقبله بها قائلا : لا ندري أنفرح بفتح خيبر أم بمقدم جعفر.

ولقد كان يحرص على الذوق وطيب الكلم مع أصحابه حتى عند نصحهم فيختار كلمات ونصائح تحمل رسالة واضحة.

رسالة فحواها = أنه يعرفهم جيدا ويهتم بأمرهم.

يعرف خصالهم وخصائص كل منهم ويبين لهم ذلك.

يقول للأشج بن عبد قيس إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة.

يعرف خصاله ويبشره ويهديه تلك الكلمات الرائعة.

ويثني على عبد الله بن عمر بين يدي نصحه بقيام الليل مقدما النصح بقول طيب: نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل.

تأمل... .. نعم الرجل عبد الله.

كانت كلماته الحانية تسبق نصحه وبيانه.

وحين أراد أن ينصح لمعاذ بن جبل قدم النصح بقول يا معاذُ! واللهِ إني لَأُحبُّك.

ثم أردف: «**أوصيك يا معاذُ ألا تدعَنَّ دُبُرَ كلَّ صلاةٍ أن تقول: اللهمَّ أَعِنِّي**

**على ذكرِك وشكرِك ، وحسنُ عبادتكِ »**.

وحين وجد عليه الأنصار لما أعطى أهل مكة من المؤلفة قلوبهم ووكل الأنصار لإيمانهم سارع لتطييب نفوسهم وجبر خاطرهم وقد تسرب إلى نفوسهم نوع من الحزن وتردد بينهم أن رسول الله قد عاد إلى قومه وجافاهم

ورغم أنه أولى الناس بالثقة في أفعاله وتصرفاته إلا إنه لإدراكه طبيعة النفس البشرية قدر مشاعرهم واختار الوضوح والبيان والكلمة الطيبة والرفق ولين الكلام فقال: «**يا معشر الأنصار واللهِ لَو شِئتُم لقُلتُم فصدَقتُم وصُدِّقتُم جئتَنا طريدًا فآوَيناكَ، وعائلًا فآسَيناكَ، وخائفًا فأمَّنَّاكَ، ومَخذولًا فنصَرناكَ.**

– **أفَلا تَرضَونَ يا مَعشرَ الأنصارِ أن يذهبَ النَّاسُ إلى رِحالِهِم بالشَّاءِ والبَعيرِ وتذهَبونَ برسولِ اللهِ إلى رِحالِكُم؟**

**فَوَالَّذي نَفسي بيدِهِ لَو أنَّ النَّاسَ سَلَكوا شِعبًا وسَلَكتِ الأنصارُ شِعبًا لسَلَكتُ شِعبَ الأنصارِ ولَولا الهجرةُ لكُنتُ امْرَأً مِن الأنصارِ.**

**اللَّهمَّ ارحَمْ الأنصارَ وأبناءَ الأنصارِ وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ .**

– **رَضينا باللهِ رَبًّا ، ورسولِهِ قسمًا»**.

هكذا قالوها وقد أخضلوا لحاهم بدمعات التأثر وعبرات الفرحة بذلك التكريم وتلك الكلمات التي تقطر بالذوق والحنان.

هكذا كان حبيبنا ﷺ.

تخيل مجتمعا من المتدينين يتخلقون بذلك الخلق ويتزينون بتلك الطريقة.

تصور أن يكون تعامل المنتسبين للالتزام والتسنن بهذا الذوق وخياراتهم لكلماتهم وأسلوبهم من هذا من المنطلق.

أعتقد أن كثيرا من العوائق والحواجز التي اجتهد المنفرون في بنائها ستذوب وتتلاشى.

بل وتصير عوامل تقريب واجتماع إذا اختفى من بينهم ذلك الصنف.

صنف الفظ.

والغليظ.

## ٢١ـ مكفهر:

وذلك المكفهر المتجهم.

هذا الذي يظن وجهه العابس وحاجباه اللذان أوشكا على الامتزاج لهول

انعقادهما = تمام العزة وغاية الاحتشام والوقار الذي ينبغي أن يكون عليه الصالحون .

هذا دون أن يدري قد يكون أحد العوائق التي تحول بين الناس وبين الإقبال على ما ينتسب إليه.

الالتزام .

الاستقامة.

الصلاح.

حالة من الكآبة والتجهم وكمية لا بأس بها من النكد و(التكشير) تطفو على من يفترض أنهم أهل الديانة وأرباب الصلاح.

من يعرفون ب (الملتزمين) .

البعض يركن إلى هكذا سمت ويصير نمطا ظاهرا في حياته بدعوى تثاقل الهموم وتعقد المشاكل التي نمر بها على مختلف الأصعدة سواء كانت شخصية أو عامة.

والحقيقة أن الأمور معقدة بالفعل والمشاكل لا يمكن إنكارها وأعباء الحياة فعلا قاسية لكن هل هذا مبرر كافٍ لدوام التجهم والعبوس والإغراق في النكد والهموم؟

هل الحل هو التلبس بنمط الشخصية (المكشرة) مكفهرة الوجه عابسة المحيا مقطبة الجبين؟

وهل الاستسلام لتلك المشاعر وإظهارها بشكل دائم سيؤدي إلى تغيير أو إصلاح؟

أعتقد أن تلك الأسئلة يحتاج كثير من (المكشرين) إلى طرحها على أنفسهم .

على صعيد آخر يظن البعض أن المهابة الشرعية تكمن في العبوس ويعتقدون أن الوقار يظهر في كمِّ التجاعيد التي ستظهر على جبينه كلما قطبه أكثر وأكثر ويتصورون أن الحشمة والمكانة إنما تنال بكآبة السمت وصرامة الوجه التي تبعث برسالة حازمة إلى من يتعاملون معهم مفادها = نحن أناس مهمومون ومنشغلون بعظائم الأمور والويل الويل لمن تجرأ على المزاح معنا أو فكر مجرد تفكير أن يخفف من توتر سمتنا وعبوس وجوهنا .

وهم واهمون في ظنهم هذا.

فلا المكانة تنال بالعبوس ولا التكشير دليل الجدية والوقار.

ولا التجهم يفرج الهموم أو يحل المشكلات.

هو فقط يزيد من نفور الخلق عنا وخوفهم منا بينما تلك البسمة التي ربما تستهين بها قد تكون سببا دون أن تدري في تأليف قلب إنسان .

أذكر ذلك الشاب الطيب الذي كانت له سنين يعتكف معنا في كل رمضان وكنت قد علمت من فترة أنه قد ارتد عن الإسلام!

نعم بالفعل.

لم ينتكس تعبديا أو يقع في معاص وحسب.

بل ارتد كلية ولحق بتلك (الموضة) المشئومة.

الإلحاد.

في ذلك نزلت من على المنبر بعد انتهائي من خطبة الجمعة لأجده أمامي.

كان حاضرا منذ البداية وقد أشرق وجهه وزينه سمت السنة من جديد.

فرحت به أيما فرح وجالسته متلمسا حاله وكان من أكثر ما أثر في نفسي من حكايته تلك الجملة.

« عدت بابتسامة أخ! ».

كانت تلك كلماته لي لما سألته عن حاله وأنا فرح مستبشر به.

حكى لي أن أحد الشباب في المسجد المجاور كان كلما لقيه هشَّ في وجهه وبشَّ .

كان يحسن استقباله ويحتفي به كلما رءاه.

يقول صاحبنا: هذه البسمة وذلك البِشر وتلك البشاشة كانت تملأ نفسي بالحياء كلما لقيته.

ذكرتني كلماته بالحديث الذي ذكرته ضمن هذه المقالات من قبل: «أوصيك أن تستحي من الله تعالى ، كما تستحي من الرجل الصالح من قومك».

أحسب أن هذا الأخ البسوم الرفيق كان من الصالحين الذين يستحيى منهم.

المهم... نعود لصاحبنا.

لقد غيرت تلك البسمة نظرته التي كان البعض للأسف قد شوهها وشعر الشاب أنه لم يزل هناك أمل فيه.

لم يزل هناك من ينتظر أن يسمح له بالأخذ بيده.
من يريد له الخير ويحب له الهدى.
من هنا كانت بداية العودة ومفتتح الهداية من جديد.
لا ينبغي أبدا أن نستهين بالبسمة أو نحقر البشاشة .
أن ننبذ تلك الصدقة السهلة اليسيرة ظنا أن الوقار والعزة في العبوس وتجهم الوجه أو أنها دلالة حمل الهموم الجسام والالتفات لمعالي الأمور والتعالي عن سفسافها.
لقد كان النبي محمد ﷺ أكثر الناس تحملا للهموم والمسؤوليات الجسام مسؤوليات وهموم أمة كاملة ورسالة هي الخاتمة.
وهو كان الأعظم وقارا والأكبر مهابة أيضا.
لعظم مهابته كان أصحابه لا يستطيعون أن يُحدُّوا النظر إليه طويلا.
لكنه رغم تلك المهابة والوقار كان بشوشا طلق الوجه وكان يأمر بذلك ويستحبه وكان ينهى عن احتقار المعروف ولو كان هذا المعروف طلاقة وجهك حين يقابل المرء أخاه وكان يحض على التبسم ويبين مثوبته وأن البسمة في دين الإسلام نعد صدقة وطاعة وقربى.
ولقد كان يتبسم.
كان يتبسم كما تبسم من قبله من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم حتى أن القرآن ذكر شيئا من تبسمهم كما في قوله تعالى عن سيدنا سليمان عليه السلام: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل:١٩].
تبسم نبي الله سليمان عليه السلام.
وتبسم نبينا عليه الصلاة والسلام.
رغم الهموم والآلام والأحزان تبسم ..
رغم الانشغالات والمسؤوليات والمهام الجسام تبسم..
رغم التعقيدات والمؤامرات والصراعات التي كان يواجهها فإنه ظل حتى النهاية يتبسم.
إنه من أوذي في الله حين لم يؤذ أحد وأُخيف في الله حين لم يخف أحد وهو من في حياته مات جُل أبنائه وبناته ورحلت عن الدنيا أحب زوجاته وكان يمر به

البلاء تلو البلاء والمسؤوليات الجسام ورغم كل ذلك كان يتبسم.

وكان يمزح ولا يحدث إلا صدقا.

وكان يلاعب أطفاله وأطفال غيره.

وكان يسابق زوجه ويلاطفها.

وكان يمازح الفقراء والبسطاء من أصحابه ويتبسط إليهم .

وكانوا يتضاحكون بعد صلاة الصبح وهو جالس بينهم يتبسم.

كل ذلك وغيره مما لا يتسع المقال لذكره من مواطن تلطفه ومزاحه وتبسمه لم ينل من هيبته ﷺ ولم يسبب تقصيرا في مسؤولياته أو واجباته ولم يضاعف مشكلاته أو يعقد من همومه وابتلاءاته.

فقل لي بربك أيها (الملتزم) العبوس: هل أنت أفضل منه أو أعظم هيبة؟

هل همومك أكثر؟

هل مسؤولياتك أضخم؟

هل آلامك وبلاؤك أشد من بلائه؟

وهل تظن أنك بعبوسك تنال وقارا لم ينله؟

أم أنك يا عزيزي تخشى على وجهك إن تبسمت أن يتشقق؟

صدقني لن يتشقق.

بل سيشرق ويضيء ولن ينفر غيرك بل سيبشر ويستبشر به من حولك.

فيا صديقي تبسم .

فمن هو خير مني ومنك..

تبسم.

## ٣١ـ متمسكن:

هموم وانشغالات..

آلام وأحزان...

أحداث جسام ومسؤوليات..

ربما لم يخل يوم عاشه الحبيب ﷺ من تلك الأمور التي يكفي أحدها لتنغيص حياة أحدنا وإخفاء البسمة عن وجهه ورسم ملامح الكآبة والضنك على وجهه وسلوكه ومعاملاته.

لكن رسول الله ﷺ لم يكن كذلك .

جانب من أجمل الجوانب في شخصية النبي ﷺ وهو ذلك المتعلق بطبيعته النفسية الرحبة وصدره الواسع ولين جانبه وبشاشته وبِشره وحسن تواصله مع الكون من حوله رغم الهموم والانشغالات والأحزان والمسؤوليات

لقد كان حقا ذا نفس جميلة...

نفس تبدو بشاشتها لكل من يعرفه ويتأمل طبيعته

ربما يظهر ذلك في ملمح قد يعده البعض يسيرا لكنه ينم عن تلك الطبيعة الجميلة بوضوح.

لقد كان حبيبنا ﷺ يسمي أشياءه.

كل أشيائه..

تقريبا ما كان يترك شيئا له إلا ويجعل له اسما أو لقبا .

سواء في ذلك ما كان مخلوقا ينبض بالحياة أو حتى جماد بارد.

لكل دابة كان يمتلكها أو يركبها اسم أو لقب.

فبغلته اسمها دلدل وأخرى سماها فضة وحماره يعفور وناقته العضباء وقيل القصواء.

أما شاته التي يشرب لبنها فكان يسميها غينة ويقال غوثة وكانت له عنزات أسماؤها عجوة وزمزم وسقيا وبركة وورسة وأطلال وأطواف .

أما أفراسه فأسماؤها لزاز والورد والمرتجز والسكب والطرب وهذا الأخير سمي بذلك لحسن صهيله واللحيف وسمي بذلك لانه كان كالملتحف بعرفه.

أما عن أشيائه فقد كانت له عمامة يسميها السحاب وكان اسم قوسه الكتوم واسم كنانته الكافور ونبله الموتصلة وترسه الزلوق ومغفره ذو السبوغ واسم ردائه الفتح واسم رايته العقاب.

وكان له قدحان اسم أحدهما الريان والآخر المضبب.

وكان له تور من حجارة يقال له المخضب والمخضد يتوضأ فيه.

وكانت لسيوفه أسماء أيضا أشهرها ذو الفقار والمخذم والرسوب والعضب.

وكان له رمح يقال له المستوفي وكانت له عنزة قصيرة يقال لها المثنى.

وأما دروعه فكان يطلق على إحداها ذات الفضول وأخرى يسميها الفضة وثالثة يقال لها السعدية ودرع اسمها ذات الوشاح.

وكانت له قوس نبع تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجمع وكانت له حربة تسمى البيضاء وكان له مجن يسمى الوفر وكانت له ركوة تسمى الصادر وكانت له مرآة يسميها المدلة وكانت له مقراض يسميها الجامع .

وغير ذلك كثير مما ذكره أهل السير ولا يتسع المقام لذكره كله ويشترك في تلك الخاصية العجيبة.

خاصية الأسماء التي أطلقها عليها حبيبنا ﷺ.

تخيل هذه النفسية التي رغم انشغالها والهموم التي تحملها والبلاءات التي تتوالى على صاحبها ومع ذلك تصر على تسمية مرآة أو كوب ماء أو درع!!

بعضنا لو فعل مثل ذلك لربما تلقاه الناس بالاستهجان واللوم والاتهام بالتشاغل عن الهموم الجسيمة والمهمات الجليلة ولرُمي باللامبالاة أو كما يقال بالعامية (الروقان).

لكن سيد ولد آدم وحاشاه أن يُرمى بشيء مما سبق كان حريصا كما رأينا على تلك العادة المترسخة في سلوكه وذلك واضح في تلك النماذج التي ضربناها آنفا.

وتفسير ذلك في رأيي أمران.

أما الأول فهي تلك الطبيعة النفسية الرحبة التي أشرت إليها في مطلع الكلام

وأما الثاني فرغبته ﷺ في غرس تلك القيمة في نفوس من يعرفونه ويقتدون به قيمة البِشر والبشاشة واللين والحنان.

حنان يسع كل من حوله و(ما) حوله.

حنان يجعله يضع روابط مودة وأواصر صلة وجسور علاقة مع كل ما يحيط به.

لا يحجب هذا الحنان همٌّ ولا تقطع تلك الروابط أزمة ولا يقضي بلاء على تلك القيمة ولا تُضيِّق هذا الصدر الرحب مسؤولية أو يعكر صفاءه انشغال.

هكذا كان بأبي هو أمي .

فأين صدورنا الضيقة من صدره وأين نفسياتنا من جمال روحه وسمو نفسه؟!

أين بشاشته وسعة صدره من أولئك المتمسكنين منكوسي الرؤوس متهدلي المناكب كئيبي السمت دوما .

حقا لست أدري من أين نبت ذلك الاعتقاد العجيب أن أهم علامات التقوى والتدين = الحزن الدائم والذلة المستمرة.

أن ينكس المرء رأسه ويهدل كتفيه ويسير كئيبا كسيرا بين الناس يقبل الإهانة ويرضى بالمذلة ويألف الضيم ويظن أنه بذلك مخبت متواضع منكسر وأن هذه هي علامات الخشوع لله.

ما علاقة هذا بتقوى الله؟

ما ارتباطه بالتدين؟

إن هذا الدين مصدر عزة وشرف فى غير مخيلة ولا كبر وهو لا يأمر أتباعه بهوان أو مسكنة وانكسار لغيره وما نزل عليهم القرآن ليشقوا أو يركنوا إلى الحزن وتخيم الكآبة على أرواحهم.

لقد رأى الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلا طأطأ رقبته في الصلاة، فقال: يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب.

ولقد ذكر الإمام بن القيم أن أحد السلف رأى رجلا خاشع المنكبين والبدن، فقال: يا فلان، الخشوع هاهنا، وأشار إلى صدره، لا هاهنا، وأشار إلى منكبيه.

ورأت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا شبابا يمشون ويتمارون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نساك، فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقا.

إن المسلم الحق لا ينحني إلا لمولاه ولا ينكسر إلا بين يديه ولا يتمسكن إلا إليه.

وهو لا يرضى الدنية فى دينه ولا يقبل أن تهان كرامته التى كرمه بها ربه.

إن الذلة على المؤمنين وخفض الجناح لهم والمنصوص عليهما في القرآن = يعني التواضع ولين الجانب وليس يعني أبدا قبول المهانة والامتهان.

وبالطبع لا يستلزم الكآبة وضيق الصدر وقبح الروح.

المؤمن المتسنن بحبيبه ﷺ = بشوش منشرح الصدر، شريف كريم النفس، عزيز مستغن عن الناس يكون بينهم كأنه شامة كما أوصاه قدوته وإمامه عليه الصلاة والسلام.

لكنه فى الوقت نفسه مفتقر ذليل كسير مخبت خاشع بين يدى مولاه وسيده جل وعلا .

وهو هين لين في يد إخوانه غير مستعل ولا مستكبر عليهم .

ذلك هو التوازن الصحيح وليس تكلف الخشوع والمسكنة في غير مواضعها والحزن الذي يكسر الرقاب ويهدل الأكتاف ويعوق الناس من حيث لا يدري صاحبه.

يعوقهم عما ينبغي أن يدعوهم إليه.

يعوقهم عن الالتزام .

## ٤١. أعداء الجمال:

الشريد بن سويد الثقفي رضي الله عنه .

صحابي ربما لا يعرفه كثير من الناس له موقف لطيف مع رسول الله ﷺ .

كان قد ردفه على دابته يوما ثم فوجيء برسوي الله ﷺ يسأله:

- هَلْ مَعَك مِنْ شَعْر أُمَيَّة بْن أَبِي الصَّلْت شَيْئًا؟

أمية بن أبي الصلت!

الشاعر الجاهلي؟!

أهو هو من يقصده النبي ﷺ؟

نعم.. هو بعينه.

لكنه لم يمت على الإسلام.

لقد أدرك بعثة النبي.

بل ولقد لقيه وسمع منه أكثر من مرة .

لكن كان آخر حال هذا الرجل - أمية = شكا في نبوة النبي محمد ﷺ كما صرح هو بذلك رغم إقراره بأن ما سمعه من قرآن هو حق!

صحيح أنه قد ورد عنه كونه حنيفيا يميل عن الشرك والأوثان ويبتغي توحيد الخالق المنان وقيل أنه تنصر بل وقيل أنه كان.... يهوديا!

لكن الخلاصة أنه لم يك مسلما.

ولقد مات دون أن يسلم.

قيل إنه رفض الإسلام كبرا وقيل حقدا وقيل رفضه غضبا لما أصاب أقرباءه من سادات قريش من مقتلة يوم بدر.

الخلاصة أنه أدرك الإسلام وعرفه وسمع كتابه وأقيمت عليه حجته.

ورغم ذلك رفض .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

**[آل عمران ٨٥]**

ولقد ورد عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن آية الانسلاخ وخبر ذلك الذي أوتي آيات الله فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين = إنما نزلت في هذا الرجل تحديدا.

أمية...

أوبعد كل ذلك يسأل النبي عن شعره؟!

يريد أن يتذوق من بضاعته!

لم يكن للصحابي الشريد بن سويد الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يرفض ذلك المطلب النبوي أو يرده.

وإن معه من شعر أمية.

وما أدراك ما شعر أمية.

انطلق الشريد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مجيبا الطلب وأنشد للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيتا من شعر أمية بن أبي الصلت.

- هِيهِ.

أحقا هذا الذي يسمعه الشريد؟

إنها صيحة استحسان.

استزادة.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلب المزيد.

فليستمر الشريد إذاً ولينشد بيتا آخر.

نفس رد الفعل يتكرر.

- هِيهِ.

المزيد إذاً.

بيت آخر يُنشد.

ثم ثالث فرابع .

نفس التفاعل من النبي في كل مرة.

هِيهِ.
المزيد.
استمر.
أنشد.
بلغ الشريد مائة بيت من شعر أمية!
عندئذ قال رسول الله كلمته:
«**لَقَدْ كَادَ يُسْلِم فِي شِعْره**
**آمن شعره وكفر قلبه**» .
الشعر كان يحمل معانٍ سامية فضلا عن جماله وروعة نظمه .
ولقد أقر النبي ﷺ بذلك واستمتع به وأثنى عليه.
أثنى على شعر رجل رفض رسالته ومات دون أن يؤمن به أو يتبعه.
لكن النبي ﷺ كان يتذوق الشعر ويعرفه.
ليس فقط شعر حسان بن ثابت أو كعب بن مالك رضي الله عنهما ولكن ما هو أكثر.
لقد قال النبي يوم عن بيت الشاعر لبيد بن ربيعة «**ألا كل شيء ما خلا الله باطل**» أنه أصدق ما قالته العرب من الشعر وفي رواية قال عن هذا البيت إنه أشعر كلمة تكلمت بها العرب.
إذاً فللنبي دراية بالشعر وإحاطة بالشعراء.
إنه يعرفه ويتذوقه ويفاضل بين أبياته وقصائده.
حتى وإن كان مصدره غير نقي بشكل كامل.
بيت لبيد هذا تحديدا تبعه بيت خاطيء تسبب في إيذاء صحابي آخر لما أنكره وهو عثمان بن مظعون رضي الله عنه وذلك حين قال: وكل نعيم لا محالة زائل فقال بن مظعون: كذبت نعيم الجنة لا يزول.
إن لبيدا قد أنشد البيت الذي أثنى عليه النبي ﷺ في جاهليته وقبل إسلامه إلا أن ذلك لم يمنع النبي من أن يثني على ما هو حق .
هاهنا انفكاك جهة يصر كثير منا على التغافل عنه.
الحق حق في ذاته بغض النظر عن مصدره.
والنفس السوية تأنس بالجمال ولها أن تتلذذ به ما لم يعطل عن واجب أن يؤدي لمعصية.

بعض متنطعي اليوم لا يفهمون ذلك أو لا يريدون فهمه.

يصرون على تبكيت من مالت نفسه لشيء من الجمال المباح وتلذذت به.

شعور بالتأثم والحرج واتهام النفس بالوقوع في أسر حب الدنيا والتعلق بزينتها؛ يصرون على صبه صبا في نفوس المنتسبين للالتزام والاستقامة عند تذوقهم لشيء من الجمال المباح..

عند تأثرهم بمشهد بديع أو طرب نفوسهم بنسمة عليلة أو لوحة جميلة أو قصيدة بليغة أو رواية ماتعة أو حتى تلذذهم بوجبة هنيئة .

تقرأ رواية!

تستمع إلى شعر!

تتأمل لوحة زيتية!

تثني على طعام طيب أو تشير لاستحسانك أكلة شهيرة!

يا للهول.

تبا لك إذاً أيها المتميع المتهوك .

هكذا لسان الحال وربما المقال لدى هؤلاء.

تأثم وحرج وعنت وندم وجلد للذات فقط لأنها تجرأت وتذوقت الجمال ثم أعجبت به .

هذه المشاعر في غير موضعها = هي من أعظم ما جناه أولئك المنفرون الذين يفسدون من حيث يظنون أنهم يصلحون.

أولئك الذين يصرون على تحويل نفوس المتدينين لصحاري جرداء منزوعة البهجة مطموسة الفطرة .

تلك الفطرة التي جبلها مولاها على حب الجمال وجعل لها نصيبا مباحا للاستمتاع به.

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

تأمل الكلمة مرة أخرى.

في الحياة الدنيا.

صحيح أنها لن تكون خالصة إلا في الآخرة لكنها تظل مباحة رغم كونها زينة ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

المهم أن يكونوا ممن يعلمون.

أما الجهلة ضيقو الأفق فأنى لهم أن يفهموا أو يشعروا وقد أصروا على التصحر الذي تشربته نفوس أشربت القسوة والغلظة وأصرت أن تتشربها نفوس الآخرين مثلهم.

ومن حيث لا يدرون يشكلون أحد تلك العوائق التي نتحدث عنها.

عوائق الالتزام .

تخيل أن هذا كله يحدث في شأن المباح المتفق على إباحته.

فكيف إن كان مختلفا فيه .

وكيف إن كان مصدره غيرهم.

كيف لو كان من شعر أمية بن أبي الصلت أو غيره.

كثير منهم يرفضون الحق والخير والجمال ليس فقط إن كان ممن لم يؤمن بل ربما ممن آمن ولكن لم يكن شبها لهم أو على منهاجهم.

صار كثير منهم أسرى لمشاعر الاستعلاء وسيطرت عليهم رؤية الأفضلية للنفس ومظنة النقاء الكامل لدرجة جعلتهم لا يطيقون مختلفا ولا يعترفون لمخالف بفضل ولا يتذوقون قيمة أو جمالا يصدر عمن يرونهم أغيارا.

والأغيار بلا شك أدنى منهم.

صار سوء ظنهم مقدما على انتفاعهم ولم تعد الحكمة ضالتهم ولا صاروا أولى الناس بها لمجرد أنها لم تصدر عنهم ولا عن أشباههم بل أضحوا والانتقاص غايتهم والزلات مبتغاهم والحكم على الآخرين هو أحب هواياتهم.

صاروا قضاة لا هم لهم إلا إصدار حكم واحد لا يفارق يوما من خالفهم.

حكم تلخصه كلمة واحدة لابد أن يشعر بها كل من استحسن جمالا أو رقت نفسه لمباح.

كلمة: مذنب.

## ٥١ ـ الحرام والحرام:

فتح لي قلبه يوما وقرر مصارحتي حين علم اهتمامي بقضية عوائق الالتزام وما يحول بين الناس وبين قبول الدعوة والإقبال على التدين بشكل عام.

بصراحة وبدون مواربة الشباب يعتقدون أن التدين = التزمت وأن معنى اتخاذ قرار الالتزام أن يتحول كل شيء يحبونه أو يستمتعون به إلى محرمات وكبائر.

بصراحة أكثر.... هم يؤمنون أنكم - يقصد الدعاة - ستحرمون عليهم عيشتهم وتمنعونهم من كل متعة ولذة لتتحول حياتهم بعد قبول الهداية إلى كآبة معتمة وملل خانق وجدية كاملة لا ترويح فيها.

القرار الأسهل إذاً ألا ننشغل بكل هذا أو على الأقل نرجيء ونسوف إلى أجل مسمى أو غير مسمى.

المهم أنها ستكون خطوة تشبه الانتحار في نظرهم وصورة تشبه الرهبنة استقر لدى الكثيرين أنها الترجمة الوحيدة لكلمة التزام.

هكذا كانت مصارحة ذلك الشاب لي حين قرر أن يواجهني ببعض مخاوفه ومخاوف من هم حوله.

والحقيقة أنني قد وجدت مصارحته في مجملها دقيقة ومنطقية وذكرتني بعشرات المشاهد التي عاينتها في حياتي وتشهد لهذه الحقيقة التي لخصها النبي ﷺ في جملته القصيرة والشهيرة الجامعة «إنَّ منكم مُنَفِّرين».

الخطاب كما ذكرنا من قبل كان موجها بشكل آني لخير من مشوا على الأرض بعد الأنبياء - الصحابة - ثم بعد ذلك للأمة برمتها.

**منا منفرون.**

وهذا التنفير لا يكون فقط من خلال الفظاظة والغلظة أو عبر تلك الصورة النمطية التي جرى ترسيخها عبر عشرات الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية لذلك الملتحي غليظ الملامح خشن الصوت الذي لا يتحدث إلا عن الموت والقبر كما تظهره تلك الأعمال بشكل متكرر والتي هي في رأيي صورة ساذجة وسطحية للغاية شكلا وموضوعا.

من حيث الموضوع والمضمون والمحتوى؛ ليس المنفر من تحدث عن الموت وذكر الناس به فعنه تحدث النبي ﷺ بل وأمر بتذكير الناس به بل الإكثار من ذلك كما في قوله: « **أكثروا من ذكر هادم اللذات**» لعل الغافل ينتبه ولعل البعيد يقترب ولعل العاصي يسارع بتوبة.

ليس هذا تنفيرا في ذاته وإن كان من الممكن أن يصير تنفيرا إن وضع في غير موضعه أو تم الإسراف في تناوله ولكنه حينئذ يستوي بكل ما يتم الإسراف وما زاد عن حده فينقلب لضده.

ومن حيث الشكل ليست الهيئة أو نبرة الصوت أو سائر الأمور الخلقية

التي لا دخل للمرء في اختيارها مما يعد تنفيرا في نظري اللهم إلا إن كانت المعايير قد اختلت للدرجة التي يُفرَّغ فيها الكلام من محتواه ويحكم على الناس بمظاهرهم وأشكالهم الخارجية فيرفضون المحتوى فقط لأن شكل حامله لا يعجبهم!

هذا في تقديري لم يحدث بشكل كامل بعد وإن كان موجودا طبعا لدى سفهاء الأحلام في كل عصر.

إن التنفير في رأيي أعمق بكثير من تلك المعايير المسطحة.

التنفير قد يشمل وعاظا أصحاب النية الحسنة وصوت عميق رائع ووسامة أخاذة وأناقة واضحة لكن مآلات خطابهم تؤدي إلى تلك النتيجة التي خلص إليها ذلك الشاب الصريح.

خطاب يتحرى أقسى الأقوال وأشد المذاهب دون أي اعتبار لأقوال مخالفة أو مذاهب مغايرة تستند هي الأخرى إلى أدلة ربما قد تكون أصح وأحكم من أدلتهم.

خطاب يسحق المخالف ولا يحترم وجوده أصلا بل وينص بكل وضوح على رفض أي قول يخالف اختيارهم حتى لو كان الجمهور هم القائلين به!

هذا واجب قولا واحدا.

وهذا حرام قولا واحدا.

وهذه بدعة قولا واحدا.

وهذا مستحب بلا خلاف.

أحصيت ل في دقائق مررت فيها بمجلسه مثل تلك العبارات القوية أكثر من عشر مرات تقريبا.

هو شاب أعرفه جيدا حديث عهد بالتزام وتسنن لم يمر عام على طلبه للعلم وربما لم يكمل بعد قراءة كتابه الأول في الفقه ناهيك عن أصوله.

كان ذلك في أحد المساجد بعد انتهائنا من صلاة التراويح برمضان والشاب جزاه الله خيرا قد جمع نفرا من الشباب يعلمهم بعض أحكام الوضوء والصلاة

سعدت بالمشهد للغاية ودعوت للأخ وغبطته على علو همته وسرني إقبال الشباب عليه لكن هولفت نظري كثرة ترداده لهذه الجملة ومشتقاتها.

قولا واحدا!!

لم أكن لأدهش كثيرا لو كانت تلك المسائل فعلا من مسائل الإجماع أو أن الأخ الفاضل قد جاء في معرض حديثه بمن نقلوا هذا الإجماع لكن العجيب أن كثيرا من تلك المسائل كانت فعلا مما يسوغ فيه الخلاف بل لا أكون مبالغا إن قلت أن بعض ما قال فيه بثقة أنه كذا بلا خلاف وقولا واحدا هي أمور يرى جمهور العلماء سلفا وخلفا بخلاف ما يرى الأخ صاحب القول الواحد أو شيخه الذي لقنه هذا الأسلوب.

ببساطة شديدة لقد ألغى الأخ اجتهاد مالك في مسألة وأقصى قول الشافعي في أخرى ولم يعتبر رأى أبي حنيفة قولا في ثالثة وتجاهل قول أحمد في مسألة رابعة وهكذا.

بل ربما اجتمع أكثرهم على قول رأى شيخه بخلافه فاعتبر الأخ اجتماعهم كأن لم يكن.

هكذا بكل بساطة.

أعلم جيدا أن نقل الأقوال وتفصيل المسائل وفقهها المقارن قد لا تناسب بعض المتلقين وخصوصا في بداية الطلب وأعلم أنه للمعلم أن يكتفي في المراحل الأولية بنقل القول الراجح بدليله لعدم التشغيب على المتلقي وتشتيته وقد يكون اكتفاؤه بذكر الأثر الصحيح أولى للامتثال.

لكنني أتكلم هنا عن طريقة تفكير واجتراء غير عادي ينتقل عند البعض إلى سائر ممارساتهم لتصير ثقافته ثقافة القول الواحد ويصبح دائما في نظر نفسه صاحب الحق المطلق في كل صغير وكبير وكل شاردة وواردة.

إنها نظرية احتكار الحقيقة وازدراء كل مخالف واحتقار رأيه وإن لم يصرح بذلك بلسان المقال فيكفيه لسان الحال والجواب الدائم لأي سؤال ب...

قولا واحدا!!

ومابالك لو كان هذا ال (قولا واحدا) دوما هو القول الأشد والأكثر تضييقا؟

سمعت أحدهم يوما يتحدث عن مسألة فقهية شهيرة ومعلوم أن قول الجمهور ينص على استحبابها لكن الداعية الفاضل يقطع بأسلوبه (الجذاب) قائلا: هي فرض قولا واحدا ولا تسمعوا إلى أي أحد يقول بخلاف هذا؟!

نعم؟

ماذا تقول يا فضيلة الشيخ؟

لا أسمع لمالك أو الشافعي أو أبي حنيفة أو أحمد؟

لماذا؟

ما الذي يميز فضيلتك عنهم؟

طبعا كتمت تساؤلتي في صدري وقتها وإن شكلت حملا لم يزل حتى استطعت البحث وإصلاح ما كسره الشيخ الفاضل في نفسي.

إن نفي أصحاب هؤلاء لجهد ورأى المخالف بكل أريحية وفي مواطن يسوغ فيها الخلاف وتستطيع تلمس السعة من خلالها = يؤدي إلى هذه النتيجة الكارثية.

التنفير.

التضييق.

التشديد.

قد يُعذر بعض هؤلاء إن كانوا لم يسمعوا عن الأقوال الأخرى ولم يدركوا شيئا عن أدلتها ومنطقها ولم يعرفوا عنها إلا وصف من علموهم لها بأنها أقوال متميعة ومذاهب متهوكة يقولها مبتدعة ويعتنقها منتكسون.

أقول قد يُعذرون بوجه وإن كانوا لا يخلون من تقصير في البحث والتحري قبل التسرع والتصدر لتلك المسائل ولعلهم يُسألون عن ذلك التقصير المنفر بشكل لا يقل عما إذا كانوا يعلمون.

لكن المشكلة الحقيقية في أولئك الذين يعلمون الخلاف في المسائل والسعة التي تحويها ويقدرونه ويدركون وجوهه ومناطاته ومع ذلك يصرُّون على نفس الخطاب الذي يعتمد بشكل أساسي على هذه المسائل الخلافية وكأنها أصول الدين وغايات الالتزام وحقيقة التدين وكأن من يأخذ بأقوال مخالفة لأقوالهم فيها قد وقع في أكبر الكبائر وانتهك أعظم الحدود وخاض في بحار المحرمات، ويتهمون من يناقش تلك المسائل بشكل علمي متجرد بأنه متفلسف بارد أو مميع لدين الناس مدمر لالتزامهم.

أولئك حقا من أخشى عليهم ولا أدري بأي وجه يتعذرون أو يُعذرون وهم يعلمون ويفقهون ويدركون.

والأهم أنهم يعرفون تلك الحقيقة الشرعية الحاسمة.

حقيقة أن تحريم الحلال قد لا يقل سوءا عن تحليلِ الحرام.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

إن خطورة التضييق المطلق والاختيار الدائم للقول الأشد وما يؤول إليه ذلك من التنفير والصد يعضده ما لا يحصى من الوقائع والشواهد رأينا فيها مآلات ذلك الخطاب على الخلق والذي يؤدي في النهاية بالشخص إلى احتقار نفسه وازدرائها حين تقع في شيء من تلك الأمور التي غرسوا فيه دوما أنها أصول التزامه وأعمدة تنسكه والتي إن كُسرت يوما = فقد كُسر دينه؛ من ثم يتفلت الشخص الذي كان يوما يسمى ملتزما ويمضي لحال سبيله وقد ظن ألا فائدة منه ترتجى ولا أمل في إصلاحه يُبتغى..

وكل ذلك لأجل أمور فيها سعة أو على أقصى تقدير تعد من صغائر الأمور وقد كان فقط بحاجة إلى أن يدرك ذلك كيلا يحتقر ذاته ويكرهها ويفقد الأمل فيها.

كيلا يغلب عليه ذلك الشعور بالتأثم والحرج واتهام النفس بالوقوع في أسر حب الدنيا والتعلق بزينتها؛ والذي يصيب بعض المنتسبين للالتزام والاستقامة عند تذوقهم لشيء من الجمال المباح..

عند تأثرهم بمشهد بديع أو تطرب نفوسهم بنسمة عليلة أو لوحة جميلة أو قصيدة بليغة أو رواية ماتعة أو حتى تلذذهم بوجبة هنيئة .

تأثم وحرج وعنت وندم وجلد للذات فقط لأنها تجرأت وتذوقت الجمال ثم أعجبت به .

هذه المشاعر في غير موضعها هي من أعظم ما جناه أولئك المنفرون الذين يفسدون من حيث يظنون أنهم يصلحون.

أولئك الذين يصرون على تحويل نفوس الملتزمين لصحاري جرداء منزوعة البهجة مطموسة الفطرة .

تلك الفطرة التي جبلها مولاها على حب الجمال وجعل لها نصيبا مباحا للاستمتاع بمباحات الدنيا.

﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

تأمل.

لقوم يعلمون.

هذا هو المعيار الحقيقي الذي به تنضبط الأمور ويعرف المنفر من المرغب ويتمايز الداعون إلى الله.

معيار العلم..

ذلك الذي تظهر أهميته أيضا عند الحديث عن العبادات وليس فقط عن المباحات والمحرمات.

هناك من يصعبون على الناس العبادة رغم أن نيتهم قد تكون الترغيب فيها ودعوة الناس إلى اكتساب المثوبة .

منذ فترة اطلعت على تفريغ لمحاضرة طويلة عن الاستعداد لرمضان والتجهز لنيل فضله وعدم تضييع نعمة الله على عباده فيه.

وأحسب أن نية المحاضر كانت طيبة وأظن أن رغبته في إصلاح الخلق عارمة.

لكن المشكلة ليست دوما في النوايا.

كانت المشكلة في رأيي تكمن في تلك التوجيهات الهائلة والتوصيات الضخمة التي قد لا يستطيعها كثير من العباد ممن لا يشق لهم غبار في مضمار العبادة.

والأخطر هو ذلك القطع والجزم بأن من لم يفعل ذلك فقد ضيع شعبان وبالتالي عليه ألا يرجو خيرا من نفسه في رمضان.

صُم شعبان كله وأقل شيء يوم ويوم.

خمسة أجزاء تلاوة يوميا على الأقل.

إياك أن تنام قبل أن تنهي الأجزاء الخمسة.

اعتكف مرتين في اليوم بعد الفجر وبين المغرب والعشاء.

اعتزل الخلق..

كف عن الكلام..

كف عن اللعب..

أغلق هاتفك تماما..

غض بصرك - جميل - فإن لم تستطع فضع عصابة على عينك وخليهم يسحبوك...ماذا؟!

وهكذا تنهمر التوجيهات الرهيبة التي لا أدري من أفهم الشيخ الفاضل أنها سبيل الاستعداد الوحيد لرمضان أو ما يوازيها.

الوحيد؟؟!

نعم.

يُفهم ذلك من قوله بشكل قاطع معلقا على هذا الجدول: إياك تفكر أنك ستجتهد في رمضان وأنت مضيع شعبان.

إياك تفكر...

إياك!!

هكذا كرر في إطار الترغيب في ذلك الجدول التعبدي.

مثل ذلك أو أكثر سيكون جدول رمضان أو العمرة أو العشر الأول من ذي الحجة أو أي موسم عظيم من مواسم العبادة.

أعلم أن الفضلاء الذين يقترحون هذه البرامج الضخمة قد يكون قصدهم المبالغة للتحميس أو لمعرفتهم أن البعض لن يستطيع تحقيقها كاملة فيكون تقصيره فيها بمثابة طاعة أيضا وإن كانت أقل مما وضعوه من شروط فهي ستكون حدا أدنى جيدا إلى حد ما .

وأعلم أن من العباد من يتفوق على هذه التوجيهات وتصلح معه هذه النصائح وبالتأكيد لن أتحفظ على الإكثار من الصلاة والصوم وتلاوة القرآن وغض البصر.

لكن ماذا عن الآثار السلبية الأخرى التي لم يضعها أولئك الأفاضل في حسبانهم؟

ماذا عن المنشغلين وأصحاب المهن الشاقة أو المهام التي تستهلك ساعات طويلة من يومهم.

لماذا نشعرهم بأن الأمر مستحيل عليهم وأنه لا فائدة ترجى منهم؟

وماذا عن الإحباط؟

لم تستطع الالتزام بالجدول وانتهكت البرنامج المحكم.

إياك إذن أن تفكر في النجاح .

أنت لم تعد العدة.

أنت فاشل.

هذه للأسف هي مآلات هذا الخطاب ومقتضياته حتى إن لم يصرح بها هؤلاء الأفاضل.

فما بالك أنهم أحيانا يصرحون بها كما ذكرت في الجملة الواضحة التي قالها الشيخ منذ سطور: إياك تفكر أنك ستجتهد في رمضان وأنت مضيع شعبان!

فماذا لو ضيع شعبان؟

بل حتى لو ضيع جزءا من رمضان.

بل لو ضيع رمضان كله.

هل معنى ذلك أن الأمر قد انتهى؟

كلا وربي.

أعلم أن هؤلاء الكرام سيجيبون بهذه الإجابة إن سُئلوا نفس الأسئلة لعلمهم أن باب الإصلاح والتوبة لم يغلق ولن يُغلق حتى تطلع الشمس من مغربها أو يغرغر العبد = إلا أن كثيرا منهم ينسون يتناسون أن هذا هو مآل خطابهم.

الإحباط واليأس.

ناهيك عن مخالفة عموم هذا الخطاب لسنة النبي ﷺ.

ليس فقط في التفاصيل التي لم يذكر فيها النبي إلزاما بهذه الأوراد الضخمة.

ولكن أيضا مخالفة روح السنة.

تلك الروح التي تظهر من خلال أحاديث النبي التي راعى فيها الضعيف والمقل والمشغول.

ذكرت من قبل حديث النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين أطال صلاة العشاء جدا فقال له: يا معاذ أفتّان أنت؟ - قالها ثلاثـًا.

«**فلولا صليت بسبح اسم ربك والشمس وضحاها والليل إذا يغشى، فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة**».

تأمل..

هناك الكبير.

وهناك الضعيف.

وهناك صاحب الحاجة.

وهؤلاء معتبرون.

و منهم المقتصد وليس فقط السابق بالخيرات.

تأمل مثلا قوله ﷺ: خير الأعمال أدومها وإن قل.

لمن يوجه ذلك الوصف الأخير.

نعم.. لهذا النوع غير المعتبر في هذا الخطاب الوعظي الشديد.

المقل.

المقتصد.

بل والعاصي والمذنب أيضا.

«**ما من عبدٍ مؤمنٍ إلا وله ذنبٌ يعتادُه الفينةَ بعدَ الفينةِ ، أو ذنبٌ هو مقيمٌ عليه لا يُفارِقُه حتى يُفارِقَ الدنيا ، إنَّ المؤمنَ خُلِقَ مفتَّنًا توابًا نسَّاءً ، إذا ذُكِّرَ ذكَرَ**».

ها هو يخاطب صاحب الذنب.

بل الذي ضعف أمام ذنبه حتى عاد إليه كلما تركه.

لقد راعى النبي وجود هؤلاء وخاطبهم.

أو بشكل أكثر وضوحا؛ لقد راعى أنه يخاطب إنسان.

وأن الإنسان خُلق ضعيفا.

إن هذه النوعية من الأحاديث والآيات وهي كثيرة تبعث برسالة لأمثال من تحدث عنهم الشاب الطيب الذي صارحني.

رسالة مفادها: هناك أمل.. فيكم خير... لا تقنطوا.. لا تحبطوا.

والرسالة الأهم التي أشهد أنها كانت دوما من أعظم عوامل الإقبال على هذا الدين ولخصها النبي ﷺ في كلمتين.

«**الدين يسر**».

هذه الرسالة أرى حتمية إيصالها للناس.

لا أقول بتمييع الأحكام أو تضييع الثوابت كما يفعل النقيض لمن ذكرت للأسف فتجد مواجهة خطاب التشديد بخطاب تمييع كامل أراه كذلك عائقا عن التدين وسأتحدث عنه بتفصيل إن شاء الله .

لكن أتحدث عن عرض صحيح لدين يسير فعلا.

دين لا تحتاج فيه لوسيط أو صك غفران.

دين لا تضطر فيه للاعتراف أمام بشر كي تتوب.

فقط تخلو بربك وتناجيه وهو القائل مبشرا ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

دين يقول كتابه ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ويقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

دين ليس فيه قتل للنفس كي تقبل توبة وليس فيه عنت أو تضييق بسبب خطيئة لم ترتكبها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

دين محرماته معدودة محدودة

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١– ١٥٢].

بلا شك هناك محرمات أخرى مفصلة في غير هذه الآية.

لكن ما نسبتها.

من المشروبات التي لا تعد ولا تحصى كم مشروب محرم؟

الخمر.

من المأكولات التي لا تعد ولا تحصى كم مأكول محرم؟

الميتة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير له به وأشياء محدودة جدا إذا ما قورنت بالحلال الهائل الذي أباحه الله بغير سرف.

لن أكثر من مقارنة بأديان أو شرائع لأثبت أن الدين يسير فهو كذلك بنص القرآن والسنة لكن الفكرة ببساطة تكمن في النظر لمعنى الحل والحرمة نفسه.

من ينظر إلى الدين على أنه تضييق بغض النظر عن سبب تلك النظرة إن كانت نابعة عن شبهة أو عن خطاب تنفيري فصلنا الحديث عنه أو كانت محاولة هروبية لأجل التفلت من أي حكم شرعي = فالنتيجة واحدة.

هو لم يفهم معنى الاختبار.

لـم يـدرك أننـا موجـودون في هـذه الـدنيا لفـترة محـدودة كـي نختـبر وهـذا الاختبار كأي اختبار آخر لابد أن يحوي أسئلة.

وهذا هو مفهوم المكاره التي تحف طريقك للجنة.

هناك بعض المهمات بلا شك عليك تجاوزها.

المحرمات رغم محدوديتها = أسئلة إجابتها الصحيحة الانتهاء عنها ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

الفرائض كذلك أسئلة إجابتها الامتثال والطاعة.

هكذا تصح النظرة وتتكامل مع العرض الصحيح الذي يتأكد من خلال كل النصوص الشرعية أنه تكليف بمقدور وأنه حيثما كانت المشقة فثم التيسير وأنك لا تحتاج إلى الحرام ولن تستحيل حياتك حجيما من دونه وأن تضخيم المحرمات كمًّا أو كيفا هو شأن إبليسي خالص.

نعم والله هو بداية المنهج الشيطاني عبر العصور.

لقد كانت طريقك الشيطان دوما تبدأ بذلك الإيهام والتغيير المستمر لتوصيف الأشياء مع غرس التململ من الشرع وتصويره على أنه أصل المشكلة والحائل بين المرء وبين تحقيق أهدافه وآماله أو المسبب في تضييق عيشه.

﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

[الأعراف: ٢٠]

لقد اختلق الشيطان هنا مشكلة غير حقيقية وزين شهوة معينة ثم ربط وصول سيدنا آدم وزوجه إلى تلك الغاية المفتعلة بالتخلص من التشريع الذي أمرهما الله به

ولقد كان في سبيل ذلك مستعدا للقسم وقادرا على أن يتلبس بثياب الناصح الحريص على المصلحة ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

ولقد صور الأمر الشرعي على أنه السد المنيع الذي يفصل المرء عن بغيته والحائل الرئيسي بين الإنسان وبين مطالبه وطموحاته التي بدأ في تغييرها وتغيير أولوياتها وترتيبها بل هو في الحقيقة أعاد تصنيع تلك المطالب والأهداف.

من قال أصلا أن مطلب التحول لملكين أو الخلود كان من ضمن أهداف

سيدنا آدم وزوجه؟!

إنهما يعيشان بالفعل في جنة يأكلان منها رغدا حيثما شاءا فما الذي طرح فكرة التحول أو الخلود أصلا؟ إنها ببساطة صناعة الوهم واختلاق الاحتياجات واصطناع المطالب وإبراز الأطماع التي ربما لم يُنتبه إليها ولم تكن مطروحة من قبل.

بالتالي يصير الوصول إلى تلك الغايات هو الهدف العاجل ويصبح التحرر من أي حوائل تقف بين المرء وبين تلك الأهداف ضروريا ومن ثم تتحول فكرة الالتزام بالشرع إلى قيود يسعى الإنسان إلى التفلت منها تمهيدا بعد ذلك لرفضها وربما كراهيتها لأنها سبب مشاكله أو الحائل بينه وبين احتياجاته.

ستظهر بعد حين حقيقة ذلك الوهم والخداع بمجرد أن يمد الإنسان يده ويقطف ثمرة الشجرة المحرمة فلا يستسيغ طعمها ويدرك أنها لم تكن كما تصور ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾. [الأعراف: ٢٢]

لكن البداية تظل دوما في الإيهام والتلبيس الذي يصد الإنسان عن الدين من خلال تصورات لا أصل لها أهمها أن الدين صعب وأن تكاليفه غير مستطاعة وأن الالتزام به ضيق وعنت.

ولذلك كان الأمر النبوي الواضح لمواجهة تلك الفكرة الخاطئة « **يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا**» .

وكان توضيحه البين أنه لن يشاد الدين أحد إلا غلبه.

بل وكان البيان القرآني جليا في إظهار الحقيقة المعاكسة التي تقطع أن الضيق والعنت والمعيشة الضنك تكون في الإعراض عن الدين وليست في الالتزام به كما يظن البعض.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

ذلك هو ما ينبغي أن يخيف الناس حقا.

الضنك الذي يكون في الإعراض.

أما الدين والالتزام به فهو على النقيض من ذلك.

إنه الطمأنينة والسكينة ولذة القرب وراحة الطاعة والرضا بما رضيه الله له.

إنه اليسر..

## ٦١ـ تميع:

وكما أن التشديد يعد عائقا عن التدين من خلال لبنات التنفير والتخويف من حياة الالتزام وخيار الصلاح = فإن التمييع أيضا يعد من أهم العوائق التي تحول بين الناس وبين صحيح دينهم.

بل قد يكون أحيانا عائقا أخطر من التشديد.

ذلك ببساطة لأنه عائق مخادع يقنع من يقفون خلفه أنهم على خير وأن تفريطهم هو تمام الطاعة ومعاصيهم هي مجرد لمم كأنما هي بعوض يحط على أنوفهم فلا يستحق منهم إلا حركة هينة تزيحه عنهم.

هذا إن سلموا أصلا أنها معاصي.

إن فكر التمييع وحملة لوائه لا يتركون مجالا أصلا ليشعر إنسان أنه أخطأ أو أن عليه ذنبا يستوجب ندما وتوبة.

لأجل ذلك أقول أن منهج التمييع وتتبع الرخص لا يقل خطورة عن التشديد إن لم يتجاوزه.

وتتمثل خطورته في كلمة واحدة.

الشرعنة .

شرعنة الخطأ وتهوين الذنب وتقليل حرمته في القلوب شيئا فشيئا وأخطر ما في ذلك = تغليف ارتكاب الموبقات بأطر شرعية متعددة.

وكثيرا ما ينتهي هذا الطريق بما ادعاه الأولون حين اقترفوا فواحشهم فقالوا ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [سورة الأعراف: ٢٨].

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٢٨].

ويذكر لنا كتاب الله أقواما كانوا يسترون تقصيرهم والخلل الذي عندهم باصطلاحات شرعية وألفاظ دينية.

العورة والفتنة كمثال واضح لذلك الغلاف الشرعي الزائف.

هذان اللفظان استعملهما المنافقون في حديثهم عن أسباب تخلفهم عن جيش رسول الله.

﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾ [الأحزاب: ١٣].

هكذا برروا تخاذلهم عن الدفاع عن المدينة في مواجهة الأحزاب وذلك أثناء غزوة الخندق الشهيرة.

والعورة لفظ شرعي وحكم إسلامي له وقع مألوف في نفوس المؤمنين.

هذه المرة علة التخاذل مصبوغة بصبغة شرعية ترهب أي رافض لها.

إياك أن تتكلم أو تعيب عليهم.

لقد صدروا علة شرعية لتسكت وترضى بما يفعلون.

﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣].

لقد جعلوا لفظ العورة ذريعة للقعود لستر هذه العورة المزعومة.

لكن يأتي الرد كاشفا.

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: ١٣].

دعكم من هذا التلبيس واستعمال الألفاظ الشرعية الملجمة .

ما هي بعورة وما هم إلا كاذبون جبناء يبررون خورهم والحقيقة أنهم ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

هذا هو الواقع الذي كثيرا ما تلبس بثياب الشرع والحكمة أو تدثر بدثار المصطلحات المختلفة.

ولقد فعل بعضهم الشيء نفسه يوم تبوك.

﴿ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ [التوبة: ٤٩] .

نزلت تلك الآية في رجل من المنافقين جاء يتعذر بعدم قدرته على مقاومة نساء الروم إذا رآهن لذلك لا يستطيع الخروج مع الجيش للشام حيث توجد الشقراوات وهو يخشى على نفسه الفتنة.

يا للورع!.

هكذا زعم وتحجج بحجة شرعية ليصبغ بها تقصيره وتخاذله.

ثم كانت الإجابة الربانية.

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

هكذا تتنوع الحجج والمعاذير وينساق الناس إلى الاصطلاحات التي استعملت لتغطية الحقيقة بينما تكمن الخطورة الحقيقية في كون الغطاء المستعمل في تلك الحالات هو غطاء شرعي.

من هنا يستمر التمادي في الخطأ من خلال الشرعنة وتضيع محاولات

الإصلاح الذي بدايته أن يعترف الإنسان أصلاً بأن لديه مشكلة.

لكن دعاة التمييع يبذلون غاية وسعهم للتهوين من شأن الحرمات بل وشرعنتها.

من أهم وسائلهم أيضا ترسيخ مبدأ اتباع رخص العلماء أينما كانت وغرس معنى المثل الشعبي الشهير.

**(علقها في رقبة عالم واخرج منها سالم)**

ينشأ عن هذا الترسيخ نمط من الناس يحيون مترخصين ويتعاملون مع دينهم على أنه مجموعة كبيرة من الرخص.

لست أعني بالترخص إتيان الرخص الشرعية التي وردت بالدليل الصحيح؛ فتلك رخص ربانية يحب الله أن تؤتى لأنه كما بينت في ردي على خطاب التشديد في الفصل السابق يريد بهم اليسر لا العسر لذا يحب أن تعمل أمته برخصه الثابتة كالجمع في السفر والفطر للمريض والمسافر وما إلى ذلك من تخفيف على الخلق يريده المولى جل وعلا وهو القائل ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨].

نعم هو يحب أن تؤتى تلك الرخص كما يكره أن تؤتى معاصيه وفي صحيح مسلم: « **عليكم برخصة الله الذي رخص لكم**».

هذا النوع من الرخص ليس ما أعنيه لكن ما أعنيه ذلك الفكر التلفيقي الباحث عن رخص العلماء في كل مسألة والآخذ بشذوذاتهم وغرائبهم والمتتبع لزلاتهم.

ومن بحث عن ذلك فلابد سيجده.

إنه خطاب يتخذ سبيل التوسع والإسراف الرهيب في الرخص ليتكلف الظهور بمظهر وسطي معين .

وفي النهاية سيجد المكلف لنفسه رخصة في كل مرة وسيعثر عند كل خطأ أو خطيئة على من يقنعه أنه سالم!

في الحقيقة ما من عالم إلا وله زلة أو رأي شاذ يخالف الدليل الصحيح وليس من بين العلماء معصوم لا يخطىء أو من لا يغيب عنه الدليل أحيانا فيفتي باجتهاده .

ربما يؤجر العالم على ذلك الاجتهاد الذي اضطر إليه في زمانه لكن هل

يؤجر من اتبعه لمجرد أنه علقها في رقبة عالم بعد أن أعجبه القول وجاء على هواه فأخذ به ورفض ما دلت عليه الأدلة الصحيحة؟!

الجواب: لا.

ليس شرطا على طول الخط.

لا يقبل من ذلك التقليد التلفيقي الدائم إلا إن كان جاهلا لا يستطيع البحث والسؤال ولم يبلغه الدليل الصحيح أو أنه لا يستطيع التمييز ولا يملك إلا التقليد بشرط ألا يكون معتمده فيه هواه واتباعه فقط لميله ورغبات نفسه.

أما ذلك النمط الباحث عن الزلة المفتش عن الرخصة ليتبعها أينما كانت في كل شأنه فهذا للأسف في النهاية سيجتمع فيه الشر كله كما ورد عن سليمان التيمي قال: « لو أخذتَ برخصة كل عالِم اجتمع فيك الشرّ كله».

وعن القاضي إسماعيل المالكي قال: «دخلت على المعتضد فدفع إلي كتاباً نظرت فيه وكان قد جمع له الرخص من زلل العلماء وما احتجّ به كل منهم لنفسه، فقلت له: يا أمير المؤمنين مصنف هذا الكتاب زنديق، فقال: ألم تصح هذه الأحاديث ؟ قلت: الأحاديث على ما رويت، ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء والمسكر، وما من عالم إلا وله زلة، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه».

ولقد نصّ الإمام أحمد وغيره أنه ليس لأحد أن يعتقد الشيء واجباً أو حراماً ثم يعتقده غير واجب أو غير حرام بمجرّد هواه، مثل أن يكون طالباً لشفعة الجوار فيعتقدها أنها حق له، ثم إذا طُلب منه بعد حين شفعة الجوار اعتقد أنها ليست ثابتة اتباعاً لقول عالم آخر، فهذا ممنوع من غير خلاف.

إن يسر الشريعة قائم في الشريعة ذاتها وليس في تتبع الزلات ولا اختيار الأقوال على أساس الهوى بل هذا مما نُهي عنه لأنه ميلٌ مع أهواء النفوس، والشرع قد نهى عن اتباع الهوى وفي الأثر الصحيح «ما خُيِّر النبي بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً».

تأمل ...

مالم يكن فيه إثم.

فهل زال كل إثم لمجرد أن عالما من أدنى المشرق أو أقصى المغرب لم يبلغه دليل التأثيم؟!

إن مآل هذا المنهج ببساطة = دين ممسوخ لا يملك منع النفوس من اتباع أهوائها وشهواتها حيث يكون المعيار الوحيد للحكم على الأشياء هو موافقتها لهوى النفس مما سيؤدي في النهاية إلى الانسلاخ الكامل من اتباع الدليل إلى اتباع زلات العلماء ثم الوقوع في جل المحرمات تقريبا.

ذلك لأنه وبشكل مباشر وصريح لا يكاد يوجد محرّم إلا وهناك من قال بإباحته إلا ما ندر من المسائل المجمع عليها حتى لا تتبقى لمن انتهج هذا المنهج حدودا تُتقى ولا محرمات يخشى أن تنتهك .

دائما سيجد العالم الذي سيعلق أي خطيئة في رقبته.

فهل كل خطأ أو خطيئة تقترفها ستكون سالما بمجرد تعليقك إياه على رقبة عالم؟

وهل هذا هو الدين الذي نريده أن يتبقى لنا؟

دين لا يملك أن يمنعنا من خطيئة أو يحكم شهوة في حياتنا لمجرد أن عالما زل أو ترخص.

دين لا يحوي حراما قط.

أهذا حقا ما نبتغيه؟

## ٧١ـ إلا ما أرى:

«وإن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مُضَر».

جملة قيلت يوما في حق مسيلمة الكذاب حين تجلى كذبه لكل ذي أذنين وعقل يعي ويفهم.

لقد أقرَّ المشركون في ذلك الزمان بكذب مسيلمة وسفاهة منطقه كما أقروا لنبينا ﷺ بالصدق في السياق نفسه.

الفِيلُ....

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلُ؟!!

لَهُ ذَنَبٌ وَبِيلٌ، ولَهُ وَخُرْطُومٌ طَوِيلٌ!!!

يا ضفدع بنت الضفدعين..

نقي لك نقين!!

لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين...

رأسك في الماء، وذنبك في الطين!!

والليل الأطحم!!
والذئب الأدلم...
والجذع الأزلم!!
ما انتهكت أسيد من محرم...
والليل الدامس والذئب الهامس!!
ما قطعت أسد من رطب ولا يابس
وَالطَّاحِنَاتُ طَحْنًا...
فَالْعَاجِنَاتُ عَجْنًا، فَالْخَابِزَاتُ خَبْزًا، والآكلات أكلا، فاللاقمات لقما...
إِهَالَةً وَسَمْنًا!!!

كانت تلك بعض المقاطع منسوبة لتلك الأكاذيب المسماة بـ« قرآن مسيلمة».

مقاطع يتضح فيها محاولات ركيكة لمحاكاة النسق القرآني البديع بكلمات مسجوعة لا تحمل إلا ركيك المعاني وسفه القول.

لكنها مع ذلك وجدت آذانا صاغية وأتباعا على استعداد أن يضحوا بأنفسهم لأجل واضعها رغم وضوح سفاهتها وجلاء كذبه.

ورد أن سيدنا عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قبل إسلامه أنه قد لقي مسليمة الكذاب فتلى عليه إحدى خزعبلاته يقول فيها: يا وبر إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقر نقر .

ثم سأله: كيف ترى يا عمرو؟

فأجابه بشكل قاطع وصريح: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب.

لقد علم عمرو بن العاص ذلك بفطرته وأدرك قبل حتى إسلامه حقيقة هذا السفيه كما علمها كثيرون أنفوا أكاذيبه المثيرة للسخرية.

لكنها مع كل ذلك وجدت أنصارا وأتباعا رغم وضوح كذبها في مقابل الصدق الذي طالما عُرف النبي به وطالما ظهر في كلامه وظهر أكثر من خلال الوحي المنزل من عند ربه يتلوه عليهم ويسمعونه ويؤثر فيهم حتى يقول أحدهم عن ذلك الوحي «إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه وما يقول هذا بشر».

هذه الكلمات الرائعة قالها عن القرآن رجل مشرك وهو الوليد بن المغيرة!

لكنه مع جمال وصفه للقرآن لم يتبعه!!

لم يتبع كتابا شهد له بأنه يعلو ولا يعلى عليه ولم يؤمن لرسول رأى ورأى الملأ من حوله في خاص مجالسهم أنه ليس بساحر ولا كاهن ولا مجنون وليس هذا الكلام الذي جاء به بالشعر ولا يشبهه.

مع ذلك آثروا هواهم وغلبت عليه شقوتهم وعصبيتهم

تماما كما غلبت على قوم فرعون الذين قال الله عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

لقد استيقنوا صدق رسالة موسى في أنفسهم لكنهم مع ذلك جحدوها على الملأ واتبعوا أمر من استخفهم كما اتبع أقوام من بعدهم مسيلمة.

والسبب بينه الله بعدها مباشرة.

﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

إنه ظلم النفس بالاستعلاء بها عن قبول الحق إذا جاءها واتباع هواها أينما وجهها.

وهذا الأخير تحديدا يعد من أهم العوائق عن قبول الحق.

اتباع الهوى .

إن اتباع الهوى يعمي عن كل شيء آخر.

يتفرع عن ذلك الهوى كل فروع الأنانية التي لا تحرص إلا على مصالحها وشهواتها أيـاً كانت السبل الموصلة لتلك المصالح ومهما فاحت رائحتها لتزكم أنوفا صحيحة وتشمئز منها عقول مستقيمة.

لكن متبع هواه لا يجد شيئا من هذا .

فقط عنده تدور المواقف تبعا للمصالح، وتختلف الأحكام والتقييمات تبعا للغضب أو الرضا، وتتباين المباديء تبعا لأهوائه وميوله .

تلك الأهواء التي تحركه يمنة ويسرة وتدفعه لقرين اتباع الهوى المفضل والحاجز والعائق المكمل له في مهمة الصد عن قبل الحق .

إنه التعصب.

ولكي يزول عجبك وتدرك حقيقة هذين الحاجزين والعائقين - التعصب واتباع الهوى - لابد أن تضع في اعتبارك تلك الطبيعة النفسية الموجودة لدى جل البشر إلا المتجردين المنصفين وقليل ما هم!

إنها طبيعة ترفض الاعتراف الضمني بالخطأ وسوء التقدير ورداءة الاختيار أو حتى احتمالية ذلك.

طبيعة ملخصها: لا والله لم أخطيء قط، وخيارات حياتي دوما كانت هي أصح الخيارات وأحكم القرارات.

حتى لو صرخت كل الشواهد بالعكس وحتى لو حدث يوما وشهدت الخيارات نفسها على خطئها تصريحا لا تلميحا؛ فإنهم سيرفضون تلك الاعترافات وسيؤكدون أن الأمر ليس كما يبدو.

ببساطة لأن قبولهم لنقد خياراتهم قد يعني ببساطة أنهم قد أخطأوا ابتداءً.

يعني أنهم مضطرون لكلمات من نوعية: آسف... أخطأت... تراجعت... ندمت... إلخ.

يعني أنهم قد يحتاجون كسائر البشر الطبيعيين للمراجعات والتقييمات وإعادة النظر في الأشياء والاعتراف أحيانا أن الحق لم يكن معهم والصواب لم يكن ملازما لهم.

وبالتالي عليهم توبة وأوبة.

وهذا طبعا لا يليق بعصمتهم الضمنية ولا بذكائهم الباهر وحسن تقديرهم الأبدي.

لا يليق بلسان حالهم الذي يكاد يصرخ قائلا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾. [الأحقاف: ١١]

لذلك يعد هذا الاجتماع بين التعصب والهوى بخلاف كونه من المهلكات كما ورد بعض الأحاديث ولكنه - إلى جوار الشح واتباع الهوى = يعد من أهم العوائق التي تحول بين الناس وبين قبول الحق أو ما اصطلحنا على وسمه بعوائق الالتزام.

ولقد ظهر هذا الصدود والإبعاد جليا جدا في رد فعل أحبار اليهود عندما دعاهم النبي ﷺ بعد إسلام « عبد الله بن سلام» ذلك الحبر الذي كان له بينهم شأن ومكانة كبيرة ظهرت في كلامهم عنه قبل أن يكتشفوا إسلامه.

- أيُّ رجلٍ فيكم عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ؟

هكذا سألهم النبي ﷺ ابتداءً.

أجابوا بحسم وثقة: هو أعلَمُنا، وابنُ أعلَمِنا، وأخيَرُنا، وابنُ أخيَرِنا.

هنا ألقى النبي ﷺ بسؤال مفاجيء لهم.

أفرأيتُم إن أسلَم عبدُ اللهِ بن سلام؟؟

أجابوا بسرعة مستنكرين: أعاذه اللهُ من ذلك!

عندئذ خرَج عبدُ اللهِ بن سلام إليهم قائلا: أشهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ.

- هو شرُّنا، وابنُ شرِّنا، ووقَعوا فيه!!

هكذا سارعوا بتعديل إجابتهم الأولى التي ربما لم يزل صداها بعد من الأسماع.

أولم يكن منذ لحظات خيركم وأعلمكم.

ماذا حدث؟

كيف تهاوت مكانته وفضله في لحظات.

إنه معول التعصب قد أطاح بها بسرعة البرق.

ذلك المعول الذي هدم أهم أحبارهم ليصير فجأة شرَّهم وابن شرِّهم وليمهد بذلك أساسا لبناء وإعلاء الحواجز والعوائق التي تحول بينهم وبين دين الحق.

ورغم أن المنطق يقول أنه لا مانع من بعض الأخذ والرد والإقناع بالحسنى الذي يحتاجه أى مدعو خصوصا إن كان يعتقد بشدة ما هو عليه إلا أن ما يدعو للدهشة هو ذلك الانهيار الكامل في نظرتهم للرجل والتي كان من المفترض أن يسبقه حتى بعض النقاش وربما الاستغراب لفعله وسؤاله عن دوافعه وأسبابه أو حتى مناظرته فهو ليس نكرة بينهم بشهادتهم أنفسهم ولا بد أن لديه ما يقوله ليفسر به قراره المصيري..

لكن شيئا من هذا لم يحدث.

لقد صدر الحكم في لحظة ونقضوا سابق رأيهم مباشرة ووقعوا فيه بل حتى في أبيه لأنه خالف ما هم عليه!!

وكذلك التعصب في كل زمان ومكان.

في لحظة يُسقط أي مخلوق يخالف ما يتعصب له المرء حتى يصير احترامه وتقديره له في خبر كان وبالتالي يرفضه ويرفض ما يدعو إليه.

هذا ما كان من أحبار اليهود الذين تغيروا على ذلك الرجل الذي كانوا يثنون

عليه قبل قليل ثم لم يقبلوا منه صرفا ولا عدلا .

هـذا هـو ذات العـرض المتكـرر لـذلك المـرض العضـال الـذي يستشـري في نفوس الكثيرين دون أن يشعروا .

نعم... تلك هي الحقيقة التي نصر كثيرا على التغافل عنها.

التعصب مرض عضال، ينبغي أن تدرك بشاعته لكي تستطيع التخلص منه.

يكفي أن العمى والصمم من أعراض هذا المرض .

عمى وصمم عقلي وفكري ولا يخفى عليك حديث «حبك للشيء يعمي ويصم»، وهو على ما فيه من ضعف في الإسناد إلا أن صحة معناه تترسخ لدى كثير من الناس يوما بعد يوم.

تترسخ ونحن نشهد تحول اتباع شخص أو فكرة أو وضع قائم إلى عصبية مقيتة، تُعمي الأبصار عن رؤية أى حقيقة مخالفة، وتصم الآذان عن سماع أى رأي مغاير وترفض أي دعوة إصلاح أو تصحيح لما عليه المتعصب.

إن ذلك العمى والصمم عرَض بسيط ومبدئي لذلك المرض - التعصب - الذي لا يستشري في جسد أمة إلا وهنت، وتمزقت أطرافها، وصارت إلى ضعف وانتكاس فكري وحضاري محتوم، وربما يؤدي إلى كوارث أكبر حين تترجم تلك العصبية إلى كراهية وتنازع وفُرقة ورفض لأي تغيير للأفضل.

وبداية العلاج لأى مرض أن يعرف المريض أنه مريض وأن يستشعر حاجته للعلاج، وتلك هي أولى خطوات الإصلاح.

أن يعترف المرء بوجود مشكلة ومن ثم يكون راغبا في التعامل معها وعلاجها وإلا ظل على تعصبه الذي يجعله في النهاية يخسر خيرا كثيرا ويصم سمعه ويغض بصره عن حقائق كان أحوج ما يكون إليها.

ولكي تستطيع التشخيص بشكل جيد يمكنك تقييم الحالة التي أنت عليها من خلال إجابة صريحة عن بعض الأسئلة التي تحدد كون التعصب صار حاجزا لك عن الحق وعائقا عن التغيير أم لا.

هل اتباعك لشخص غير الأنبياء أو فكرة وضعية هو اتباع أعمى؟؟

وإن كان كذلك فالسؤال التالي هو.

هل تلك الفكرة أو المتبوع منزه عن الخطأ ولا يعتريها أو يعتريه النقص والزلل؟؟

ثم هل صارت قناعتك بما أنت عليه مبررا أن تعلو به فوق البشر بحيث لا تتصور أن الحق جانبك أو جانب متبوعك وصادف غيره ولو فى بعض المسائل؟

الحقيقة أن أي إجابة عن هذه الأسئلة إن لم تكن بالنفي فللأسف صاحبها متعصب.

ببساطة لأن الكل يؤخذ منه ويرد إلا المعصوم ﷺ .

ما قررت التعصب له أو من قررت التعصب لهم هم يقينا ليسوا معصومين، ومن الممكن أن يخطئوا أو يسيئوا، ومن يرى خطأهم ويحاول تصحيحه ويدعوك لعدم اتباعهم فيما لا يوافق الحق ليس شريرا كما كانت التهمة التي ألقوها في وجه عبد الله ابن سلام.

يمكنك إن لم تقتنع بقوله إن دعاك بالحسنى أن تجادله بالحسنى بل بالتى هى أحسن ولك أن تفند قوله أو ترضخ لحجته لكن قاعدة ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] هي منطق فرعون وقاعدة التعصب في كل زمان ومكان .

لا رأي إلا رأيي ولا صواب إلا ما أنا عليه.

كيف إذاً سيقبل نصحا أو سيأبه بدعوة إن كان رأيه دوما صوابا يحتمل الصواب ورأي غيره خطأ لا يحتمل إلا الخطأ؟

كيف؟

**٨١ـ سوبر ملتزم:**

من التصورات التي تعوق الكثيرين عن التدين والاستقامة عموما ما أسميه بال (سوبر ملتزم).

فكرة الملتزم الخارق.

الملتزم العبقري.

الملتزم المنقذ الفذ.

الملتزم الذي يجيد كل شيء في الدين ويبلغ الكمال في شتى أبواب الخير.

في الدعوة هو فارس المنابر المفوه الذي لا يشق له غبار.

وفي العلم هو الطالب الفذ الذي يقترب بخطى حثيثة من مرتبة الاجتهاد.

وفي صنائع المعروف وأبواب البر والإحسان هو المنفق الجواد الذي يبهرك

كرمه وتدهشك سهام الخير التي يلقيها.

وهكذا تتابع الصفات المثالية وتتكامل الرتوش النهائية لترسم تلك الصورة التي يبدع في رسمها كثير من المصلحين ليرسخوا في أذهان المتلقين ذلك التصور .

تصور ملخصه أنك لن تكون مسلما حقيقيا حتى تنقذ الأمة.

أنه لا يمكنك أن تقتدي بالصحابة ولا التابعين إلا إذا نافست أكابرهم وسرت على خطى أبرزهم.

لا يمكنك أن تكون عاديا وإلا صرت دنيء الهمة سافل الطموح.

هذا هو مقتضى كثير من خطاب الضغط الوعظي.

وعلو الهمة والتنافس في أبواب الخير هو لا شك أمر رائع.

لكن ثمة سؤال بسيط ينبغي أن يطرح على هامش ذلك الخطاب المبهر.

سؤال محوري رغم محاولة تهميشه الدائمة.

ما البأس في أن يكون المرء عاديا؟!

بصيغة أخرى: هل ينبغي أن تكون الأمة بالكامل = أمة من العباقرة؟

هل لابد لكي ألتزم أن أكون مثاليا كاملا؟

أن أكون خارقا؟

ما المانع أن يفهم الإنسان أن له دورا محددا في دراسته وعمله وبيته عليه فقط أن يؤديه بأمانة وبذلك يكون قد حقق المطلوب منه؟

لماذا الضغط دائما على فكرة التميز والإبهار؟

ذلك يسري بالمناسبة على الدين والدنيا؟

كم من الصحابة له مكانة الصديق؟

هو واحد فقط.

سيدنا أبو بكر رضي الله عنه.

كم من الصحابة تحدث النبي عن عبقريته؟

واحد فقط أيضا.

الفاروق عمر رضي الله عنه.

كم من الصحابة قيل له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى؟

سيدنا علي رضي الله عنه وحسب.

عشرة مبشرون.

بضعة مئات بدريون.

أصحاب بيعة العقبة.

ثم العموم.

نعم... عموم.

عموم الصحب الكرام.

أولئك المائة وبضع وعشرون ألفا ممن وقفوا بين يدي النبي ﷺ في حجة الوداع..

هل يضرهم أن أكثرهم لا نعرفه؟

لا نعرف أسماءهم ولم يسطر التاريخ بطولات آحادهم.

هل يحط ذلك من قدرهم أو يقدح في دينهم؟

هل يقلل من قيمتهم أن جميعهم ليسوا سيف الله خالد بن الوليد أو أمين الأمة أبا عبيدة؟

لا والله لا يضيرهم

ذكَرَ الطَّبريُّ في «تَاريخِه» أنَّه لمَا أَتَمَّ اللهُ فَتحَ «نَهَاوَنْدَ» والتي يُسمِّيها المسلمونَ «فَتحَ الفُتُوحِ» جاءَ السَّائبُ بنُ الأقرعِ إلى الفاروقِ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبشره بهذا النصر العظيم.

أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِفَتْحٍ أَعَزَّ اللهُ بِهِ الإِسْلامَ وَأَهْلَهُ، وَأَذَلَّ بِهِ الْكُفْرَ وَأَهْلَهُ.

فَحَمَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وأثنى عليه ثم بدأ يسأل عن حال الجيش وعمن استشهد في تلك المعارك.

فعدوا له فلانـًا وفلانـًا من أعيان الناس وأشرافهم حَتَّى عَدَّ لَهُ نَاسًا كَثِيرًا.

ثم قالوا: وآخرون من أفناد الناس لا يعرفهم أمير المؤمنين ..

فبكى عمر واسترجع وقال: لا يَضُرُّهُمْ أَلا يَعْرِفَهُمْ عُمَرُ، وَلَكِنَّ اللهَ يَعْرِفُهُمْ.

لعل أولئكَ النَّفرُ مِنَ النَّاسِ ممن قصدهم رسول الله ﷺ بقولِهِ: «**طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ -أي مُقدَّمةَ الجيشِ-، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ -أي مؤخَّرةَ الجيشِ-، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**»، رواهُ البخاريُّ.

تأمل مرة أخرى «إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ».

حارس.

أحد أفراد الجيش.

لا أحد يدري من هو.

لكن رسول الله ﷺ يثني عليه ويبشره.

قال ابنُ الجَوزِيِّ رحمه اللهُ عن صِفةِ مثل هذا الرَّجُلِ المذكور في الحديث.

خَامِلُ الذِّكرِ، لا يَقصِدُ السُّموَّ، فأينَ اتَّفقَ لَه كَانَ فيهِ.

لقد تميز الصحابة وبزغت أمتهم بمجموعهم وبأداء كل لدوره.

وهذا ما أراه.

أن تكون القاعدة هي البذل والعمل.

ولا مانع من التحميس والمنافسة وخطاب تعلية الهمم.

لكن علو الهمة لا يشترط أن يقترن بالظهور أو بأعمال خارقة يشير إليها الخلق بالبنان.

لا داعي إذاً للضغط المفرط فهو أحيانا يأتي بنتيجة عكسية.

حين يتصور البعض أنه لا مكان له بين صفوف الصالحين لأنه ببساطة شخص عادي.

شخص ذو موهبة محدودة.

رجل من أفناد الناس.

الخطاب الضاغط من هذا النوع قد يحبط القريب ويبعده.

وأيضا قد يمنع البعيد أن يقترب لأنه سيستثقل الاقتراب.

سيظن دوما أن التكلفة باهظة وأنه ربما لا يستطيعها.

ما أشبه ذلك بظاهرة الأطفال المخترعين التي انتشرت هذه الأيام انتشار النار في الهشيم.

هؤلاء المساكين الذين يبهرون الدنيا بابتكاراتهم المذهلة.

هي جريمة مكتملة الأركان في تقديري وأول من يقترفها في حقهم هم أقرب الناس إليهم.

المربون.

أولئك الذين ينتهجون تلك الوسيلة هم المتهم الأول في رأيي.

أن يقنع والد ولده أنه خارق الذكاء أو أن عليه أن يكون كذلك وأن العالم كله لا بد له أن يشاهد إنجازاته ويتطلع لدفع الملايين ليحصل عليها = فهذه جناية لا تفرق كثيرا عن إقناع طفل أنه يستطيع الطيران كسوبر مان ثم فتح الشرفة ليجرب!

لكن ماذا سيحدث حين يكتشف الطفل أنه لا يستطيع الطيران؟

من المسؤول حين يسقط هذا المسكين من شاهق؟

وحين يحبط العادي عندما يكتشف أنه عادي .

وحين ييأس محدود الموهبة عندما يعرف حدود مواهبه..

وحين يصطدم الحالم بصخرة الواقع الذي لم تبلغ إمكاناته القدرة على تغييره.

رأيت في حياتي نماذج كثيرة لمن أقنعهم آباؤهم أو مربوهم والمجتمع المحيط بهم أنهم مشاريع (معجزة) وأن أمامهم مستقبلا مدهشا لن يقل روعة عما يرونه أثناء صباهم من التفات أعناق الناس إليهم وتبجيلهم والاحتفاء لمجرد إجادتهم تقليد شيخ أو امتلاكهم لحافظة قوية أهلتهم لحفظ نصوص أو متون أكبر من سنهم.

ربما كانوا فعلا مميزين في تلك المرحلة نسبيا لكن آباءهم والمحيطين بهم نسوا أن ينبهوهم إلى حقيقة كون التفات الناس إليهم وانبهارهم بهم يرجع أساسا إلى أن ما يقولونه ويجيدونه لا يناسب أعمارهم وأن جزءا كبيرا من الاهتمام والانبهار ما هو إلا انبهارا بطرفة أو عجيبة سرعان ما ستزول حين يكبر ويصير ببساطة = شخص عادي.

شخص يجيد أشياء يجيدها غيره بنفس الكفاءة وربما أفضل.

وحين انتبهوا لذلك كانت الصدمة وتعرضت هذه النماذج لمشاكل نفسية مريعة حيث لم تتقبل أبدا فكرة الاعتيادية.

أنا مميز.

أنا مبهر.

أنا ملفت.

لقد نشأت هكذا.

وينبغي أن أظل هكذا.

ضاعت طفولتي وبراءة السنين الأولى من حياتي لأثبت هذا.

أين ذهبت نظرات الانبهار؟

أين رحلت صيحات الإعجاب؟

أين الدعوات أن يكون أبناؤكم مثلي؟

حين اختفى كل ذلك كان الانهيار وبدأت مرحلة أخرى من العقد النفسية والسعي المحموم لنيل تلك المكانة الغائبة.

أو حدث الترك بالكلية وتجلى أثر ذلك العائق على الالتزام والتدين نفسه.

يظهر مثل ذلك في اصطلاح يطلقه كثير من الناس بسبب هذا النوع من الضغط على من التزم واستقام.

(فلان استشيخ) .

تأمل الكلمة جيدا.

استشيخ أي صار شيخا.

هكذا يتصور البعض الالتزام والتسنن.

له لوازم صعبة يظنون أنها خارجة عن استطاعتهم.

لكي أكون صالحا ينبغي علي أن أكون نموذجا مطابقا للشيخ فلان أو الداعية فلان .

ينبغي علي أن أكون خطيبا مفوها وعالما جليلا ومحدثا فقيها.

من هنا يحدث شيء من الاستثقال والصد لدى البعض.

لا أستطيع ذلك.

وربما لا أريد.

إذا فلا داعي للأمر كله.

لا داعي للتغير والالتزام والاستقامة والتسنن والصلاح مادامت هذه لوازمهم ولأظل كما أنا.

هذا للأسف بعض ما يحدث عندما نصر على الضغط المستمر على أوتار ضرورة التميز والتفرد دون النظر لما سيؤدي إليه ذلك فيما بعد من تمزق.

وأول ذلك التمزق يكون هنالك.

في أغوار النفس.

كلامي هذا ليس المراد منه تزهيدا في التميز الفردي أو إعلاء الهمم واستعمال المواهب التي حبى الله بعض عباده بها.

سيظل أصحاب المواهب يتميزون والله جعل التفضيل الدنيوي سنة في كونه ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴾.

[الإسراء: ٢١]

الفكرة فقط هي تخفيف الضغط.

عدم الإصرار على كون النفع والنجاة والخيرية = هي للمميزين الموهوبين فقط.

ألا تفترض في تدينك لزوما أن تكون مجدد هذه الأمة وعالمها وإمامها حتى إذا تبين لك أنك أهون من ذلك لا تفجع ولا تبتعد محبطا.

أن إذا تبين لك أنك من عامة المسلمين وحسب فإنك تدرك أنه لم يزل لديك مكان بين جموع الأتقياء الأخفياء الذين لا يعلمهم الناس.

لكن رب الناس يعلمهم .

﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴾ [النساء: ٧٠].

## ٩١ـ الهاربون من الحياة:

فلان ترك كليته.

فلان استقال من وظيفته.

فلان أغلق مشروعه.

لكن لماذا؟

ما الذي دفعهم لذلك؟

هل ثمة ارتباط بين تلك القرارات المصيرية وبين ذلك القرار المصيري الذي اتخذوه؟

قرار الالتزام..

لا شك أنها أسئلة دارت وتدور في أذهان البعض حين يرون مثل تلك النماذج .

نماذج رأيناها في فترة ازدهار ما يسمى بالصحوة الإسلامية.

حين كان ذلك الناجح دنيويا يحول نجاحه أو حتى استقراره إلى ما يعتبر بمقاييس الدنيا = نوع من الفشل.

مجرد الفشل بهذه الصيغة لا شيء مستغرب فيه ولا يستحق ضمه إلى العوائق والحواجز التي نتحدث عنها ضمن عوائق الالتزام.

لكن المشكلة كانت في وجود - أو ادعاء - وجود ذلك الرابط بين التزام الشخص وخيار ترك الدنيا بالكلية إما بزعم الزهد فيها أو بدافع استبدالها بالتفرغ للدعوة وطلب العلم.

لازلت أذكر جيدا ذلك الداعية الشهير الذي كانوا يباهون في التسعينات بكونه لم يتخرج من كلية الطب مختارا ومفضلا التفرغ لطلب العلم الشرعي.

ورغم كون دراسته في الكلية العملية الشهيرة كانت على مشارف الانتهاء إلا أن خياره كان يضرب مثلا لعلو الهمة والتضحية ويعد نموذجا يقتدي به من اختار نفس الخيار.

حسنا.. لقد اختار هذا الداعية هذا الاختيار واستبدل الطب بالعلم والدعوة وحقق نجاحا ملحوظا في خياره.

لكن ماذا عمن قلدوه؟

هل صاروا كلهم دعاة وعلماء؟

بل هل حققوا جميعا مجرد تقدم في طلب العلوم الشرعية؟

الحقيقة المؤلمة = كلا.

لم يحدث ذلك.

أعرف منهم من ترك دراسته وفشل كذلك في طلب العلوم الشرعية وصار مصدر رزقه بيع السواك وبعض الكتيبات والعطور أمام المساجد.

لا بأس هو خياره وحريته وربما كان أفضل عند الله بصلاحه وتقواه من ملء الأرض من مثلي.

لكن المشكلة كما قلت في ربط هذا الفقر المختار وهذا الترك العمد بالتدين والالتزام.

المشكلة فيمن يصر على تصدير هذا النموذج للناس وكأنما يقصد تخويفهم.

ستلتزم = إذا مصيرك كفلان.

ستستقيم وتتسنن = الفشل الدراسي في انتظارك و(فرشة) العطور والسواك هي مستقبلك.

والمشكلة الأخطر أن يتم تصدير ذلك على أنه الزهد المنشود والتخفف المطلوب من متاع الدنيا.

وهذا النموذج للأسف يصر على هذا الفهم للزهد .

هو عنده فقط = تكلف الفقر وشظف العيش ولزوم الخشن من الثياب وتناول الردىء من الطعام وترك التمتع بما أحل الله من الطيبات.

وهذا الظن يناقض حال سيد الزاهدين رسول الله ﷺ .

فهو لم يطلب الفقر أبدا ولم يسع إليه قط .

بل الصحيح أنه كان يتعوذ منه مقرنا ذلك بتعوذه من الكفر.

فهل يتصور عاقل أن يتعوذ النبى ﷺ من شىء يُتقرب به إلى الله ؟!!

الجواب: لا .

رسول الله ما طلب الفقر ولكنه رضي وصبر حين ابتلي به .

ما سخط على نقص طعام وما ضايقته خشونة ثوب .

و حين فتحت الدنيا وجاء المال أنفق نفقة الزاهد الذى لم تتسرب الدنيا إلى قلبه لحظة حتى صاح من رأى عين الزهد فى تلك النفقة إن محمدا ينفق نفقة من لا يخشى الفقر أبدا .

هذه هي حقيقة الزهد ومعيار التعامل الصحيح مع الدنيا ..

تُقبِل أو تُدبِر ..

يُعطى المرء أو يُمنع ..

كل ذلك عنده سواء ..

لا تتسرب الدنيا إلى صدره فيفرح بإقبالها ولا تتمكن من نفسه فيحزن لإدبارها فإرادتها لم تسكن روحه ولا لامست شغاف قلبه.

لا يشترط أبدا أن يلقيها من يده لكن عليه أن يجتهد دوما في طرحها عن قلبه.

لا ينسى نصيبه منها لكنه أيضا لا يعتبرها غاية أمله ومنتهى عمله ومبلغ علمه وأكبر همه.

بهذا المعيار قد تجد أكثر الناس مالا وولدا = بينما قلبه مفعم بالزهد مستعد للبذل مائل للعطاء .

على النقيض قد ترى أقل الناس مالا وأشدهم فقرا وأغلظهم عيشا ومع

ذلك يمزق الطمع نياط قلبه وتمزق الشهوات نفسه فهو على فقرة وشظف عيشه = أبعد ما يكون عن الزهد.

فالقضية ببساطة ليست فيما معك أو ليس معك القضية ها هنا بمرادك وسعيك ومبتغاك ومنتهى أملك.

فتلمس حال قلبك .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

[هود: ١٥-١٦]

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧-٨].

تأمَّل تلك الأفعال القرآنية جيدًا .. وسل نفسك أين أصلها ومحلها = تعرف حقيقة الزهد.

﴿ وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [يونس: ٧].

﴿ وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾ [يونس: ٧].

﴿ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [هود: ١٥].

﴿ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ [الإسراء: ١٨].

إن تلك الأفعال ختمت آياتها جميعًا بالوعيد وببيان أن مصير مقترفيها هو العذاب وهذا هو المذموم من أمر الدنيا.

إرادتها ورجاؤها والرضا بها وليس مطلق التمتع بمتاعها أو المشي في مناكبها كما يظن بعض المتزهدين الذين ليس لديهم فكرة عما يسمى بالتوازن.

نعم... التوازن ممكن ومتاح والموفق من وفقه الله.

نبي الله داوود عليه السلام كان أحد أوضح نماذج التوازن والقصد.

ستنبهر بعبادته وتسبيحه وسيزداد انبهارك إذا علمت أن أفضل الصيام كان صيامه وأفضل القيام كان قيامه بشهادة نبينا محمد ﷺ .

لكن انبهارك سيتضاعف ويتحول إلى إكبار وإعجاب هائل حين تنظر إلى

تلك اليد الخشنة التي تبدو عليها آثار الكد، وتظهر عليها خدوش العناء!

يد داوود عليه السلام وبها تلك الآثار.

آثار صنعته..

حرفته التي يأكل من عائدها..

تلكم المهنة التي يتعالى البعض عن مثيلاتها..

﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ [سبأ: ١١].

كان هذا أمر الله لداوود عليه السلام بعد أن علمه الصنعة

نعم.. بذلك اللفظ الذي يمتهنه الخلق اليوم = تكلم ربنا يصف ما علمه لداوود.

صنعة.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

إنها صنعة الدروع التي يرتديها الجنود أثناء القتال وتحصنهم يوم البأس.

يصنع لجيشه الدروع، ثم يلبسها معهم حين يحمر البأس!

دروع مختلفة عما جرت به العادة من تلك الصفائح الضخمة الثقيلة التي اعتادها الناس.

إنها دروع سابغة سردها مقدر وحلقها متداخلة من حديد ألانه الله لداوود عليه السلام .

لكن ما شأنه هو وتلك الصنعة؟

الحدادة .

إنه نبي مكلم.

وملك ذو سلطان وصولجان.

وهو إلى جوار ذلك قاضٍ يحكم بين الناس ويفصل بينهم فيما شجر بينهم حين يسعون إليه طالبين عدله ومبتغين قسطاسه المستقيم.

ومن قبلها هو مجاهد بطل استطاع قتل كبير الجبارين جالوت.

وهو مع كل ذلك كما بيَّنت = عابد لا يشق له غبار في مضمار العبادة.

ما له هو إذن والصناعة والحدادة؟

ها هو الجواب يأتيك من أخيه محمد ﷺ .

**«ما أَكَلَ أَحَدٌ طعامًا قطُّ، خيرًا من أن يأكلَ من عملِ يدِه ، وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ**

**عليهِ السلامُ كان يأكلُ من عملِ يدِه**» رواه البخاري .

إنها الخيرية التي اعتاد داوود أن ينشدها ولا يعدل عنها لغيرها.

لم يكن داوود عليه السلام يقبل إلا الأفضل في كل شيء.

كأني به لو عاش بين ظهرانينا لصاح بالمعذرين، أو بأضدادهم من العاملين الذين هم بدنياهم عن العبادة منصرفين قائلًا: اتقوا الله، ولا تعلقوا فشلكم وتنطعكم على الدين.

وكأنه وولده سليمان الذي أوتي ملكا لم ينبغ لأحد من بعده ويوسف الذي صار عزيزا لمصر وذا القرنين الملك الممكن والصديق أبا بكر والفاروق عمر وذا النورين عثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من نماذج النجاح الديني والدنيوي = أمثلة تضرب لكل متنطع، يلتمس لنفسه معاذير التخاذل، ويسوِّل لنفسه مختارا التنطع والفشل بحجة الزهد وترك الدنيا.

إن الترك والتضحية لهما مواضعهما بلا شك..

لكن لا يشترط أن يكون ذلك هو الأصل.

في سورة الكهف رأينا نموذجين لمن أوتوا من الدنيا وزينتها ومتاعها.

نموذج ترك وضحى حين تحتم عليه ذلك.

والآخر لم يفعل بل أتبع ما لديه من أسباب أسبابا واستعمل الدنيا التي كانت بين يديه في مرضاة الله.

والنموذجان ممدوحان .

نموذج الفتية الذين آمنوا.

أصحاب الكهف.

ونموذج ذي القرنين .

أما أصحاب الكهف فكانوا كما ذكر المفسرون من أبناء الأمراء والوجهاء والأثرياء.

إذاً كانت لديهم الدنيا وزينتها.

واختاروا ترك كل ذلك وآووا إلى الكهف الموحش.

لكن خيارهم لم يكن بتكلف وتنطع كما يفعل البعض.

لقد تركوا ما هم فيه من الترف لأنهم استعلنوا بعقيدتهم فكاد قومهم المشركون أن يرجموهم أو يفتنوهم.

هنا كان الخيار الحتمي هو الترك.

ففعلوا...

وأما ذو القرنين ذلك الملك العادل والقائد الممكن الذي أوتي أسباب الدنيا فلم يذكر أنه تركها أو تخلى عنها.

بل ما ذكر أنه استعملها في نشر العدل ومساعدة الضعفاء والمظلومين.

ولقد كان زاهدا .

نعم مقتضى الآيات التي تحدثت عنه أنه كان زاهدا حقا.

بالمعايير المادية المعتادة فإنه لا شيء بدون مقابل.

لا أحد يفعل شيئا عظيما أو يُسدي خدمة لأحد دون أن ينتظر منه أجرا.

هكذا يقيس الأمور كثير من الخلق .

بمنطق المصلحة المتبادلة والنفعية الصارمة التي لا هوادة فيها.

شيء مقابل شيء وخدمة نظير أجر.

هكذا فعل القوم مع ذي القرنين وكذلك كان ظنهم به.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ **[الكهف: ٩٤]**.

هل نجعل لك أجرا عظيما ومالا وفيرا مقابل تلك المساعدة في إنقاذنا من المفسدين وعزلنا عنهم بسد منيع.

كان ذلك عرض من طلبوا منه مساعدتهم في بناء السد .

وكانت تلك إجابته .

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ **[الكهف: ٩٥]**.

إجابة مفاجئة لمن لم يدرك ذلك المعيار الآخر.

معيار طلب رضا الله وابتغاء ما عنده.

المعيار الذي به يقيس الصالحون الأشياء.

ليس معنى ذلك أنهم يحرمون ما أحل لهم الله من اتخاذ الأجر مقابل العمل.

لقد قبله موسى عليه السلام وهو من هو من الصلاح والتقوى.

لكن إن كان الله قد كفاني وأغناني فلماذا المزيد؟!

لعل هذا ما فكر فيه ذو القرنين.

ولعل مثله ما فكر فيه سليمان عليه السلام حين جاءته هديه أهل سبأ فقال بحزم:

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

الشاهد هنا وقبلها أن المال كان موجودا والخير كان حاضرا والتمكين كان ظاهر.

ولم يعن التدين والصلاح والزهد أن يتخلوا عن شيء من ذلك إلا إذا اقتضت الحاجة أو الضرورة.

شعارهم فيها ولسان حالهم ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

هكذا طولب قارون.

القصد .

إن ناصحيه كانوا فقط يطالبونه بالميزان الحق والقسط وليس الترك بالكلية.

لم يقولوا له اترك الدنيا وطلقها ثلاثا بل قالوها صريحة واضحة: ولا تنس نصيبك منها.

من الدنيا..

كانوا يدعونه للمنطق البسيط الذي لا يحتاج إلى كثير تعقيد أو تفلسف.

أن يعطي للدنيا قدرها ، وللآخرة قدرها ، وشتان ما بين القدرين!

وحين ذكروا الآخرة طالبوه أن يبتغى بما عنده إياها .

هكذا بإطلاق.

بدون تقييد.

لكن مع الدنيا نصحوه ألا ينسى نصيبه منها .

فقط .... لا تنس!!

ومن ذا الذي تختزل علاقته بالدنيا لدرجة أن يحتاج تذكرة بألا يذر نصيبه منها.

إنهم أولئك الذين جعلوا الآخرة همهم.

أولئك الذين صح لديهم القياس واستقام الميزان وعرفوا للدارين قدرهما.

دنيا فانية ، وآخرة دائمة باقية.

دار زوال ، ودار قرار ، وبقاء ودوام سرمدي ..

هكذا يقيس العقلاء.

وهم مع انحيازهم للآخرة وتفضيلهم لعملها وحملهم همها = فإن لديهم من الحكمة ما يجعلهم يؤدون حق دنياهم ولا ينسون نصيبهم منها وليس معنى ابتغاءهم بما عندهم الدار الآخرة أن يفشلوا فيما فيه محياهم ومعاشهم مختارين قاصدين.

إن الزهد في تلك الدنيا لا يستلزم هروبا منها وليس قرينا للفشل فيها وعلى من قرر هذا الفشل أو ركن إليه ألا يلبس ذلك ثوب التدين والالتزام على الأقل كي لا يشكل بادعائه وفشله عائقا لغيره وليعترف ببساطة أنه من ذلك الصنف.

صنف الهاربين.

## ٠٢ـ أم أنا خير..

لو أن هؤلاء الجهلة والأوباش دخلوا الجنة فسيدخلوها فقط كي يكنسوها وينظفوها لنا نحن معشر العلماء!!

وماذا كنتم تظنون؟

أن يكونوا أمثالنا ولا يكون هناك فارق بيننا؟!

مستحيل طبعا..

كانت هذه الكلمات الحادة في وقاحتها وجرأتها وتأليها على الله هي ما فاجأنا به ذلك العالم المخضرم والذي قرر تشريفنا أثناء دراستنا الجامعية بمحاضرة قيمة أبهرنا خلالها فعلا بعلمه الغزير وسعة اطلاعه وقدرته على عرض المعلومات الطبية المعقدة بطريقة سهلة ممتعة.

الحق يقال؛ الرجل كان بالفعل رائدا في مجاله وكان يعد في تلك الأيام من أهم علماء تخصصه وكان تمكنه يظهر في كل لحظة من محاضرته.

لكن تلك الكلمات الأخيرة التي ختم بها المحاضرة وهو يرقب بتفاخر أعيننا عديمة الخبرة والمنبهرة بعلمه = كانت كلمات صادمة حقا!

أيمكن للعلم أو للترقي في أي من أبواب الدنيا أن يصل بالإنسان لهذه الدرجة من الكبر والتي تجعله يتصور أن من حقه تقسيم الخلق كيف يشاء بهذه الجرأة؟!

للأسف نعم.

هذا ما حدث ويحدث كثيرا.

والأخطر أنه يشكل حاجزا وعائقا رهيبا يحول بين المرء وبين قبول الهدى

والانخراط في ركب الصالحين.

إنه النظر إليهم بعين الاستعلاء والكبر.

أعرف كثيرين كان ذلك هو الحاجز الأهم الذي صدهم عن الهداية.

النظر لمعاشر الملتزمين بتلك النظرة الفوقية.

كان هذا دأب ذلك الأستاذ الجامعي الذي ما كان يترك فرصة يواجه فيها أحد من يبدو عليهم التسنن إلا استغلها في تحقيره وإهانته وإبداء اشمئزازه منه ومن سمته ومن التزامه ككل

ولم يكن وحده هكذا

كما قلت منذ سطور قابلت كثيرين كانت تلك طريقتهم في معاملة المتدينين أو على الأقل نظرتهم لهم.

أحيانا يحدثوني عن ثيابهم.

عن شكلهم.

عن تبسطهم.

بعضهم كان إذا قبل على مضض أن يأتي إلى بيت من بيوت الله = يأنف أن يجلس بين الناس على الأرض لا لعلة في بدنه ولكن لعلة في نفسه.

هكذا كانوا يصرحون في لحظات صفاء.

أنا أجلس على الأرض بين هؤلاء؟

ألا ترى منظرهم؟

ألا تلاحظ هيئتهم؟

ألا تبصر آثار مهنتهم؟

أعرف رجلا كان يأنف من مجرد بعض مصافحة أهل المساجد كي لا تلتصق بيده الفاخرة رائحة المسك الرخيص التي يضعونها.

ربما كانت رائحة نفاذة فعلا وربما لا تمت للمسك الحقيقي بصلة.

لكن هذا ما كانوا يجدونه.

وهذا ما كان يصد صاحبنا عن مصافحتهم.

أو هكذا كان يدعي لكنه بعد حين اعترف لي بسبب آخر.

كان يحتقرهم.

لا يتصور أن يخالطهم ويكون رأسه برؤسهم وكتفه في أكتافهم.

أين هم من عظمته وعلمه ونسبه وحسبه؟

بل حتى هذا الخطيب أو المحاضر من هو ليجلس ثانيا ركبتيه مستمعا إلى ما لديه من علم؟

هل هو من مستواه العلمي والثقافي أصلا؟

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

هكذا تساءل أهل قريش يوما معترضين على نزول القرآن على النبي محمد ﷺ.

وهل كانت هذه هي المشكلة؟

هل كانت كل قضيتهم أنه ليس من زعماء المجتمع أو من عظماء ماديتهم السطحية؟!

و الأهم.. هل هم من يقررون ويقسمون رحمة الله؟!

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

نفس المنطق المريض في كل زمان ومكان.

منطق الحكم من خلال الظاهر.

ثم الاستكبار بذلك الحكم المادي.

هو نمط من الخلق لا يلتفت انتباهه إلا للمظاهر المبهرة ولا ينجذب بصره إلا لزينة براقة أو زخرف لامع.

هم قوم يقيسون الحق والباطل فقط من خلال مقياس العظمة الدنيوية والمكانة المادية والمنصب الضخم والنسب الفخم والثراء الفاحش والنعيم الزائل.

إنه النمط الذي تبهره زينة قارون وقوة عاد وعلو النمرود.

النمط الذي يستخفه فرعون ومنطقه المعروض في نفس السورة «الزخرف» إذ ينادي ويقول: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١].

هذا هو ما أرادهم أن ينتبهوا إليه ثم سألهم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١].

هو إذاً ترسيخ للحكم البصري المظهري والتقييم القائم على أساس الرؤية الخارجية والمقاييس المادية ثم الاستعلاء بها وجعلها حاجزا وعائقا عن الهداية المنشودة..

لذلك كان القياس الذي ظنه فرعون منطقيا = ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ

وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٢-٥٣]

لقد قاس على نفس المعيار الذي ينبهر به خفيفو العقول في كل زمان .

معيار المظهر الخارجي وزخرف الفعل والقول .

ومن يقيس على هذا الأساس يستحق بجدارة أن يتسلط عليه فرعون وأمثاله فهم ممن قال الله فيهم في السورة نفسها: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

قوم فاسقون بمعيارهم الفاسد وحكمهم المنقوص وتصورهم المريض الذي هيأ لهم ولأمثالهم أنهم يقسمون رحمة ربك يعطونها لمن أعجبهم ويمنعونها من حقروه ولم تبهرهم زينته وتخطف أبصارهم لمعة نسبه ومكانته .

بنفس الفكر وصل صاحب الجنتين الذي ذكر الله قصته في سورة الكهف إلى تلك القناعة الغريبة والمعتقد البشع حين أعجبته ثروته وأسكرته جنته فصدته عن الهداية والاستجابة لصاحبه المؤمن ودخل تلك الجنة مستكبرا ظالما لنفسه وقال: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦].

من أين عرف ذلك وكيف وصل إلى هذا المعتقد؟!

الإجابة ببساطة هي نفس الاغترار بالمظهر الزائف والزخرف الزائل وما يفعله بالنفس من استكبار وغي .

ومن هنا أيضا أقسم بعض أهل النار يوما أن لن ينال الطائعون رحمة.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف:٤٨-٤٩].

ولقد نسي أو تناسوا أن الله هو من قسم بين الناس معيشتهم ورفع بعضهم فوق بعض درجات .

لكنه المنطق نفسه دوما.

الاستكبار الذي يصد كثيرا من الخلق عن الهدى إذ جاءهم.

هكذا فعل قوم نوح وهذا ذات ما قالوه عنه وعمن اتبعه.

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

لا جديد تحت الشمس.

نفس ما يقوله وسيقوله العالون المتكبرون في كل زمان ومكان،

نفس نظرة العلو والاستغراق في استعظام النفس والاستكبار في الأرض،

نفس عجرفة فرعون، وعلو النمرود، وغرور ملك الأخدود، وكبر قوم عاد وثمود.

وكأنها صفات وراثية تتكرر في متكبرى كل جيل، لتقف حائلًا بين المترفين المنعمين وبين الهداية لصراط الله المستقيم،

ألفاظ تتكرر في كل جيل باختلافات بسيطة لا تغير المعنى الثابت، ولا تهز ذات الفكرة الراسخة في قلوب المتكبرين.

فكرة الاغترار والاستعلاء بالقوة،

بالجاه،

بالنسب،

بالسلطان،

بالمال،

إنها الفكرة الذي دفعت فرعون لأن يقول لموسى ما ذكرناه منذ سطور.

وهي نفس الفكرة الذي ستدفع أهل مدين لأن يقولوا لشعيب: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

وهي التي ستدفع مترفى كل قرية وأكابر مجرميها ليمكروا فيها، لا لشيء إلا استكبارًا في الأرض، ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

إنها تلك الطبقية المقيتة لا محل لها في واحات الهداية المظللة بظلال الأخوة الإيمانية الوارفة، والتي لا تميز غنيًّا ولا فقيرًا ولا قويًّا ولا ضعيفًا ولا سيدًا ولا عبدًا ..

الكل أمام الهداية سواء كأسنان المشط، لا يتفاضلون إلا بقبولهم لهدى الله الذي أنزل إليهم ..

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾

[هود: ٢٩]

﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٣٠].

هكذا أجاب نوح على استكبار قومه الذي حال بينهم وبين الهداية.

أفيطرد الناس لأنهم فقراء؟!

هل يطلبون دينًا طبقيًّا لا مكان فيه للبسطاء؟!

وحتى لو كانوا يتهمونهم بالسفول والدنو، فقد أقبلوا على الله وأنابوا إليه، فهل نقطع على الخلق طريق هدايتهم بسبب رقة حالهم؟!

أي منطق هذا؟!

بل أي ظلم وأي تجبر؟

و كأن بعض الأكابر الأغنياء يرون أولئك البسطاء لا يرقون لمنزلة البشر، ولا يستحقون عيشًا كريمًا لا في الدنيا ولا حتى في الآخرة،

وكأن سيدنا نوح عليه السلام يرد عليهم: هؤلاء الذين قلتم عنهم إنهم أراذلكم، وازدرتهم أعينكم، هم بشر أيضًا مثلي ومثلكم،

لا فضل لأحدنا على الآخر إلا بما يعلمه الله في نفسه من التقوى،

أنتم أيها الكبراء من زعمتم لأنفسكم فضلًا على غيركم،

وهكذا حال المستكبرين في كل زمان،

يحقرون غيرهم ويرون أنفسهم فوق البشر بسبب ذلك الكبر الذي تمكن من نفوسهم والعلو الذي استشرى في مجتمعهم.

بالنسبة لمستكبري قوم نوح فقد استحقوا أن تطهر الأرض منهم، ويغسل ظاهرها من تعاليهم .

وليأت جيل جديد قد طَهُرَ من تلك الأفكار المريضة .

ولينشأ مجتمع لا مكان فيه لتفاضل بجاه أو بمال أو بنسب أو بمنصب .

ولو كان هذا النسب لأقربكم إلى الله .

ولو كان نسبًا مباشرًا لنبي ورسول .

ولو كان ابن نوح نفسه فإن بنوَّته لنبي لن تغني عنه من الله شيئًا.

إنه المعيار الذي لم يعرفه الهالكون في الطوفان .

ولم يعرفه الغارقون في أمواج العلو والاستكبار إلى يومنا هذا.

معيار التقوى والعمل الصالح .

المعيار الذي من دونه لم يغن نوح عن ولده وزوجه،
ولم يغنِ لوط عن امرأته،
ولم يغنِ إبراهيم عن أبيه،
ولم يغنِ محمد عن عمه،
بل حتى ابنته التي هي من خير نساء الدنيا؛ قال لها: « **اعملي فلن أغني عنك من الله شيئًا** »!
ابنته التي قال يومًا أنها لو سرقت –وحاشاها أن تفعل– لَقَطَعَ يدها.
هذا هو معيار التفضيل الحق، ومناط النجاة الوحيد الذي كان ينبغي أن يظهر في الأرض، وأن تطهر المعمورة من خلافه، فتغسل من أدران الطبقية والتعالي والتفاخر بالأنساب والأموال، التي جُعلت ردحًا طويلًا من الزمان حائلًا بين المتكبرين وتوحيد ربهم، وأغرقتهم في بحار الشرك، قبل أن تغرقهم أمواج الطوفان المتلاطمة العاتية .
وهي إلى اليوم تشكل عائقا من أهم العوائق التي نتحدث عنها.
عوائق الالتزام .
والأخطر أنها قد تشكل يوما عائقا أبشع.
عائقا عن الجنة.
ذلك الذي حذرنا منه رسول الله ﷺ حين قال: « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر** » .

## ١٢. مغتربون:

ذلك الشعور المحبب بالعلو والاختلاف يعد في تصوري من أخطر إشكاليات الالتزام خصوصا حين يقتصر ذلك الالتزام على الهدي الظاهر أو التسنن الشكلي الذي ينتقل من خلاله الشخص إلى التصنيف كإنسان عادي إلى الوسم بالتدين والصلاح.
حين يحدث ذلك دون التضلع من التربية بشكل كافٍ ودون الارتواء الحقيقي من معين الوحي = تجد تلك المشكلة.
شعور تُزكيه وتؤججه فكرة افتعال الغربة أو تكلفها وتزيده حدةً شهوة الحكم على الآخرين وتلمس فسادهم وأخطائهم.

أنا مختلف عنهم إذا فأنا من الغرباء .

أنا متسنن مستقيم طائع أما هم فمتقلبون في معاصيهم الظاهرة.

النتيجة = أنا أفضل منهم.

هكذا تبدأ متوالية العلو وتتسرب تلك اللذة الخفية لنفس من يقال عنه ملتزم.

وتتضاعف تلك المشاعر عندما يلج الشبر الأول في تعلمه فيحفظ بعض المسائل الفقهية ويدرك بعض القواعد العلمية والأصول الشرعية.

بعد ذلك وبالتدريج يقوم هذا الشخص فيمن حوله مقام الضمير المحاسب وتقع عيناه فقط على زلاتهم ومواطن ضعفهم ولا ينفك عن إشعارهم بتلك الأخطاء والزلات .

وبالتدريج أيضا يستسلم له البعض ويخضعون لذلك الأسلوب ويبدأون في تزكية المزيد من تلك المشاعر المستعلية بتغيير معاملتهم له والمبالغة في خشيته حين شهوده لزلاتهم بل وأحيانا إتيانه والاعتراف بين يديه بتفاصيل خطاياهم وكأنما يظنونه كاهنا سيطهرهم بتلك الاعترافات من ذنوبهم.

بينما يرفض البعض الخضوع لسلطانه ويأبون الاستسلام لتبكيته ولومه ومن ثم يصنفهم صاحبنا كأعداء له وبالتالي للدين والملة ويبدأ في إسباغ الألقاب والأيديولوجيات عليهم ليفسر رفضهم لسلطانه الفكري الذي يتلذذ به

هؤلاء متهتكون.

لا.

بل هم علمانيون ولسلطان الدين معادون.

لا لا.

أكيد ليبراليون .

بل شيوعيون .

ألا يمكن أن يكونوا ملحدين ونحن لا نعلم.

هكذا يصنف الخلق في نظر صاحبنا من منطلق خضوعهم له من عدمه ويفسر كل تصرف معه بمنطق الغربة وحسب.

ومع الوقت يصير الالتزام والتدين بالنسبة له مصدرا لهذا العلو والتسلط

على الخلق ويتحرى كل ما يزيد ويرسخ هذا العلو ويجعله أهلا (في تصوره) لمزيد من الحكم على الناس والتحكم فيهم .

وفي النهاية الأمر ينسى أصول تدينه وأسبابه الحقيقية القديمة ويستسلم لتزكية الآخرين له ويطلبها لنفسه ويستزيد منها ويصرح بها والأهم ينسى تلك الحقيقة القرآنية التي قد تهدم كل ما بناه على شفا جرف هار.

حقيقة ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

هو سبحانه وليس نحن.

هو من يحكم الحكم الفصل من خلال ما يعلمه وحده ولا يمكن لبشر إدراكه.

كم مرة حكم صاحبنا هذا على إنسان من خلال مظهره أو قيَّمه عبر سمته وظن به الظنون ثم فوجيء بعد حين أن حكمه لم يكن في محله.

كم مرة عين نفسه قاضيا وربما جلادا وقرر أن يعطي هذا درجات ويحرم ذاك منها ثم ظهر له من جديد أنه كان ساذجا مجترئا.

كم مرة قرر أن يضع على شخصية من أمامه ختما مفاده أنه من تلك الطائفة التي يحلو له أن يسميها: «العوام» ثم اكتشف أنه أعبد منه وأشد ورعا وحرصا على اجتناب المحرمات بل والمشتبهات وربما وجده أكثر علما وفهما وأن تلك الدرجات والألقاب التي قرر أن من حقه توزيعها على الخلق ليست له ولا لملء الأرض من مثله.

ماذا؟!!

لم يحدث معه شيء مما سبق؟!

لم يفاجأ أو يكتشف أو يدرك أيًا من ذلك الذي ذكرته؟

لم يزل هذا عنده بعيد وذاك مفرط وهؤلاء عوام وأولئك فساق

لم يزل بعد يحمل حقيبة درجاته يوزعها على هذا ويحرم منها ذاك

لا يزال قلمه الأحمر في يمينه يضع به علاماته على شخوصهم وسوط تقييمه في يده اليسرى يجلد به ظهور نفوسهم بتقسيماته وتسمياته واصطلاحاته.

هذه وربي إشكالية حقيقية ليست فقط تنفر الناس من التدين والتمسك والتسنن .

بل الأخطر أنها تلتهم التدين نفسه إن نبتت بداخل الروح.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾
[ القصص ٨٣]

تأمل جيدا لمن الدار الآخرة بمقتضى الآية.
ليست فقط لمن لا يريدون الفساد.
بل إرادة العلو كذلك مانعة حاجزة تحول بين صاحبها وبين بلوغ المبتغى. الجنة.
والعلو ليس فقط بالمال والجاه والمنصب والنسب.
قد يكون التدين والصلاح الظاهر سبيلا لدى البعض لبلوغ ذلك المأرب الخبيث.
قد يكون التزامه سبيلا لعلوه على الخلق وقد تصير استقامته سببا لاستكباره في الأرض.
وقد يكون علمه سبب فتنته وعلة استكباره وعلوه.
ربما يكون أهل ذلك العلو بالفعل على دراية بالمسائل الفقهية ويحفظون الكثير من المتون العلمية مما أدى إلى تسرب هذا الاستعلاء الشديد على الخلق والإحساس بنوع من الاحتقار لمن هم دونهم .
وهذا للأسف من أكثر الأشياء التي تصد الناس عن العلم وقبول الدعوة.
استعلاء العالم بعلمه والداعي بدعوته.
هؤلاء حين يعلِّمُون الناس فهم يعلِّمُونهم باستعلاء ممتعض وكأنهم يمنون عليهم بتعليمهم ولا يتركون فرصة يبرزون من خلالها جهل الآخرين إلا انتهزوها ولا يدعون سبيلا يسخرون به من قلة زادهم العلمي إلا سلكوه.
إنهم لا يخالطون عوام الناس ببساطة ولا يسمحون أن يخاطبهم الخلق بشيء من التبسط والانفتاح بل لابد طبعا من أن يعرف كل مقامه والعين لا تعلوا أبدا على الحاجب فلابد أن تعمل ألف حساب وتعبر البوابات والحجبة لتستطيع الوصول إلى شرف مخالطتهم والحديث معهم حيث لا ينعم بذلك إلا من اختاروهم لهذا الشرف العظيم وسمحوا لهم بهذا الفضل الجزيل.
وحتى ولو انبهر البعض بذلك الأسلوب أو طبلوا لشذوذاته وغرائبه التي يحرص هؤلاء على عرضها لبيان مدى سعة اطلاعهم وعمق درايتهم فإن هذا المسلك سيؤدي في النهاية إلى أن يبغضهم الناس وربما يحدث الأخطر وهو أن

يبغضوا بضاعتهم وينفروا من دعوتهم ويزهدوا في علمهم.

إن العالم الحق يدرك بكل حرف يتعلمه أنه قد انتقل من جهل به إلى علم هو محض فضل من الله ويتذكر دوما أن فوق كل ذي علم عليم فلا يزداد بعلمه إلا تواضعا وانكسارا ويحب للناس ما يحبه لنفسه.

العالم الحق متدين بحق متواضع بصدق يخالط الناس ولا يخاطبهم من فوق أبراج عاجية.

هو ذلك الذي يجدونه بينهم في الشدائد والأزمات.

الذي يشعرون بقربه منهم .

من مشكلاتهم.

من همومهم .

يحيا حياتهم .

ويأكل من طعامهم.

ويمشي في أسواقهم.

و ذلك لا يقلل من هيبته وحشمته ووقاره الذي يحفظه سمته وترسخه مروءته وليس علوه على الناس واعتزاله إياهم فلا يعرفهم ولا يعرفونه.

بل هو يألف الخلق ويألفونه ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف .

و هو يعلم الناس من خلال سلوكه وكلماته وحاله جنبا إلى جنب مع مقاله.

و هو في عدم تكلفه يقتدي بمورثه ﷺ الذي ما كان يوما من المتكلفين وكان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ولا يعرف مجلسه بين أصحابه رضوان الله عليهم أولئك الذين شهدوا له أنه كان أرأف معلم بأبي هو وأمي ﷺ.

كان يأكل كما يأكل العبد ويجلس كما يجلس العبد ويقول: إنما أنا عبد.

اختار أن يكون في بيته في مهنة أهله يرقع ثوبه ويخصف نعله ويحلب شاته ولا يقف على بابه حارس ولا حاجب.

يركب بغلته ويحج على رحل رث ويفترش حصيرا خشنا يؤثر في جنبه الشريف.

يأبى أن يقوم له أحد ويحرص أن يجلس حيث انتهى به المجلس حتى أن الأعرابي من هؤلاء كان يأتيه بين أصحابه لا يعرفه فيقول: أيكم محمد ؟

كان دوما مثالا للتواضع وخفض الجناح وعدم التكلف.

ما يترك يد أحد سلم عليه حتى يكون هو نازعها أولا وما نحى رأسه عن أحد تيمم أذنه يحادثه في أمر أهمه حتى يفرغ وما صعر يوما خده لصغير ولا كبير

تأتيه الصغيرة لبعض شأنها فيذهب معها وإلى جواره رجل من عظماء العرب ظن للحظة أنه ملك يمشى إلى جوار ملك فإذا به يقف مشدوها لفعله حين يتركه ويذهب مع الجارية ليشفع لها عند سيدها الذي ضربها.

يمزح مع هذا ويبسط وجهه في وجه ذاك ويلين لأولئك.

وهل ننسى أبدا حين اشتمل زاهر بن حرام مازحا وقائلا من يشتري العبد فيرد زاهر بانكسار: إذا تجدني كاسدا فيجبر خاطره ويطمئن فؤاده قائلا ولكنك عند الله لست بكاسد.

لو شاء لكان أغنى الناس وأعلاهم ملكا وأرفعهم مجلسا ومع ذلك يجيب دعوة خادمه أنس ليطعم من طعامه البسيط في بيت جدته مليكة ثم يقوم ليصلي بهم على حصير بالٍ قد اسود لونه من كثرة الافتراش.

لم يقبل يوما أن يُطرى أويغلو فيه الخلق ويرفعوه فوق منزلة المخلوق وكان يقول بأبي هو وأمي: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم عليه السلام.

وحين جاءه الرجل يناديه: يا خير البرية ينهاه بتواضع لو وزع على أهل الأرض لوسعهم قائلا: « ذاك أبي إبراهيم عليه السلام» وكذا ينهى الأمة أن يخرج منها من يقول يوما: «أنا خير من يونس بن متى».

هذا هو ما ينبغي أن يكون عليه العالم الحق والملتزم القدوة بفعله قبل قوله وببساطته وتواضعه وليس بتكلف واستعلاء يظن البعض أن العلم الواسع يبرره وكثرة الحفظ تسوغه والصلاح والتدين يعطيانه صكا بأن يفعل بالآخرين وبمشاعرهم ما يشاء.

إن الملتزم حقا هو أحد أولئك الذين قال الله فيهم ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

تأمل ..

هونا ..

وسلاما ..

كذلك كان عباد الرحمن.

وكذلك فكن.

**٢٢. وتظنون الظنونا:**

خايفة لو صليت حد من ولادي! .

يموت.

هكذا كانت تبرر امتناعها عن الصلاة.

تلك المرأة الريفية المسنة والدة ذلك الأخ الفاضل.

امرأة بسيطة غير متعلمة، كانت تشبه تلك النوعية الحنونة من الأمهات الطيبات اللاتي يظهرن في روايات نجيب محفوظ وفي أفلام السينما القديمة ذات اللونين الأبيض والأسود.

رغم ما يبدو من طيبتها وحسن معشرها إلا إنها كانت تأبى أن تصلي لفترة طويلة.

نعم هكذا بوضوح.

لا نتحدث عن تقصير أو تفريط في بعض الصلوات بل كان امتناعا كليا ومع سبق الإصرار.

والسبب كما قدمت.

ذلك الارتباط الذهني الوثيق بين التعبد والابتلاء.

لقد استقر لديها ذلك الارتباط وأنشأ تلك النتيجة وسبب ذلك القرار.

في أواخر عمرها وبفضل الله ورحمته؛ قبلت وصلَّت خمسها بانتظام واقتنعت أخيرا أن السبب الذي كانت ترفض أداء الصلاة لأجله = كان سببا وهميا ضللها من أقنعها به يوما أو تسبب في اقتناعها به.

لكن دعنا نتحدث عن خيارها الأولي وقناعتها المبدئية في إطار ما نتناوله من عوائق الالتزام .

قبل أن تتعجب وتندهش كثيرا من خيارها واستنتاجها المبني على سوء ظن بشع وتنسب ذلك إلى قلة التعليم الذي نالته أو انعدام الوعي لديها = عليك أن تتمهل قليلا.

فكثير جدا من المثقفين والمتعلمين يفعلون مثل فعلها ويقولون ما يشبه قولها.

ربما تُعذر هي بقلة العلم وعدم تفتح العقلية التي لم تنل ذلك القسط الكافي من التعليم.

لكن البعض نال أرقى درجات التعلم وارتقى أعلى سلم الثقافة ومع ذلك يفعل مثلها بخوفه من الالتزام الذي يظن أنه سيؤدي لا محالة إلى ضياع دنياه.

يلعب خطاب الابتلاء الحتمي الذي تبناه يوما بعض الدعاة دورا رئيسيا في ترسخ تلك الشبهة.

هو موجود ولابد أن نعترف بوجوده وقد سمعته بنفسي من أفاضل يظنون أنهم بذلك يؤهلون الخلق لحدوث ابتلاءات بينما هم من حيث لا يشعرون يرعبونهم ويصدونهم.

لطالما دخلت معهم في نقاشات منتقدا تلك الطريقة المخيفة وكان مبنى رأيي على أن الحل في التوازن بين الخطابين الترغيبي والترهيبي وتعليم الناس وسائل دفع البلاء ومنع وقوع بعضه أولا.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة المائدة: ٦٦].

ثم التوجيه بحرص ودقة وتبين لحال المخاطب للصبر والجلد إذا حدثت البلايا ووقعت المصائب وليس التبشير بوقوعها لا محالة ومن دون مهرب.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [ البقرة :١٥٥ - ١٥٦].

وليكون المؤمن ممن قيل فيهم.

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [سورة الحج: ٣٥].

لكن هذا الخطاب ليس العامل الأوحد ولا الأهم.

هناك عامل أخطر يتبين من قول المشركين للنبي ﷺ.

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ [القصص: ٥٧].

إنه الظن.

تلك الكلمة التي تعد من أبرز وأهم الألفاظ التي تكررت مادتها في القرآن..

لقد ورد ذكر الظن ومشتقاته في كتاب الله جل وعلا في ستين موضع تقريبا؛ أحيانا كـ « اسم» وأحيانا كـ «فعل» .

اللافت للنظر هو ذلك التنوع في المعنى المراد بالظن حيث يرد بمعناه

الأصلي المتبادر للأذهان وهو الشك والتوهم والحسبان ويرد أيضا بمعنى الاعتقاد بل واليقين الجازم وهذا التفاوت الكبير مما يميز هذه اللفظة القرآنية بشكل واضح وينبغي أن يدرك المتدبر لكتاب الله حقيقة هذا التنوع لارتباطه بهذا الأمر الجلل الذي يتعلق به شيء من أخطر ما ينبغي للمسلم الانشغال به.

**المآل والمصير.**

نعم.. هذه حقيقة يغفل عنها الكثيرون..

المآل مرتبط بالظن في الله سبحانه وتعالى.

وإن قوما فسد ظنهم بربهم ففسدت آخرتهم وهلكوا في النار.

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣].

في هذه الآية من سورة فصلت تصريح بهذا الارتباط الوثيق بين الظن والمآل..

هؤلاء قوم أساءوا الظن بربهم فلم يخشوا نظره ولم يستحيوا من سمعه وبصره بل ظنوا أنه لا يعلم كثيرا مما يعملون.

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٢].

بمقتضى ظاهر لفظ هذه الآية فإن الوقوع فى معصية سر والتستر بها عن كل عين والاحتجاب عن كل بصر إلا بصر الله وسمعه = في ذلك دلالة ضمنية على سوء ظن بالله ونقص فى المعرفة بأسمائه وصفاته وقصور فى تعبده بمقتضاها.

فظن العبد أن ربه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ومعرفته ويقينه باسمه العليم والسميع والبصير من المفترض أن يدفعه كل ذلك لمراقبة مولاه فى السر والعلن فلما لم يفعل دل ذلك على قصور فى هذا الظن وخلل فى تلك المعرفة.

أو أنه يعرف ولكنه لا يهتم ولا يستحيي من ذلك السمع والبصر والعلم.

و رغم أن الآية نزلت فى وصف حال الكافرين الذين سيرديهم ظنهم الذى ظنوه بربهم إلا أن ذلك لا يمنع وضوح ما خلصنا إليه من الارتباط الوثيق بين قضية الظن بالله والمآل الأخروي لذا حرص النبي ﷺ على أن ينبه أمته لتلك القضية خصوصا بين يدي هذا المآل فقال قبل موتِه بثلاثةِ أيام: « **لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ باللهِ عزَّ وجلَّ**» رواه مسلم من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

وعليه فإن هذه المسألة ينبغي أن تنال قسطا أكبر من المدارسة والفهم خصوصا مع ذلك التكرار الملحوظ والتباين الواضح بين المعاني المرادة في كل موضع.

الظن بمعناه المتبادر = درجة من درجات العلم، فهو فوق الشك، ودون اليقين، أو هو اعتقاد وقوع الشيء اعتقاداً راجحًا.

وقيل هو العلم المستند إلى دليل راجح مع احتمالية ورود الخطأ.

ومعاجم اللغة تعرفه بأنه: العلم بالشيء على غير وجه اليقين.

يقال: رجل ظنون: لا يوثق بخبره.

وتذكر تلك المعاجم أن (الظن) قد يأتي بمعنى اليقين، ويستدلون لذلك بالقرآن كما سيأتي بعد سطور.

ولقد عرفه ابن عاشور بأنه: «علم لم يتحقق؛ إما لأن المعلوم به لم يقع بعد، ولم يخرج إلى عالم الحس؛ وإما لأن علم صاحبه مخلوط بشك».

أما في القرآن فيأتي الظن بمعانٍ كثيرة لا يتسع المقام لذكرها جميعا.

ما يعنيني هنا هو ذلك الظن الذي يكون أحيانا اتهاما لله سبحانه .

كما قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة الفتح: ٦].

قال ابن كثير: «أي: يتهمون الله في حكمه ».

تصور أن يتهم مخلوق خالقه!

أن يجترىء ضعيف فانٍ على التطاول على مولاه القوي وبارئه القدير!

من هنا جاء سؤال نبي الله إبراهيم لقومه: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٧]

ذلك هو السؤال الذي ينبغي أن يسأل كل منا نفسه عنه.

ينبغي أن يسأله كل أساء الظن بالله يوما.

كل من امتنع عن خير ظنا منه أن يضيعه الله.

من يأس أو قنط من روح الله.

من ابتغى فضلًا عند غيره أو عزًّا ممن سواه.

إن هذا هو مربط الفرس ومناط التكليف.

ما الظن برب العالمين.

ما المعتقد فيه.
ما الفهم عن أفعاله وأقداره وشرعه.
هل هو ظن القوم البور عياذا بالله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [سورة الفتح: ١٢].
أم هو ظن الجاهلية: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].
هل هو ظن المنافقين والمشركين: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].
أم هو ظن أعداء الله الذين سبق ذكرنا لهم ممن قيل لهم: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢-٢٣].
كل هذه وغيرها إجابات مريعة لذلك السؤال الحاسم.
فما ظنكم برب العالمين؟!
قال الطاهر ابن عاشور: أريد بالظن هنا الاعتقاد الخطأ؛ والمعنى أن اعتقادكم في جانب رب العالمين جهل منكر.
وقد ذكر ابن عاشور أن «الظن كثر إطلاقه في القرآن والسنة على العلم المخطئ، أو الجهل المركب، والتخيلات الباطلة».
لكن على النقيض هناك من أحسنوا الظن وبالتبعية أحسنوا العمل.
هناك من أدرك حقيقة أن له ربا قديرا جليلا غفورا رحيما سميعا بصيرا فتعامل على هذا الأساس وكانت حياته نموذجا عمليا لهذا الظن الجميل برب العالمين.
منهم من أيقن في الآخرة وعمل لأجل تلك الساعة الحاسمة.
ساعة اللقاء والحساب.
﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: ٤٦].
﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾
[الحاقة: ١٩ - ٢٠]
ومنهم من أحسن الظن في قدرته وعطائه كزكريا عليه السلام وقد انقطعت

الأسباب وغلقت سبل الإنجاب لكنه مع ذلك دعا وحسن الظن يحدوه فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾

[سورة مريم: ٤]

ومنهم من أحسن الظن بأمره وشرعه فامتثل ورضخ كقول إسماعيل عليه السلام لأبيه حين أبلغه برؤيا ذبحه ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة الصافات: ١٠٢].

وكذلك فعلت أم إسماعيل السيدة هاجر حين أبلغها نبي الله إبراهيم أن تركها مع وليدها في ذلك الوادي المقفر إنما هو أمر من الله فكان ظنها الجميل يتصدر قولها: آللهُ الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يُضَيِّعُنَا.

ومنهم من أحسن الظن بنصره وتمكينه كمثل الصالحين الذين رافقوا طالوت.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩]

وقبل ذلك بسنين عددا فعل الرجلان من بني إسرائيل مثل فعلهم ونصحوا بينما يكسو نصحهم حسن ظنهم

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة المائدة :٢٣]

إنهما رجلان أنعم الله عليهما بالتقوى والإيمان والفهم الصحيح والعقل الراجح.

والظن الحسن بالله رب العالمين.

ومنهم من أحسن الظن في بلائه وامتحانه كأيوب سلام الله عليه حين قال في تمام الضير وشدة الابتلاء ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

[سورة الأنبياء: ٨٣]

أى أدب هذا الذى ينضح من مناجاته؟!

أي لطف هذا الذي يقطر من عباراته؟!

مسَّني الضر!!

أكل ما مر به يسميه مسَّا؟!

ضياع ماله واعتلال بدنه وفقد عياله وهوانه على الناس.

كل ذلك مجرد مس؟!!

فى هذا الموطن العصيب وقد قرر أيوب أخيرا أن يرفع إلى مولاه شكايته لم ينس الثناء.

لم تنسه بلاءاته حق ربه من شهود مقام الامتنان بعطاء الربوبية وسابغ النعماء.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٣].

ها هو صاحب البلايا والأسقام والرزايا المريض المسكين ينادى أرحم الراحمين.

يقر له بالرحمة.

بل تمام وكمال الرحمة.

الرحمة التى شكك ويشكك فيها أقوام لم يذوقوا معشار ما ذاق أيوب مع ذلك لم يتزعزع حسن ظنه بالله قيد أنملة ولم يهتز إيمانه ويقينه بربه لحظة.

ومنه قول أصحاب الكهف.

﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ .

[الكهف: ١٦]

أكان هذا رأيا قاله أصحاب الكهف أو خلص إليه بعضهم؟!

أم أنه كان إلهاما أُلقي في روعهم؟!

المعلوم أن أصحاب الكهف لم يكونوا أنبياء ولم أقف على أحد قال بوحي أوحي إليهم.

إذن فمن قائل هذه العبارة.

ما هو مصدر تلك المعلومة المستقبلية التي قيلت بصيغة جازمة قطعية.

﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

هذا غيب لا يعلمه إلا الله .

وتفاصيله تخالف طبيعة الأشياء كما سبق وبينت أن المعتاد ليس كون الكهف محلا للراحة أو يحتوي على مرافق الحياة.

وما سنراه بعد ذلك هو تحوله فعلا لموضع رحمة وامتلاءه بمرافق الحياة التي حفظت الفتية وكلبهم.

الشمس تميل عن كهفهم في شدتها ثم تقرضهم شيئا من ضيائها النافع حال خفوت قسوتها والأعين مفتحة كي لا يخبو ضياؤها أو يجترىء عدو أصحابها والأبدان تقلب يمنة ويسرة درءا لتقرحها والكلب إلى جوار الرعب على مدخل الكهف يحرس تلك الأبدان ويكلؤها.

هل علم الفتية كل ذلك قبل أن يأووا إلى الكهف وهم كما قلنا ليسوا بأنبياء ولا مرسلين؟!

الإجابة = كلا.

لم يعلموا.

رغم ذلك كان القول الأول والأصل الموثوق به.

﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ [الكهف: ١٦].

إنه الظن الحسن.

الظن بالله الذي هو عند ظن عبده به.

وسواء كانت تلك كلماتهم أو كلمات تصف حالهم فالمآل واحد وما أجمله.

مآل الظن بالله رب العالمين.

ومنه أخيرا وليس آخرا السؤال الجامع الذي وجهه النبي ﷺ لصاحبه في الغار «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**».

كل ما سبق من نماذج الظن الحسن وغيرها كثير مما يحصيه مقال هي لأناس لم يحل ظنهم بينهم وبين العمل والأخذ بالأسباب بل كان حسن ظنهم في الحقيقة دافعا ومحركا لهم لمزيد من العمل وما كان دعاؤهم المتصل إلا جزءا من هذا العمل.

عملا لا يدرك قيمته العاجزون والعاجز حقا من من عجز عن الدعاء كما صح عن رسول الله ﷺ.

أما حين تنقطع الأسباب ويبرز إلى السطح خطاب اليأس والإحباط والقنوط وتعلو أصوات حملته فعندئذ ينبغي إعادة ذلك السؤال الإبراهيمي الجامع.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [**الصافات: ٨٧**].

وهنا تبرز في مقابلة هذا السؤال تلك الإجابة الربانية الذي حواها ذلك الحديث القدسي الشهير..

أنا عند ظنِّ عبدِي بي.

إنْ ظنَّ خيرًا فلهُ .

وإنْ ظنَّ شرًّا فلهُ.

فما ظنكم به؟!.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [**الصافات**: ٨٧].

## ٣٢ـ البحث عن السعادة :

من جملة الظنون السيئة والمخاوف التي يلقيها الشيطان في القلوب لتحول بين الإنسان وبين اتخاذ قرار الاستقامة وتعد من عوائق الالتزام ذلك الظن بأن حياة الالتزام جافة أو فارغة من كل متعة ولذة وأن الملتزمين يعانون بشكل مطلق من عنت العيش وضنكه وكآبته وأن النعيم واللذة أشياء لا يمكن تذوقها إلا في الآخرة ؟!

هذا ما يظنه البعض للأسف ويحول بينهم وبين اتخاذ قرار الاستقامة.

حياته الآن مليئة باللذات صاخبة تكتظ بالمتع والشهوات يرتع ويلعب ويلهو كما يحلو له.

وهو يتصور أن ذلك كله سيزول إذا التزم بل وسنقلب لضده ويساعده على ترسيخ هذا التصور ما تحدثنا عنه من قبل مما يفعله بعض المنفرين من تجهم مستمر ومسكنة متكلفة وإيحاء دائم أن حياة التدين كئيبة مقبضة لا تحوي أدنى لذة.

من هنا يستقر الظن أن الدنيا لا تحوي إلا المشقة وليس فيها إلا التعب والحزن والألم.

البعض يصرحون بهذا بالفعل ويحتجون عليه بقول ربنا جل وعلا ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [**البلد**: ٤].

وهذه قاعدة قرآنية واضحة ومحكمة ودلائلها الواقعية مشهودة ومدركة.

نعم.. الإنسان في هذه الدنيا يعيش في كبد ومشقة ويكدح فيها كدحا ويمضي في دروبها من كدٍ إلى نَصَبٍ ومن نَصَبٍ إلى وَصب.

هذه حقيقة ذلك السجن المزين الذي يعتقده الكافر جنته ومنتهى أمله.

لكن لماذا ربط ذلك الكبد بالالتزام أو قصره وحصره على الصالحين المتدينين؟

إن جميع الخلق غنيهم وفقيرهم وقويهم وضعيفهم يستوون في أصل وجود الكبد والمشقة وإن كانوا يتفاوتون بعد بذلك في درجات ملاقاة هذا الكبد وتلك المشقة ومنهم ومنهم من يعاني الأمرين في عيشهم ومنهم من تعجل لهم طيباتهم في حياتهم .

وحتى أولئك الذين قد يبدو على ظاهرهم أنهم قد حازوا الدنيا بحذافيرها أيضا يلاقون في حقيقة الأمر شيئا من الكبد فالكبد طبيعة الحياة الدنيا .

تختلف أشكاله وأسبابه ولكنه هو الكبد في النهاية.

وأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشق في الحياة الأخرى.

وكل نعيم الدنيا زائل وكل متاعها ناقص ودوما ما يعكر صفوه كدر ما، مهما بلغت درجة النعيم وإن رفل في جنباته الملوك وأبناء السلاطين.

قَالَ رَجُلٌ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! صِفْ لَنَا الدُّنْيَا . قَالَ : وَمَا أَصِفُ لَكَ مِنْ دَارٍ مَنْ صَحَّ فِيهَا أَمِنْ، وَمَنْ سَقَمَ فِيهَا نَدِمَ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ، وَمَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ، حَلَالُهَا حِسَابٌ، وَحَرَامُهَا عَذَابٌ؟!. ابن عبد البر : المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٣٧١ .

ولما أدرك العقلاء ذلك في كل زمان = عملوا لراحة أنفسهم الراحة الحقيقية التي لا تكون كما قال الإمام أحمد رحمه الله إلا مع أول قدم توضع في الجنة بفضل الله .

ولما قيل للربيع بن خثيم هلا أرحت نفسك – لما وجدوا من نصبه في عبادة الله = رد عليهم قائلا: راحتها أريد.

وقال القشيري : " فمن أُجير من النار وصل إلى الراحة الكبرى ، ومن صُلِّيَ بالسعير وقع في المحنة الكبرى .

**ومن أراد العُلا عفوًا بلا تعب ... قضى ولم يقض من إدراكها وَطَرًا**

**لا يبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة ... ولا تتم المنى إلا لمن صبرا**

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: " وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يُدرك بالنعيم، وأن من آثر الراحة فاتته الراحة، وأنَّ بحسب ركوب الأهوال

واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا همَّ له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلاً استراح طويلاً، وإذا تحمل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة، والله المستعان، ولا قوة إلا بالله.

هذا هو الأصل والمآل الذي يبغي كل عاقل أن يصيبه.

هناك مشقة وعنت يجده البشر في هذه الدار.

وهنالك كَبَد .

لا شك في هذا.

لكن القول بأن هذه هي الدنيا وحسب وأنه لا يمكن لملتزم أو غير ملتزم إدراك السعادة واللذة في دنياه = غير صحيح بهذا الإطلاق.

في الدنيا يمكنك أن تتذوق شيئا من السعادة والحياة الطيبة.

لذلك ستجد الجميع يبحثون عنها.

عن السعادة.

تلك حقيقة لا يمكن لأحد أن ينكرها.

كل منا يريد حياة طيبة .

يريد لذة أو متعة طالت ودامت أو قصرت وكانت سريعة عابرة.

في النهاية أصل المقصد واحد وإن تنوعت أشكاله وصوره.

البشر يريدون السعادة ومن رحمة الله بعباده أن جعل مسببات تلك السعادة متنوعة وجعل عواملها نسبية.

فسعادة الطفل بلعبة جديدة ولو كانت رخيصة هي سعادة.

و سعادة الفقير ببعض اللحم يوم العيد هي أيضا سعادة.

وكذلك سعادة أسرة متوسطة الحال بيومين في مصيف رخيص متواضع = تعد لديهم سعادة.

وسعادة الملياردير على شاطىء الريفييرا أو فى منتجعه بالساحل الشمالي أو على متن يخته الفاخر في أحد الموانيء الهادئة.

هى أيضا سعادة.

هذه سعادة وتلك سعادة.

حتى لو اختلف التأثير من سبب لآخر ومن شخص لآخر ومن بيئة لأخرى

فالمحصلة الشعورية فى النهاية واحدة.

ستظل... سعادة!

نفس مرادفات البهجة وعلامات السرور وأمارات الفرحة سيجدها هذا وذاك وإن اختلفت الطرق والوسائل.

صحيح أن ما يسعد الفقير لن يسعد الغني وما يبهج الكبير قد يسبب اكتئابا للصغير وما يسر المسن قد يضجر الشاب اليافع لكن كلا منهم سيجد في النهاية ما يسعده أو على الأقل سيسعى للوصول إليها.

إلى السعادة.

إلى ذلك الشعور الذي قد يدفع البعض لأجل تحصيله أموالا طائلة ويبذلون جهودا - وربما دماءً سواء كانت تلك الدماء لهم أو لغيرهم - وقد يطأون غيرهم في طريق تحصيله.

المهم أن يصل إليه.

وأن يزيده ويجوده.

فكما أن السعادة نسبية فهي كمية؛ تزيد وتنقص.

مع الوقت قد يمل السعيد وقد يشعر بالحاجة للمزيد ومن ثم يبذل ويبذل ليصل إلى منتهى اللذة وغاية البهجة .

وكثيرون يصلون بالفعل .

لكن حتى لو نجحوا وأصابوا مقصدهم وبلغت السعادة أقصاها فإنها ستظل سعادة دنيوية بمعايير ثابتة يحويها وعاء مادى قاصر لا يتمدد إلا لدرجة معينة لا زيادة عنها.

والحلال من تلك السعادة واللذة والمتعة ليس محجورا ممنوعا عن المستقيم الملتزم.

بل هو له في الدنيا خالصا في الآخرة.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٣٢].

ولقد رُوي عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: ما تمتع الفجار بشيء إلا تمتع به الأبرار وزادوا عليه تقوى الله.

هذا في أبواب السعادة المادية التي يحويها وعاء محدود لن يجاوز قدره

أما السعادة التى لا يمكن أبدا قياسها بمعايير ولا تقييدها بحدود ولا تحدها أُطُر فهى سعادة القلب فى طاعة الله.

هى أفراح الروح بسجدة تهفو فيها النفس وتحلق فى ملكوت السماء والأرض.

هى فيوضات من البهجة تنهمر على ثنايا الفؤاد بمناجاة خاشعة أو تسكبها على الروح تسبيحة متبتلة مختلطة بدمعة عابدة متبتلة.

هى الحياة الطيبة..

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وتلك الحياة الطيبة هي جنة الدنيا التى لا يتذوقها عاقل ثم يحيد عنها لغيرها أو يعدل بها شيئا.

في الدنيا يمكنك أن تتذوق شيئا من نعيم تلك الحياة الطيبة.

بل يمكنك إدراك ما هو أعلى بأن تحول حياتك إلى جنة عاجلة.

أن تنعم وأنت بين ظهراني الحياة الأولى بشىء من لذات الآخرة.

هذا النعيم قد أدركه البعض ووصفوه.

فمن جنة ابن عباس -رضي الله عنهما- الذى وجد من لذة العبادة ما جعله يقول عن أهل جنة الآخرة أنهم لو يجدون مثل ما يجد فما أطيب عيشهم.

إلى جنة ابن تيمية التى أخبر أن محلها فى صدره إن سُجن فسجنه خلوة فى تلك الجنة وإن قُتل فقتله شهادة تنقله منها إلى جنة الآخرة وإن نُفى فنفيه سياحة وتأمل فى أرض الله تدفع القلب دفعا إلى ذكره ليجوب وارف ظلال جنة الدنيا.

إلى جنة الحسن البصرى الذى أخبر أنه ومن كانوا مثله يجدون فيها من النعيم واللذة ما لو علمه أبناء الملوك والسلاطين لجالدوهم عليه بالسيوف.

الأمر ممكن والبعض بالفعل أدركه وعاينه وتقلب في حدائق بهجته وبساتين لذته.

الدنيا إذا ليست شقاءً خالصا كما يظن البعض.

بل يمكنك أن تجعلها جنة وأن تتذوق طعما مختلفا للسعادة وتطرق أبوابا أخرى تنال بها شيئا من تلك الحياة الطيبة .

هنا. .. في الدنيا.

الدنيا إذا ليست شقاءً خالصا للمؤمنين.

والله يقول في سورة طه : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٢].

ويقول أيضا في نفس السورة : ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾.

[طه: ١٢٣]

ومـرة ثالثـة فى قولـه عـن الشـيطان ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧].

والملاحظ هنا أن الشقاء نفى في موضعين بالسورة وأثبت فى موضع.

نفي حال ملازمة القرآن واتباع منهج الله وهداه وتلك جنة الأرض.

وأثبـت الشـقاء حـال الخـروج مـن جنـة السـماء حـال الاسـتجابة لنزغـات الشيطان.

والمعنى الذى يتجلى بجمع هذه الآيات أن الشقاء إنمـا يكـون خـارج الجنـة والنعيم يكون فقط داخلها .

وذلك فى الدنيا قبل الآخرة.

نعم قد تعجل مثوبة في الدنيا كما قد تعجل عقوبة.

قد يظن الناس أن الفاسق منعم مستمتع تماما وهـو معاقـب دون أن تشعر أو يشعر هو نفسه.

مـن العقوبـات العاجلـة التـي قـد لا يلحظهـا الخلـق = أن يطفـأ نـور القلـب وتخيم عليه الوحشة والظلام.

أن تغادره السعادة بغير رجعة ويرحل عنـه الرضـا بـلا عـودة وتتركـه السكينة وتجافيه الطمأنينة .

قـد لا تـدرك حقيقـة كونـه يعاقـب وقـد يشـوش علـى حالتـه غـلاف البهجـة المصطنعة والمرح الزائف لكن ذلك في حقيقة الأمر ما هو إلا مجرد قشرة زائفة تحجب نيرانا تضطرم في قلبه وتتلظى بهت روحه وتحترق بها نفسه.

نيران كآبة المعصية والمعيشة الضنك .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤].

تأمل الكلمة.

﴿ضَنكًا ﴾.

هذا هو شعار حياته.

ضيق وحزن واكتئاب واختناق.

يحاول الخروج من تلك الحالة بمعصية أخرى وترفيه من نوع مختلف فتزداد الكآبة والاختناق.

ذلك لأنه لم يدرك ببساطة أنه يُنبه وأن ما هو فيه بداية العقوبة.

يتساءل دائما عن سر ذلك الحزن وذلك الظمأ الذي لا يرتوي ولا يجيب نفسه أبدا بالحقيقة.

أن معاصيه هي السبب.

أنه ببساطة = يعاقب.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ **[العنكبوت:٤]**.

هذه هي الحقيقة الواضحة.

لا يظنن العاصي أنه أثناء تلذذه بهذه الشهوة المحرمة أو تلك المعصية أو الكبيرة أنه قد سبق ربه.

لو شاء الله لعذبه بذات المعصية التي حاربه بها العاصي وفجر عن طاعته بها الفاجر .

لو شاء لعذبه بالمال الذي اكتسبه من الحرام والعلاقة التي ارتضاها في الحرام ربنا.

ولربما يكون الشقاء هو وحده عذاب.

شقاء القلب.

هذا الشقاء يقل بل قد ينعدم قلبيا كما انعدم في جنة الآخرة.

ينعدم حال المكث فى جنة الدنيا التى حدثنا عنها العباد والصالحون وكرروا ذكرها والتى هى في الحقيقة الطريق لجنة الآخرة حيث لا شقاء ولا نصب ولا وصب ولا جوع ولا ظمأ.

لكن كيف يعيش المرء في تلك الجنة وكيف يتذوق شيئا من نعيمها وهو بين ظهراني الدنيا؟!

سؤال كان دائما يثير في عقلي مكامن التفكير ويحرك في قلبي حنينا واشتياقا لتلك اللذة .

ولقد نظرت في نعيم أهل الجنة الذي كلمنا ربنا عن شيء منه في كتابه الكريم

فوجدت كثيرا مما فيه يمكن تذوقه في الدنيا.

فمن نعيم أهل الجنة مثلا أنهم لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا كما في خاتمة سورة النبأ وكذلك ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦] كما في الواقعة.

يُفهم من ذلك إذا أن سماع اللغو والكذب والإثم يعد من منغصات الدنيا وضيق عيشها.

ولكم أعجب ممن بإمكانه أن يتذوق بعض ذلك النعيم بالإعراض عن سماع اللغو كما أمره الله ومع ذلك يدمن تنغيص حياته ويزكم أنفه برائحة اللغو والكذب الخانقة.

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥ ] وهذا توجيه قرآني جليل يتذوق من استجاب له بعضا من نعيم ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴾ [النبأ: ٣٥].

فقط عليه أن يكون من عباد الرحمن الذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما.

إنهم أهل الفردوس المؤمنون الذين من أهم خصائصهم التي ذكرت في سورتهم ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣].

وتلك والله نعمة وفضل لا يشعر به إلا من تمكن من الاستعلاء على آثام الدنيا ولغوها وكذبها والتفت إلى ما ينفعه وحرص عليه .

أما من أدمنوا مجالس اللغو والغيبة وتحروا فاحش القول وساقط الكلام فما أبعدهم عن تلك اللذة وما أشد حرمانهم من هذه النعمة التي هُدي إليها أهل الجنة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ [الحج: ٢٤].

يقول ابن كثير رحمه الله: فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون ويقرعون به.

ومن نعيم أهل الجنة أن صدورهم مطهرة منزوعة الغل يرفلون في ثياب المحبة ويتقلبون بين واحات سلامة الصدر ونقاء الطوية ويستظلون بوارف ظلال الأخوة الإيمانية.

- يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة..

فاجأ النبي ﷺ أصحابه بتلك الجملة بين يدي دخول ذلك الرجل.

لا أحد يعلم اسمه ولم تعرف روايات لهذا الحديث تشتمل على لقبه أو كنيته ولا عرفت شخصيته أو أثرت عنه مواقف أخرى.

فقط تلك الصفة العظيمة التي وصفه النبي بها وعرفنا بعد ذلك سببها الذي لم يكن كثرة صلاة ولا صيام .

إنه رجل يعيش جنة في الدنيا بلغته أن يكون من أهل جنة الآخرة.

جنة النقاء وطهارة القلب..

إنها قبسات من نعيم الآخرة يمكن لمحها وتذوقها في الدنيا.

من ضمن تلك النعم سلامة الصدر وطهارة الفؤاد.

إن من نعيم أهل الجنة أن صدورهم مطهرة منزوعة الغل يرفلون في ثياب المحبة ويتقلبون بين واحات سلامة الصدر ونقاء الطوية ويستظلون بوارف ظلال الأخوة الإيمانية.

وفي هذا يقول الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

**[الحجر: ٤٧]**

من ذلك يتبين أن الغل والحقد حين يستعر القلب بلهيبه فإن هذا من عذاب الدنيا وضيق عيشها الذي يحجبه الله عن أهل الجنة ويطهرهم منه.

إن صدر الحاقد دائما ما يكون ضيقا مليئا بالحزن يمزقه اللهاث المسعور ويسيل لعاب طمعه على ما فُضل به غيره .

وهو لا يرتاح أبدا لأنه يرى أن الكل لا يستحقون ما هم فيه بينما هو وحده من يستحق!

ولو أنه انشغل بأداء ما عليه واجتهد ثم ترك النتائج لمن يخفض ويرفع ومن بيده الضر والنفع لارتاح وأراح لكنه يصر على مد عينيه إلى ما متع به غيره فيظل في ذلك العذاب طويلا إلا لو جرب يوما أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

وهو بالمناسبة شعور أجمل بكثير من الحقد.

إن أكثر ما يطهر القلب من الغل والحقد وينقي النفس من شوائب النظر لما فى أيدي الغير فهو إدراك الإنسان لمعنى القاعدة القرآنية الجامعة ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن

تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

فإن أدرك العبد أن ربه وحده هو من يخفض ويرفع ويعطي ويمنع وأن مطالبه مهما كانت بعيدة وصعبة المنال فلا يأتي بها إلا هو؛ فعلى ماذا يحسد ولماذا يحقد؟!

إن عبارة ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ١٦] إن صارت مبدأ حياة تنعم المرء وسلم صدره من أسقام الحقد وأدران الغل وأوجاع الحسد واستبدل كل ذلك بالطمأنينة والرضا وحب الخير للناس.

وهذا النوع من النعيم يستطيع المرء تذوق لذته في الدنيا وذلك بشيء بسيط يسير فقط على من يسره الله له وصدق في طلبه

بأن تطهر قلبك وتصفي سريرتك تجاه الناس بأن تبيت -أو على الأقل تحاول- وليس في صدرك غلاً للمؤمنين كحال ذلك الرجل من أهل الجنة والذي صدرنا الكلام بقصته

يعينك على هذا أن تعود لسانك على دعاء الصالحين ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

إن حققت تلك الأخوة وأدركت سلامة الصدر وأحببت لأخيك ما تحب لنفسك وكلَّلت ذلك بإحسان الظن والتماس العذر وختمت على ذلك بختام العفو والصفح الجميل فهنيئا لك.... لقد سرت خطوة أخرى في رحلة البحث عن السعادة وأدركت شيئا آخر من نعيم أهل الجنة وأنت لم تزل في الدنيا

وأهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد والتكبير كما نلهم نحن في الدنيا التقاط أنفاسنا وقد صح ذلك عن رسول الله ﷺ وصح عنه أيضا أن أول زمرة يدخلون الجنة يسبحون الله بكرة وعشيا ويقول الله عن أهل الجنة ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

[يونس: ١٠]

وبما أن كل ما في الجنة نعيم فيفهم من ذلك أن ذكر الله مما يتنعم به أهل الجنة.

وعليه فإن هذا النوع من النعيم أيضا يستطيع المؤمن المسدد أن يتذوقه وهو في هذه الدار الفانية وذلك بأن يرطب لسانه ويحيي قلبه دوما بتسبيح الله وتحميده وتكبيره وذكره آناء الليل وأطراف النهار.

وتلك وربي جنة في الدنيا بساتينها وحدائقها تورف في قلب المؤمن وتلقي بظلالها على روحه وتزهر بها جنبات نفسه.

ولقد جعل الشرع بعض الأذكار ذات علاقة وثيقة ومباشرة بالجنة ونعيمها.

فلا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة.

ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب.

وذلك من تمام الطمأنينة التي هي من صميم نعيم أهل الجنة.

ولقد أخبر ربنا أنه حتى النعيم المادي الذي يشابه في وصفه نعيم الجنة لفظا ومعنى إنما ينال في الدنيا بالذكر والاستغفار ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾.

[نوح: ١٠-١٢]

هذه الجنة الدنيوية - جنة الذكر = لا يتذوق لذاتها ولا يستظل بظلالها أولئك الذين ألفوا الذكر كعادة جافة ولكن من يتذوقه حقا من تدبر ما تلاه وتأمل في سناه ورطب قلبه قبل لسانه بفحواه ومعناه.

أولئك فقط يدركون تلك اللذة والنعم التي يلهمها أهل الجنة.

أما أعظم نعيم أهل الجنة والذي هوالنظر إلى وجهه سبحانه وتنضر الوجه بذلك الفضل العظيم وتلك النعمة الجليلة فهذا وإن كان لا ينال في الدنيا بحال فإن النبي قد قرن طلبه إياه بلذة أخرى لعلها تصبر البعض في الدنيا على امتناع لذة النظر إليه فيها.

تلك اللذة هي الشوق إلى لقائه والتي أردف بها رسول الله ﷺ دعاءه لمولاه أن يرزقه لذة النظر لوجهه.

والشوق إلى لقاء الله نعمة لا يدركها إلا من عرفه حق المعرفة وتعلم عنه وتجول في رحاب معاني أسمائه وصفاته ونعمه وآلائه

هنا يصيح قلبه المشتاق بصيحة الكليم ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه: ٨٤].

وتلك والله أعظم جنان الدنيا.

أن تعجل لربك ويتحرك القلب بالشوق إليه وتتلذذ الروح بمحبته.

بذلك الذي ذكرته وغيره مما لم يتسع المقام لذكره قد تقترب شيئا ما من سكنى تلك الجنة وتذوق بعض لذاتها.

هنا..

في الدنيا..

ثمة جنة هاهنا

جنة الدنيا

وسعادتها التي تبحث عنها.

## ٤٢. سفاسف:

منذ فترة كنت في مناسبة ما وكان أغلب الحاضرين في ذلك المجلس الودي في مقتبل سن الشباب وحقبة الجامعة وما قبلها.

حدث نقاش بين الحضور حول التناسب بين الزوجين والصفات المشتركة والتي لابد أن تتوافق لدوام العشرة بينهما.

كان الحوار يسير بشكل طبيعي حتى قرر أحد الحضور أن من أهم أسباب الفشل في العلاقات الزوجية يتركز في عدم التناسب بين صفات الزوجين.

حتى هنا لا توجد مشكلة.

استطرد الشاب مقترحا مراجعة صفات كل من الزوجين للوصول إلى إمكانية التوافق قبل الزواج .

عادي..

وما المانع؟

لكن لحظة.... كيف سندرك صفات كل منهما بشكل حيادي لا دخل فيه للتجمل الذي يسبق الزواج عادة؟

سألت بسذاجة..

علمت أنها سذاجة حين نظر لي جل الحضور بدهشة ممزوجة بإشفاق على مستوى الجهل الذي أتمتع به.

معقول يا دكتور تسأل سؤال بديهي زي ده؟

الأمر لم يعد صعبا ولا يحتاج لتعقيدات.

الأبراج يا دكتور تكشف كل شيء.

هو صحيح يا دكتور إنت برجك إيه؟

بعينين يقطر منهما عدم الاستيعاب وأذنين أعجميتين عن تلك اللغة التي يتحدثون بها تابعت رد فعلهم.

ثم صدرت عني ضحكة تنم عن الفهم أخيرا وأنا أقول باطمئنان: مش تقولوا إنكم بتهزروا..

تلاشت ضحكتي تدريجيا حين لاحظت نظراتهم الجادة تتابعني وأفواههم التي لم ترتسم عليها مجرد ابتسامة.

ماذا؟

الأمر ليس مزحة؟

تؤمنون فعلا أن الأبراج لديها الإجابات؟

بالطبع يا دكتور.

مش بس كدة .

أيضا هناك معايير واضحة للتناسب.

مثلا مواليد برج العقرب لا يتفقون مع مواليد برج الميزان بينما يميل برج السرطان إلى العقرب والحوت وينجذب الى الأسد والحمل.

يُغرم برج السرطان بالدلو لكنه يفضل الارتباط بالجدي أما ذلك الأخير فلا يتفق مع القوس ولا الحمل وهذا بدوره يفضل الميزان عند زواجه بينما قد لا يتفق مع الثور ولا الجدي ويؤدي ارتباطه بأحدهما لكوارث حقيقية!

ظلت عيناي تتسعان وحاجباي يكادان يمتزجان بمقدمة شعر رأسي وقد ذهب الحوار الجاد بعيدا عني وانشغل المتحاورون الشباب بالنقاش حول ذلك التناسب والتنافر بين الأبراج.

لم ينس أحدهم أن يستنكر على مطرب ما (أظنه عمرو دياب) أن آثر برج الحوت بالثناء في إحدى أغنياته الأخيرة.

زعم صاحبنا أن هذا البرج لا يستحق هذا الثناء من الهضبة وأنه قد جانبه الصواب في كلمات الأغنية.

اتضح بعد ذلك أن الشاب قد مر بتجربة فاشلة مع إحدى مولودات برج الحوت الذي صار بالنسبة إليه معاديا منذ ذلك الحين.

تدخلت في الحوار من جديد متصنعا الجدية ومستنكرا إنكاره على

المطرب؛ ذلك لأن برج الحوت قد يكون غير مناسب للشاب لكن ما يدرينا لعله يناسب عمرو دياب وهذا شأن يرجع إليه.

نظرات شذر تكاد تحرقني وجهها الشاب ومن حوله إلى شخصي المسكين وقد أدركوا فيما يبدو أني أسخر من الأبراج .

صاح أحدهم بحسم: يا دكتور ده علم وقواعد وحاجات مجربة مش معنى جهلك بها إنها مش حقيقية.

ثم صرف الصائح وجهه مكملا حديثه بشغف مشترك مع الباقين.

أدركت عندئذ أني غريب على هذا المجلس وأعجمي عن تلك اللغة.

عندما عدت قررت أن أقوم ببحث عن هذه القضية لأدرك مدى تأثيرها وانتشارها.

وكانت المفاجأة.

مفاجأة تشبه تلك التي أصابتني حين اكتشفت الصراع المحتدم حاليا بين اثنين من المطربين لم أسمع عنهما من قبل واتضح لي رغم الإسفاف الرهيب والنشاز الذي يقدمانه أن الملايين يعجبون ويتابعون هذين (النجمين) وأمثالهما الأبراج كذلك.

قضية حيوية جدا ومؤثرة جدا على عدد غير قليل من الناس فيما ظهر من خلال بحثي المبدئي.

هناك برامج ومقالات وتحقيقات صحفية تعنى بكل جدية بهذه الأمورالتي يتعلق بعضها بالعقيدة وبشكل مباشر حيث يؤول الأمر في النهاية إلى معتقد بتحكم النجوم في صفات البشر ومصائرهم وأقدارهم ويدخل هذا للأسف في أبواب التنجيم وربما بعد ذلك التكهن والعرافة.

كل هذا طبعا لا يعني أولئك المهووسين بالأبراج ومنهم طبعا ذلك الشاب الذي عثرت على مقاطعه أثناء استقصائي عن الأبراج ووجدت صفحته تتصدر بحثي وتحوي عشرات المقاطع التي يتحدث فيها بكل حماس وشغف عن الأبراج وعلاقات أبناء تلك الأبراج بعضهم ببعض وما يتناسب وما لا يتناسب وما يصلح وما لا يصلح وموضوع كبير جدا يتحدث عنه نجم هذه المقاطع الشهير الذي ينال على تلك الترهات التي يلقيها بحماس عشرات الآلاف بل مئات الآلاف من الإعجابات والمشاركات فضلا عن ملايين المشاهدات.

هناك من يشتري تلك البضاعة.

وهؤلاء للأسف ليسوا قلة.

قصدت بعدها إلى إلقاء بعض (بلالين) الاختبار في أي محفل أكون فيه بحضرة بعض شباب فأطرح ذلك الأمر بشكل يبدو عرضيا لأفاجأ أني في كل مرة الجاهل الأوحد بينهم.

هم يعرفون الأمر جيدا.

وبينهم من هم خبراء فيه.

وربما نصفهم على الأقل مهتمون به بشكل لا بأس.

اهتمام يشبه ذلك الذي لدى فصيل آخر ربما يكون أكبر منهم يهتمون بمعشوقة الجماهير.

كرة القدم.

تلك التي لا تنتهي آثارها بانقضاء الدقائق التسعين إلا ما ندر.

إنه الهم والانشغال.

(يوم ما أبطل أشجع هكون ميت أكيد).

شعار معروف من شعارات الجماهير المتعصبة.

التشجيع لديهم ببساطة = حياة.

وتلك الحياة تنقضي أحيانا بسببه.

هذا ما حدث منذ أيام وسمعنا به جميعا عند موت مشجع (وقيل أكثر) بسبب تأثره بهزيمة فريقه.

ناهيك عما يحيط بأي مباراة مهمة من مشاحنات وسباب وأحيانا قذف أعراض واكتساب أمراض في القلوب قبل الأبدان وكل ذلك بسبب لعبة.

نعم... تخيلوا المفاجأة هي لعبة والله العظيم.

البعض نسي ذلك تماما.

نسيه وهو ينحت أصنامه بيده ويبني قدواته التي ينبهر بها ويتأسى وينسى أنه ما أتى بها إلا من خلال المستطيل الأخضر لتؤثر على حياته ومستقبله خارجه.

إنها ببساطة صناعة التفاهة .

أو الأصوب تسمية ذلك الذي يحدث بتضخيم ما شأنه التهوين.

تضخيم السفاسف والتفاهات.

نعم هي كذلك شاء من شاء وأبى من أبى.

مادام الأمر يتعاظم إلى هذا الحد فلا مفر من تسمية الأشياء بمسمياتها دون مواربة أو مجاملة.

غاية ما في تلك الأشياء كلها إن خلت من تحريم أو كراهة شرعية (وجلها لا يخلو) = أن تكون في إطار ومستوى لا ينبغي أبدا أن تجاوزه.

الترفيه.

التلذذ والمتعة.

الترويح عن النفس.

التسلية وكسر روتين الحياة القاسي.

هذا كله كاصطلاح فيه المباح والجائز وفيه المحرم ولا أريد أن أتحدث بتفصيل فقهي ليس هذا مقامه وليس أصلا ما أجيده.

لكن أتحدث عن المبدأ .

تلك الترفيهيات لابد أن تظل في موقعها الطبيعي.

أم أن تتضخم وتتعاظم لتأكل أفكارنا وتنهش وعي شبابنا فتلك وربي كارثة وهذا من أهم العوائق التي نتحدث عنها.

عوائق الالتزام .

نعم... تعاظم التفاهات عائق رهيب يحول بين المرء وبين قبول الهداية إذا جاءته وذلك لعدة أسباب بعضها قلبي وبعضها غريزي وبعضها فكري.

القلب ابتداء هو وعاء له طاقة وسعة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه = تنقص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما كرهه.

ومن أكثر من السفر إلى زيارات المشاهد ونحوها = لا يبقى لحج البيت الحرام في قلبه من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة.

ومن أدمن على أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم = لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع.

ومن أدمن قصص الملوك وسيرهم = لا يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذاك الاهتمام، ونظير هذا كثير »..

هذا والله كلام نفيس يعبر عن تلك الحقيقة التي نصر على تجاهلها حين

نملأ قلوبنا بالتفاهات ونشغله بكم رهيب من الشواغل ثم نعجب حين تسيطر عليه شياطين الغفلة.

حقيقة السعة المحدودة التي حين تنفد لن يتبقى شيء لما هو أهم.

للدين ومعانيه وقيمه.

لمعالي الأمور التي يحبها الله جل وعلا.

في الحديث الذي رواه سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما أن جده ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ معاليَ الأمورِ وأشرافَها ويكرَهُ سَفْسافَها**».

السفساف هو الرديء الهين الذي لا قيمة له وقيل هو الغبار الذي ينشأ عن نخالة الدقيق وقيل هو التراب.

ولكن لماذا يكرهه الله سبحانه.

ببساطة لأنه يملأ المحل المحدود وهو القلب فلا يتبقى فيه مكان للمعالي ولا يترك مساحة للهموم العظيمة التي ينبغي أن ينشغل بها.

هم الدين.

هم الأمة.

هم الآخرة.

والهم الأعظم؛ هم إرضاء الله.

أين تتخذ هذه الهموم موقعا لها في قلب أترع حتى الثمالة بهموم الكرة وبطولات الأندية والدوريات والكؤوس؟

أن تصطف هذه الحقائق بين زحام الزيف وتفاهات المودة وقصات الشعر والحفلات والأفلام والمسلسلات والمقاهي والمنتديات.

أن تجد تلك العظائم مكانا في نفس أشربت حب المطرب الفلاني الذي لا يفرق لدي كثيرا أن يكون حسن الصوت جميل الطرب أو أن يكون نموذجا للنشاز وغلظة الصوت وركيك المعاني .

المشكلة في التعلق.

والمآل القلبي واحد = الامتلاء والتشبع.

قد يختلف المآل الفكري بعض الشيء حين ينحدر الذوق أكثر فيكون سببا آخر لكراهية السفاسف وبشاعتها.

إنه انتقال التفاهة.

عدوى السفه.

وهذا أيضا يعوق قبول الهداية لكن هذه المرة فكريا.

إن التعايش مع هذه الدركات من التفاهة والركاكة وانحطاط الذوق تؤدي إلى مآل مخيف.

صدأ العقل.

انهيار الفكر.

ضياع الوعي.

إن تلك المعاني الكبرى والكلمات الراقية؛ الوعي، الفكر، التحضر، السمو كلها تطيش أمام تعود الإسفاف والتردي.

وكأن من يدمنون هذا المستوى يتخطوا حاجز الغفلة وانشغال القلب إلى مهاوي إغلاق الفهم نفسه.

يشبه هؤلاء إلى حد كبير من (لحست) الخمر دماغه أو أذهبت المخدرات عقله.

تجد نظرات زائغة وألسنة ثقيلة وعقول أصيبت بالبلاهة ولغة ذات مفردات عجيبة مصدرها معجم الإسفاف الذي يتغذون عليه بانتظام.

أثناء انتظاري لدوري في أحد المحلات التي توقفت عندها يوما لأشتري شيئا وبينما الشاب اللطيف الذي يعد لمن سبقوني طلباتهم لفتت انتباهي تلك الأغنية التي يرددها الشاب مع مذياعه أو جهاز التسجيل الخاص به لا أدري ماذا يطلقون عليه هذه الأيام.

ما لفت نظري لم يكن اللحن المرح ولا تفاعل الشاب المبالغ فيه مع الأغنية التي لم تكن تبدو بتلك الروعة.

إنها كالعادة الكلمات.

المعاني.

القيم التي تبث عبر الأثير لتستقر في وعي شبابنا.

هذه المرة لم تكن كالتناقضات الوعظية الراقصة التي تحويها المهرجانات المنتشرة حاليا والتي طالما أذهلتني في وسائل المواصلات بالورع الواضح في كلماتها والذي لا يناسب المقام الصارخ والطبول الزاعقة والأنغام الجنونية التي تصاحبها.

هذه الأغنية كانت موعظتها عكسية.

كانت حضـاً على الإسراف والتبذير.

وتكبير الدماغ.

والإغراق في خداع النفس.

وغيرها من النصائح العجيبة التي يصر المطرب الشهير أن على المستمع الذي دعاه بابنه أن يسمعها ويعيها فهي في رأيه = نصائح غالية وخلاصة فهمه العميق للدنيا.

في البداية تبدو نصائح وجيهة تحمل جانبا من التفكير الإيجابي وعدم الإغراق في الشكوى بل مواجهة مشاكل الدنيا بالفرح والبهجة.

ثم جاء دور المخدرات الفكرية.

النصيحة التخديرية هنا كانت تتلخص في الآتي:

(وإن كنت مفلس خالص خالص ومحيلتكش جنيه.

قول على الجزمة الباتة اللي انت لابسها إنها سينييه.

مثل على الدنيا في عز الفقر إن انت سعادة البيه) .

ببساطة اخدع نفسك.

لا تعترف بحقيقة وضعك.

بدلا من أن تحاول تحسين أوضاعك عليك بإقناع نفسك أنك من الأثرياء الوجهاء.

ويضيف بعد حين: لو ساكن فوق السطح اعتبره سويت في احلى فنادق.

قد يرى البعض أن هذا حض على الرضا بالمقسوم.

أما أنا فأرى الفارق كبيرا بين الرضا وبين خداع النفس.

الرضا ليس دروشة والراضي بما قسمه الله له ينظر إلى نعم الله عليه في مقابل البلايا فيرى رجحان كفة النعم وقد يكفيه من الدنيا القليل.

لكن من قال أنه يسمي الأشياء بغير مسمياتها أو يرى الاستسلام لها وكأن ليس في الإمكان أحسن مما كان؟

قد تكفيه جزمة (باتا) وقد يكون سعيدا راضيا في غرفته على السطوح لكن ليس لأنها جناح فندقي بل ببساطة لأنه زاهد متقلل من متاع الدنيا.

لكنه ليس جاهلا أو مغفلا .

عموما لا بأس.
لن أجادل في هذا كثيرا.
دعونا ننتقل إلى الأهم.
إلى المقطع الذي لفت انتباهي في الأساس.
(متاكلش الجبنة البيضا لو كان نفسك في البلوبيف.
واصرف كل اللي في جيبك دلع نفسك عيش صَرِّيف).
هاهي دعوة الإسراف والسفه في أوضح صورها.
اصرف كل ما جيبك عادي.
المهم أن تعيش صريفا.
وأن تأكل ما تشتهيه حتى لو ليس في إمكانياتك.
وأين ذهب الرضا عند شهوة الطعام؟
لماذا لم يرض هذه المرة بالجبن الأبيض كما رضي بالحذاء والغرفة؟
ما علينا.
فلنر باقي النصائح الثمينة.
(إحساسك قال لك حاجة امشي وراه.
احساسك صادق.
ده السكر لون الملح واحد حلو.
وواحد حادق.
راحة البال اللي بجد ليها اصول.
ليها مبادئ) .
لحظة..
يبدو أنني قد أدركت سبب فقر صاحبنا الذي يستمع لنصائح المطرب المشفق.
إن معياره في أي حاجة إحساسه.
أينما يوجهه إحساسه يسير.
والعلة واضحة .
إن إحساسه صادق يا أخي.
لكن من أدراه؟

ومن أدرى المطرب أو كاتب الكلمات؟
ليس مهما.
المهم إنه يتبع إحساسه وليكن ما يكون.
ولا شيء سيشكل فارقا فالسكر والملح في النهاية نفس اللون.
وطبعا كما نعلم فأهم ما يحكم به على الأشياء = اللون!
أو هكذا تريد الأغنية إقناعنا.
ثم يأتي مسك الختام.
النصيحة الختامية.
الخلاصة.
(خد يا ابني مني الكلمة دي.
إصرف مافي الجيب .
واشحت بكرة... عادي)
هذه هي الحكمة الرائقة.
اصرف واشحت.
ما المشكلة.

على نفس المنهج يمكنك بكرة اعتبار مهنة الشحاتة كنوع من البيزنس وأنت كشحات تعتبر رجل أعمال تعيش في جناح فندقي وهذه الأسمال التي ترتديها سينييه أيضا.

علمت بعد ذلك أن الأغنية ناجحة للغاية وأنها تعد حاليا من الأيقونات.

لا أدري دقة هذه المعلومات لكن يبدو من تفاعل الشاب في متجر القهوة أنه مستمتع جدا بها.

هذا هو ما يسمعه اليوم أبناؤنا أو نموذج منه.
تخيل بعدها تفاعلهم مع موعظة حقيقية.
مع دعوة تريد الأخذ بأيديهم إلى الهداية.
قد يستجيبوا.
لكن لا شك أن مثل هذه المعاني قد بنت حاجزا وشكلت عائقا.
عائق التفاهة والسفه.
وهل هي مجرد كلمات مرحة أم منهج يراد تأصيله؟

هل للأمر علاقة بمزاج الشعوب في مراحل معينة حين تعلو نغمة اليأس والإحباط والعدمية؟

هل ينكر أحد الأثر التدميري لمسرحية مدرسة المشاغبين إلى اليوم على أخلاق وسلوكيات الطلبة في المدارس؟

ألم نتعلم من مرحلة ما بعد يونيو ١٩٦٧ وظهور أغاني ك(الطشت قالي) وأفلام تعلي من شأن راقصة ك (خلي بالك من زوزو).

الأمور ليست دوما بسيطة أو سطحية والمحل المتلقي كثيرا ما يسهل تشكيله والمعاني المزينة تصل بشكل أسرع وترسخ في الوجدان دون أن يدري أحد حتى يتم التأثير وتظهر النتائج.

تخيل مراهقا يدندن هذه المعاني ويتشربها قلبه.

تخيل شاب في مقتبل عمره يستسلم لفشله وينغمس في الإسراف والبذخ دون عقل أو وعي لمجرد أن تلك الصورة المرحة اللطيفة قد لامست وترا في قلبه وقرر أن يعيش (بشوقه) وأن (يملأ دماغه على ذوقه) مقتنعا كما رسخت كلمات الأغنية محل المثال.

لا أقصد هنا أن ثمة مؤامرة مقصودة لتوصيل ذلك أو لطمس وعي الشباب فلا يشترط القصد للتأثير.

قد يكون الأمر مجرد كلمات دمها خفيف ولا يقصد بها تدمير الوعي.

لكنها رغم ذلك تدمره.

والنوايا الصالحة لا تغير من فساد الأعمال.

ومن أفسد الأعمال على الإطلاق في نظري تدمير وعي الناس وإفساد عقولهم وملأ قلوبهم بتلك الترهات .

الضرر إذاً مزدوج .

قلبي بحشد القلب بذلك الهراء.

وعقلي باستبدال المفاهيم والقيم العليا بأخرى تافهة ركيكة كما رأينا في نموذج تلك الأغنية أو في ذلك الولع بالنجوم والأبراج الذي قدمت به هذا الفصل واعتبارها متحكمة في صفات الخلق وتوافقهم.

أضف إلى ذلك ضرر ثالث غريزي وهو بشكل مباشر الإدمان.

نعم كما قرأتها.

التفاهة لها إدمان.

إنه إدمان اللذة .

هذه الأشياء بلا شك مسلية وفيها نوع من المتعة وإلا ما اهتموا بها بهذا الشكل.

المشكلة أن الإنسان بطبيعته الشهوانية يركن إلى ما يمتعه ولو ترك لنفسه العنان في مقارفة ما يهوى = لأدمنه .

وهذا عائق ثالث يحول بينه وبين قبول الهدى.

إنها الخشية من ضياع هذه المحبوبات التي أدمنها.

سأصير ملتزما أهتم بمعالي الأمور = إنه لملل عظيم.

يظن أنه سيترك تلك المتع واللذات التي يعشقها ويعيش حياة جافة رتيبة أو حياة تحوي مسؤولية وهموم بينما هو يحيى تلك الحياة التي يراها ممتعة ومسلية ولأجلها مارس إدمانا آخر.

إدمان اللامبالاة.

كبر دماغك.

خليك (فريش).

مافيش حاجة مستاهلة.

ما تعقدهاش.

هذه بعض الجمل التي تعبر عن هذا النوع من الإدمان الخطير الذي يشكل في رأيي أحد أهم الحواجز التي تعوق المرء عن التدين والتي تنشأ عن تلك المخدرات الفكرية.

لا تبالي ولا تفكر ولا تهتم.

لا شيء يستحق.

عدمية تامة تغلف رغبته ألا يغير من واقعه المريح الممتلىء بالتفاهات.

ما الذي يدفعه للتنازل عن كل هذا واستبداله بقيم جادة وشواغل حقيقة.

دعك من أنها صورة غير كاملة وأن المتدين له أن يروح عن نفسه ويستمتع في حدود المباح وما أحله الله له.

لكن هذا هو تصورخ الذي رسخته وشيدته جدرانه التفاهات والسفاسف حتى صار عائقا هائلا يمنع المرء عن التغير للأفضل ويحول بينه وبين قبول

الدعوة أو حتى النصيحة.

لأجل ذلك كله يكره الله سفاسف الأمر وتوافهه.

لأنه يحب لك غير ذلك.

يحب المعالي.

ويريدها لك.

فهل أردتها أنت.

وهل أحببتها أم اكتفيت بالأخرى؟

بالسفاسف.

## ٥٢ ـ الرواية المثالية:

عندما نخطيء ولم تزل تقبع في أنفسنا بقايا ضمير = فإننا نحتاج إلى رواية مثالية لتسكين تلك البقايا وإقناعها من خلالها أن كل شيء على ما يرام وأن كل خلل حدث أو يحدث أو سيحدث؛ هو لظروف قهرية أو أسباب خارجية بحتة لا دخل لنا بها.

نحتاج لرواية تعيننا على النوم ليلا والنظر في مرآتنا نهارا والتعايش مع أزمات حياتنا.

هذه الرواية غالبا تقوم بتلك المهمة بكفاءة لكنها مع ذلك تعد من أهم عوائق الالتزام والتغير للأفضل.

خطورة تلك الرواية ليست في الاستعلان بها فمهما جهر بها كل منا في آذان الآخرين لن يشكل تصديقهم أو عدم تصديقهم لتلك الرواية فارقا .

مكمن الخطر والتعويق عن الالتزام الذي تحدثه هذه الرواية يكمن في كون من يرويها لنفسه يكررها مرارا حتى تترسخ في وعيه وتصير حقيقة لا جدال فيها.

إنه في النهاية يصدقها ومن ثم يرضى تماما عما كان ويكون وسيكون فبناء على هذه الرواية المثالية = ليس في الإمكان ما هو أفضل مما كان.

عندئذ تختفي حتمية الإصلاح والتغيير والتحسين وذلك مع اختفاء المصارحة والاعتراف حتى بيننا وبين أنفسنا.

إن تصالحنا مع عيوبنا لا ينفي كونها عيوب .

وحسن تعاطينا مع أخطائنا لا يكون أبدا بإنكار كونها أخطاء ومجرد وجود مبررات أو أسباب للخطأ لن يغير من حقيقته ولن ينقله عن حكمه.

سيظل الخطأ خطئا والحرام حراما والعيب عيبا وإن وجدت المبررات والأسباب التي ترضينا عن أنفسنا.

باختصار.. أن نعترف ابتداءً أن لدينا مشكلة = تلك هي بدايةالحل.

حتى لو سبب الاعتراف بالرواية الحقيقية ألما وندما فهذا حسن لأنه كما استقر شرعا؛ الندم = توبة.

أما ذلك الإصرار على اعتصار الذهن كي نخرج المبررات المنطقية واللامنطقية التى تبرر لأي فعل نقترفه وتسوغ السقطات التي لا يخلو منها أحدنا من بعضها فأبسط ما تفعله أنها تدمر هذا الندم الذي هو أول طريق التوبة.

إنها تقتل تلك المشاعر في مهدها وقبل أن تطفو على السطح لتساعد صاحبها على التغيير.

حينما نقتنع أن كل شيء على ما يرام وكل الأخطاء دوما كانت خارجة عن اختيارنا ولا ذنب لنا فيها = ففيما الندم؟!

إنه نمط من الخلق صار التبرير سبيله، ومنهجه؛ والمعاذير طريقه ومذهبه والتأويل ولي أعناق الحقائق اختياره الأول وديدنه.

تدهشك بل تذهلك حقا تلك التأويلات التي يجدونها لكل ما يقترفونه مهما كانت بشاعته صارخة.

تأويلات لا تكاد تنضب وكأنهم يستخرجونها من معين يصاحب المرء طوال حياته لا يكاد يفارقه.

معين للاستحلال التام والرضا المطلق عن النفس مهما تدنست وتقلبت في أوحال الشرور.

في كل مرة تكاد تجزم أن ليس ثمة مبرر هذه المرة وأن المخطيء أخيرا سيعترف بحقيقته ولو أمام نفسه.

لكنه يظل دوما يفاجئك من جديد.

لم تزل في جعبته الكثير من التأويلات والمبررات.

لا لن يعترف الآن أنه مخطيء.

لن تقر بأن الصواب قد جانبها.

لن يسلموا أبدا بخطاياهم ولا حتى جرائمهم مهما فحشت وكان قبحها

أظهر من قيح طافح على وجه مشوه سافر يطل عليك في يوم مشمس مباهيا بعاهته.

لكن هل يباهى أحد بالتشوه والقبح؟!

هؤلاء يفعلون.

يباهون بجرائمهم التي زينوها بالتبرير وجملوها بالتأويل حتى ظنوا أنها شارات حسن ومنابع جمال وحيلة ودهاء.

لذلك لا يندمون..

ويصعب جدا أن تجدهم ينصلحون.

طالما وجدوا لأنفسهم المبررات والتأويلات.

وطالما أقنعوا أنفسهم أن كل شيء جيد وكل خيار كان حتميا = فلا ندم ولا إصلاح ولا توبة.

فقط عند نضوب معين التأويل والتبرير؛ ربما يبدأ المرء حينئذ في الإصلاح لكنه للأسف غالبا لا ينضب.

أقر أنه أحيانا تكون المبررات مقنعة بل كثيرا ما تدخل في حيز الأعذار التي أمرنا ديننا الحنيف أن نبذل الجهد في التماسها لإخواننا، لكن الحقيقة التى ينبغى أن تترسخ فى أذهاننا ببساطة = أنه ليس لكل شىء تبريرٌ وعذر.

لا يتصور عقلا ولا شرعا أبدا أن يكون كل ما تفعله مُبَررا وأن واجبك المقدس أن تبحث عن تلك المبررات والتأويلات لتريح نفسك من أن تبوء به. بالذنب.

رغم أن النبي ﷺ علمك أن سيد استغفارك ينبغي أن يحتوي تسليما بوجود هذا الحمل على كاهلك لكي تطرحه بالتوبة.

«**أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي** ».

هكذا كان الاعتراف الذي علمنا إياه بوضوح وبمقتضى بشيرتنا وبدون تكلف الأعذار السخيف فأحيانا يكون العذر فقط ... أننا بشر.

وأن البشر يخطئون، ويزلون.

بل ويعصون.

وتلك يا عزيزى أمور لا تستوجب تبريرًا، إنما هى ببساطة تستوجب اعترافا وتوبة واعتذارًا.

وحسب...

ومن ظن غير ذلك فإنه سيقع لا محالة في فخ التكلف، وسيكون ذلك سدا منيعا بينه وبين التغير للأفضل.

سيكون مثله كمثل الذين تخلفوا يوم تبوك وجاءوا إلى النبى بأعذار واهية لم تنجهم من ذلك اللقب الذي لقبهم به رب العالمين وأراه الاصطلاح الشرعى المعبر عن حال المبررين.

لقب « المعذِّرين» فى قوله تعالى ﴿ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ ﴾.

[التوبة: ٩٠]

أولئك الذين امتلأت سورة التوبة بذكر حججهم المتكلفة ووعيد الله لهم.

لم ينج من كل ذلك إلا الثلاثة الذين لم يبرروا.

كعب بن مالك ومن معه.

لم يسوقوا المعاذير الواهية رغم أن منهم اللسن والشاعر وصاحب الحجة القادر على نحت المعاذير المقنعة وكاد بالفعل يستدرج إليها لولا أن تدارك الأمر وفهم أنه لا يشترط أن يكون لكل شيء مبرر، أو عذر؛ وأن الأخطاء لا تبرر؛ فقط يُعترف بها، ويُعتذر عنها.

ففعلوا..

لقد اعترفوا بالخطأ ولم يبرروه فكان صدقهم واعترافهم سببًا في توبة الله عليهم.

كان ذلك حين أدركوا أنهم بشر.

والبشر ببساطة يخطئون.

كلهم يفعلون.

يتبين ذلك بشكل قاطع في حديث من أعظم أحاديث النبي ﷺ.

حديث رغم كون أغلب المسلمين يحفظونه إلا أن هناك مشكلة حقيقية في التعامل معه.

إنه حديث « **كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون** ».

كلمات جامعة تلخص بتراكيبها البسيطة معنى في غاية الخطورة.

لا أحد معصوم من الخطأ ما دام ينطبق عليه هذا الوصف.

وصف ابن آدم.

صحيح هناك استثناءات في حالة النبوة والرسالة لكنها استثناءات معدودة على مستوى البشرية ومن ثم كان الحكم على الغالب وأطلق اللفظ وسبقته كلمة: « **كل** ».

الكل يخطىء ويصيب ويزل ويسدد ويعصي ويطيع.

لذا كان الخطاب بالتوبة عاما مطلقا وذلك في قول الله جل وعلا: ﴿**وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور: ٣١].

الجميع بحاجة إلى التوبة وتصحيح الخطأ والندم عليه .

هذه التوبة لا تنفي وجود الخطأ وربما آثاره وما يترتب عليه خصوصا إن كان في حق البشر.

والأهم ألا ينسب الخطأ لمنهج الله وأن ينزه دينه عن زلات الأتباع.

لذلك حرص النبي ﷺ أيما حرص على ذلك التنزيه .

يتجلى هذا الحرص في ذلك الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه: «**وإذا حاصرت أهلَ حصنٍ، فأرادوك أن تجعل لهم ذمَّةَ اللهِ وذمَّةَ نبيِّه فلا تجعلْ لهم ذمَّةَ اللهِ وذمَّةَ نبيِّه ولكنْ اجعلْ لهم ذمَّتَك وذمَّةَ أصحابِك فإنكم أن تُخفِروا ذِمَمَكم وذِمَمَ أصحابِكم أهونُ من أن تُخفِروا ذمَّةَ اللهِ وذمَّةَ رسولِه**».

كلمات تحتاج إلى تدبر وتأمل خصوصاً في زمان التبرير وادعاء العصمة الضمني.

تأمل في الحديث حرص النبي ﷺ على مقام ذمة الله وذمة رسوله.

وتأمل كيف أوصى أمراءه في الغزوات والسرايا إذا عاهدوا أحدا وأرادوا أن يجعلوا لهذا العهد ضمانا وذمة ألا ينسبوها لله جل وعلا أو لرسوله ﷺ .

ذلك لأنهم بشر غير معصومين ولربما اضطروا أن يخفروا عهدهم لأى سبب كأن يبدو لهم غدر المشركين أو يغلب على ظنهم خيانة منهم فيضطروا إلى عدم إمضاء العهد أو حتى يصدر منهم خطأ أو زلل = فحينئذ لا ينسب ذلك لله ولا لرسوله .

فقط لأنفسهم.

هم من يتحملون الخطأ إن حدث لكن لا ينسب الأمر لربهم أو لدينهم أو لنبيهم ﷺ .

و في هذا تفريق واضح يغفل عنه كثير من المبررين المعذرين عن فهمه وإدراكه.

إدراك كوننا مجرد بشر نحاول أن نصيب وأحيانا نخطىء وهذه الزلات والمعاصي وقع أحدها لأبينا الأول وزوجه ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦]. ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] .

معصية بدأت في مطلع وجود هذا المخلوق ولن تنقطع أبدا طالما انطبق عليه وصف البنوة.

بنوة آدم عليه السلام.

بنو آدم الذين هم – باستثناء من بين الله عصمته من النبيين والمرسلين – كلهم من الخطائين.

كلهم.

لو لم ندرك ذلك لتطور الأمر وانتقل من حيز التبرير وإنكار الواقع والتعامي عن حقيقة أخطائنا إلى مرحلة أخطر وحيز أسوأ وعائق أصعب.

مرحلة تزكية النفس والإفراط في إحسان الظن بها .

تلك التي وقع فيها من قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

صحيح أنه لا أحد الآن يقولها بتلك الفجاجة والاستعلاء، لكن كثيرا من مزكي أنفسهم يؤكدون معناها من خلال نفيهم المستمر لإمكانية فتنتهم ووقوع الأخطاء منهم كأنهم اتخذوا عند الله عهدا نتج عنه ذلك الجزم المزعوم أنهم بمنأى عن الفتن وبمعزل عن الضلال إلى يوم الدين!.

العجيب أن من هم أفضل منهم ومن ملء الأرض من أمثالهم – الصحابة أنفسهم – كانوا يخشون على أنفسهم النفاق، ولا يأمن أحدهم على نفسه لهذه الدرجة،

حتى الأنبياء كانوا يحرصون على دعاء ربهم بالثبات، واجتناب عبادة الأصنام، وما دعاء سيدنا إبراهيم وسيدنا يوسف عليهما السلام بالشىء الذى يغيب عن الأذهان، لقد دعا الأول ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، بينما طلب الثانى الوفاة على الإسلام، واللحاق بالصالحين، كما تضرع نبينا لمقلب القلوب كى يثبته على دينه.

فمن أين يأتى مزكو أنفسهم بكل هذا الأمن والاطمئنان والجزم الراسخ

أنهم بمنأى عن الخطأ والزلل والفتن؟

وناهيك عما فى تلك الأقوال من الغرور والكبر والافتئات على علم الله بمآلات ومصائر العباد = فإن تلك المقولات والأفكار تنافى الواقع والتاريخ القريب منه والبعيد.

هل هناك شخص أو مجموعة أو حتى أمة يمكن أن يقال عنها أنها بمعزل عن الزلل والخطأ بل والتحول والتبدل بالكلية؟

الجواب لا.

كم من أناس كانوا على أعلى درجات التقوى والصلاح والقرب من الله ثم نكسوا على رؤوسهم وضلوا وأضلوا وفتنوا وفتنوا غيرهم وما «بلعام» الذي آتاه الله آياته لكنه أخلد إلى الأرض وانتكس وبرصيصا الذي كان منقطعا للعبادة ثم زنى وارتكس وغيرهما = عن الأذهان ببعيد .

التجمعات البشرية والأمم نفسها تغيرت عقائدها وأفكارها مرارا وليس مرة واحدة وانهار بعضها عقديا وليس فقط في باب المعاصي واتباع الشهوات!

وهل كانت روسيا شيوعية قبل الثورة البلشفية؟

وهل كانت فرنسا علمانية تعلن شنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس قبل الثورة الفرنسية؟

وهل مصر الخمسينيات والستينيات تشبه مصر فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين؟

بل هل مصر قبل الحقبة الفاطمية وحكم العبيديين الرافضة مثل مصر بعدها حتى بعد زوالهم عنها على يد صلاح الدين؟

بل هل بداية أي فرقة أو جماعة كانت تحتوي على ما آل إليه حالها بعد مرور السنين والعقود؟

الجواب على كل ذلك معروف والقاعدة معلومة ومُطَّردة.

الحي لا تؤمن عليه الفتنة.

والمآل والمصير ومكنون الصدور وما تحويه القلوب كل ذلك = غيب لا يعلمه إلا الله .

فلا أدري صدقا من أين يأتي هؤلاء بهذه الأطنان من التزكية للنفس وللغير والتي يوزعونها يمنة ويسرة ويكأنهم يوزعون من تركة أبيهم.

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

معنى بدهى ومنطقى وأصل إسلامى يفترض أن يعلمه الجميع، ومسلمة من مسلمات ديننا تقطع بأن الله وحده يعلم مصير الإنسان ومآله وحقيقة تقواه ودينه.

﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾

[الحجرات: ١٦]

لقد لخص النبى ذلك المعنى فى جملة قالها يوم موت صاحبه عثمان بن مظعون، وجاء البعض يزكونه، ويجزمون له بالجنة، فقال: «واللهِ ما أدرى – وأنا رسولُ الله – ما يُفعَلُ بى ولا بِكم»،

ورغم ما له من مبشرات ومنزلة عند ربه، إلا أنه اختار التعميم لترك الأمر كله لله، وإثبات تمام الافتقار والتسليم المطلق فى أمر المصير إليه حتى مصيره هو نفسه.

ولما جاء الصحابة يزكون رجلا مات أثناء الجهاد، إذا بالنبى يفاجئهم بأنه ليس كما يتصورون، وأن الرجل إنما اتكأ على سيفه وقتل نفسه.

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التى يمكننا من خلالها تبين تلك الحقيقة، التى من المفترض كما قلت آنفا أنها بديهية ومنطقية.

لكن للأسف ذلك الإصرار على تبرير كل شيء وإيجاد تأويل لكل شيء يؤدي بنا إلى تلك النتيجة في النهاية

الرضا التام عن النفس وتزكيتها على الله والتصور الراسخ أننا كما يصف المثل المصري

« مغسل وضامن جنة».

هذا الضامن للجنة الذي لا يخطيء أبدا؛ هل سيحتاج يوما للتغيير والإصلاح؟

وإن جاءه داعي الهدى يوما؛ فهل سيقبله؟!

## ٦٢ـ اصطنبة :

هل قابلتك يوما مشكلة في جهاز الكمبيوتر الخاص بك أو في هاتفك المحمول أو سيارتك؟!

بالطبع حدث ذلك.

وهل يخلو جهاز من خلل ما يطرأ عليه يوما؟

وهل تخلو سيارة من صوت مزعج يظهر من مكان ما آجلا أو عاجلا؟!

لا شك أن أول ما يتبادر إلى ذهنك حين يضطرب جهازك أو (يهنج) أو عندما يظهر هذا الصوت المزعج في سيارتك هو التساؤل عن سبب هذا العطل ومصدر هذا الصوت..

بداية محاولاتك لمعرفة هذا السبب ستكون غالبا بمحاولة إدراك النمط أو ما يعرف ب (الاصطمبة).

وجود (اصطمبة) واضحة وثابتة يسهل المهمة دائما!

يعني مثلا.. هذا الصوت المزعج يصدر من السيارة حين تستدير عجلة القيادة إلى اليمين بشكل حاد أو مفاجيء..

جهاز الكمبيوتر يتلعثم ويضطرب (يهنج) بعد مدة محددة من استعماله..

الهاتف الجوال يغلق وحده حينما أقوم بتشغيل أكثر من تطبيق..

وهكذا..

لكي تستطيع ضبط الشكوى؛ تحاول الوصول لفهم نسق المشكلة ابتداء وتسعى لقولبتها في (اصطمبة) ثابتة وواضحة ليسهل عليك بعد ذلك حلها.

تفعل ذلك أيضا مع بدنك إذا اشتكى منه عضو.

- عيني (تزغلل) بعد ساعة من القراءة.
- أشعر بدوار عند الاستيقاظ من النوم.
- الطعام المتبل والحار يسبب لي اضطرابات في الهضم.
- المياه المثلجة تؤلم أسناني.

هكذا تحاول باستمرار إيجاد النسق الثابت الذي يسهل مهمة المعالج ولا يجعل شكواك عشوائية هلامية..

والأمر لا يقتصر على المشكلات وحسب.

إن إدارة الحياة تحتاج أحيانا إلى اصطمبات.

في الصناعة مثلا تشكل فكرة الاصطمبة جزءا أصيلا من العديد من الصناعات .

بل تعود تلك التسميه أصلا إلى قوالب تشكيل المعادن وسك العملة واسمها اللاتيني Stamping .

ذلك المصطلح الذي كان يطلق فيما مضى على ختم المعادن في قوالب حيث كان يستخدم في سك العملة وسباكة المعادن ذات درجات الانصهار المنخفضة في قوالب.

ولكن بجانب هذا المعنى كان هناك مفهوم مصاحب للمعنى وهو إنتاج منتجات متماثلة تماما من حيث الشكل والوزن والحجم.

ونظرا لمفهوم الإنتاج الكمي السريع الذي ظهر الاحتياج إليه بشده في الحرب العالمية الأولي والثانية ظهرت أنواع عديدة من (الاصطمبات) لتخدم الإنتاج الكمي في مجالات الصناعة المختلفة الثقيلة منها والخفيفة.

وإلى اليوم يسعى كثير من أصحاب الحرف لتسهيل مهمتهم من خلال تثبيت (اصطمبات) لصنعتهم .

وكذلك يسعى الإنسان المنظم لشيء شبيه يصلح لإدارة حياته بصورة أسهل من خلال تثبيت أنساق وأوراد محددة تناسبه وتيسر من إنجازه لما هو مطلوب منه.

كل هذا ليس فيه أي مشكلة.

المشكلة الحقيقية تكمن في أولئك الذين قرروا تعميم نظرية القولبة (الاصطمبة) على البشر جميعا..

وتتعقد المشكلة حين نتحدث عن التدين والاستقامة أو ما اصطلحنا على تسميته ب الالتزام.

يطمح أو يطمع أصحاب هذه النظرية لقولبة الجميع في نفس الصور والأشكال والطبائع التي تتناسب مع تصورهم ومن ثم جعلهم نسخا متطابقة ومطابقة لهم ولأفكارهم ولأحلامهم وطموحاتهم.

وعند التعامل مع من يخالفونهم تجد المسارعة إلى تشخيص خلافاتهم ومشاكلهم معهم بإلصاقها وإلصاقهم بأقرب قالب جاهز ومعيوب في نظرهم.

هذا ليس ملتزما.

وذلك منتكس.

وذاك قد فرط وتولى.

يتجاهل هؤلاء بذلك السلوك حقيقة مهمة للغاية.

حقيقة مفادها أن الإنسان أعقد كثيرا من الجمادات.

الإنسان ليس قطعة أثاث يسهل استنساخها ولا هو جهاز بارد يسهل تنميط عيوبه وقولبة مشاكله بشكل بسيط وسطحي وكأن البشر جميعا ينبغي أن يكونوا (اصطمبة) واحدة ليس فيها تفاوت نسبي أو اختلافات وتفاصيل لا تعد ولا تحصى.

والشيطان يكمن في التفاصيل..

فكرة إما مثلي أو مثل ما أريده وإما هو شيطان فاسد أو منتكس مفرط أو فاجر فاسق = هي النتاج الطبيعي لتلك المصيبة الفكرية التي طغت على الكثيرين.

مصيبة استسهال التنميط وسرعة القولبة..

عقلية (الاصطمبات) الجاهزة.

إنها عقلية لا تسمح ولا تفهم ولا تقبل أن الله خلق الخلق مختلفين.

طبائع ونفسيات وأفكار مختلفة.

تفاصيل ودقائق وصفات يندر بل يستحيل أن تتطابق بنسبة مائة بالمائة.

لقد حرص نبينا على إبراز ذلك التنوع والتفاصيل في عشرات المواضع وبيَّن الفوارق بين الناس حتى الكافرين منهم والمنافقين.

لقد فرَّق بين أبي طالب في حاله ومآله وبين أبي جهل والوليد بن المغيرة.

وفرق بين التعامل مع الكافر الحربي وبين التعامل مع المعاهد .

وفرق بين أشياء حدثت في الجاهلية وتم وضعها واستبدالها وبين أشياء أقرها؛ حلف الفضول نموذجا.

وهكذا في الكثير من الأمثلة التي حوتها حياته الحافلة ﷺ ولا يتسع المقام لذكرها.

إنه منهج القرآن الناصع الذي يظهر ساطعا في قوله تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ [آل عمران: ١١٣]

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

ربك خلقهم هكذا..

مختلفين..

جعل لكل منهم شخصيته المستقلة وخصائصه المتفردة وتفاصيله التي ينبغي أن تراعى عند معاملته أو تقييمه.

فما بالك أيها المقولب تصر على عكس ذلك؟!

ما بالك تظن أن بإمكانك قولبة الجميع وتحويل البشر إلى مجرد (روبوتات) آلية تنتجها اصطمباتك الجاهزة لا لشيء إلا لتسهل على نفسك المهمة وتنسى أو تتناسى أن تلك الاصطمبات قد لا تليق بهم.

لأنهم ببساطة... ليسوا كذلك.

ليسوا روبوتات ولا آلات أو جمادات يسهل عليك تشكيلها أو احتكار التصور المثالي لها أو قولبتها في أطر ثابتة وقوالب جامدة.

هم بشر.

فقط بشر..

**٧٢. يأس لذيذ:**

فترة طويلة مرَّت دون أن نلتقي.

لم يعد يظهر في مواطن الطاعات كما كان سابق عهده.

في ذلك اليوم رأيته ولاحظت تبدلا واضحا قد حلَّ به.

- مالك يا حبيب؟

لماذا لم نعد نراك ولم تعد تسأل عنا؟

ما بال وجهك يبدو متغيرا؟

هكذا حاولت قدر وسعي أن أكون ودودا متلطفا ويبدو أنه قد تقبل رغم إعراضه ابتداء وعدم رغبته الأولية الظاهرة في الحديث معي.

لكن إجابته كانت مقتضبة.

- اعتبرني انتكست.

الكلمة كانت قاسية على قلبي.

يتحدث الشاب ببساطة عن الكابوس الأشهر وأحد أكبر مخاوفنا في ذلك الوقت.

الحور بعد الكور.

الزيغ بعد الهداية.

التبديل وعدم الثبات.

الانسلاخ عن آيات الله والإخلاد إلى الأرض.

كلها معاني تعد من أشد مواضع الترهيب في القرآن والسنة خصوصا لدى

من قرر محاولة الاستقامة وسلوك طريق الهداية أو ما اصطلحنا على تسميته بالالتزام.

إنه المقابل والنقيض والضد لكل ما تقتضيه تلك المعاني وقد لخصه الشاب في تلك الكلمة.

انتكست.

- لا تقل ذلك أيها الغالي.

الأمر إن شاء الله أهون من ذلك.

لعلها بعض زلات وتقصير عابر وباب التوبة لم يغلق.

أعرض الشاب بوجهه مرة أخرى لكنني لمحت قبل التفاته عني دمعة تترقرق من طرف عينه.

أصررت عليه مذكرا إياه بحق الأخوة التي جمعت بيننا يوما.

- قل لي بربك ماذا حدث لعلي أستطيع العون.

هذا حقك عليَّ.

أخيرا قرر أن يبوح ببعض ما جاش في صدره.

- بدأ الأمر كله في ذلك الصباح حين استيقظت نجسا.

لحظة.

مهلا.

عن أي نجس تتحدث يا صديقي.

المؤمن طاهر لا ينجس.

هكذا علمنا رسولنا ﷺ.

فهمت على الفور أنه يقصد استيقاظه جنبا.

المشكلة أنه تكاسل في ذلك اليوم عن الغسل لتأخره عن محاضراته.

- سارعت إلى الكلية دون أن أغتسل أو أقضي صلاة الصبح التي نمت عنها ظللت في الجامعة طوال النهار.

الظهر أذن... طبعا لن أتمكن من الصلاة وأنا نجس (مرة أخرى يصر على ذلك الوصف).

دخل وقت العصر.

إنها الفريضة الثالثة التي أسقطها اليوم.

في أعماق نفسه كان حزينا.

المشكلة أن حزنه تحول إلى احتقار لتلك النفس التي قرر أنها قد تنجست.

ثم تحول إلى يأس وقنوط.

في تلك الحالة وعلى هذا الضعف التقى بهم.

لم يرهم منذ مدة طويلة.

أو ربما قد رآهم ولم يلحظ وجودهم.

إنها الشلة القديمة التي تعود الانغماس معهم قديما في شتى المعاصي والموبقات.

كان قد قلص علاقته بهم بعد التزامه ورفضهم للحال الذي صار عليه من تدين واستقامة رأوا أنها لا تناسب طريقتهم في الحياة.

يومها رآهم .

توجه إليهم بخطوات مترددة.

يبدو أنهم قد لاحظوا التغير الذي حل به أو استعداده للتغير.

من دون مقدمات مد يده إلى علبة دخان في جيب أحدهم والتقط سيجارة.

سارع آخر بإشعالها ضاحكا وهو يصيح مازحا:

حمد لله على السلامة يا مولانا .

أيوة كدة فكها.

فينك يا راجل من زمان؟

وحشتنا قعدتك الحلوة.

هكذا توالت الصيحات والضحكات .

ولقد اندمج بسرعة.

لم تمض ساعات حتى كان صاحبنا قد اقترف كل ما كان قد هجره منذ اتخذ ذلك القرار يوما.

**قرار الالتزام.**

- مش قلت لك يا مولانا... أنا نجس.. مافيش فايدة..

قبل أن يمهلني لأرد أو أبين له خطأ تصوره كان قد رحل مسرعا وتركني أقف واجما.

لسنوات طويلة مضت بعد تلك الواقعة لم يسمح لي صاحبنا عبرها أن

أتحدث معه قط فيما يفعله بنفسه كان قد تمادى واستمر في تلك الطريق الموحشة حتى بلغ أقصى ما لم يكن يتخيله.

البعض قد يختزل قصة صاحبي هذا في تشخيص مباشر وظاهر.

نقص العلم.

هو لا يدري إذاً أن ثمة فارق ضخم بين الجنابة والنجاسة.

لا يعلم أن النجاسة الحسية تختلف عن نجاسة الروح وعن دنس الشرك والمشركين.

حسنا.. هذا وإن كان جزءا من الحقيقة إلا إن تصور كون ذلك هو السبب وحده = قصور بالغ.

هذا النوع من العلم ليس نقصه هو السبب وإن شكل البداية.

المشكلة الأخطر كانت في جهل من نوع آخر.

جهل بطريقة التعامل مع المعصية.

وجهل أخطر بمفهوم الاستقامة وربطها المتوهم بالعصمة .

رغم أن أغلب المسلمين يحفظون حديثا يبين تلك المسألة بجلاء إلا أن هناك مشكلة حقيقية في التعامل معه خصوصا عندما تأتي المحكات العملية .

إنه حديث: « **كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**» .

كلمات جامعة كعادة من أوتي جوامع الألفاظ بأبي هو وأمي صلوات ربي وسلامه عليه وهي تلخص بتراكيبها البسيطة معنى في غاية الخطورة.

لا أحد معصوم من الخطأ ما دام ينطبق عليه هذا الوصف.

وصف ابن آدم.

صحيح هناك استثناءات بشرية لكنها استثناءات معدودة على مستوى الجنس البشري كله وهم الأنبياء والمرسلين عليهم السلام .

من ثم كان الحكم على الغالب وأطلق اللفظ وسبقته كلمة « **كل**».

الكل يخطىء ويصيب.

يزل ويسدد.

يعصي ويطيع.

يخلط العمل الصالح بالسيء.

لذا كان الخطاب بالتوبة عاما مطلقا وذلك في قول الله جل وعلا: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

الجميع إذاً بحاجة إلى التوبة وتصحيح الخطأ والندم عليه.

هذه هي الاستراتيجية السليمة في التعامل مع الذنب.

وهذا ما لم يدركه صاحبي للأسف.

ولم يدركه الكثيرون.

الالتزام لا يعني العصمة.

الاستقامة لا تستلزم التمام.

الصلاح ليس مرادفه النقاء المطلق.

الفكرة في طبيعة الذنب والأهم في كيفية التعامل معه.

إن ديننا واقعي يخاطب بشرا خطائين ويكلف أناسا يعتريهم القصور والخلل وليس ملائكة لا يعصون أبدا .

عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا**».

هكذا ببساطة ووضوح بين النبي ﷺ في جامعة أخرى من جوامع كلماته.

الأمران يجتمعان.

محاولة استقامة مع إقرار بعدم وجود الإحصاء الكامل.

لن تحصوا.

سيحدث الخطأ وستزلون أحيانا ما دمتم بشرا.

وهذا لن ينزع عنكم وصف الاستقامة وسيما الصلاح إلا في ظروف معينة ومع تعامل معين مع الذنب.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [**سورة الجاثية: ٢١**].

ليسوا سواء.

لكن تأمل اللفظ الذي ارتبط بالسيئات في هذه الآية.

اجترحوا..

إنها طريقة وأسلوب .

نهش واجتراء.

نعم... هناك نوعية معينة وطريقة ما للتعامل مع الذنب لا تتفق مع أصل وجود الاستقامة ولا تجتمع مع الصلاح لكن وجود المعصية ابتداء لا يستلزم ذلك التعارض.

الفكرة ببساطة في حال المرء قبل وأثناء وبعد المعصية.

لمعاصي الصالحين طبيعة تختلف عن معاصي الفجار والفساق.

قبل المعصية ستجد منطلقات المتدين مغايرة تماما لنقيضه الفاجر.

الملتزم إذا عصى فمن منطلق الضعف أو الزلل أو النسيان والخطأ.

بينما نقيضه يعصي اجتراء وانتهاكا واستهانة بمقام الله وربما استحلالا وجحودا.

يحسب كل معصية هينة ولا يعظم حرمات أو يوقر شعائر.

هذا الفارق ظهر بوضوح بين معصية آدم وزوجه ومعصية إبليس.

بين من زل وضعف عزمه ومن أبى واستكبر وجحد واجترأ.

ثم أثناء المعصية .

الملتزم أثناءها يكون غافلا أو ناسيا.

وأحيانا حزينا متقززا.

هو في قرارة نفسه لا يريد أن يعصي.

يريد أن يتوقف ويقلع عن الذنب لكنه ضعف أمام شهوته وانكسر لرغبته.

ولا أحد يحب الضعف والانكسار .

لذا هو لا يحب الذنب ولا يسعد به وإن قارفه.

في المقابل تجد الفاجر فرحا بالذنب راغبا فيه مقبلا عليه بكل جوارحه.

هو يحب الذنب وبه قلبه يطرب رغم أن المفترض أن يحدث العكس لكنه مرض عضال في القلب.

إنه قلب أجرب!

قلب يريحه ما يؤذي الشخص السليم ويتلذذ بما طبعه أن يؤلم ويضر.

في حالات الجرب الحاد يقوم المريض بحك جلده بشدة وقد لا يرتاح حتى يُدمي هذا الجلد ويقرحه.

ولو صح جلده لآلمته تلك الحكة العنيفة الدامية.

لكنه المرض .

وما أقبح المرض إن كان فى القلب !

قلب يريحه تمزيقه بالفجور ويسعده إدماءه بالعصيان.

انقلاب موازينه واختلال معاييره.

مرض حقيقي يغير من طبيعته ومن طبيعة الأشياء في نظره.

مرض أسميه جرب القلب.

في الحديث: «**المؤمن من سرَّته حسنته وساءته سيئته**».

ذلكم المؤمن.

أما الفاجر فله شأن آخر تماما.

تسعده الموبقات وتفرحه الخطايا والسقطات وتتحفه الذنوب والسيئات.

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [**التوبة**: ٨١].

تأمل مصدر فرحهم..

تخلفهم عن التضحية .

تقاعسهم عن البذل.

قعودهم عن الطاعة.

لكن هل هذه حقا أسباب فرح؟!

أوهكذا يتفاوت ميزان الفرح والحزن وتتباين معايير الضحك والبكاء.

هي كذلك لدى من انقلبت لديه الأصول واختلت المعايير .

لقد كان الأولى بهم البكاء على فوات الطاعة والحزن على التقصير.

هكذا قال ربنا:

﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [**التوبة**: ٨٢].

وكذلك يفعل الصالحون حين يقصرون أو يعصون.

وبعد أن يفعلوا وهذا هو الأهم.

ما بعد المعصية .

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [**آل عمران**: ١٣٥].

هاهنا ذكر..

أنَّى هذا؟

أوليس الأصل أن العاصي يكون ناسيا أو متناسيا وغافلا أو متغافلا؟

كيف يجتمع ذلك مع الذكر؟

إجابة ذلك تتبين حين ندرك من هؤلاء الذين ذكروا الله عند المعصية أو بعدها مباشرة.

إن اللفظ الذي أطلق عليهم ابتداء ليس لفظازمرتبطا بالمعصية أو الفاحشة.

ليسوا مجرمين أو فاجرين أو فاسقين.

إنهم المتقون.

الآيات تتحدث عن هذا الصنف الذي لأجله أُعدت الجنة التي عرضها السماوات والأرض.

تتحدث عن صفاتهم وخصائصهم.

عن إنفاقهم وجودهم في السراء والضراء وعن كظمهم غيظهم وعفوهم وإحسانهم.

ثم تتحدث عن معاصيهم.

نعم... إنهم يعصون كما سبق وبينت.

رغم ذلك الوسم الشريف الذي قدموا به.

إنهم متقون.

لكنهم يظلوا مع ذلك من بني آدم وكل بني آدم يخطئون ويزلون ويعصون إلا من عصم الله.

متقي ويعصي.

ملتزم ويخطيء.

متدين ويزل ويضعف .

أتجتمع هذه الصفات؟

نعم.

لكن الفارق الذي ميزهم وجعل وقوعهم في المعصية مختلفا عن طريقة الفاسقين والفاجرين والمجرمين هو تلك اللحظة التي يستفيقون فيها.

لحظة الذكر.

﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾...

مطلوب بعدها ألا يتمادى المؤمن في نسيانه وغفلته بل يسارع إلى التوبة والاستغفار وبداية ذلك تكون بالذكر.

لذلك بعدها مباشرة جاءت التوبة وطلب الاستغفار ورحل الاجتراء الإصرار.

﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

لأجل ذلك الرجوع السريع والأوبة العاجلة ظلوا من المتقين رغم وقوعهم في الفاحشة.

لأنهم لم يصروا.

تابوا وأنابوا واستغفروا واعترفوا ولم يستنكفوا أو يماروا ويستكبروا.

وهذه هي معصية المؤمن التقي أو من اصطلحنا على تسميته بالملتزم.

إنه ليس مُصرا ولا معاندا.

ليس مكابرا ولا صاما أذنيا متغافلا.

إنه ذكار أواب منيب وإن عصى.

الذكر هنا ليس قاصرا على بعض حركات الشفاة التي لا تجاوز الحناجر ولا تمس القلوب أو ينعكس صداها على الأفعال؟!

الذكر هنا أعظم من ذلك كثيرا وأشمل.

الذكر حياة كاملة .

يمكنك القول أن جوهر الذكر هنا ببساطة ومباشرة = أن تظل ذاكرا له لا تنساه.

وإذا نسيت عدت فتذكرت وأنبت ورجعت.

والله عز وجل أَمَر مع الاستقامة بالاستغفار من الذنب؛ مما يدل على أن الاستقامة قد يقع فيها خلل، وهذا أمر وارد، ويجبر بالاستغفار.

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

قال ابن رجب - رحمه الله -: «وفي قوله عز وجل: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] إشارةٌ إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة؛ فهو كقول

النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**اتقِ الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها**».

هكذا بيّن النبي ﷺ أن هناك سيئة وهناك طريقة لمحوها.

بل في حديث آخر بيَّن في وصفه المفصل لحال المؤمن العاصي.

قال: «**لكل عبد مؤمن ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا**».

تأمل...

هذا عبد مؤمن بشهادة الحبيب ﷺ .

لكنه مع ذلك يزل ويخطيء وبل يكرر نفس الأخطاء.

والحل لخصه النبى بعد ذلك حين ذكر ما ينبغي أن تكون عليه صفة المؤمن تجاه الذنب الذى ضعف أمامه واعتاده الفينة بعد الفينة.

لقد لخص تلك الصفات فى جملة جامعة رائعة جمعت صفات أربعة تتوازن سويا فقال: «**إن المؤمن خلق مفتنا توابا نسيا إذا ذكر تذكر** ».

فمفتنا تعدلها توابا... هو عرضة للفتن وقد يقع فيها لكنه يسارع بالتوبة.

وهو نسيٌّ يقع فى الغفلة ويعتريه النسيان كما اعترى أباه الأول عليه السلام.

لكنه في النهاية يقبل التذكرة والنصح.

ويتذكر...

حينئذ لا يعد ما هو عليه إصرارا ولا فجورا ما دامت جذوة الندم متقدة والرغبة في الإصلاح والتغيير لم تزل حية.

لكنه الضعف البشري.

هذا هو المنطلق الذي منه وقع في المعصية ابتداءً وليس استكبارا أو جحودا أو استحلالا كما أوضحت.

لأجل ذلك سهُلت عليه العودة عندما تذكر .

لأنه لم يختر الفجور ولم ييأس من العودة والأَوبة.

هكذا يتعامل الصالحون حين يعصون.

وهكذا يعودون ولا يستمرئون الفجور أو يختارون الحل الأسهل في نظرهم الحل الذي اختاره صاحبي وكثيرون غيره.

حل اليأس .

اليأس اللذيذ..

مؤقتا!

### ٨٢. أسوار الخطأ:

- ما سبب الخطأ الذي وقعت فيه؟!
- ما الدوافع التي جرتني إليه؟!
- من المسؤول عن هذا التردي الذي آل إليه حالي؟!

أسئلة قد تكون مهمة للغاية عند التحليل والدراسة والاستفادة من أخطاء تجربة ما.

أن تُعرف أسباب المشكلة ومحل الخلل وموطن الخطأ وأن يتحمل المخطىء تلك المسؤولية المادية والمعنوية عن الخطأ الذي قام به ويدفع ثمنه -إن كان له ثمن- فهذا حسن.

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٧].

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف: ٨٨].

كان هذا رد الملك العادل ذي القرنين لما جاءه المستضعفون يشكون إليه ظلما لحق بهم قائلين: ﴿ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ [الكهف: ٨٦].

ومن رده تُتبين تلك القاعدة القرآنية العظيمة ويظهر من خلالها المبدأ الثابت والأصل الراسخ: لا عقوبة إلا مقابل خطأ وبما يوازي الخطأ والمتسبب في الخطأ عليه أن يتحمل مسؤوليته ويسدد (فاتورته) بما يوازيه .

كل هذا لا إشكال فيه ولا يوجد عاقل يرفض منطقه.

لكن الإشكال في أن تتحول الأخطاء والزلات إلى شماعات نعلق عليها يأسنا من تغيير أنفسنا أو إلى أسوار تحول بيننا وبين الاستقامة والصلاح وكأن تلك الأخطاء هي نهاية العالم وأصل كل الشرور.

وكأننا قد صرنا بهذه الأخطاء شياطين ملعونين مآلنا لا محالة إلى الجحيم.

أن تتحول تلك الأخطاء والأسباب والدوافع إلى جدران معتمة أو قضبان غليظة يظل تفكير المخطىء أو تفكير من يلومه حبيسين بداخلها فلا يرى أحدهما الدنيا إلا من خلالها ولا يستطيع أن يتجاوزها إلى غيرها.

ومن ثم يفشل بإرادته الكاملة في تحقيق المقصد الذي نتحدث عنه في هذه المقالات.

يفشل في الاستقامة ويترك سبيل الصلاح ويعتقد أنه قد فارق الالتزام كليةً.

هذا للأسف ما يحدث للبعض بالتزامن مع وقوعهم في الخطأ.

سوء تقييم حاسم لذواتهم وتشخيص نهائي أنه لا فائدة منهم ولا سبيل لإصلاحهم.

لن يكونوا أبدا ملتزمين لأنه وقعوا في تلك الأخطاء المهينة.

هكذا يفلح الشيطان معهم من خلال هذا التصور الساذج الذي لا علاقة له بالشرع.

في غزوة أُحُد أخطأ الرماة بنزولهم من ذلكم التل الذي أقامهم عليه رسول الله ﷺ مسارعين إلى غنائم زائلة وعاصين بذلك أمر النبي الأمين الذي أحكم لهم النهي قائلا: «**كُونُوا مَكَانَكُمْ ، لا تَبْرَحُوا وَإِنْ رَأَيْتُمُ الطَّيْرَ تَخْطَفُنَا** ».

بوضوح قد أخطأوا وخالفوا أمره ووقعوا فيما نهاهم عنه.

ولقد أصابتهم المصيبة بما هو من عند أنفسهم وذلك بنص القرآن كما نزلت به سورة آل عمران.

وقد تم بيان الخطأ والمخطىء وحُمِّل المسؤولية التي ينبغي له أن يتحملها

ثم ماذا بعد؟!

هل ظل التوبيخ أو التلاوم وحسب؟!

هل ظلت كل سورة من سور القرآن تتحدث عن ذلك الخطأ وهل استمر اللوم والمعتبة في كل حديث من أحاديث الرسول ﷺ قيل بعدها؟!

بل هل كانت الآيات التي نزلت في تلك المناسبة وتعليقا على ذلك الحدث كلها تتكلم عن هذا الخطأ؟!

الجواب: لا.

لقد حدث الانتقال الطبيعي والمنطقي من بيان الخطأ وتحميل المسؤولية المناسبة للمخطىء إلى الخطوة التالية وهي العمل وإصلاح ذلك الخطأ وبذل الوسع لاجتناب الوقوع فيه في المرات القادمة.

لقد نزلت الآيات مبينة لعوامل النصر ومفعمة بالأمل وحسن المآل ومبشرة

بمصير من سبق من الشهداء وأنهم أحياء عند ربهم فرحين ومستبشرين.

ثم كان التوجيه وتصحيح الخلل ولفت النظر لمواطنه بشكل واضح وحاسم وعملي وفي العديد من الآيات .

التي ختمت بالتوجيه الاستنفارى الدائم الذي ينبه المؤمن إلى أنه ينبغي أن يظل في تلك الحالة من الجلد والرباط والعملية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]

وكان التوجيه التربوي للنبي ﷺ يوضح هذا الانتقال المباشر.

﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

صحيح أنه تم إقرار حدوث الخطأ بوضوح وبيان شيء من أسبابه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

لكن كانت البشرى بعده أيضا واضحة.

﴿ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

إنه التوجيه للتفكير والسلوك العملي في أوضح صوره.

نفس الأمر فعله نبي الله يعقوب عليه السلام مع بنيه.

فرغم أنه كان يدرك أن أنفسهم قد سولت لهم أمرا في المرة الأولى وكذلك الثانية.

ورغم أنه قد بين إدراكه لذلك وقال: بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل .

إلا إنه لم يتوقف عند هذه النقطة.

ومع الألم الشديد لفقد ولديه والحزن الذي له ابيضت العينان فإنه انتقل بنبل النبوة إلى الجزء العقدي والعملي بشكل مباشر فقال: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

هيا تحركوا..

انتقلوا إلى ما يفيد..

أصلحوا وغيروا..

ولقد كان فعل يوسف عليه السلام من نفس المشكاة إذ قال لإخوته بعد أن عرفوا خطأهم واعترفوا ببغيهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

هكذا كان التعامل مع الخطأ.

وهكذا تمضي الحياة وتسير مراكب العمل وتمر قافلة الإصلاح.

أما أن يحبس الإنسان نفسه إذا أخطأ في سجن الخطأ أو أن يصر لائمه ومربيه على حبسه خلف قضبان الإذلال بهذا الخطأ وتحميله مسؤولية كل كارثة حدثت وتحدث في حياته = فتلك مسالك الضعفاء الذين لا يستطيعون المضي قدما ولا التفكير بشكل عملي.

شتان الفارق بين النفسيات النبيلة والعقليات العملية التي تتجاوز أسوار المزايدة وقضبان الجلد الدائم والمستمر للمخطىء لتنطلق إلى الهدف وتصل إلى المراد وهو التغيير للأفضل وبين تلك النفوس السادية المريضة والأخلاقيات الناقصة البغيضة التي تصر على جلد المخطىء بسياط اللوم اللاذع ودفنه حيا في غيابات الندم وتعذيب النفس.

لقد حاول فرعون أن يفعل مثل ذلك مع موسى عليه السلام.

حاول أن يحبسه خلف أسوار ما حدث مع المصري وأن يقيده بأغلال الإذلال بتلك الوقعة التي وكز موسى فيها الرجل.

أراد فرعون أن يسجنه داخل قضبان المزايدة واللوم والتقريع فقال: وفعلت فعلتك التي فعلت .

كان من الممكن لنبي الله موسى عليه السلام أن يرد بردود كثيرة يبرر بها مقتل الرجل المصري.

كان من الممكن أن يبين أنه قتل خطأ وأنه لم يكن يقصد قتله.

وكان من الممكن أن يوضح أن الرجل كان معتديا صائلا وأنه إنما كان يدفعه وحسب.

وكان من الممكن أن يربط الأمر بجرائم فرعون الكثيرة في حق قوم موسى من تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم.

كان من الممكن أن يقول الكثير والكثير .

لكنه لم يفعل.

لم يستدرج إلى مراء التبرير ولم يضيع الوقت في متاهات الجدال والأهم أنه لم يقبل حبسه خلف أسوار ما مضى أو يقبل أن تحبسه قضبان الأحداث المنتهية .

إنه صاحب رسالة جاء لمهمة وإن لديه هدفا عليه أن يحققه.

لقد تجاوز تشغيب فرعون باعتراف مباشر حاسم فاصل تحمل فيه المسؤولية قائلا: فعلتها إذا وأنا من الضالين.

نعم قد فعلت ولن أقف طويلا مع هذا الأمر أو أدفع عن نفسي شيئا قد حدث وقد دفعت ثمنه بالفعل ونُفيت بسببه سنين عددا بعد أن تآمرتم لقتلي دون تحقيق أو تبين.

فعلها وتاب عنها واستغفر في حينها ودفع الثمن من سنين غربته وإبعاده.

فعلها إذا ولم يبررها أو يزينها.

ثم عبر إلى الأهم.

لم يضيِّع الوقت في غيابات التبريرات ولم يستسلم لقيود الإذلال والمزايدات بل ذهب مباشرة إلى هدفه الذي يعلو على الاشخاص والأحداث ويسمو على التفاصيل والزلات.

وكذلك الملتزم .

لا ينشغل طويلا إلا بهدفه ولا ينفق وقته ويضيع حياته القصيرة في التبرير الذي يصل أحيانا إلى تزيين الخطأ وتحسينه لدرجة قد تؤدي في النهاية إلى ضياع الهدف الأصلي وطمس الثوابت وتواري الحق.

كثيرا ما يكون الطريق الأقصر هو اعتراف المرء بالخطأ والاستعداد لدفع ثمنه وتحمل مسؤوليته والسعى لإصلاحه ثم الانتقال إلى الأهم والأنفع بدلا من تضييع الأعمار والثوابت في التبرير والتزيين .

إن المخطىء إذا ندم وعرف موطن الخلل والزلل وتحمل نتائج أخطائه

فعليه ألا يظل بعد ذلك حبيس هذه الأخطاء وإلا تحول الخطأ إلى حالة من المازوخية أو الماسوشية (وهي حالة نفسية تتلخص في حب تعذيب النفس واستمراء جلدها) مما يؤدي إلى بقائه في مكانه سجين (بطحته) التي على رأسه

وأما المعاتب أو الناقد فعليه أن يكون خير آخذ وألا تنحصر علاقته بالمخطىء في تعذيبه بالخطأ وتعليق كل مصيبة على شماعة زلته أو خطأه فينتقل الناقد من حيث لا يشعر إلى حالة من السادية (وهي حالة نفسية أخرى تتلخص في حب تعذيب الآخرين) ويظل في ذلك القصور القيمي والأخلاقي والنظرة اللاعملية التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

فليدفع المخطىء ثمن خطأه بالعدل وليقتصر النقد والتلاوم على التعريف بمحل الخطأ وبيانه لعدم العودة إليه ثم ليتجاوز المخطيء والناقد تلك القضبان ولينطلقوا إلى رحابة العمل وسعة الاستقامة والصلاح والإصلاح.

ليتجاوزوا تلك السدود والجدران ولا يقبعوا طوال حياتهم خلف تلك الأسوار المانعة لهم من الالتزام.

أسوار الخطأ.

## ٩٢. يُخوِّف أولياءه:

أحد أهم العوائق التي يضعها الشيطان في طريق بني آدم ليحول بينهم وبين الاستقامة على مراد ربهم واتباع هداه.

منذ البداية كانت تلك الاستراتيجية حاضرة وبارزة في ذلك الصراع.

منذ لدن آدم عليه السلام.

لقد أدرك الشيطان تلك الحقيقة مبكرا وعلم أن مشاعر الخوف التي تعتري قلوب هذه المخلوقات الجديدة - آدم وبنيه - يمكن استثمارها ضدهم وتعظيمها في أنفسهم بطريقة يسيطر بها عليهم ويحركهم بها كيف شاء.

لقد كان الخوف هو أول ما أغوى به آدم جنباً إلى جنب مع وعوده وإغراءاته.

حين أزله وزوجه عن الشجرة المحرمة كان الخوف حاضراً في إغوائه من خلال إشاراته إلى الخلد: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ﴾ [طه: ١٢٠].

لقد خاطب في نفس آدم عليه السلام جانب الخوف من الموت مغرياً إياه بالخلود الدائم ثم خاطب أيضاً جانب الخوف على ما يمتلكه وذلك بإشارته التالية لصفة المُلك الذي وعده به قائلاً: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وعندما التفت آدم إلى هذه المخاوف = زل وعصى.

إن طبيعة البشر تحوي هذين النوعين من المخاوف جنباً إلى جنب مع أنواع أخرى كثيرة يجيد الشيطان تحفيزها ليحقق مبتغاه بإضلال الإنسان وصده عن سبيل الرحمن.

الخوف على رزقه.

الخوف على ماله.

الخوف على عياله.

الخوف على استقرار حياته.

الخوف على نفسه وأمن دنياه.

الخوف على مستقبله وما يتمناه.

الشيطان يعرف جيدا تلك المخاوف وغيرها ويجيد استغلالها.

في حديث سبرة بن أبي فاكه أن رسول الله ﷺ بين بالتفصيل قعود الشيطان في كل سبيل دين يسلكه ابن آدم مخوفا إياه بأحد تلك المخاوف.

«**إنَّ الشَّيطانَ قعدَ لابنِ آدمَ بأطرُقِه .**

**فقعد له بطريقِ الإسلامِ فقال له : أتُسلمُ وتذرَ دينكَ ودينَ آبائكَ وآباءِ أبيكَ؟**

**يخوفه هنا بضغط الواقع والمعتاد من حال الناس وما توارثوه عن آبائهم.**

**يخوفه من التغيير والاختلاف عن التيار العام وتبعات ذلك الاختلاف .**

بعدها قال رسول الله ﷺ : **فعصاهُ فأسلم** ».

فهل يكف ويتركه؟

مستحيل.

« ثمَّ قعد له بطريقِ الهجرةِ فقال : أتهاجرُ وتذَرُ أرضكَ وسماءكَ وإنَّما مثلُ المهاجرِ كمثلِ الفرسِ في الطِّوَلِ.

يخوفه هناَ على استقراره ويكبله بمخاوفه على دنياه وأرضه وأملاكه

قال رسول الله ﷺ: **فعصاهُ فهاجرَ ،**

ثمَّ قعد له بطريقِ الجهادِ فقال : هو جهدُ النَّفسِ والمالِ فتقاتلُ فتنكحُ المرأةُ ويُقسمُ المالُ.

هنا التخويف ينتقل إلى مرحلة أخطر.

النفس والعرض.

يخوفه بالهلكة في هذا الطريق وضياع الإرثه وزواج امرأته.

حياتك ستنهار يا هذا وأهلك سيتلطمون من بعدك.

قال رسول الله ﷺ: **فعصاهُ فجاهدَ، ثم قال: فمَنْ فعل ذلك منهم فماتَ كان حقًّا على اللهِ أنْ يدخلَ الجنَّةَ أو رفصَتهُ دابَّتهُ كان حقًّا على اللهِ أنْ يدخلَ الجنَّةَ.**

هذا الحديث وتفاصيله تلخصه الآية الجامعة.

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

[آل عمران: ١٧٥]

الشيطان يُخَوِّف..

وأتباع الشيطان أيضـًا يعتمدون تلك الوسيلة في كل زمان محركين تلك الغريزة ومخاطبين ذلك الشعور الجبلي.

وسيلة التخويف:

ولا تكاد تجد مفسداً إلا ويحرص بقدر وسعه على تخويف الخلق.

إنها صناعة الخوف التي ورثوها عن معلمهم الأول إبليس.

يتبدى ذلك واضحـًا فيما حكاه ربنا من قول فرعون: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾

[طه: ٧١]

هنا كان لابد في نظره من صناعة العبرة وترسيخ الخوف وإقامة النموذج: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧١].

لابد أن يعلموا.

ولابد أن يعلم الجميع أنه «لابد أن يبقى العبيد عبيداً»!

وليكن هذا العلم عبر جسور الأشلاء الممزقة وليسقَ لمتعلمي العبيد مع عصير الدماء المسكوبة والأوصال المتطايرة ثم ليكن الصلب على تلك الجذوع السامقة الظاهرة لكل عين.

المسألة ليست إذاً في مجرد العقوبة..

إنه النموذج التخويفي، النموذج الذي ينبغي أن يُظهر للجميع حقيقة الواقع المراد ولتظل قبضة المفسد محكمة على الأتباع ويصدهم عما يكره بهذا العائق والمؤثر الرهيب.

الخوف .

الغريزة التي يظن شياطين الإنس والجن أنهم بها سيسيطرون على الخلق. ويحجبونهم عن الحق.

تلك المشاعر التي تعد من أعقد وأخطر الأحاسيس التي تعتري البشر وتتحكم في مسارات حياتهم من خلال تسلطها على ملك الأعضاء والجوارح: القلب!

نعم.. هذه هي الحقيقة التي يغفل عنها كثير من الناس ظانين أن الخوف في مطلقه سبة أو نقيصة لا تصيب إلا جباناً ولا يشعر بها إلا رعديد!

صحيح أن من يقتاتون على الخوف وينشرونه ويتاجرون به = نصت الآية أنهم ينجحون في ذلك مع طائفة لا بأس بها من البشر.

طائفة سماها الله بأولياء الشيطان.

﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

لكن ليس الجميع هكذا .

هناك أولياء الرحمن .

إن هذه المشاعر فطرية وطبيعة الإنسان تقبل وجود قدر من الخوف لم ينكر الشرع وجوده حتى لدى أوليائه

لكن كعادة الشرع الحكيم أشار إلى سبل التعامل معه والسيطرة عليه وتوجيهه إلى مساره الصحيح بأن يكون خوفاً من الله وحده في نهاية الأمر.

يتضح ذلك من خلال تلك المقابلة التي تتكرر كثيراً في كتاب الله تعالى .

مقابلة تتكرر لتقرر معنى في غاية الأهمية ينبغي على العبد أن يدركه في طريق معاملته مع الله سبحانه وتعالى.

إنها المقابلة بين الخوف من الخالق والخوف من المخلوق:

- ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

- ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣].
- ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].
- ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].
- ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦].
- ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]

هذه الآيات كلها - وغيرها - تشترك في وجود تلك المقابلة القرآنية الواضحة التي أشرت إليها والتي تلخص المراد في مواجهة تخويف الشيطان.

يخلص المتدبر من خلال هذه الآيات وغيرها لنتيجة واضحة جلية وتوجيه قرآني حاسم مفاده:

لا ينبغي للعبد المسلم أن يجتمع في قلبه خوفان؛ الخوف من الله والخوف من خلقه.

لا ينبغي أن يحول الخوف بين الإنسان وبين تحقيق مراد الله.

لا ينبغي أن توجه مشاعر الخوف التعبدي إلا إليه.

إلى الله.

لكنَّ هذه النتيجة وتحققها في قلب العبد لا تتأتى بمجرد معرفتها والاقتناع بوجوب الوصول إليها وحسب!

إنها في الحقيقة رحلة حياة ينبغي على المرء أن يسلك سبلها ويبتغيها في مظانها لعله يدركها في نهاية الأمر، لكن قبل بلوغها عليه ابتداءً أن يعي حقيقة تلك المشاعر ويدرك أصول التعامل معها.

ولعل أوضح نموذج قرآني لهذه المشاعر الجِبِلِّية والتعامل معها وتطويرها تدريجياً لتصل إلى ذلك المراد الشريف = نموذج سيدنا موسى عليه السلام،

لقد تكررت في قصة نبي الله موسى الإشارات إلى وجود تلك المشاعر وتطورها من مرحلة إلى أخرى لتبدأ من: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠].

ولتنتــه بــ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

تأمل مرة أخرى:

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠]، ثم: ﴿كَلَّآ﴾.

قالها الكليم وضيئة تتلألأ بأنوار العقيدة: ﴿كَلَّآ﴾.

قالها حاسمة قاطعة لا شك فيها: ﴿كَلَّآ﴾.

صفعة يقين على قلب كل مرجف واهن من بني إسرائيل أكد برعب أنهم مُدرَكون.. صفعة بكلمة من ثلاثة أحرف بددت بنور الثقة بالله غيابات الإرجاف والخوف البادي من صياحهم.

لكن هذا الفارق لم يحدث بين عشية وضحاها، إنها كما أكدت رحلة طويلة وأعوام عديدة انقضت ليتحول الأمر إلى هذا اليقين الحاسم وليختفي أي أثر لخوف المخلوق من قلب نبي الله موسى حتى في مثل هذا الموقف الذي تنعدم فيه أسباب الأمن الأرضية وتتعاظم فيه دواعي الخوف والفزع من المخلوق وهو في تلك الحالة ليس أي مخلوق ولكنه طاغوت من أبشع من عرفت البشرية طغيانهم، يطارده وقومه بجيش عرمرم ويحاصرهم فلا ملاذ ولا منجى إلا بحر متلاطم الأمواج!

ثم ﴿كَلَّآ﴾..

يطلقها موسى ليطيح كل داعي الفزع بسيف اليقين الذي ملأ القلب بعد تلك الرحلة الطويلة التي وعى خلالها ذلك الدرس العقدي من خلال سلسلة متكررة من التوجيهات يجمعها رابط واحد:

﴿لَا تَخَفْ﴾:

- ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].
- ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١].
- ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].
- ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].
- ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨].

- ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٧٧].

بعد كل هذا، كيف لا يصل موسى لهذا اليقين الذي حوته كلمته التي أشرنا إليها في مواجهته مع جيش فرعون وهو - موسى أعني - من ارتقى على درجات الثقة درجة تلو أخرى؟!

كيف لا يقولها وقد تعلم الدرس مرة بعد مرة:

- تعلم أنه لا يخاف لدى الله المرسلون.
- تعلم ألا يخاف وهو الأعلى بإيمانه.
- تعلم أنه بآيات ربه ومن اتبعه الغالبون.

وتذكر الوعد الرباني الوعد الذي كلمه به ربه قبل أعوام مخاطباً إيَّاه وأخاه: ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

هذا الوعد الذي وجد قلباً خصيباً لتنمو فيه جذور الثقة المطلقة في مآل الأمر وتنبت منها شجرة طيبة من يقين راسخ أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وكان من أُكُلِها أن قال بعد حرفه الحاسم: ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢].

إنه يدرك معنى المعية: معية الملك الحق! فكيف يخاف إذن؟! إن معه ربه يسمع ويرى، لا شك إذن أنه سيهديه، لذا قالها بحزم وجزم: ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢] لكن البداية كما أوضحنا كانت تحوي خوفاً طبيعياً تمت معالجته والتعامل معه وتهذيبه:

- ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه: ٦٧].
- ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص: ٢١]، من الذي وصف بالخوف في هذا السياق؟!
- ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [طه: ٤٥].

من القائلان؟!

من المتحدثان عن الخوف؟!

إنهما نبيان مكلمان أحدهما رسول من أولي العزم ومن أقوى الخلق في الحق.

نعم.. لقد خاف موسى، وخاف هارون، وخاف غيرهما من الصالحين لكن خوفهم لم يثنهم عن قولة حق وإقدام صدق.

هذا كله يؤكد ما خلصنا إليه من أن الخوف شعور إنساني جبلي وليس كل خوف جبناً وليس كل خائف خواراً. المهم هو كيف تعامل مع خوفه وروضه وأحسن توجيهه.

الخوف شعور معتبر خصوصاً ما كان منه جبلياً لكنه إن عطل مروءة المرء وأكسبه جبن الضباع جنباً إلى جنب مع خستها ودناءة صنيعها ثم صار حاجزا وعائقا يحول بين الإنسان وبين الطاعة ويحجزه عن الاستقامة = لم يك حينئذ معتبراً ولا مقدراً.

فقط حين يكسر الخوف همة المرء ويحول بينه وبين الحق والخير ويعظم في قلبه عن مخافة الله يكون ذلك هو المذموم بل وقد يصل به إلى نوع من الشرك يسميه العلماء بشرك الخوف وهو ما أولوا به قول نبي الله إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [**الأنعام: ٨١**].

إن أولياء الرحمن لهم شأن آخر مع الخوف.

أولئك الذين يعرفون ربهم ويدركون عظمته وقوته وقدرته ويعاملونه فيدركون معيته = فحينئذ يزول الخوف من المخلوق تدريجياً ويحل محله خوف واحد.

خوف من الملك الحق.

لعل نموذج سحرة فرعون أيضاً يعد من أوضح النماذج القرآنية على ذلك التحول التدريجي في مسار الخوف برغم عدم وجود وعد صريح بالنجاة والغلبة الدنيوية كما كان الأمر مع موسى عليه السلام.

لكن المرء يعجب حين يسمع ردود السحرة على تهديدات فرعون وحين يتأمل ذلك التحول الجذري الذي طرأ عليهم بعد الإيمان وكيف أن عبارات من أروع ما قيل في الصدع والبيان عن الله والدار الآخرة قد خرجت من أفواههم التي كانت منذ فترة قصيرة تتمتم بتعاويذ السحار وطلاسم المشعوذين.

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٧٢].

تأمل الحسم في هدم جدار الخوف.

لن نؤثرك.

لن نختار الخوف منك على إيماننا.

لن تكون تهديداتك عائقا يحول بيننا وبين ديننا.

هكذا اختاروا وأكلموا مؤكدين خيارهم:

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾.

[طه: ٧٣ - ٧٦]

كلمات نورانية محكمة تضيء بالحكمة والفهم..

كلمات لها ثمن باهظ ولقد دفعوا الثمن من دمائهم ليكللوا القول بالتضحية والبذل..

كلمات لم يكن يتصور أحد أن تخرج منهم.

لكنها خرجت.

وقد يزول العجب إذا ظهر السبب: إنه معرفة الله.

معرفة الله التي إذا استقرت في قلب عبد فإنها تهز - بل تزلزل - كل تصوراته الخاطئة ونظراته القاصرة فتسقط كافة أوثان النفس وعوائق الشيطان وسدوده لتخر متهدمة على أنقاض سوء الظن والخوف من الخلق أو التعلق بهم.

وكما رجف المنبر برسول الله ﷺ حينما تحدث عن الملك حتى قالوا ليخرن به فإن قلب المؤمن وحياته وتصوراته ونظراته للأمور ترجف وتهتز وتنقلب رأساً على عقب حين يعرف الله حق المعرفة فيرى الأمور بقيمتها الحقيقية ويزن الدنيا وما عليها بميزان المعرفة.

معرفة الله .

إن من عرف ربه يتقلب في حدائق الاطمئنان بذكره: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [الرعد: ٢٨].

ويستظل بوارف أشجار التوكل عليه وهو يردد: ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وهو يتنعم بنسيم اليقين فيما عنده ويثق بأن ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] فكيف يخاف بعدها على رزقه؟!

وإنه على علمه وتقواه فإنه يخافه ويخشاه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

وإن قلبه ليوجل لذكره فهو ممن قيل فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. [الأنفال: ٢]

لكنه ما إن يتذكر واسع فضله وجنات جوده وغيث إحسانه حتى يسارع إلى رحابه ويعجل إلى خلوة به يطمئن فيها إليه وبه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وكيف لا يطمئن وقد عرفه وعرف قوته وغناه وشديد بأسه بمن عصاه وحسن مآب من والاه!

لكن البداية أن يعرف..

ومن ذاق عرف..

ومن عرف اغترف..

وحين يغترف فستظهر له إجابة السؤال الذي سأله نبي الله إبراهيم عليه السلام:

وَكَيْفَ أَخَافُ؟!

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام: ٨١].

وكذلك نحن علينا أن نسأل هذا السؤال لأنفسنا حين يقعد الشيطان بأطرقنا.

حين يخوفنا من الطاعة.

حين يرهبنا من الاستقامة.

حين يفزعنا من خيار التقوى.

حين يرعبنا من الهداية والحق.

حين يضع ذلك الخوف عائقا بيننا وبين الالتزام.

حينئذ علينا أن نجيب عن هذا التساؤل بصدق.

كيف نخاف؟

كيف نخاف الالتزام بينما يفترض أن نخاف أشياء أخرى تماما.

إن مخاوف الملتزم الأصل أن تكون مخاوف على دينه ومعتقده وحال قلبه مع ربه.

وهذا ما نفصل طرفا منه في الفصل القادم.

مخاوف الملتزم.

* * *

# الفصل الرابع
# المخاوف

**١ـ أعوذ بوجهك :**

في تلك الليلة قامت أم المؤمنين عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من نومها تلتمس رسول الله ﷺ فلم تجده جوارها .

بحثت عنه في البيت الصغير المتاخم للمسجد النبوي فلم تجده.

مدت يده تلتمسه في موضع صلاته المجاور لبيتهما في المسجد فوَقَعَتْ يَدِاها عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ بينما يردد دعاءً واحدا يكرره.

« **اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**» .

هذا الذكر النبوي يلخص حالة خاصة من تجرد القلب عن كل ما سوى الله جَلَّ جَلَالُهُ .

حالة يحتاج إلى تدبرها ومحاولة تذوقها كل سالك يبتغي مرضاة الله والاستقامة على مراده.

تستشعر أن الرسول ﷺ كان أثناء هذا الذكر الجامع لا يرى أثرا في هذه الحياة إلا لخالقه وخالق كل شيء .

فالرضا منه وحده يُطلب.

وحين يأتي الرضا يزيل السخط الذي منه يُستعاذ .

والمعافاة منه وحده تُرتجى.

وحين تأتي المعافاة تمحو آثار عقوبة منه تُتقى.

ثم في النهاية يلخص النبي ﷺ الأمر ببساطة جامعة مانعة.

يُستعاذ به... منه!

إنها الاستعاذة إذاً.

تلك الكلمة من كلمات العرب يستعملونها للتعبير عن الاستجارة والتحيز

إلى الشيء، على معنى الامتناع به من المخاوف؛ يقال: عذت بفلان واستعذت به؛ أي لجأت إليه وهو عياذي أي ملجأي.

وعاذ به يَعُوذُ عَوْذاً وعِياذاً ومَعاذاً: لاذ فيه ولجأَ إِليه واعتصم.

ومعاذَ اللهِ أَي عياذاً بالله.

التعوذ أو الاستعاذة إذاً = لوذ وفرار إلى ركن شديد يلجأ إليه المضطر أو الخائف من شيء ما سواء كان ماديا أو معنويا.

والخوف كما بيَّنا من قبل = شعور جبلي أو فطري وطبيعة الإنسان تقبل وجود قدر من الخوف لم ينكر الشرع وجوده.

لكن كعادة الشرع الحكيم أشار إلى سبل التعامل معه والسيطرة عليه وتوجيهه إلى مساره الصحيح بأن يكون خوفاً من الإله وحده كما أوضحنا سابقا.

ثم أن يلتجيء الإنسان لهذا الإله عند ورود هذا الخوف وذلك بالاستعانة والاستعاذة.

هذا ما ينبغي أن يفعله كل من أهمه شيء أو خوفه أمر ما..

وذلك الذي تكرر الأمر به في كتاب الله .

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

**[سورة الأعراف ٢٠٠]**

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ **[سورة النحل: ٩٨]**.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾**[سورة غافر: ٥٦]**

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

**[سورة فصلت: ٣٦]**

أوامر حاسم وواضح للنبي ﷺ ولمن تبعه.

عليكم بالاستعاذة.

استعاذة مطلقة كما في آية غافر واستعاذة محددة بمستعاذ منه وهو الشيطان كما في آية النحل.

ولقد ظهرت الاستعاذات في غير موضع من كتاب الله على لسان أنبيائه وأوليائه.

فعلى لسان نبي الله يوسف عليه السلام وردت الاستعاذة أكثر من مرة.

فحين راودته امرأة العزيز عن نفسه استعصم وتعوذ.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة يوسف: ٢٣].

وحين عرض عليه إخوته أن يأخذ أحدهم بدلا ممن وُجِد المتاع في رحله؛ تعوذ أيضا لكن من أمر معنوي وهو الظلم

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾

[سورة يوسف: ٧٨. ٧٩]

وحين عوتب نوح -عليه السلام- على شفاعته لولده الكافر تعوذ من سؤال ما ليس له به علم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [سورة هود: ٤٧].

وتعوذ موسى عليه السلام من الجهل حين رماه بنو إسرائيل باتخاذهم هزوا ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [سورة البقرة: ٦٧].

وتعوذت الصديقة مريم حين تمثل لها روح القدس بشرا سويا ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۝١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [سورة مريم ١٧ – ١٨].

أما حياة النبي وأذكاره وأدعيته فكانت حافلة بالاستعاذة وذلك بمعدلات يصعب جدا حصرها في مقال واحد لكنها جميعا تتصف بتلك الصفة التي تجلت في الاستعاذة التي صدرت بها هذا الفصل.

توحيد الوجهة الكامل والالتجاء الكلي والتوكل التام.

هكذا ينبغي أن يكون القلب حال الاستعاذة وذلك هو الأمر الأول الذي يستفاد من كثرة ما ورد من الاستعاذات النبوية.

المستعاذ به...

الله جَلَّجَلَالُهُ.

تلك الحالة الظاهرة من صدق الالتجاء إلى الله والاستجارة الكاملة به والتعلق المطلق بحماه في سائر الأحوال وفي مواجهة كل ما يهتم به القلب وينشغل البال وهذا لا ينشأ إلا من معرفة خالصة وقرب شديد من العلم بصفات الله وأسمائه ينتج عنه هذا التعلق والمسارعة للركون إليه.

حين يعرف المرء ربه حقا ويتعلم عن أسمائه الحسنى وصفاته العلى فستكون الاستعاذة حينئذ سجية والاستعانة تلقائية والتعلق بذلك أمر غير متكلف ذلك .

ذلك لأنه عرف الله..

الله القادر فهل تعجزه حاجته؟!

الله الكريم الغني فهل حاجته أعظم من غناه وكرمه؟!

الله القوي العزيز فلمن غيره يلجأ وبمن غيره يستعين ويركن؟!

لكي تترسخ تلك القيم في القلب على المستعيذ دوما أن يتذكر.

يتذكر نعمه وآلاءه .

يتذكر أسماءه وصفاته.

ويدعوه بها.

ويتذكر إنه حيي يستحيي أن يرفع عبده إليه يدي الضراعة فيردهما صفرا خائبتين.

ويتذكر إنه قريب...

وأنه يجيب.

يجيب المضطر ويكشف السوء ويفرج الكروب.

ويتذكر نماذج الذين وثقوا به ولجأوا إليه واستعاذوا به من قبله وهم موقنون؛ ماذا صنع لهم؟!

يتذكر من قال رب إني مغلوب فانتصِر..

ومن قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا..

ومن قال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير.

ومن قال أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين.

ومن قال وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا.

ومن قال رب اكفنيهم بما شئت وكيف شئت.

ومن قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة.

يتذكر هؤلاء وغيرهم ويتأمل كيف عاملهم ربهم وتلقى الغني القوي القدير الكريم دعاءهم ثم يستشعر أنه بدعائه الخالص واستعاذته الصادقة يسير في ركابهم وكلما أهمه أمر أو شغله شيء سارع إلى ما سارعوا إليه

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

هكذا سارعت امرأة عمران إلى حمى الاستعاذة حينما أهمها أمر ابنتها الوليدة وأملت في حسن استعمالها وقبول نذرها.

هكذا ينبغي أن يفعل كل من أهمه شيء أو خوفه أمر ما..

أما الأمر الثاني الذي ينبغي أن ينتبه إليه الناظر في تعوذات النبي ﷺ فهو المستعاذ منه.

تلك الأشياء التي حرص النبي ﷺ أن يغرس فيمن اتبعوه النفور منها وأن يلفت انتباههم إلى ضرورة الابتعاد عن سبلها والركون إلى حمى الملك لاتقائها.

فى صحيح الإمام مسلم عن عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ بِاسْمِ اللهِ ثَلَاثًا وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ** ».

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْبَرَصِ وَالْجُنُونِ وَالْجُذَامِ وَمِنْ سَيِّئِ الْأَسْقَامِ** ». [صحيح الجامع].

وعنه أيضا أن النَّبِيَ ﷺ كان يَقُولُ: « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ** » [متفق عليه].

* وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ**».

وعَنْ أَبِي الْيَسَرِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ التَّرَدِّي وَالْهَدْمِ وَالْغَرَقِ وَالْحَرِيقِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ فِي سَبِيلِكَ مُدْبِرًا وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَمُوتَ لَدِيغًا**». [صحيح الجامع].

* وعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنْ الْمَغْرَمِ فَقَالَ إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ وَعَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَسْتَعِيذُ فِي صَلَاتِهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ**».

وعَنْها أيضا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَّمَهَا هَذَا الدُّعَاءَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا**». [صحيح الجامع].

وعن سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ قال سَمِعْتُ خَوْلَةَ بِنْتَ حَكِيمٍ السُّلَمِيَّةَ تَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**».

وعن عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو أن رسول الله ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعِ**». [رواه أحمد وابن حبان].

وكانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا سافرَ يقولُ: «**اللَّهمَّ أنتَ الصَّاحبُ في السَّفرِ والخليفةُ في**

**الأَهلِ اللَّهـمَّ اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أَهلنا اللَّهـمَّ إني أعـوذُ بِـكَ مـن وعثاءِ السَّفرِ وَكآبةِ المنقَلَبِ ومـنَ الحـوْرِ بعـدَ الْكـورِ ومـن دعـوةِ المظلـومِ ومـن سـوءِ المنظرِ في الأَهلِ والمالِ»**. [سنن الترمذي].

هذه النماذج غيض من فيض وأمثلة محدودة معدودة لتعوذات النبي الكثيرة جدا والتي تعوذ بها من العديد من الأشياء والأحوال أمور.

أشياء بعضها مادي ملموس كما أشرنا وتلك أشياء من الطبيعي والمعتاد أن يخشاها المرء ويفر منها كما يفر من الأسد فبشاعتها ظاهرة وضررها معلوم.

كالفقر وغلبة الدين الأمراض والأسقام والأوجاع والتردي والهدم وشرور الخلق والغرق والحرق والموت لديغا.

أما تلك الأمور المعنوية فللأسف كثير من الخلق لا ينتبهون إلى كونها أمورا منفرة مبغوضة ينبغي عليهم أن يحرصوا على اتقائها والبعد عنها ومن أعظم ما يخرج به المتدبر لتعوذات النبي = تصحيح النظرة لهذه الأشياء.

العجز والكسل.

الجبن والبخل.

المأثم والمغرم.

الجهل والظلم .

تحول النعم وفجاءة النقم ودعوة المظلوم وقهر الرجال.

اقتراف السوء على النفس أو جره إلى مسلم.

نفس لا تشبع وعلم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعوة لا يستجاب له.

كل ما سبق تعوذ منه النبي مرارا وتكرارا ولا شك أن مجرد نفوره من تلك الأشياء ورغبته في اتقائها لم يكن الدافع الوحيد وراء ذلك الحرص على تكرار التعوذ منها لكنها الإشارة الواضحة الجلية لحقيقتها التي تغيب عن استيعاب الكثيرين.

كم من الخلق ينتبه إلى بشاعة العجز والكسل أو إلى خطورة الجبن والبخل؟!

كم من الخلق يدرك خطورة ما صنع «**أعوذ بك من شر ما صنعت**» أو يفهم

مدى بشاعة أنفس لا تشبع أو قلوب لا تخشع؟!

كم من الخلق ينتبه إلى شرور الأنفس وخطورة مسالكها؟!

تلك الأنفس التي تعد المتهم الأول في كثير من الجرائم التي وقع فيها البشر منذ بدء الخليقة.

تأمل معي أول جريمة قتل عرفها هذا المخلوق وانظر من المتهم الأول في القصة القرآنية ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾ [المائدة: ٣٠].

من الذي طوع لابن آدم تلك الجريمة؟

نفسه.

أيضا جريمة قتل الناقة آية الله لقوم صالح.

النفس هي المتهم الأول هنا كذلك.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾ [الشمس: ١١].

الهاء هنا تعود على من؟

على النفس في أول السورة ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧].

وماذا عن جريمة المراودة لنبي الله يوسف في قصته مع امرأة العزيز.

هي النفس مرة أخرى .

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ ﴾ [يوسف: ٥٣].

كذلك جريمة السامري الذي أخرج لبني إسرائيل عجلا يعبدونه من دون الله .

المتهم الأول هنا أيضا هو النفس.

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ [طه: ٩٦].

من سول له؟!

نفسه.

حتى الوسوسة التي هي من خصائص الشيطان الوسواس الخناس فإنها أيضا وردت في القرآن منسوبة للنفس .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق: ١٦].

من يوسوس هنا؟

نفسه.

والشح أيضا منسوب في القرآن للنفس .

﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النساء: ١٢٨].

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

إن مقام النفس في الإفساد محفوظ كما هو واضح في كثير من نصوص الوحيين.

لكن قليلا من الخلق من يتنبه لذلك فهنا يأتي التعوذ النبوي ليذكرنا بهذا العدو الذي يتخفى بين أضلعنا وذلك حين يردد في خطبة الحاجة: «**أنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا، ومن سيِّئاتِ أعمالنا**».

أو في صباحه ومسائه حين يقول: «**اللهمَّ فاطرَ السمواتِ والأرضِ عالمَ الغيبِ والشهادةِ لا إلهَ إلَّا أنتَ ربَّ كلِّ شيءٍ ومَليكَه أعوذُ بك من شرِّ نفسي ومن شرِّ الشيطانِ وشرَكِه وأنْ أقترفَ على نفسي سوءًا أو أجرَّهُ إلى مسلمٍ**».

[رواه الترمذي]

أما عن ذلك العدو الأخطر والذي كان له النصيب الأكبر من الاستعاذات النبوية تأولا للأمر الرباني المتكرر.

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

لقد استجاب الرسول ﷺ للأمر الرباني فأكثر الاستعاذة من هذا العدو ليس فقط بين يدي تلاوته للقرآن ولكن في سائر أحواله وأوقاته كان يستعيذ من الشيطان وشركه وهمزه ونفثه.

استبَّ رجلانِ عند النبيِّ ﷺ فجعل أحدُهما يغضبُ ويحمرُّ وجهُه فنظر إليه النبيُّ ﷺ فقال إني لأعلمُ كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجدُ لو قال أعوذُ بالله من الشيطانِ الرَّجيمِ.

السلسلة الصحيحة.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال كان رسول الله إذا دخل المسجدَ قال أعوذُ

باللهِ العظيمِ وبوجهِه الكريمِ وسلطانِه القديمِ من الشيطانِ الرجيمِ قال أقطُّ ؟ قلتُ: نعم. قال فإذا قال ذلك قال الشيطانُ: حُفِظَ مني سائرَ اليومِ.

[رواه أبو داود وصححه الألباني]

وعن أبي سعيد الخدري كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبر ثم يقول. . . كان إذا قام من الليل كبر . . . ثم يقول: «**لا إله إلا الله ثلاثا ثم يقول الله أكبر كبير ثلاثا أعوذبالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه ثم يقرأ**».

هذه التعوذات وغيرها كثير يلخص من خلالها رسول الله تلك الحقيقة التي ينبغي أن تستقر في الأنفس ويستوعبها قلب المسلم.

حقيقة العداوة الراسخة بين هذا المخلوق وبين هذا الجنس البشري.

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

[سورة فاطر: ٦]

فاتخذوه عدوا.

هذا هو التكليف تجاه الشيطان.

العدو المتربص المحارب الذي لا يرضى من بني آدم بأقل من الكفر وما أدى إليه.

عدو على سعة حيله وتنوعها إلا أن كيده ضعيف بنص القرآن.

﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾.

تلك هي الحقيقة التي يعلنها الشيطان نفسه في خطبته بجهنم إذ يقول فيها مبينا مدى ما يستطيعه ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾.

[إبراهيم: ٢٢]

مجرد دعوة وسوسة لا تجاوز الصدور .

ولكن كما أن كيد الشيطان كان ضعيفا فإن الله قد بين أيضا في نفس السورة -النساء- أن الإنسان خُلق ضعيفا كما يظهر في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨].

وضعف الإنسان الجبلي في مواجهة كيد الشيطان -الضعيف أيضا- قد

يورث تسلط الأخير وتمكنه من نفسه ليصير في النهاية عبدا له وأحد أتباعه وأوليائه.

إلا أن من رحمة الله بالإنسان أن جعل له ركنًا شديدًا يأوي إليه وملاذًا عظيمًا يتحصن به وهو ملاذ التعوذ بالقوي العزيز.

من دون ذلك التحصن والالتجاء إلى جنب الله قد يصير أقوى الأقوياء فريسة سهلة لعدوه المتربص .

بل لكل عدو مادي أو معنوي علمتنا تعوذات النبي ﷺ ضرورة اتقائه.

ضرورة الاستعانة والاحتماء والالتجاء والركون والانحياز .

لذلك ولأجل خطورة الشيطان والنفس كانت أخطر الاستعاذات في نظري وأحد أكبر مخاوف أهل التدين والاستقامة فتلخصه تضرعات النبي ﷺ كلما خرج من بيته .

ما خرج النبيُّ ﷺ من بيتي قَطُّ إلا رفع طَرْفَه إلى السماءِ فقال: «**اللهم أعوذُ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ أو أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ أو أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عَلَيَّ**».

كانت هذه كلمات أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها تصف شيئا من تعوذات النبي ﷺ.

شيئا مما يحزبه ويحمل همه ويستجير بربه منه.

تأمل لحظات في محتوى ذلك التعوذ..

تخيل أفضل الخلق وسيد ولد آدم ﷺ يخشى الفتنة والزلل.

يحمل هم الضلال بعد الهدى.

الابتعاد بعد القرب .

الحور بعد الكور.

لقد كان رسول الله ﷺ إذا سافر قال: «**اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، والحور بعد الكور، ودعوة المظلوم وسوء المنظر في الأهل والمال**» رواه مسلم.

تأمل مرة أخرى لفظه.

«**اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور**».

قال الإمام السندي في حاشيته: «والكور لف العمامة وجمعها والحور نقضها، والمعنى الاستعاذة بالله من فساد أمورنا بعد صلاحها كفساد العمامة بعد استقامتها على الرأس».

وفسّر الإمام الترمذي الحور بعد الكور بالرجوع من الإيمان إلى الكفر أومن الطاعة إلى المعصية.

وقال المباركفوري: «أي النقصان بعد الزيادة وفساد الأمور بعد صلاحها».

جميع ما سبق يصب في معنى واحد يفترض أنه يمثل أعتى مخاوف من استقام يوما على طاعة الله .

أن يخشى تبدل حاله من الحسن إلى السيئ.

أن يحمل هم ضعف إيمانه ووهن يقينه.

أن يخاف نقصان عمله الصالح الذي اعتاد عليه.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله عز وجل .

ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار.

**تأمل المقارنة.**

أن يترك دينه وأن يعود لجاهلية كان عليها أيـًا كان فحواها = فكأنما يحترق حيا عن طيب خاطر.

ياله من خوف ينم عن شعور بالقيمة.

قيمة الإيمان والطاعة وحتمية الحفاظ عليهما في جوف العبد.

لذا كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اللهم يا مقلِّب القلوب ثبّت قلوبنا على دينك**» (رواه الترمذي وأحمد والحاكم وصححه الألباني).

لأنه لو لا تثبيت الله ما ثبت أحد على دين أو معتقد أو فضل أو طاعة.

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [سورة الإسراء: ٧٤ – ٧٥].

من هنا يأتي ذلك الخوف الأكبر للملتزم والمستقيم والصالح والمتنسك.

خوف الانسلاخ من كل ذلك ومفارقته.

**٢. فانسلخ:**

تلك الحسرة البغيضة وهذه الغصة المريرة وذلك الألم القاسي الذي يعرفه جيدا كل من ذاق يوما وعرف..

ثم لم يغترف..

يعرفه كل من أبصر الطريق وأضاء له فمشى فيه ثم إذا أظلم عليه قام وولَّى وأدبر واستكبر.

يعرفه كل نكص على عقبيه واختار حوراً بعد كور وإعراضا بعد إقبال وتدنٍ بعد ارتقاء وبدّل نعمة الله وحشةً ونفورا وازدراء.

ثم ذاق في الدنيا ضنكا وذلا وبُعداً بعد اقتراب.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٦].

تلك الحسرة والغصة والألم والضنك = هي نتائج معتادة ومتوقعة ومتكررة ينبغي أن تجعلك تفكر كثيرا قبل أن تختار طريقها طوعا وتسلك سبيلها بإرادتك حين تتخذ هذا القرار المؤلم.

قرار الانتكاس.

هذا المآل الذي يفترض كما أوضحنا أن يكون أكبر مخاوف من وفق لطاعة وقرب واستقامة.

من وفق للالتزام.

حينئذ يسأل الله من قلبه أن يثبته.

ويتعوذ بضراعة من ذلك الخطر.

من الحور بعد الكور.

من السلب بعد العطاء.

من التغيير للأسوأ ومن التبديل والتلون وروغان كروغان الثعلب.

من زوال النعمة.

وأعظم تلك النعمة = آيات الله .

مكانة عظيمة؛ تلك التي يبلغها من أوتي آيات الله.

ووصف مهيب وتزكية ربانية لا تدانيها تزكية مخلوق أو مدح فانٍ.

﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥].

بذلك الوصف وتلك التزكية افتتح الله تلك القصة المهمة من قصص القرآن والتي هي رغم قصرها تلخص ذلك المآل المخيف.

مآل المنسلخ من آيات ربه المنتكس عن طريق هدايتها.

الوصف والتزكية ابتداءً قيل إنهما في حق عالم كان مع القوم الجبارين الذين سكنوا الأرض المقدسة في الفترة التي أُمر فيها بنو إسرائيل بدخولها ولقد روي أن صاحب الوصف كان من العلماء الربانيين أطلعه الله على اسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى.

لكن ثمة كلمات قرآنية معدودة كانت تفصل بين هذا الوصف الشريف وتلك التزكية العظيمة وبين النقيض تماما فبعد أن كان الوصف شريفا والتزكية ظاهرة تحول كل ذلك إلى وصف آخر وضيع وصار مثله كمثل كلب يسيل اللعاب النجس من بين شدقيه.

وبعد أن كان كريما عالي الدرجات بعلمه صارت الغواية نعته والانسلاخ حاله والخزي مآله.

ذلك لأنه غيَّر وبدَّل ولم يرع للنعمة حقها ولم يعرف للعلم مقامه ولا للآيات التي في صدره قدرها ففرط فيها واختار أن يخلد إلى الأرض ويتقلب في ترابها الحقير ويلهث خلف شهواتها الدنيئة.

ببساطة = انتكس.

إنه بلعم بن باعوراء...

وقيل بلعام.

ذلك هو اسم هذا العالم من القوم الجبارين الذين سكنوا الأرض المقدسة إبان بعثة نبي الله موسى عليه السلام.

ولقد ورد ذكر ذلك في بعض الآثار بعضها من الإسرائيليات التي نهينا عن تصديقها بإطلاق أو تكذيبها بإطلاق وورد كذلك في بعض الآثار عن الصحابة والتابعين منهم ابن عباس رضي الله عنهما ان هذا الرجل رغم علمه بآيات الله وقيل علمه باسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب = قد أغراه قومه ليستعمل علمه الذي آتاه الله إياه في صدّ نبي الله موسى وقومه عن دخول الأرض المقدسة.

لكـن الرجـل عـالـم بآيـات الله ومـدرك بوضـوح أن موسـى عليـه السـلام نبـي مكلم وأنه على الحق.

إلا إنـه وعلـى الـرغم مـن كـل ذلـك سـقط في الفـخ وضـعف أمـام إغـراءات الجبارين وقرر أن يستعمل علمه في صدِّ الحق والترسيخ للباطل بل والأدهى أنـه أقدم على دعاء الله بأن ينهزم نبيه وأتباعه وأن يولوا الأدبار أمام القوم الجبارين.

ولقـد ورد في الأثـر أنـه فشـل في مسـعاه وكلمـا حـاول أن يـدعو علـى موسـى صرف الله لسانه فدعا لموسى وقومه وكلما دعا لقومه الجبارين صرف الله لسانه فدعا على قومه حتى تدلى لسانه كالكلب اللاهث.

لكنه لم يستسلم ولجأ إلى الحيلة والخديعة واستعمل علمه ومكره في الصـد عن سبيل الله ونصرة الباطل وأهله = فقال لقومه أطلقوا علـيهم نسـاءكم مزينـات يروادن جند موسى عن أنفسهم فلئن فشت الفاحشة في جيش لـم ينصرهـم الله.

وقد كان..

وبالفعـل وقـع كثيـر مـن بنـي إسـرائيل في المحظـور واسـتحبوا شـهوة الـدنيا العاجلة وأبوا أن يطيعـوا أمـر ربهـم ونبـيهم ثـم قـالوا كلمـتهم الشـهيرة: إنـا هاهنـا قاعدون؛ فكتب عليهم التيه كما في القصة المعروفة.

بغض النظر عن حقيقة القصة وهل صحت الآثار التي تتحدث عن بلعام بن بـاعوراء أم أنهـا مجـرد إسـرائيليات تُـروى استئناسـا = فـإن مـا يعنينـي في هـذه السطور هو النموذج المخيف الذي تطرحه الآيات.

وهذا هو المناط الأهم في قصص القرآن وشخصياته.

النماذجية التي تميز أبطال تلك القصص.

هاهنا نموذج منتكس.

عالـم فاسـد كـان مـن الممكـن أن يظـل مـن أرفـع النـاس شـأنا فـإن الله يرفـع بآياته أقواما ويضع بها آخرين كما ثبت عن الصادق الأمين.

لكنه أبى!

واختار التدني والتقلب في دركات الوحل وانسلخ...

لقد انسلخ بلعام.

انسلخ ذلك العالم الذي أوتي آيات ربه وذاق نعمته فلم يرعها حق رعايتها

انسلخ عن آيات ربه التي فُضل بها وأُكرم بأن رزقها.

تأمل اللفظ القرآني.

انسلخ.

الانسلاخ مصطلح يعبر به عادة عن مفارقة الجلد للحم لكنه ورد هنا في معرض الحديث عن مفارقة العبد لآيات ربه.

وكأن في ذلك إشارة لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين المرء وآيات ربه التي أوتيها.

علاقة قرب واتصال وثيق وتماسك شديد كما يكون الاتصال بين الجلد واللحم!

من ذلك يتبين معنى قولهم: «**دينك دينك لحمك دمك**».

ويعبر بكلمة السلخ كذلك عن استلال الليل من النهار ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ [يس: ٣٧] وهي حركة بطيئة تدريجية كما أن انسلاخ الجلد عن اللحم يكون تدريجيا بطيئا.

وكذلك انتكاس المرء عن آيات ربه لا يحدث فجأة ولكنه ينسلخ عنها رويدا رويدا دون أن يشعر!

فيتساهل تارة..

ويتميع تارة أخرى..

ويقصر مرة ثم يتبعها مرات..

حتى يستمرىء الاجتراء ويتهاون في شأن الحرمات ولئن لم يستنقذ نفسه ويمن عليه ربه بيقظة تنبهه أو موعظة يستفيق بها فقد يتم الانسلاخ ويكتمل الانتكاس.

حينئذ سيجد عدوه في انتظاره ليجهز عليه.

وبعدها لن يكون وصفه كما كان قبلها.

سيكون من الغاويين بعد أن كان من العلماء العاملين.

﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [**الأعراف: ١٧٥**].

وفي قصة بلعام وجريمة الانسلاخ عن آيات الله يوجد متهمان.

المتهم الظاهر والمعين هو الشيطان.

﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: ١٧٥].
لكنه ليس المتهم الأول أو الرئيسي.
إن دوره هاهنا تابع أو ثانوي .
من الذي انسلخ ابتداءً؟!
من الذي أخلد إلى الأرض؟!
من الذي اتبع هواه؟!
من الذي لم يرتفع بما أوتي من الآيات؟!
إنه هو. .
هو الذي اختار.
هو من انسلخ.
هو من أخلد إلى الأرض.
هو من اتبع هواه.
هو من قرر التخلي والتنازل عن آيات ربه.
هو من غيّر وبدّل.
ثم جاء دور الشيطان بعد ذلك.
إنها إذاً جريمة أخرى من جرائم البشر لا يلعب الشيطان دور البطولة المطلقة فيها.
بل ثمة متهم آخر كما هو واضح.
النفس.
وهواها.
ولو شئنا لرفعناه بها...
ولكنه أخلد إلى الأرض.
واتبع هواه.
كان هذا هو اختيار ذلك المنتكس.
اختار هذا المنتكس الأرض.
فضَّل الهوى.
آثر الدنيا.

ركن إلى الشهوة.

لقد اختار كل ذلك بدلا من الرفعة والسمو وقد كان يملك أسبابهما.

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ تعالى يَرفَعُ بهذا الكِتابِ أَقوامًا، ويَضَعُ بِه آخَرينَ**» [صحيح الجامع].

هكذا آيات الله ترفع أقواما وتضع آخرين.

وأن تؤتى آيات الله فذلك = أعظم أسباب الارتفاع والسمو.

وأن تتخلى عنها وتنسلخ منها فذلك = الدنو والتمرغ في وحل الأرض ومخاضة الانتكاس والتنازل والتفريط.

ولئن لم يُتغمد المنغمس في تلك المخاضة برحمة من ربه تعينه على تدارك أمره والتعلق بحبالها للخروج من دنس تلك المخاضة المغرقة الجاذبة فإنه سيخلد إلى الأرض وسيغوص ويغوص إلى القاع.

وما أدراك ما القاع.

لتدرك طبيعة ذلك القاع تأمل جيدا إلى أي مدى غاص برصيصا «العابد» وبلعام «العالم»

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

[سورة الحشر: ١٦ – ١٧]

تأمل واستعذ وابحث عن حبائل رحمة تتعلق بها لعلها تنتشلك يوما ما من قاع تلك المخاضة.

وإن أعظم حبل تتمسك به كي تنجو من الغرق في وحلها = حبل الله الممدود.

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**كتابُ اللهِ، هو حَبْلُ اللهِ المَمْدُودُ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ**» [صحيح الجامع].

فهل تمسكت به؟!

عليك أن تفعل وإن كنت قد فعلت فاثبت.

إن عالما كالذي نتحدث عنه في هذه السطور = أوتي آيات الله ابتداءً فصار مثله ككلب يلهث انتهاءً!!

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾.

[الأعراف: ١٧٦]

هذا أحد أهم وأخطر الأمثال القرآنية على الإطلاق.

تشبيه المنسلخ عن آيات ربه المنتكس عن تدينه وما أنعم مولاه عليه به من طاعة قرب بالكلب.

لكن لماذا الكلب تحديدا؟!

ألأن حاله إزاء الشهوات ولهاثه الدائم وراءها بعد أن استسلم لها وأخلد لسحرها أول مرة = يشبه حال الكلب اللهاث دائما وراء شهواته المجترح دوما لملذاته الذليل لغرائزه ومرجواته؟!

أم أن مشهد ذلك المنتكس بعد الانتكاس يطابق في عنته وعدم ارتياحه مشهد اللهاث الدائم الذي لا ينقطع مع كل حال سواء كان الكلب جائعا أو شبعان، مرتويا أو عطشان، مزجورا أو متروكا؟

هو دائما يلهث..

لا يرتاح من اللهاث أبدا ولا تجده هادئا ساكنا كسائر الحيوانات التي لا تلهث إلا إن جاعت أو سعت مسرعة لشيء أو فرَّت من شيء.

أما الكلب وشبيهه المنتكس فلا سكن ولا هناء.

ولا ارتياح..

فقط تلك الحسرة البغيضة والغصة المريرة وذلك الألم القاسي الذي تحدثنا عنه آنفا ويعرفه جيدا كل من ذاق وعرف ولم يغترف..

يعرفه كل من أبصر الطريق وأضاء له فمشى فيه ثم إذا أظلم عليه فقام وولَّى وأدبر واستكبر.

يعرفه كل نكص على عقبيه واختار حوراً بعد كور وإعراضا بعد إقبال وتدنٍ بعد ارتقاء وبدّل نعمة الله وحشةً ونفورا وازدراء فذاق في الدنيا ضنكا وذلا وبُعداً بعد اقتراب.

تلك الحسرة والغصة والألم والضنك = هي نتائج معتادة ومتوقعة ومتكررة ينبغي أن تجعل المرء يفكر كثيرا قبل أن يختار طريقها طوعا ويسلك سبيلها بإرادته حين يتخذ هذا القرار المؤلم ولو تدريجيا.

قرار حياة تشبه حياة الكلاب ولهاث يحاكي لهاثهم.

كم في حياتنا من هذا النموذج المؤسف المخيف.

نموذج بلعام.

ذلكم المنتكس المنسلخ الذي نتحدث عنه.

كم في حياتنا من مثله سواء صرحوا أو لم يفعلوا.

بل كم في مراحل حياة الواحد منا من مثله؟!

قبل سنوات كان البداية .

بداية كان قلب هذا الشاب متقدا بالحماس وعيناه دوما مستعدة لذرف دمعات ساخنة.

دمعات ندم وتوبة على فات واشتياق لما هو آت وخشية من حساب بعد الممات.

كان ورعا يترك المشتبهات مخافة الوقوع في المحرمات .

وكان شديد الحرص على إرضاء مولاه راميا بسهام خير في كل مرمى لا يحقر عبادة ولا يقلل من شأن قربى ولا يسمع عن باب طاعة إلا سابق إليه.

كان إذا سمع النداء هب مسارعا للإجابة وإن فاتته الجماعة حزن واستغفر وعاهد الله ألا تفوته بعدها .

ما غضب يوما من نصح ولا استكبر على ناصح بل كان هينا لينا في أيدي إخوانه محبا لهم راغبا في صحبتهم حريصا على مودتهم متلهفا للقياهم والاجتماع بهم في حلق العلم ومواطن الخير.

كم كان رقيق القلب قريب التأثر وقافا عند حدود الله كم كان شغوفا بكتاب ربه مقبلا على حفظه وتلاوته وصحبته مشتاقا إلى حمله كاملا في صدره متخلقا به في جوارحه .

وكم كان غيورا على حرمات ربه مهموما بأمر أمته حريصا على رفعتها وراغبا في صلاح حالها وهداية أبنائها.

كم كان رائعا!

لكن.. ماذا أصابه الآن؟

الشكل هو هو .

والهيئة تشبهه .

لكن العينين مختلفتان!!

بريق الحماسة قد انطفأت جذوته في مقلتيه حتى كادت تخبو .

نعم هو نفس السمت إلا أنه صار كأنما هو قشرة تكاد تتشقق وعند أول محك تتصدع لتظهر عندئذ من تحت تلك القشرة أخلاق قديمة ظن أنها قد اندثرت منذ زمن بعيد.

هل انسلخ؟!

لقد صارت دمعاته عزيزة واختلاجات قلبه عند الموعظة نادرة وصار الامتثال وتصحيح المسار أملا بعيد المنال.

أين مصحفه صغير الحجم الذي ما كان يفارق يده أو جيبه؟

أين مسواكه وأوراده ونوافله؟

بل أين فرائضه؟!

ها هو النداء يعلو داعيا للفلاح لكن الهبة القديمة قد اختفت وحل محلها التثاؤب واستبدلت بالمعاذير والشواغل وها هي معايب إخوانه قد تبدت إليه وتعاظمت في عينيه ليحل التربص محل المودة ولتستبدل الأحقاد بالمحبة الإيمانية القديمة.

ماذا حدث؟

ماذا دهاه؟

أفطال عليه الأمد فقسى قلبه وجفت عيناه وتبلدت مشاعره وبلي ثوب الإيمان في جوفه؟

أم أنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه وأسلم القياد لنفسه الأمارة وعدوه اللدود فانسلخ من الآيات التي أوتيها وصار من الغاويين.

معقول؟!

ولماذا؟!

ما الذي غيره؟ وما الذي يستحق؟ وماذا ينتظر ليعود؟! وهل يضمن أن يمهل ليعود؟!

يعود لأيام البدء وما أجملها من أيام.

ألم يأن بعد أن يعود إليها؟

وماذا عن صديقه؟

هل هو (بلعام) آخر؟

ذلك الذي كان جُل كلامه منذ أعوام ينضح بذكر الله وطيب القول.

كنت لا تخطىء حسن سمته وضبط ألفاظه وحرصه على قول التي هي أحسن.

وإذا ندت منه غفلة وغلبت عليه لفظة من ميراث ما قبل الاستقامة بحكم العادة فإنه كان يسارع للاستغفار معتذرا في حياء.

لقد ظل هكذا أعواما يجاهد لسانا يُكَب الناس على وجوههم يوم القيامة بحصائده ويضبط كلمات الواحدة منها في سخط الله فد تهوي به في النار سبعين خريفا.

ثم استقام له لسانه وانضبطت كلماته وصار لا يعرف منه إلا الخير وإن لم تصبك منه ريح طيبة فلن يؤذي مسامعك من جهته لفظ خبيث.

لكنه اليوم صار شخصا آخر.

نادرا ما تمر عبارة من عباراته سالمة .

لابد من ختم البذاءة في كل جمله أو جلها.

لابد من تلميح إباحي هنا أو إشارة جنسية هناك أو سب والديْن هنالك أو لفظ خارج كان يوما إذا سمع أهون منه احمر وجهه وحمد بلسانه وقلبه ربا عافاه مما ابتلي به غيره.

اليوم صارت مرادفاته فاجرة ومفرداته ماجنة ونعوت عباراته سافلة وتراكيبه فاحشة ومزحاته بذيئة فاسقة.

نادرا ما تلمس في كلامه ذكرا لمولاه أو تصادف في تعليقاته تذكيرا بالله أو تجد في عبارته رفقا ومناجاة .

لا تكاد تجد ثمة فارق بين ما يقول أو يكتب وبين ما يتكلم به أهل الفسق العتاة.

من هذا؟

ماذا دهاه؟

ماذا تغير في وسيلته ومبتغاه؟

أين حسن سمته وطيب مسعاه؟

هل نادى منادٍ من السماء أن البغي اللفظي حلال والبذاءة مستحبة والفحش مستحسن والاستطالة في الأعراض لم تعد أربى الربا فلما سمع ذاك المنادي سارع إلى تلك البضاعة المزجاة؟

أم تراه قد زال عنه التكليف ورفع عنه القلم؟

أم أنها لعنة بلعام وقرار بلعام.

لعنة الانتكاس.

وقرار الانتكاس.

إن نموذج بلعم أراه أحد أخوف النماذج التي ذكرت في القرآن وأشدها إثارة للاعتبار والتأمل.

وهو أيضا من أكثرها منطقية ووضوحا.

ذلك بأن الجاهل قد يعذر بجهله إن زل أو ضل.

لكن طائع قد رزق العلم بآيات الله يتخلى عما أوتي من الفضل ويتنكر لما حباه به ربه من العلم ويترك السبيل الذي عرفه وخبره وفقهه = فتلك هي المصيبة التي يتناسب معها ثقل المثال والتشبيه.

التشبيه بالكلب..

إن عظم المكانة والدرجة يستلزم تعاظم المسؤولية والتكليف ولئن تخلي من أوتي آيات الله عن تلك المسؤولية فمن يقوم بها إذاً؟!

فكيف وإن لم يتخل فقط بل يضل غيره ويستعمل علمه وبيانه في تزيين الخلل والقصور.

إنها تلك الآيات تظل نموذجا لكل من آتاه الله علما وأكرمه بآياته فنأى عنها وأعرض واستبدلها بعرض زائل فصار في النهاية مجرد.

كلب...

كلب يلهث!

أو بشكل أبسط = صار منتكسا.

لكن هل الانتكاس ظلام دامس وليل حالك بإطلاق؟

ألا يوجد أي سبيل للرجوع بعد رحيل طال وإياب بعد نفور وإعراض؟

الحقيقة يوجد.

السبيل سهل يسير على من يسره الله عليه بشرط أن يصدق حقا في طلبه بدلا من أن يركن لحاله ويزين مآله ويظل في تلك الحالة من خداع النفس والتبرير الدائم والإنكار المحموم لحقيقة ما صار إليه.

حقيقة الانتكاس.

نعم الخطوة الأولى أن يشخص تشخيصا صائبا وأن يعترف بحالته.

عندئذ يسهل عليه سلوك سبيل العلاج.

وهذا السبيل يتلخص في كلمة واحدة.

العودة..

فقط العودة!

هو قرار كما الانتكاس قرار وكما قلنا في البداية أن الالتزام كان قرارا أيضا.

العودة للالتزام هي قرار يُتخذ دون النظر لأي اعتبارات أو تخويفات يجيد الشيطان إلقاءها في روع ابن آدم ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾.

[آل عمران: ١٧٥]

يخوف من؟!

أولياءه.

فقط أولياءه.

وأنت لست منهم أليس كذلك؟!

السبيل إذاً واضحة لا لبس فيها

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦].

هكذا سأل رب العزة عباده.

وهكذا ينبغي أن يسأل المبتعد نفسه ليعود.

أين أذهب؟!

وهل لي رب سواه؟!

فإلى من أفر وألجأ؟!

الإجابة واحدة لا تتعدد.

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

حين يدرك المبتعد ذلك فلا يتبقى إلا القرار والعزم.

فإن فعل ثم نكص وانتكس = فليعد من جديد!

هكذا ببساطة.

فليعد من جديد.

بدلا من أن ينفق جهده في التبرير والتسويغ والتهوين والتزيين فليوقف كل ذلك فورا ويعترف أنه قد ابتعد.

وليعد.

حينئذ سيجد باب ربه مفتوحا لا ينغلق حتى تطلع الشمس من مغربها أو يغرغر.

وهو سبحانه يقبل.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.
[الشورى: ٢٥]

فماذا ينتظر المبتعد وأي عائق يبطىء الراحل عن الرجوع؟

متى يقرر المنتكس ببساطة = ألا ينتكس؟

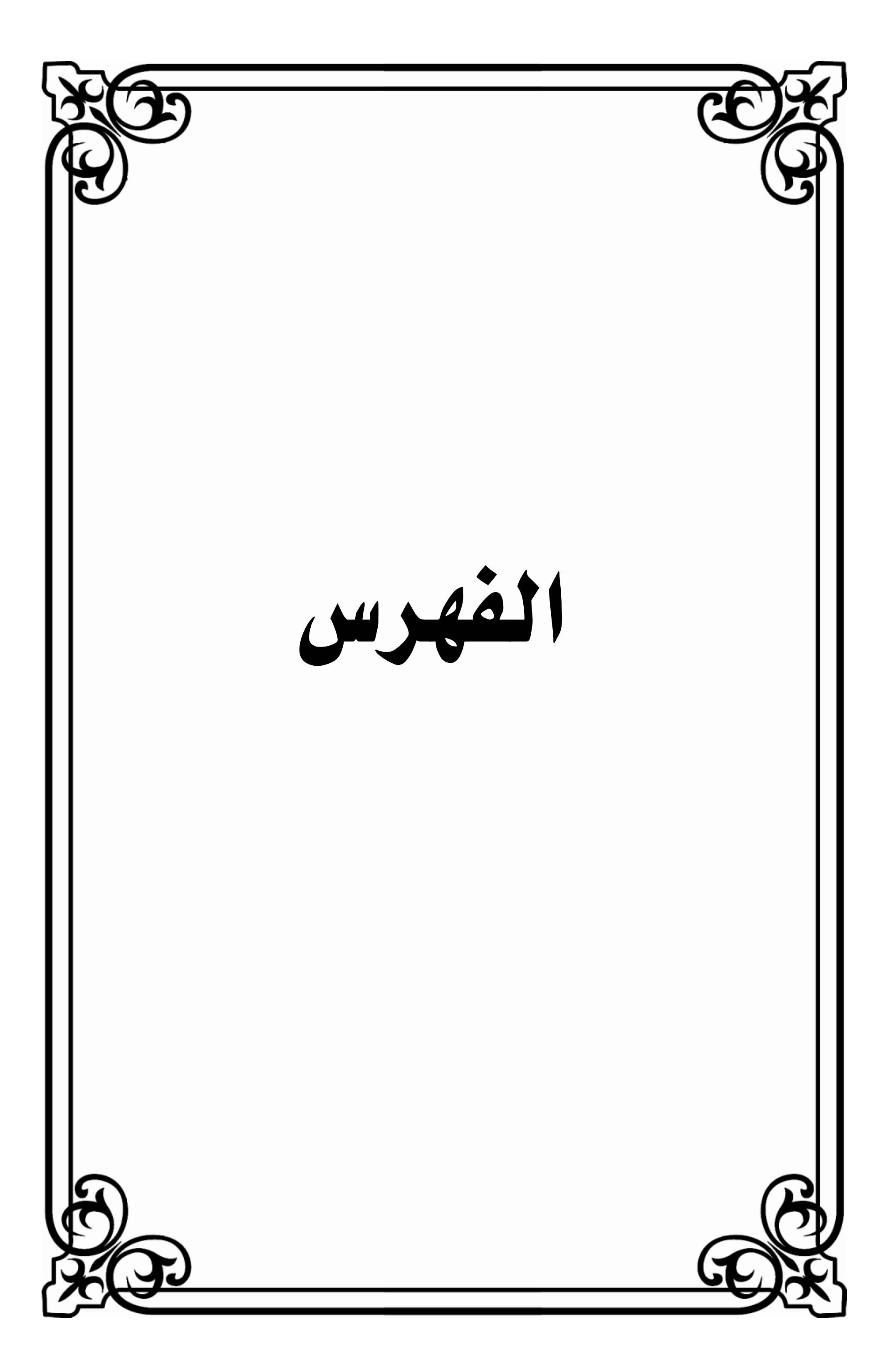
متى يعود إلى ما كان عليه؟

مستقيم متسنن متنسك صالح طائع.

أو ما لخصناه بتلك الكلمة التي كانت يوما جامعة معبرة.

كلمة الالتزام.

* * *



# الفهرس

# الفهرس

١ .غدا الذي لا يأتي

٢.لما ربنا يهدي

٣.ظروف

٤.الباحث عن الحق

٥.يا عزيزي لسنا كلنا لصوصا

٦.عادي

٧ .سلطة الجموع الضاغطة

٨.انهيار القدوة

٩.مصاصو الديانة

١٠ .منفرون

١١.فظ غليظ

١٢.مكفهر

١٣ .متمسكن

١٤ .أعداء الجمال

١٥ .الحرام والحرام

١٦ .تميع

١٧.إلا ما أرى

١٨.سوبر ملتزم

١٩ الهاربون من الحياة

٢٠ .أم أنا خير..

٢١.مغتربون

٢٢.وتظنون الظنونا

٢٣ .البحث عن السعادة

* * *